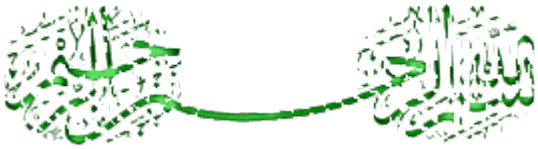

مُخْتَصَرُ سِيْرَةِ الْرَّسُوْلِ صَلَّىَ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِشَيخِ الإِسلامِ محمَّدِ بْنِ عَبدِ الوَهَّابِ رَحمِهُ اللهُ تَعَالَى

[مقدمة الكتاب]

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

<3> الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ وَصَلّى اللّهُ وَسَلّمَ وَبَارَكَ عَلَى مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ اعْلَمْ رَحِمَك اللّهُ أَنّ أَفْرَضَ مَا فَرَضَ اللّهُ عَلَيْك مَعْرِفَةُ دِينِك . الّذِي مَعْرِفَتُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنّةِ وَالْجَهْلُ بِهِ وَإِضَاعَتُهُ سَبَبٌ لِدُخُولِ النّارِ .

وَمِنْ أَوْضَحِ مَا يَكُونُ لِذَوِي الْفَهْمِ قَصَصُ الْأَوّلِينَ وَالْآخِرِينَ قَصَصُ مَنْ أَطَاعَ اللّهُ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ وَقَصَصُ مَنْ عَصَاهُ وَمَا فَعَلَ بِهِمْ . فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْ ذَلِكَ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ فَلَا حِيلَةَ فِيهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (50 :ـ 36) ـ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ .

وَقَالَ بَعْضُ السّلَفِ " الْقَصَصُ جُنُودُ اللّهِ " يَعْنِي أَنّ الْمُعَانِدَ لَا يَقْدِرُ يَرُدّهَا .

فَأَوّلُ ذَلِكَ مَا قَصّ اللّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ آدَمَ وَإِبْلِيسَ إلَى أَنْ هَبَطَ آدَمُ وَزَوْجُهُ إلَى الْأَرْضِ . فَفِيهَا مِنْ إيضَاحِ الْمُشْكِلَاتِ مَا هُوَ وَاضِحٌ لِمَنْ تَأَمّلَهُ . وَآخِرُ الْقِصّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى (2 :ـ 38 ، 39) ـ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالّذِينَ كَفَرُوا وَكَذّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (20 : 133 - 137) ـ فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا - إلَى قَوْلِهِ - وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدّ وَأَبْقَى .

وَهُدَاهُ الّذِي وَعَدَنَا بِهِ هُوَ إرْسَالُهُ الرّسُلَ . وَقَدْ وَفَى بِمَا وَعَدَ سُبْحَانَهُ فَأَرْسَلَ الرّسُلَ مُبَشّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللّهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرّسُلِ . <4> فَأَوّلُهُمْ نُوحٌ . وَآخِرُهُمْ نَبِيّنَا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ وَسَلّمَ .

فَاحْرِصْ يَا عَبْدَ اللّهِ عَلَى مَعْرِفَةِ هَذَا الْحَبْلِ الّذِي بَيْنَ اللّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ الّذِي مَنْ اسْتَمْسَكَ بِهِ سَلِمَ وَمَنْ ضَيّعَهُ عَطِبَ . فَاحْرِصْ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا جَرَى لِأَبِيك آدَمَ وَعَدُوّك إبْلِيسَ وَمَا جَرَى لِنُوحٍ وَقَوْمِهِ وَهُودٍ وَقَوْمِهِ وَصَالِحٍ وَقَوْمِهِ و إبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ وَمُوسَى وَقَوْمِهِ وَعِيسَى وَقَوْمِهِ وَمُحَمّدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ وَسَلّمَ وَقَوْمِهِ .

وَاعْرِفْ مَا قَصّهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ أَخْبَارِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَوْمِهِ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَهُمْ فِي مَكّةَ ، وَمَا جَرَى لَهُ فِي الْمَدِينَةِ .

وَاعْرِفْ مَا قَصّ الْعُلَمَاءُ عَنْ أَصْحَابِهِ وَأَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ . لَعَلّك أَنْ تَعْرِفَ الْإِسْلَامَ وَالْكُفْرَ . فَإِنّ الْإِسْلَامَ الْيَوْمَ غَرِيبٌ وَأَكْثَرُ النّاسِ لَا يُمَيّزُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفْرِ . وَذَلِكَ هُوَ الْهَلَاكُ الّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ فَلَاحٌ .

وَأَمّا قِصّةُ آدَمَ . وَإِبْلِيسَ فَلَا زِيَادَةَ عَلَى مَا ذَكَرَ اللّهُ فِي كِتَابِهِ . وَلَكِنْ قِصّةُ ذُرّيّتِهِ . فَأَوّلُ ذَلِكَ أَنّ اللّهَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ أَمْثَالَ الذّرّ وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ الْعُهُودَ أَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (7 : 172) ـ وَإِذْ أَخَذَ رَبّك مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرّيّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا وَرَأَى فِيهِمْ الْأَنْبِيَاءَ مِثْلَ السّرُجِ . وَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا مِنْ أَنْوَرِهِمْ . فَسَأَلَهُ عَنْهُ ؟ فَأَعْلَمَهُ أَنّهُ دَاوُد . فَقَالَ كَمْ عُمْرُهُ ؟ قَالَ سِتّونَ سَنَةً . قَالَ وَهَبْت لَهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً وَكَانَ عُمُرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ . وَرَأَى فِيهِمْ الْأَعْمَى ، وَالْأَبْرَصَ وَالْمُبْتَلَى . قَالَ يَا رَبّ لِمَ لَا سَوّيْت بَيْنَهُمْ ؟ قَالَ إنّي أُحِبّ أَنْ أُشْكَرَ . فَلَمّا مَضَى مِنْ عُمُرِ آدَمَ أَلْفُ سَنَةٍ إلّا أَرْبَعِينَ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ . فَقَالَ إنّهُ بَقِيَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً . فَقَالَ إنّك وَهَبْتهَا لِابْنِك دَاوُد . فَنَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرّيّتُهُ وَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرّيّتُهُ [1] .

<5> فَلَمّا مَاتَ آدَمُ . بَقِيَ أَوْلَادُهُ بَعْدَهُ عَشَرَةَ قُرُونٍ عَلَى دِينِ أَبِيهِمْ دِينِ الْإِسْلَامِ . ثُمّ كَفَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ . وَسَبَبُ كُفْرِهِمْ الْغُلُوّ فِي حُبّ الصّالِحِينَ . كَمَا ذَكَرَ اللّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ (70 : 23) وَقَالُوا لَا تَذَرُنّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنّ وَدّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَذَلِكَ أَنّ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةَ قَوْمٌ صَالِحُونَ كَانُوا يَأْمُرُونَهُمْ وَيَنْهَوْنَهُمْ . فَمَاتُوا فِي شَهْرٍ . فَخَافَ أَصْحَابُهُمْ مِنْ نَقْصِ الدّينِ بَعْدَهُمْ . فَصَوّرُوا صُورَةَ كُلّ رَجُلٍ فِي مَجْلِسِهِ لِأَجْلِ التّذْكِرَةِ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ إذَا رَأَوْا صُوَرَهُمْ وَلَمْ يَعْبُدُوهُمْ ثُمّ حَدَثَ قَرْنٌ آخَرُ فَعَظّمُوهُمْ أَشَدّ مِنْ تَعْظِيمِ مَنْ قَبْلَهُمْ وَلَمْ يَعْبُدُوهُمْ ثَمّ طَالَ

---

[1] () أَخرَجَهُ : ت (بِرَقْمِ : 3368) وابنُ حِبَّان (بِرَقْمِ : 6167) مِن حديثِ أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
قال التِّرمذِيّ : (حَسَنٌ غريبٌ) . وصَحَّحَهُ الحاكم 2/325 على شَرطِ مُسلِم ؛ وَسَكَت الذَّهبي .

الزّمَانُ وَمَاتَ أَهْلُ الْعِلْمِ . فَلَمّا خَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي قُلُوبِ الْجُهّالِ أَنّ أُولَئِكَ الصّالِحِينَ مَا صَوّرُوا صُوَرَ مَشَايِخِهِمْ إلّا لِيَسْتَشْفِعُوا بِهِمْ إلَى اللّهِ فَعَبَدُوهُمْ [2] .

فَلَمّا فَعَلُوا ذَلِكَ أَرْسَلَ اللّهُ إلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السّلَامُ لِيَرُدّهُمْ إلَى دِينِ آدَمَ وَذُرّيّتِهِ الّذِينَ مَضَوْا قَبْلَ التّبْدِيلِ . فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا قَصّ اللّهُ فِي كِتَابِهِ ثُمّ عَمَرَ نُوحٌ وَأَهْلُ السّفِينَةِ الْأَرْضَ وَبَارَكَ اللّهُ فِيهِمْ وَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، وَبَقُوا عَلَى الْإِسْلَامِ مُدّةً لَا نَدْرِي مَا قَدْرُهَا ؟ .

ثُمّ حَدَثَ الشّرْكُ . فَأَرْسَلَ اللّهُ الرّسُلَ . وَمَا مِنْ أُمّةٍ إلّا وَقَدْ بَعَثَ اللّهُ فِيهَا رَسُولًا يَأْمُرُهُمْ بِالتّوْحِيدِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الشّرْكِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (16 : 36) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللّهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ وَقَالَ تَعَالَى (23 :ـ 44)ـ ثُمّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلّ مَا جَاءَ أُمّةً رَسُولُهَا كَذّبُوهُ الْآيَةَ .

وَلَمّا ذَكَرَ الْقَصَصَ فِي سُورَةِ الشّعَرَاءِ خَتَمَ كُلّ قِصّةٍ بِقَوْلِهِ إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ فَقَصّ اللّهُ سُبْحَانَهُ مَا قَصّ لِأَجْلِنَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى (12 :ـ 111)ـ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى الْآيَةَ .

وَلَمّا أَنْكَرَ اللّهُ عَلَى أُنَاسٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمّةِ - فِي زَمَنِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَشْيَاءَ فَعَلُوهَا . قَالَ (9 :ـ 70) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ الْآيَةَ . <6> وَكَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُصّ عَلَى أَصْحَابِهِ قَصَصَ مَنْ قَبْلَهُمْ لِيَعْتَبِرُوا بِذَلِكَ . وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي نَقْلِهِمْ سِيرَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ قَوْمِهِ وَمَا قَالَ لَهُمْ وَمَا قِيلَ لَهُمْ . وَكَذَلِكَ نَقْلُهُمْ سِيرَةَ الصّحَابَةِ وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ الْكُفّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَذِكْرُهُمْ أَحْوَالَ الْعُلَمَاءِ بَعْدَهُمْ . كُلّ ذَلِكَ لِأَجْلِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشّرّ .

إذَا فَهِمْت ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنّ كَثِيرًا مِنْ الرّسُلِ وَأُمَمِهِمْ لَا نَعْرِفُهُمْ . لِأَنّ اللّهَ لَمْ يُخْبِرْنَا عَنْهُمْ لَكِنْ أَخْبَرَنَا عَنْ عَادٍ ، الّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . فَبَعَثَ اللّهُ إلَيْهِمْ هُودًا عَلَيْهِ السّلَامُ .

---

[2] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4920) بِنَحوِهِ .

فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا قَصّ اللّهُ فِي كِتَابِهِ وَبَقِيَ التّوْحِيدُ فِي أَصْحَابِ هُودٍ إلَى أَنْ عُدِمَ بَعْدَ مُدّةٍ لَا نَدْرِي كَمْ هِيَ ؟ وَبَقِيَ فِي أَصْحَابِ صَالِحٍ . إلَى أَنْ عَدِمَ مُدّةً لَا نَدْرِي كَمْ هِيَ ؟ .
ثَمّ بَعَثَ اللّهُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلَامُ وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ مُسْلِمٌ . فَجَرَى عَلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ مَا جَرَى ، وَآمَنَتْ بِهِ امْرَأَتُهُ سَارَةُ ثُمّ آمَنَ لَهُ لُوطٌ عَلَيْهِ السّلَامُ وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُ اللّهُ وَرَفَعَ قَدْرَهُ وَجَعَلَهُ إمَامًا لِلنّاسِ .
وَمُنْذُ ظَهَرَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلَامُ لَمْ يُعْدَمْ التّوْحِيدُ فِي ذُرّيّتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى (43 - 28) { وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ }
فَإِذَا كَانَ هُوَ الْإِمَامَ فَنَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِهِ لَا يَسْتَغْنِي مُسْلِمٌ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ،فَنَقُولُ فِي الصّحِيحِ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيمُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَطّ . إلّا ثَلَاثَ كِذْبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللّهِ قَوْلُهُ (37 : 89) { إنّي سَقِيمٌ } وَقَوْلُهُ (21 : 63) { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا } وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ فَإِنّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النّاسِ فَقَالَ لَهَا : إنّ هَذَا الْجَبّارَ إنْ يَعْلَمْ أَنّك امْرَأَتِي : يَغْلِبْنِي عَلَيْك ، فَإِنْ سَأَلَك ، فَأَخْبِرِيهِ أَنّك أُخْتِي ، فَإِنّك أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ فَإِنّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَك ، فَلَمّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبّارِ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَك امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إلّا لَك ، فَأَرْسَلَ إلَيْهَا ، <7> فَأُوتِيَ بِهَا ، فَقَامَ إبْرَاهِيمُ إلَى الصّلَاةِ فَلَمّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إلَيْهَا ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً فَقَالَ لَهَا : اُدْعِي اللّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي ، فَلَك اللّهُ أَنْ لَا أَضُرّك . فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ يَدُهُ أَشَدّ مِنْ الْقَبْضَةِ الْأُولَى ، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَعَادَ فَقُبِضَتْ يَدُهُ أَشَدّ مِنْ الْقَبْضَتَيْنِ الْأُولَتَيْنِ فَقَالَ لَهَا : اُدْعِي اللّهَ أَنْ يُطْلِقَ يَدِي ، وَلَك اللّهَ أَنّ لَا أَضُرّك ، فَفَعَلَتْ فَأُطْلِقَتْ يَدُهُ وَدَعَا الّذِي جَاءَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ إنّك إنّمَا جِئْتنِي بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ . فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي ، وَأَعْطَاهَا هَاجَرَ ، فَأَقْبَلَتْ فَلَمّا رَآهَا إبْرَاهِيمُ . انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا : مَهْيَمْ ؟ قَالَتْ خَيْرًا ، كَفّ اللّهُ يَدَ الْفَاجِرِ وَأَخْدَمَ خَادِمًا " . قَالَ أَبُو هَرِيرَةَ : فَتِلْكَ أُمّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السّمَاءِ

وَلِلْبُخَارِيّ أَنّ إبْرَاهِيمَ لَمّا سُئِلَ عَنْهَا ؟ قَالَ هِيَ أُخْتِي ، ثُمّ رَجَعَ إلَيْهَا ، فَقَالَ لَا تُكَذِبِي حَدِيثِي . فَإِنّي أَخْبَرْتهمْ أَنّك أُخْتِي . وَاَللّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرُك ، فَأَرْسَلَ بِهَا إلَيْهِ فَقَامَ إلَيْهَا ، فَقَامَتْ تَتَوَضّأُ وَتُصَلّي ، فَقَالَتْ اللّهُمّ إنْ كُنْت آمَنْت بِك وَبِرَسُولِك ، وَأَحْصَنْت فَرْجِي إلّا عَلَى زَوْجِي ، فَلَا تُسَلّطْ عَلَيّ يَدَ الْكَافِرِ . فَغَطّ حَتّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ الْأَرْضَ . فَقَالَتْ اللّهُمّ إنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ فَأَرْسِلَ ثُمّ قَامَ إلَيْهَا فَقَامَتْ تَتَوَضّأُ وَتُصَلّي ، وَتَقُولُ اللّهُمّ إنْ كُنْت آمَنْت بِك وَبِرَسُولِك ، وَأَحْصَنْت فَرْجِي إلّا عَلَى زَوْجِي ، فَلَا تُسَلّطْ عَلَيّ هَذَا الْكَافِرَ فَغَطّ حَتّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ . فَقَالَتْ اللّهُمّ إنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ فَأَرْسِلَ فِي الثّانِيَةِ أَوْ الثّالِثَةِ فَقَالَ وَاَللّهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إلَيّ إلّا شَيْطَانًا ، أَرْجِعُوهَا إلَى إبْرَاهِيمَ وَأَعْطُوهَا هَاجَرَ . فَرَجَعَتْ إلَى إبْرَاهِيمَ فَقَالَتْ أَشَعَرْت ؟ إنّ اللّهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً "[3]

<8> وَكَانَ عَلَيْهِ السّلَامُ فِي أَرْضِ الْعِرَاقِ . وَبَعْدَ مَا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ مَا جَرَى هَاجَرَ إلَى الشّامِ . وَاسْتَوْطَنَهَا ، إلَى أَنْ مَاتَ فِيهَا . وَأَعْطَتْهُ سَارَةُ الْجَارِيَةَ الّتِي أَعْطَاهَا الْجَبّارُ . فَوَاقَعَهَا . فَوَلَدَتْ لَهُ إسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ فَغَارَتْ سَارَةُ . فَأَمَرَهُ اللّهُ بِإِبْعَادِهِ عَنْهَا . فَذَهَبَ بِهَا وَبِابْنِهَا فَأَسْكَنَهَا فِي مَكّةَ . ثُمّ بَعْدَ ذَلِكَ وَهَبَ اللّهُ لَهُ وَلِسَارَةَ إسْحَاقَ عَلَيْهِ السّلَامُ كَمَا ذَكَرَ اللّهُ بِشَارَةَ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَلَهَا بِإِسْحَاقِ . وَمِنْ وَرَاءِ إسْحَاقَ يَعْقُوبَ .

وَفِي الصّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ لَمّا كَانَ بَيْنَ إبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمّ إسْمَاعِيلَ وَمَعَهُ شَنّةٌ فِيهَا مَاءٌ . فَجَعَلَتْ أُمّ إسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنْ الشّنّةِ فَيُدَرّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيّهَا ، حَتّى قَدِمَ مَكّةَ . فَوَضَعَهَا تَحْت دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ - وَلَيْسَ بِمَكّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ - وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ . ثُمّ قَفّى إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمّ إسْمَاعِيلَ . فَلَمّا بَلَغُوا كَدَاءَ ، نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الّذِي لَيْسَ بِهِ أَنِيسٌ وَلَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إلَيْهَا . فَقَالَتْ لَهُ آللّهُ أَمَرَك بِهَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَتْ إذَنْ لَا يُضَيّعُنَا - وَفِي لَفْظٍ إلَى مَنْ تَكِلُنَا ؟ قَالَ إلَى اللّهِ . قَالَتْ رَضِيت - ثُمّ رَجَعَتْ .

---

[3] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3357 و3358 وَغيره) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2371) مِن حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثّنِيّةِ . حَيْثُ لَا يَرَوْنَـهُ اسْـتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الدّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ (14 : 37) رَبّنَا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ رَبّنَا لِيُقِيمُوا الصّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِـنَ الثّمَـرَاتِ لَعَلّهُـمْ يَشْـكُرُونَ وَجَعَلَـتْ أُمّ إسْـمَاعِيلَ تُرْضِـعُهُ . وَتَشْرَبُ مِنْ الشّنّةِ . فَيُدَرّ لَبَنُهَا عَلَى صَبِيّهَا . حَتّى إِذَا نَفِدَ مَا فِـي السّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَـا . وَجَعَلَـتْ تَنْظُـرُ إِلَيْـهِ يَتَلَـوّى - أَوْ قَالَ يَتَلَبّطُ - فَـانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَـةَ أَنْ تَنْظُـرَ إِلَيْـهِ . فَوَجَـدَتْ الصّـفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ إِلَيْهَا ، فَقَامَتْ وَاسْتَقْبَلَتْ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَـرَى أَحَـدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا . فَهَبَطَتْ مِنْ الصّفَا ، حَتّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا . ثُمّ سَعَتْ سَـعْيَ الْإِنْسَـانِ الْمَجْهُـودِ حَتّـى جَـاوَزَتْ الْوَادِيَ ثُمّ أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا . فَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَـدًا ؟ فَم تَرَ أَحَدًا . فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرّاتٍ
<9> قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : قَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فَـذَلِكَ سَعْيُ النّاسِ بَيْنَهُمَا - ثُـمّ قَـالَتْ لَـوْ ذَهَبْـت فَنَظَـرْت مَـا فَعَـلَ ؟ - تَعْنِي الصّبِيّ - فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ . فَإِذَا هُوَ عَلَـى حَـالِهِ كَـأَنّهُ يَنْشَـغُ لِلْمَوْتِ . فَلَمْ تَقَرّ نَفْسَهَا . فَقَالَتْ لَوْ ذَهَبْـت لَعَلّـي أُحِـسّ أَحَـدًا ؟ فَذَهَبْت فَصَعَدْتُ الصّفَا . فَنَظَرَتْ . فَلَمْ تُحِسّ أَحَدًا . حَتّى أَتَمّـتْ سَبْعًا . ثُمّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْت فَنَظَرْت مَا فَعَـلَ ؟ فَـإِذَا هِـيَ بِصَـوْتٍ . فَقَالَتْ أَغِثْ إنْ كَانَ عِنْدَك خَيْرٌ . فَإِذَا بِجِبْرِيلَ . قَالَ فَقَـالَ بِعَقِبِـهِ عَلَى الْأَرْضِ . فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَـذَهَبَتْ أُمّ إسْـمَاعِيلَ فَجَعَلَـتْ تَحْفِـرُ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَرْحَمُ اللّـهُ أُمّ إسْـمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِـنْ الْمَـاءِ - لَكَـانَتْ زَمْـزَمُ عَيْنًا مُعِينًا - وَفِي حَدِيثِهِ فَجَعَلَتْ تَغْرِفُ الْمَـاءَ فِـي سِـقَائِهَا - قَـالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا . فَقَـالَ لَهَـا الْمَلِـكُ لَا تَخَـافِي الضّـيْعَةَ . فَإِنّ هَهُنَا بَيْتًا لِلّهِ يَبْنِيـهِ هَـذَا الْغُلَامُ وَأَبُـوهُ وَإِنّ اللّـهَ لَا يُضِـيعُ أَهْلَـهُ . وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنْ الْأَرْضِ الرّابِيَةِ . تَأْتِيهِ السّيُولُ فَتَأْخُذُ عَـنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ . فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتّى مَرّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِـنْ جُرْهُـمٍ ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَـدَاءَ ، فَـرَأَوْا طَـائِرًا عَائِفًـا ، فَقَـالُوا : إِنّ هَـذَا الطّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ . لَعَهْدِنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسِـلُوا جَرِيّا ، أَوْ جَرِيّيْنِ . فَإِذَا هُـمْ بِالْمَـاءِ فَرَجَعُـوا فَـأَخْبَرُوهُمْ فَـأَقْبَلُوا ، وَقَالُوا لِأُمّ إسْمَاعِيلَ أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَك ؟ قَالَتْ نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ . قَالُوا : نَعَمْ - قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : قَـالَ النّبِـيّ

فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمّ إسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبّ الْأُنْسَ - فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ . حَتّى إذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبّ الْغُلَامُ . وَتَعَلّمَ الْعَرَبِيّةَ مِنْهُمْ . وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبّ فَلَمّا أَدْرَكَ زَوّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ . وَمَاتَتْ أُمّ إسْمَاعِيلَ . وَجَاءَ إبْرَاهِيمُ - بَعْدَ مَا تَزَوّجَ إسْمَاعِيلُ - يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ ؟ فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا . ثُمّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ ؟ فَقَالَتْ نَحْنُ بِشَرّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدّةٍ . فَشَكَتْ إلَيْهِ .
قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُك أَقْرِئِي عَلَيْهِ السّلَامَ وَقُولِي لَهُ يُغَيّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ . فَلَمّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ كَأَنّهُ آنَسَ شَيْئًا . فَقَالَ هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ - كَذَا وَكَذَا - فَسَأَلَنَا عَنْك ؟ فَأَخْبَرْته ، وَسَأَلَنِي : كَيْفَ عَيْشُنَا ؟ <10> فَأَخْبَرَتْهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدّةٍ .
قَالَ فَهَلْ أَوْصَاك بِشَيْءٍ ؟ قَالَ نَعَمْ . أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْك السّلَامَ و يَقُولُ غَيّرْ عَتَبَةَ بَابِك . قَالَ ذَاكَ أَبِي . وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَك . الْحَقِي بِأَهْلِك ، فَطَلّقَهَا . وَتَزَوّجَ مِنْهُمْ امْرَأَةً أُخْرَى ، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللّهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إنّي مُطّلِعٌ تَرِكَتِي . فَجَاءَ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ أَيْنَ إسْمَاعِيلُ ؟ قَالَتْ ذَهَبَ يَصِيدُ . قَالَتْ أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ ؟ قَالَ وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ طَعَامُنَا اللّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ .
قَالَ اللّهُمّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ - قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَرَكَةُ دَعْوَةِ إبْرَاهِيمَ فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكّةَ إلّا لَمْ يُوَافِقَاهُ . قَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبّ . وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حَبّ دَعَا لَهُمْ فِيهِ - وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهَا وَهَيْئَتِهِمْ ؟ فَقَالَتْ نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللّهِ .
قَالَ إذَا جَاءَ زَوْجُك : فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السّلَامَ وَمُرِيهِ يُثَبّتْ عَتَبَةَ بَابِهِ . فَلَمّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ قَالَ هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ نَعَمْ . شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ - وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ - فَسَأَلَنِي عَنْك ؟ فَأَخْبَرْته . فَسَأَلَنِي : كَيْفَ عَيْشُنَا : فَأَخْبَرْته أَنَا بِخَيْرٍ . قَالَ هَلْ أَوْصَاك بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْك السّلَامَ وَيَأْمُرُك أَنْ تُثَبّتَ عَتَبَةَ بَابِك . قَالَ ذَاكَ أَبِي . وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَك . ثُمّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللّهُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إنّي مُطَلّعٌ تَرِكَتِي ، فَجَاءَ . فَوَافَقَ إسْمَاعِيلَ يَبْرِي نَبْلًا

لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْـزَمَ : فَلَمّـا رَآهُ قَـامَ إلَيْـهِ فَصَـنَعَا كَمَـا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ .
ثُمّ قَالَ يَا إسْمَاعِيلُ إنّ اللّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَك رَبّك . قَالَ وَتُعِينُنِي ؟ قَالَ وَأُعِينُك . قَالَ فَإِنَّ اللّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِي هَهُنَـا بَيْتًا - وَأَشَارَ إلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَـا حَوْلَهَـا - قَـالَ فَعِنْـدَ ذَلِـكَ رَفَعَـا الْقَوَاعِـدَ مِـنْ الْبَيْـتِ . فَجَعَـلَ إسْـمَاعِيلُ يَـأْتِي بِالْحِجَـارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي . حَتّى إذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ ، فَوُضِعَ لَهُ . فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي ، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَـا يَقُـولَانِ (3 ـ 127) ـ رَبّنَا تَقَبّلْ مِنّا إنّكَ أَنْـتَ السّـمِيعُ الْعَلِيـمُ . هَـذَا آخِـرُ حَدِيثِ ابْنِ عَبّاسٍ [4] .
فَصَـارَتْ وِلَايَـةُ الْبَيْـتِ وَمَكّـةَ لِإِسْـمَاعِيلَ . ثُـمّ لِـذُرّيّتِهِ مِـنْ بَعْـدِهِ وَانْتَشَرَتْ ذُرّيّتُهُ فِي الْحِجَازِ وَكَثُـرُوا . وَكَـانُوا عَلَـى الْإِسْـلَامِ دِيـنِ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ قُرُونًا كَثِيرَةً . وَلَمْ يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ حَتّى كَـانَ فِي آخِرِ الدّهْرِ نَشَأَ فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ لُحَـيّ فَابْتَـدَعَ الشّـرْكَ وَغَيّـرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ وَتَأْتِي قِصّتُهُ إنْ شَاءَ اللّهُ .
<11> وَأَمّا إسْحَاقُ عَلَيْهِ السّلَامُ
فَإِنّهُ بِالشّامِ . وَذُرّيّتُهُ هُمْ بَنُو إسْرَائِيلَ وَالرّومُ .
أَمَا بَنُو إسْـرَائِيلَ : فَـأَبُوهُمْ يَعْقُـوبُ عَلَيْـهِ السّـلَامُ ابْـنُ إسْـحَاقَ ، وَيَعْقُوبُ هُوَ إسْرَائِيلُ .
وَأَمّا الـرّومُ : فَـأَبُوهُمْ عِيـصُ بْـنُ إسْـحَاقَ . وَمِمّـا أَكْـرَمَ اللّـهُ بِـهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلَامُ أَنّ اللّهَ لَمْ يَبْعَثْ بَعْدَهُ نَبِيّا إلّا مِنْ ذُرّيّتِهِ كَمَـا قَالَ تَعَالَى (29 : 27) وَجَعَلْنَا فِي ذُرّيّتِهِ النّبُوّةَ وَالْكِتَابَ وَكُلّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرّسُلِ مِنْ ذُرّيّةِ إسْحَاقَ .
وَأَمّا إسْمَاعِيلُ فَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ ذُرّيّتِهِ إلّا نَبِيّنَا مُحَمّدٌ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَهُ اللّهُ إلَى الْعَالَمِينَ كَافّةً . وَكَانَ مَـنْ قَبْلَـهُ مِـنْ الْأَنْبِيَـاءِ كُلّ نَبِيّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصّةً . وَفَضّلَهُ اللّهُ عَلَـى جَمِيـعِ الْأَنْبِيَـاءِ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ .

وَأَمّا قِصّةُ عَمْرِو بْنِ لُحَيّ وَتَغْيِيرُهُ دِينِ إبْرَاهِيمَ
فَإِنّهُ نَشَأَ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ مِنْ الْمَعْرُوفِ وَالصّدَقَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى أُمُورِ الدّينِ . فَأَحَبّهُ النّاسُ حُبّـا عَظِيمًـا . وَدَانُـوا لَـهُ لِأَجْـلِ ذَلِـكَ .

---

[4] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3362 و 3364 و 3365) .

حَتّى مَلّكُوهُ عَلَيْهِمْ . وَصَارَ مُلْكُ مَكّةَ وَوِلَايَةُ الْبَيْتِ بِيَدِهِ . وَظَنّوا أَنّهُ مِنْ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ وَأَفَاضِلِ الْأَوْلِيَاءِ . ثَمّ إنّهُ سَافَرَ إلَى الشّامِ . فَرَآهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ . فَاسْتَحْسَنَ ذَلِكَ وَظَنّهُ حَقّا . لِأَنّ الشّامَ مَحِلّ الرّسُلِ وَالْكُتُبِ . فَلَهُمْ الْفَضِيلَةُ بِذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْحِجَازِ وَغَيْرِهِمْ . فَرَجَعَ إلَى مَكّةَ ، وَقَدِمَ مَعَهُ بِهُبَلَ . وَجَعَلَهُ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ ، وَدَعَا أَهْلَ مَكّةَ إلَى الشّرْكِ بِاَللّهِ . فَأَجَابُوهُ . وَأَهْلُ الْحِجَازِ فِي دِينِهِمْ تَبَعٌ لِأَهْلِ مَكّةَ . لِأَنّهُمْ وُلَاةُ الْبَيْتِ وَأَهْلُ الْحَرَمِ . فَتَبِعَهُمْ أَهْلُ الْحِجَازِ عَلَى ذَلِكَ ظَنّا أَنّهُ الْحَقّ . فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللّهُ مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِدِينِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلَامُ وَإِبْطَالُ مَا أَحْدَثَهُ عَمْرُو بْنُ لُحَيّ .

وَكَانَتْ الْجَاهِلِيّةُ عَلَى ذَلِكَ وَفِيهِمْ بَقَايَا مِنْ دِينِ إبْرَاهِيمَ لَمْ يَتْرُكُوهُ كُلّهُ . وَأَيْضًا يَظُنّونَ أَنّ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَأَنّ مَا أَحْدَثَهُ عَمْرٌو : بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ . لَا تُغَيّرُ دِينَ إبْرَاهِيمَ . وَكَانَتْ تَلْبِيَةُ نِزَارٍ لَبّيْكَ . لَا شَرِيكَ لَك ، إلّا شَرِيكًا هُوَ لَك ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ فَأَنْزَلَ اللّهُ (30 : 27) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وَمِنْ أَقْدَمِ أَصْنَامِهِمْ " مَنَاةُ " وَكَانَ مَنْصُوبًا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بِقُدَيْدٍ . تُعَظّمُهُ الْعَرَبُ كُلّهَا ، لَكِنّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانُوا أَشَدّ تَعْظِيمًا لَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ . وَبِسَبَبِ ذَلِكَ أَنْزَلَ اللّهُ (2 : 158) إنّ الصّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطّوّفَ بِهِمَا <12> .

ثُمّ اتّخَذُوا " اللّاتَ " فِي الطّائِفِ ، وَقِيلَ إنّ أَصْلَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ كَانَ يَلُتّ السّوِيقَ لِلْحَاجّ فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ .

ثُمّ اتّخَذُوا " الْعُزّى " بِوَادِي نَخْلَةَ بَيْنَ مَكّةَ وَالطّائِفِ .

فَهَذِهِ الثّلَاثُ أَكْبَرُ أَوْثَانِهِمْ . ثَمّ كَثُرَ الشّرْكُ . وَكَثُرَتْ الْأَوْثَانُ فِي كُلّ بُقْعَةٍ مِنْ الْحِجَازِ .

وَكَانَ لَهُمْ أَيْضًا بُيُوتٌ يُعَظّمُونَهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ . وَكَانُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى (3 : 164) لَقَدْ مَنّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَلَمّا دَعَاهُمْ رَسُولُ اللّهِ إلَى اللّهِ اشْتَدّ إنْكَارُ النّاسِ لَهُ عُلَمَائِهِمْ وَعِبَادِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ

وَعَامّتِهِمْ حَتّى إنّهُ لَمّا دَعَا رَجُلًا إلَى الْإِسْلَامِ قَالَ لَـهُ " مَـنْ مَعَـك عَلَى هَذَا ؟ قَالَ حُرّ وَعَبْدٌ " وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ رَضِيَ اللّـهُ عَنْهُمَا .

- وَأَعْظَمُ الْفَائِدَةِ لَك أَيّهَا الطّالِبُ وَأَكْبَرُ الْعِلْـمِ وَأَجَـلّ الْمَحْصُـولِ إنْ فَهِمْت مَا صَحّ عَنْهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ :

- « بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ » [5] .

- وَقَوْلُهُ : « لَتَتّبِعُنّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذّةِ بِالْقُـذّةِ حَتّـى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَـبّ لَـدَخَلْتُمُوهُ . قَـالُوا : يَـا رَسُـولَ اللّـهِ الْيَهُـودُ وَالنّصَارَى ؟ قَالَ فَمَنْ ؟ » [6] .

وَقَوْلُهُ : « سَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمّةُ عَلَـى ثَلَاثٍ وَسَـبْعِينَ فِرْقَـةً . كُلّهَـا فِي النّارِ إلّا وَاحِدَةً » [7] .

فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَجَلّ الْمَسَائِلِ . فَمَـنْ فَهِمَهَـا فَهُـوَ الْفَقِيـهُ . وَمَـنْ عَمِلَ بِهَا فَهُوَ الْمُسْلِمُ . فَنَسْـأَلُ اللّـهَ الْكَرِيـمَ الْمَنّـانَ أَنْ يَتَفَضّـلَ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ بِفَهْمِهَا وَالْعَمَلِ بِهَا .

أَمَا الْبَيْتُ الْمُحَرّمُ فَـإِنّ إبْرَاهِيـمَ وَإِسْـمَاعِيلَ عَلَيْهِمَـا السّـلَامُ لَمّـا بَنَيَـاهُ صَـارَتْ وِلَايَتُـهُ فِـي إسْـمَاعِيلَ وَذُرّيّتِـهِ . ثُـمّ غَلَبَهُـمْ عَلَيْـهِ أَخْوَالُهُمْ مِنْ جُرْهُمٍ .

وَلَمْ يُنَازِعْهُمْ بَنُو إسْمَاعِيلَ <13> لِقَرَابَتِهِمْ وَإِعْظَامِهِمْ لِلْحُرْمَـةِ أَنْ لَا يَكُونَ بِهَا قِتَالٌ . ثُمّ إنّ جُرْهُمَ بَغَوْا فِـي مَكّـةَ . وَظَلَمُـوا مَـنْ دَخَلَهَا ، فَرّقَ أَمْرُهُمْ . فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ بَنُو بَكْـرِ بْـنِ عَبْـدِ مَنَـافِ بْـنِ كِنَانَةَ . وَغُبْشَانُ مِـنْ خُزَاعَـةَ ، أَجْمَعُـوا عَلَـى جُرْهُـمٍ ، فَـاقْتَتَلُوا ، فَغَلَبَهُمْ بَنُو بَكْرٍ وَغُبْشَانُ وَنَفَوْهُمْ مِنْ مَكّةَ .

---

[5] () أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 146) مِن حديثِ ابنِ عُمَر .
وَأخرجهِ : مُسلِم (بِرَقْمِ :145) وابن ماجـة (بِرَقْـمِ : 3986) وأحمَـد 2/389 مِـن حدِيثِ أَبِي هريرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
وأخرجَهُ : التِّرمِـذيّ (بِرَقْـمِ : 2629 و2630) - وقـالَ : (حَسَـنٌ صَـحيحٌ غَريـبٌ) - وابن ماجة (بِرَقْمِ : 3988) وأحمد 1/398 من حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[6] () أَخرَجَـهُ : البُخـاري (بِرَقْـمِ : 2456 و7320) ومُسـلِم (بِرَقْـمِ : 2669) مِـن حدِيثِ أَبِي سعيد الخُدرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . بِدون لَفظَةِ : « حَذْوَ القُذّةِ بِالْقُذّةِ » فَهـو لأحمدِ 4/125 مِن حديثِ شَدَّاد بنِ أوسٍ .

[7] () أَخرَجَـهُ : أَبُـو دَاودَ (بِرَقْـمِ : 4596) والتِّرمِـذي (بِرَقْـمِ : 2640) وابـن ماجـة (بِرَقْمِ : 3991) وأحمد 2/332 وابن حِبَّان (بِرَقْمِ : 6247) مِن حديثِ أَبِي هرَيـرَةَ . **وصَحَّحهُ التِّرمذي والحاكم وسَكَتَ الذَّهبي .**

وَكَانَتْ مَكّةُ فِي الْجَاهِلِيّةِ لَا يُقَرّ فِيهَا ظُلْمٌ وَلَا يَبْغِي فِيهَا أَحَدٌ إلّا أَخْرِجَ وَلَا يُرِيدُهَا مَلِكٌ يَسْتَحِلّ حُرْمَتَهَا إلّا هَلَكَ .
ثُمّ إنّ غُبْشَانَ - مِنْ خُزَاعَةَ - وَلِيَتْ الْبَيْتَ دُونَ بَنِي بَكْرٍ . وَقُرَيْشٌ إذْ ذَاكَ حُلُولٌ وَصُرُمٌ وَبُيُوتَاتٌ مُتَفَرّقُونَ فِي قَوْمِهِمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ . فَوَلِيَتْ خُزَاعَةُ الْبَيْتَ يَتَوَارَثُونَ ذَلِكَ . حَتّى كَانَ آخِرَهُمْ حَلِيلُ بْنُ حُبَيْشَةَ . فَتَزَوّجَ قُصَيّ بْنُ كِلَابٍ ابْنَتَهُ .
فَلَمّا عَظُمَ شَرَفُ قُصَيّ ، وَكَثُرَ بَنُوهُ وَمَالُهُ هَلَكَ حَلِيلٌ فَرَأَى قُصَيّ أَنّهُ أَوْلَى بِالْكَعْبَةِ وَأَمْرِ مَكّةَ مِنْ خُزَاعَةَ وَبَنِيّ بَكْرٍ وَأَنّ قُرَيْشًا رُءُوسُ آلِ إسْمَاعِيلَ وَصَرِيحَهُمْ فَكَلّمَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ فِي إخْرَاجِ خُزَاعَةَ وَبَنِيّ بَكْرٍ مِنْ مَكّةَ . فَأَجَابُوهُ .
وَكَانَ الْغَوْثُ بْنُ مُرّةَ بْنِ أُدّ بْنِ طَابِخَةَ بْنِ إلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ يَلِي الْإِجَازَةَ لِلنّاسِ بِالْحَجّ مِنْ عَرَفَةَ وَوَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ . لِأَنّ أُمّهُ كَانَتْ حُرْهُمِيّةً لَا تَلِدُ . فَنَذَرَتْ لِلّهِ إنْ وَلَدَتْ رَجُلًا : أَنْ تَتَصَدّقَ بِهِ عَلَى الْكَعْبَةِ يَخْدُمُهَا . فَوَلَدَتْ الْغَوْثَ . فَكَانَ يَقُومُ عَلَى الْكَعْبَةِ مَعَ أَخْوَالِهِ مِنْ جُرْهُمٍ . فَوَلِيَ الْإِجَازَةَ بِالنّاسِ لِمَكَانِهِ مِنْ الْكَعْبَةِ فَكَانَ إذَا رَفَعَ يَقُولُ
اللّهُمّ إنّي تَابِعٌ تِبَاعَهْ

إنْ كَانَ إثْمًا فَعَلَى قُضَاعَهْ
وَكَانَتْ " صُوفَةُ " تَدْفَعُ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفَةَ وَتُجِيزُهُمْ إذَا نَفَرُوا مِنْ مِنًى . فَإِذَا كَانَ يَوْمُ النّصْرِ أَتَوْا رَمْيَ الْجِمَارِ وَرَجُلٌ مِنْ صُوفَةَ يَرْمِي لَهُمْ لَا يَرْمُونَ حَتّى يَرْمِيَ لَهُمْ . فَكَانَ الْمُتَعَجّلُونَ يَأْتُونَهُ يَقُولُونَ ارْمِ حَتّى نَرْمِيَ . فَيَقُولُ لَا وَاَللّهِ حَتّى تَمِيلَ الشّمْسُ . فَإِذَا مَالَتْ الشّمْسُ رَمَى وَرَمَى النّاسُ مَعَهُ . فَإِذَا فَرَغُوا مِنْ الرّمْيِ وَأَرَادُوا النّفْرَ مِنْ مِنًى أَخَذَتْ صُوفَةُ بِالْجَانِبَيْنِ . فَلَمْ يُجْزَ أَحَدٌ حَتّى يَمُرّوا ، ثُمّ يُخَلّونَ سَبِيلَ النّاسِ .
<14> فَلَمّا انْقَرَضُوا وَرِثَهُمْ بَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ .
وَكَانَتْ الْإِفَاضَةُ مِنْ مُزْدَلِفَةَ فِي " عُدْوَانَ " يَتَوَارَثُونَهَا . حَتّى كَانَ آخِرَهُمْ كَرْبُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جُنَابٍ الّذِي قَامَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامُ . فَلَمّا كَانَ ذَلِكَ الْعَامُ فَعَلَتْ صُوفَةُ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ قَدْ عَرَفَتْ الْعَرَبُ ذَلِكَ لَهُمْ . هُوَ دِينٌ لَهُمْ مِنْ عَهْدِ جُرْهُمٍ وَوِلَايَةِ خُزَاعَةَ .

فَأَتَاهُمْ قُصَيّ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَقُضَاعَةَ وَكِنَانَةَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، فَقَالَ نَحْنُ أَوْلَى بِهَذَا مِنْكُمْ فَقَاتَلُوهُ فَاقْتَتَلَ النّاسُ قِتَالًا شَدِيدًا . ثُمّ انْهَزَمَتْ صُوفَةُ . وَغَلَبَهُمْ قُصَيّ عَلَى مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ . وَانْحَازَتْ عِنْدَ ذَلِكَ خُزَاعَةُ وَبَنُو بَكْرٍ عَنْ قُصَيّ ، وَعَرَفُوا أَنّهُ سَيَمْنَعُهُمْ كَمَا مَنَعَ صُوفَةَ . وَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ وَأَمْرِ مَكّةَ . فَلَمّا انْحَازُوا بَادَأَهُمْ وَأَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ . فَالْتَقَوْا وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا . ثَمّ تَدَاعَوْا إلَى الصّلْحِ فَحَكّمُوا يَعْمُرَ بْنَ عَوْفٍ أَحَدَ بَنِي بَكْرٍ . فَقَضَى بَيْنَهُمْ بِأَنّ قُصَيًّا أَوْلَى بِالْكَعْبَةِ وَأَمْرِ مَكّةَ مِنْ خُزَاعَةَ وَكُلّ دَمٍ أَصَابَهُ قُصَيّ مِنْهُمْ مَوْضُوعٌ شَدْخُهُ تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَمَا أَصَابَتْ خُزَاعَةُ وَبَنُو بَكْرٍ فَفِيهِ الدّيَةُ وَأَنْ يُخْلَى بَيْنَ قُصَيّ وَبَيْنَ الْكَعْبَةِ وَمَكّةَ . فَسُمّيَ يَوْمَئِذٍ يَعْمُرَ الشّدّاخَ .
فَوَلِيَهَا قُصَيّ . وَجَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إلَى مَكّةَ . وَتَمَلّكَ عَلَيْهِمْ وَمَلّكُوهُ . لِأَنّهُ أَقَرّ لِلْعَرَبِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ . لِأَنّهُ يَرَاهُ دِينًا لَا يُغَيّرُ فَأَقَرّ النّسْأَةَ وَآلَ صَفْوَانَ وَعُدْوَانَ ، وَمُرّةَ بْنَ عَوْفٍ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ . حَتّى جَاءَ الْإِسْلَامُ فَهَدَمَ ذَلِكَ كُلّهُ . وَفِيهِ يَقُولُ الشّاعِرُ
قُصَيّ ، لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجَمّعًا

بِهِ جَمَعَ اللّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرِ
فَكَانَ قُصَيّ بْنُ لُؤَيّ أَصَابَ مُلْكًا أَطَاعَ لَهُ بِهِ قَوْمُهُ فَكَانَتْ إلَيْهِ الْحِجَابَةُ وَالسّقَايَةُ وَالرّفَادَةُ وَالنّدْوَةُ ، وَاللّوَاءُ . وَقَطّعَ مَكّةَ رِبَاعًا بَيْنَ قَوْمِهِ . فَأَنْزَلَ كُلّ قَوْمٍ مِنْهُمْ مَنَازِلَهُمْ .
وَقِيلَ إنّهُمْ هَابُوا قَطْعَ الشّجَرِ عَنْ مَنَازِلِهِمْ . فَقَطَعَهَا بِيَدِهِ وَأَعْوَانُهُ فَسَمّتْهُ قُرَيْشٌ " مُجَمّعًا لِمَا جَمَعَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَتَيَمّنَتْ بِأَمْرِهِ فَلَا تُنْكَحُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ وَلَا يَتَزَوّجُ رَجُلٌ وَلَا يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا نَزَلَ بِهِمْ وَلَا يَعْقِدُونَ لِوَاءَ حَرْبٍ إلّا فِي دَارِهِ يَعْقِدُهُ لَهُمْ بَعْضُ وَلَدِهِ . - 15 - فَكَانَ أَمْرُهُ فِي حَيَاتِهِ - وَبَعْدَ مَوْتِهِ - عِنْدَهُمْ كَالدّينِ الْمُتّبَعِ وَاِتّخَذَ لِنَفْسِهِ دَارَ النّدْوَةِ .

فَلَمّا كَبِرَ قُصَيّ وَرَقّ عَظْمُهُ - وَكَانَ عَبْدُ الدّارِ بِكْرَهُ . وَكَانَ عَبْدُ مَنَافٍ قَدْ شَرُفَ فِي زَمَانِ أَبِيهِ وَعَبْدُ الْعُزّى وَعَبْدُ الدّارِ . فَقَالَ قُصَيّ لِعَبْدِ الدّارِ لَأُلْحِقَنّكَ بِالْقَوْمِ وَإِنْ شَرَفُوا عَلَيْك . لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ مِنْهُمْ الْكَعْبَةَ حَتّى تَكُونَ أَنْتَ تَفْتَحُهَا لَهُ . وَلَا يُعْقَدُ لِقُرَيْشٍ

لِوَاءٌ لِحَرْبِهَا إلّا أَنْتَ . وَلَا يَشْرَبُ رَجُلٌ بِمَكّةَ إلّا مِـنْ سِـقَايَتِك . وَلَا يَأْكُلُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَوْسِـمِ طَعَامًـا إلّا مِـنْ طَعَامِـك . وَلَا تَقْطَـعُ قُرَيْشٌ أَمْرًا مِنْ أُمُورِهَا إلّا فِي دَارِك .
فَأَعْطَاهُ دَارَ النّدْوَةِ ، وَالْحِجَابَةَ وَاللّوَاءَ وَالسّـقَايَةَ وَالرّفَـادَةَ وَهِـيَ خَرْجٌ تُخْرِجُهُ قُرَيْشٌ فِي الْمَوْسِمِ مِنْ أَمْوَالِهَا إلَى قُصَيّ ، فَيَصْـنَعُ بِهِ طَعَامًا لِلْحَاجّ يَأْكُلُهُ مَـنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ سَـعَةٌ وَلَا زَادٌ . لِأَنّ قُصَـيّا فَرَضَهُ عَلَى قُرَيْشٍ . فَقَالَ لَهُمْ إنّكُمْ جِيرَانُ اللّهِ وَأَهْلُ بَيْتِـهِ . وَإِنّ الْحَـاجّ ضَـيْفُ اللّـهِ وَهُـمْ أَحَـقّ الضّـيْفِ بِالْكَرَامَـةِ . فَـاجْعَلُوا لَهُـمْ طَعَامًا وَتُرَابًا أَيّامَ الْحَجّ حَتّى يَصْدُرُوا عَنْكُمْ . فَفَعَلُوا .
وَكَانَ قُصَيّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُرَدّ عَلَيْهِ شَيْءٌ صَنَعَهُ .
فَلَمّا هَلَكَ أَقَامَ بَنُوهُ أَمْرَهُ لَا نِزَاعَ بَيْنَهُمْ . ثُـمّ إنّ بَنِـي عَبْـدِ مَنَـافٍ أَرَادُوا أَخْـذَ مَـا بِيَـدِ عَبْـدِ الـدّارِ وَرَأَوْا أَنّهُـمْ أَوْلَـى بِـذَلِكَ فَتَفَرّقَـتْ قُرَيْشٌ : بَعْضُهُمْ مَعَهُمْ . وَبَعْضُهُمْ مَعَ عَبْدِ الدّارِ .
فَكَانَ صَاحِبَ أَمْرِ عَبْدِ مَنَافٍ . عَبْدُ شَمْسٍ . لِأَنّهُ أَسَنّهُمْ . وَصَاحِبَ أَمْرِ بَنِي عَبْدِ الدّارِ عَامِرُ بْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَـافِ بْـنِ عَبْـدِ الـدّارِ . فَعَقَدَ كُلّ قَوْمٍ حِلْفًا مُؤَكّدًا . فَأَخْرَجَ بَنُو عَبْدِ مَنَـافٍ جَفْنَـةً مَمْلُـوءَةً طِيبًـا . فَغَمَسُـوا أَيْـدِيَهُمْ فِيهَـا ، وَمَسَـحُوا بِهَـا الْكَعْبَـةَ . فَسُـمّوا " الْمُطَيّبِينَ " وَتَعَاقَدَ بَنُو عَبْدِ الـدّارِ وَحُلَفَـاؤُهُمْ فَسُـمّوا " الْأَحْلَافَ " ثُمّ تَدَاعَوْا إلَى الصّلْحِ عَلَى أَنّ لِعَبْدِ مَنَـافٍ السّـقَايَةَ وَالرّفَـادَةَ وَأَنّ الْحِجَابَةَ وَاللّوَاءَ وَالنّدْوَةَ لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ فَرَضُـوا . وَثَبَـتَ كُـلّ قَـوْمٍ مَعَ مَنْ حَالَفُوا ، حَتّى جَاءَ اللّهُ بِالْإِسْـلَامِ . فَقَـالَ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ : « كُلّ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إلّا شِدّةً » [8] .
وَأَمّا حِلْفُ الْفُضُولِ [9] فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللّـهِ بْـنِ جُـدْعَانَ لِشَرَفِهِ وَسِنّهِ وَهُمْ بَنُو هَاشِـمٍ ، وَبَنُـو الْمُطّلِـبِ ، وَأَسَـدُ بْـنُ عَبْـدِ الْعُزّى ، وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ ، وَتَيْمٌ <16> ابْـنُ مُـرّةَ تَعَاهَـدُوا عَلَـى أَنْ لَا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُومًا مِنْ أَهْلِهَا ، أَوْ مِمّـنْ دَخَلَهَـا ، إلّا أَقَـامُوا مَعَهُ حَتّى تُرَدّ إلَيْهِ مُظْلَمَتَهُ فَقَالَ الزّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ :
إنّ الْفُضُولَ تَحَالَفُوا وَتَعَاقَدُوا

---

[8] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 570) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2530) من حديثِ جُبَير بـنِ مُطعِم رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .
[9] () أَخرَجَهُ : البُخـاري (بِرَقْـمِ : 567) وَأَحمـد 1/193-194 وابـنُ حِبَّـانَ (بِرَقْـمِ : 4373) من حديثِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

أَنْ لَا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكّةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَحَالَفُوا وَتَعَاقَدُوا

فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرّ فِيهِمْ سَالِمُ
فَوَلِيَ السّقَايَةَ وَالرّفَادَةَ هَاشِمُ بْـنُ عَبْـدِ مَنَـافٍ لِأَنّ عَبْـدَ شَـمْسٍ سُفّارٌ قَلّمَا يُقِيمُ بِمَكّةَ . وَكَانَ مُقِلّا ذَا وَلَدٍ . وَكَانَ هَاشِمٌ مُوسِـرًا ، وَهُوَ أَوّلُ مَنْ سَـنّ الرّحْلَتَيْـنِ رِحْلَـةَ الشّـتَاءِ وَالصّـيْفِ . وَأَوّلُ مَـنْ أَطْعَمَ الثّرِيدَ بِمَكّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ
عَمْرُو الّذِي هَشَمَ الثّرِيدَ لِقَوْمِهِ

قَوْمٌ بِمَكّةَ مُسْنِتِينَ عِجَافُ
وَلَمّا مَاتَ هَاشِمٌ وُلِـيَ ذَلِـكَ الْمُطّلِـبُ بْـنُ عَبْـدِ مَنَـافٍ . فَكَـانَ ذَا شَـرَفٍ فِيهِـمْ يُسَـمّونَهُ الْفَيّـاضَ لِسَـمَاحَتِهِ . وَكَـانَ هَاشِـمٌ قَـدِمَ الْمَدِينَةَ . فَتَزَوّجَ سَلْمَى بِنْتَ عَمْرٍو ، مِنْ بَنِـي النّجّـارِ فَوَلَـدَتْ لَـهُ عَبْدَ الْمُطّلِبِ . فَلَمّا تَرَعْرَعَ خَرَجَ إلَيْـهِ الْمُطّلِـبُ لِيَـأْتِيَ بِـهِ فَـأَبَتْ أُمّهُ . فَقَالَ إنّهُ يَلِي مُلْكَ أَبِيهِ . فَأَذِنَتْ لَهُ . فَرَحَلَ بِهِ . وَسَلّمَ إلَيْـهِ مُلْكَ أَبِيهِ . فَوَلِيَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ مَا كَانَ أَبُوهُ يَلِي . وَأَقَامَ لِقَوْمِهِ مَا أَقَامَ آبَاؤُهُ . وَشَرُفَ فِيهِمْ لَمْ يَبْلُغْهُ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ . وَأَحَبّوهُ وَعَظُمَ خَطَرُهُ فِيهِمْ .
ثُمّ ذَكَرَ قِصّةَ حَفْر زَمْزَمَ ، وَمَا فِيهَا مِنْ الْعَجَائِبِ .
ثُمّ ذَكَرَ قِصّةَ نَـذْرِ عَبْـدِ الْمُطّلِـبِ ذَبْـحَ وَلَـدِهِ وَمَـا جَـرَى فِيهَـا مِـنْ الْعَجَائِبِ .
ثُمّ ذَكَرَ الْآيَاتِ الّتِـي لِرَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ قَبْـلَ وِلَادَتِهِ وَبَعْدَهَا . وَمَا جَرَى لَهُ وَقْتَ رَضَاعِهِ وَبَعْدَ ذَلِكَ .
ثُمّ ذَكَرَ كَفَالَةَ أُمّهِ لَهُ . ثُمّ كَفَالَةَ جَدّهِ .
ثُمّ كَفَالَةَ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ .
ثُمّ ذَكَرَ قِصّةَ بُحَيْرِيّ الرّاهِبِ وَغَيْرَهَا مِنْ الْآيَاتِ .
<17> ثُمّ ذَكَرَ تَزَوّجَهُ خَدِيجَةَ وَمَا ذَكَـرَ لَهَـا غُلَامَهَـا مَيْسَـرَةَ وَمَـا ذَكَرَتْهُ هِيَ لِوَرَقَةِ وَقَوْلَ وَرَقَةَ
لَجَجْت وَكُنْت فِي الذّكْرَى لَجُوجًا

لِهَمّ طَالَمَا بُعِثَ النّشِيجَا
إلَى آخِرِهَا . ثُمّ ذَكَرَ حِكْمَةَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَيْنَ قُرَيْشٍ فِـي الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ عِنْدَ بِنَائِهِمْ الْكَعْبَةَ . وَذَكَرَ قِصّةَ بِنَائِهَا .
وَذَكَرَ أَمْرَ الْخُمْسِ وَقَالَ إنّ قُرَيْشًـا ابْتَـدَعَتْهُ رَأْيًـا رَأَوْهُ . فَقَـالُوا : نَحْنُ بَنُو إبْرَاهِيمَ وَأَهْلُ الْحَـرَمِ ، وَوُلَاةُ الْبَيْـتِ . فَلَيْـسَ لِأَحَـدٍ مِـنْ الْعَرَبِ مِثْلُ حَقّنَا . فَلَا تُعَظّمُوا أَشْيَاءَ مِـنْ الْحِـلّ مِثْلَمَـا تُعَظّمُـونَ الْحَرَمَ ، لِئَلّا تَسْتَخِفّ الْعَرَبُ بِحُرْمَتِكُمْ . فَتَرَكُـوا الْوُقُـوفَ بِعَرَفَـةَ وَالْإِفَاضَةَ مِنْهَا ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ أَنّهَا مِنْ الْمَشَاعِرِ وَمِنْ دِينِ إبْرَاهِيمَ . وَيَرَوْنَ لِسَـائِرِ الْعَـرَبِ أَنْ يَقِفُـوا بِهَـا ، وَيُفِيضُـوا مِنْهَـا ، إلّا أَنّهُـمْ قَالُوا : نَحْـنُ أَهْـلُ الْحَـرَمِ . فَلَا يَنْبَغِـي لَنَـا أَنْ نَخْـرُجَ مِنْـهُ . نَحْـنُ الْخُمْسُ و " الْخُمْسُ " أَهْلُ الْحَرَمِ .
ثُمّ جَعَلُوا لِمَنْ وُلِدُوا مِنْ الْعَرَبِ مِنْ أَهْـلِ الْحَـرَمِ : مِثْـلَ مَـا لَهُـمْ بِوِلَادَتِهِمْ إيّاهُمْ يَحِلّ لَهُمْ مَا يَحِلّ لَهُـمْ . وَيَحْـرُمُ عَلَيْهِـمْ مَـا يَحْـرُمُ عَلَيْهِمْ .
وَكَانَتْ كِنَانَةُ وَخُزَاعَةُ قَدْ دَخَلُوا مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ .
ثُمّ ابْتَدَعُوا فِي ذَلِكَ أُمُورًا ، فَقَالُوا : لَا يَنْبَغِـي لِلْحُمْـسِ أَنْ يَقِطُـوا الْأَقِطَ وَلَا أَنْ يَسُلّوا السّمْنَ وَهُمْ حُرُمٌ وَلَا يُدْخِلُوا بَيْتًا مِنْ شَعْرٍ وَلَا يَسْتَظِلّوا إلّا فِي بُيُوتِ الْأَدَمِ مَا دَامُوا حُرُمًا . ثُمّ قَـالُوا : لَا يَنْبَغِـي لِأَهْلِ الْحِلّ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِ جَاءُوا بِهِ مِنْ الْحِلّ إلَـى الْحَـرَمِ ، إذَا جَاءُوا حُجّاجًا أَوْ عُمّـارًا ، وَلَا يَطُوفُـوا بِـالْبَيْتِ إذَا قَـدِمُوا - أَوّلَ طَوَافِهِمْ - إلّا فِي ثِيَابِ الْحُمْسِ . فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْهَا شَيْئًا طَـافُوا بِالْبَيْتِ عُرَاةً فَإِنْ لَمْ يَجِدْ الْقَـادِمُ ثِيَـابَ أَحْمُـسَ طَـافَ فِـي ثِيَـابِهِ وَأَلْقَاهَا إذَا فَرَغَ . وَلَمْ يَنْتَفِـعْ بِهَـا وَلَا أَحَـدٌ غَيْـرُهُ . فَكَـانَتْ الْعَـرَبُ تُسَمّيهَا " اللّقَى " وَحَمَلُوا عَلَى ذَلِكَ الْعَرَبُ . فَدَانَتْ <18> بِهِ .
أَمّا الرّجَالُ فَيَطُوفُونَ عُرَاةً وَأَمّا النّسَاءُ فَتَضَعُ الْمَرْأَةُ ثِيَابَهَـا كُلّهَـا إلّا دِرْعًا مُفَرّجًا ثُمّ تَطُوفُ فِيهِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ وَهِيَ تَطُوفُ
الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلّهُ

وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلّهُ
فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ حَتّى جَاءَ اللّهُ بِالْإِسْلَامِ فَأَنْزَلَ اللّهُ (2 : 196) ثُمّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النّاسُ وَأَنْزَلَ فِيمَا حَرّمُوا (7 : 26 -

33) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ إلَى قَوْلِهِ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلّ مَسْجِدٍ إلَى قَوْلِهِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَذَكَرَ حُدُوثَ الرّجُومِ . وَإِنْذَارَ الْكُهّانِ بِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَنُزُولُ سُورَةِ الْجِنّ وَقِصّتِهِمْ .

ثُمّ ذَكَرَ إنْذَارَ الْيَهُودِ ، وَأَنّهُ سَبَبُ إسْلَامِ الْأَنْصَارِ ، وَمَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ الْقُرْآنِ . وَقِصّةَ ابْنِ الْهَيْبَانِ وَقَوْلَهُ " يَا مَعْشَرَ يَهُودَ مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ ؟ " وَقَوْلُهُ " إنّمَا قَدِمْت هَذِهِ الْبَلْدَةَ أَتَوَكّفُ خُرُوجَ نَبِيّ قَدْ أَظَلّ زَمَانَهُ . وَهَذِهِ الْبَلْدَةُ مُهَاجِرَةٌ " إلَى آخِرِهَا .

ثُمّ ذَكَرَ قِصّةَ إسْلَامِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . ثُمّ ذَكَرَ الْأَرْبَعَةَ الْمُتَفَرّقِينَ عَنْ الشّرْكِ فِي طَلَبِ الدّينِ الْحَقّ وَهُمْ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، وَعُبَيْدُ اللّهِ بْنُ جَحْشٍ ، وَعُثْمَانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ ، وَزَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ .

ثُمّ ذَكَرَ وَصِيّةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السّلَامُ بِاتّبَاعِ مُحَمّدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا أَخَذَ اللّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ الْإِيمَانِ بِهِ وَالنّصْرِ لَهُ وَأَنْ يُؤَدّوهُ إلَى أُمَمِهِمْ . فَأَدّوْا ذَلِكَ . وَهُوَ قَوْلُ اللّهِ تَعَالَى (3 : 81) وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النّبِيّينَ - الْآيَةَ .

<19> ثُمّ ذَكَرَ قِصّةَ بَدْءِ الْوَحْيِ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَالْقِصّةَ فِي الصّحِيحَيْنِ [10]- وَفِيهَا " أَنّ أَوّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ إلَى قَوْلِهِ مَا لَمْ يَعْلَمْ ثُمّ أُنْزِلَ عَلَيْهِ (74 : 1 - 7) يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبّكَ فَكَبّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهّرْ وَالرّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبّكَ فَاصْبِرْ فَمَنْ فَهِمَ أَنّ هَذِهِ أَوّلُ آيَةٍ أَرْسَلَهُ اللّهُ بِهَا ، عَرَفَ أَنّ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُ أَنْ يُنْذِرَ النّاسَ عَنْ الشّرْكِ الّذِي يَعْتَقِدُونَ أَنّهُ عِبَادَةُ الْأَوْلِيَاءِ لِيُقَرّبُوهُمْ إلَى اللّهِ قَبْلَ إنْذَارِهِ عَنْ نِكَاحِ الْأُمّهَاتِ وَالْبَنَاتِ وَعَرَفَ أَنّ قَوْلَهُ تَعَالَى وَرَبّكَ فَكَبّرْ أَمْرٌ بِالتّوْحِيدِ قَبْلَ الْأَمْرِ بِالصّلَاةِ وَغَيْرِهَا .

وَعَرَفَ قَدْرَ الشّرْكِ عِنْدَ اللّهِ وَقَدْرَ التّوْحِيدِ . فَلَمّا أَنْذَرَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ النّاسَ اسْتَجَابَ لَهُ قَلِيلٌ . وَأَمّا الْأَكْثَرُ فَلَمْ يَتّبِعُوا وَلَمْ يُنْكِرُوا ، حَتّى بَادَأَهُمْ بِالتّنْفِيرِ عَنْ دِينِهِمْ وَبَيَانِ نَقَائِصِهِ وَعَيْبِ آلِهَتِهِمْ . فَاشْتَدّتْ عَدَاوَتُهُمْ لَهُ وَلِمَنْ تَبِعَهُ . وَعَذّبُوهُمْ عَذَابًا

---

[10] () وهو خَبَرُ بَدءُ الوَحِي ؛ أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 3 وغيرهُ) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 160) مِن حديثِ عائِشَة رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا مُطَوّلا .

شَدِيدًا ، وَأَرَادُوا أَنْ يَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ . فَمَنْ فَهِمَ هَذَا : عَرَفَ أَنّ الْإِسْلَامَ لَا يَسْتَقِيمُ إلّا بِالْعَدَاوَةِ لِمَنْ تَرَكَهُ وَعَيَّبَ دِينَهُ وَإِلّا لَوْ كَانَ لِأُولَئِكَ الْمُعَذّبِينَ رُخْصَةٌ لَفَعَلُوا . وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَا يَطُولُ وَصْفُهُ .

وَقَصّ اللّهُ سُبْحَانَهُ بَعْضَهُ فِي كِتَابِهِ . وَمِنْ أَشْهَرِ ذَلِكَ قِصّةُ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ لَمّا حَمَاهُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَعِيَالِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَقَاسَى فِي ذَلِكَ الشّدَائِدَ الْعَظِيمَةَ . وَصَبَرَ عَلَيْهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ مُصَدّقًا لَهُ وَمَادِحًا لِدِينِهِ مُحِبّا لِمَنْ اتّبَعَهُ مُعَادِيًا لِمَنْ عَادَاهُ لَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ وَلَمْ يَتَبَرّأْ مِنْ دِينِ آبَائِهِ . وَاعْتَذَرَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنّهُ لَا يَرْضَى بِمِسَبّةِ آبَائِهِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَاتّبَعَهُ وَلَمّا مَاتَ - وَأَرَادَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ [11] - أَنَزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ (9 : 113) مَا كَانَ لِلنّبِيّ وَالّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ أَنّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

فَيَا لَهَا مِنْ عِبْرَةٍ مَا أَبْيَنَهَا وَمِنْ عِظَةٍ مَا أَبْلَغَهَا وَمِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهِ لِمَا يَظُنّ كَثِيرٌ مِمّنْ يَدّعِي اتّبَاعَ الْحَقّ فِيمَنْ أَحَبّ الْحَقّ وَأَهْلَهُ مِنْ غَيْرِ اتّبَاعٍ لِلْحَقّ لِأَجْلِ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ الدّنْيَا . <20>

وَمِمّا وَقَعَ أَيْضًا : قِصّتُهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَعَهُمْ - لَمّا قَرَأَ سُورَةَ النّجْمِ بِحَضْرَتِهِمْ - فَلَمّا وَصَلَ إلَى قَوْلِهِ (53 : 19 ، 20) أَفَرَأَيْتُمُ اللّاتَ وَالْعُزّى وَمَنَاةَ الثّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي تِلَاوَتِهِ تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى ، وَإِنّ شَفَاعَتَهُنّ لَتُرْتَجَى . وَظَنّوا أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَهُ فَفَرِحُوا بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَتَلَقّاهَا الصّغِيرُ وَالْكَبِيرُ مِنْهُمْ وَقَالُوا كَلَامًا مَعْنَاهُ هَذَا الّذِي نُرِيدُ نَحْنُ نَقْرَأُ أَنّ اللّهَ هُوَ الْخَالِقُ الرّازِقُ الْمُدَبّرُ لِلْأُمُورِ وَلَكِنْ نُرِيدُ شَفَاعَتَهَا عِنْدَهُ . فَإِذَا أَقَرّ بِذَلِكَ فَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَيّ خِلَافٍ . وَاسْتَمَرّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقْرَؤُهَا ، فَلَمّا بَلَغَ السّجْدَةَ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ [12] . وَشَاعَ الْخَبَرُ : أَنّهُمْ صَافَوْهُ . حَتّى إنّ الْخَبَرَ وَصَلَ إلَى الصّحَابَةِ الّذِينَ بِالْحَبَشَةِ فَرَكِبُوا بِالْبَحْرِ

---

[11] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 1360 و 3884 وغيره) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 24 و 40) .

[12] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 1071 و 4862) والتِّرمِذي (بِرَقْمِ : 575) وابنُ حِبَّان (بِرَقْمِ : 2763) مِن حدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .
ونحوهُ مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 1070 و 3853) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 576) .

رَاجِعِينَ لِظَنِّهِمْ أَنّ ذَلِكَ صِدْقٌ . فَلَمّا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَافَ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ فَخَافَ مِنْ اللّهِ خَوْفًا عَظِيمًا ، حَتّى أَنَزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ (22 -ـ 55) ـ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ - إلَى قَوْلِهِ - عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ـ

فَمَنْ عَرَفَ هَذِهِ الْقِصّةَ وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ الْيَوْمَ وَمَا قَالَهُ وَيَقُولُهُ عُلَمَاؤُهُمْ وَلَمْ يُمَيّزْ بَيْنَ الْإِسْلَامِ الّذِي أَتَى بِهِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَبَيْنَ دِينِ قُرَيْشٍ الّذِي أَرْسَلَ اللّهُ رَسُولَهُ يُنْذِرُهُمْ عَنْهُ وَهُوَ الشّرْكُ الْأَكْبَرُ فَأَبْعَدَهُ اللّهُ فَإِنّ هَذِهِ الْقِصّةَ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ إلّا مَنْ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَذَلِكَ لَا حِيلَةَ فِيهِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَفْهَمْ النّاسِ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْفَهْمِ الّذِينَ لَمْ يُوَفّقُوا (46 -ـ 26) وَلَقَدْ مَكّنّاهُمْ فِيمَا إنْ مَكّنّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ الْآيَةُ .

ثُمّ لَمّا أَرَادَ اللّهُ إظْهَارَ دِينِهِ ، وَإِعْزَازَ الْمُسْلِمِينَ أَسْلَمَ الْأَنْصَارُ - أَهْلُ الْمَدِينَةِ - بِسَبَبِ الْعُلَمَاءِ الّذِينَ عِنْدَهُمْ مِنْ الْيَهُودِ . وَذِكْرِهِمْ لَهُمْ النّبِيّ وَصِفَتَهُ وَأَنّ هَذَا زَمَانُهُ وَقَدّرَ اللّهُ سُبْحَانَهُ أَنّ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءُ الّذِينَ يَتَمَنّوْنَ ظُهُورَهُ وَيَنْتَظِرُونَهُ ويتوعدونهم بِهِ - لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنّ الْعِزّ لِمَنْ اتّبَعَهُ - يُكَفّرُونَ بِهِ وَيُعَادُونَهُ . فَهُوَ قَوْلُ اللّهِ سُبْحَانَهُ (2 : 89) وَلَمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

<21> فَلَمّا أَسْلَمَ الْأَنْصَارُ : أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ كَانَ بِمَكّةَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ . فَهَاجَرُوا إلَيْهَا . وَأَعَزّهُمْ اللّهُ تَعَالَى بَعْدَ تِلْكَ الذّلّةِ . فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (8 : 26) وَاذْكُرُوا إذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطّفَكُمُ النّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيّدَكُمْ بِنَصْرِهِ - الْآيَةَ .

وَفَوَائِدُ الْهِجْرَةِ وَالْمَسَائِلُ الّتِي فِيهَا كَثِيرَةٌ لَكِنْ نَذْكُرُ مِنْهَا مَسْأَلَةً وَاحِدَةً . وَهِيَ أَنّ نَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا ، كَرَاهَةَ مُفَارَقَةِ الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ وَالْأَقَارِبِ فَهُوَ قَوْلُ اللّهِ تَعَالَى (9 : 24) قُلْ إنْ كَانَ

آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

فَلَمّا خَرَجَتْ قُرَيْشٌ إلَى بَدْرٍ خَرَجُوا مَعَهُمْ كُرْهًا . فَقُتِلَ بَعْضُهُمْ بِالرّمْيِ فَلَمّا عَلِمَ الصّحَابَةُ أَنّ فُلَانًا قُتِلَ وَفُلَانًا قُتِلَ تَأَسّفُوا عَلَى ذَلِكَ وَقَالُوا : قَتَلْنَا إخْوَانَنَا . فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِيهِمْ (4 : 97 - 100) إنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ - إلَى قَوْلِهِ - وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . فَلْيَتَأَمّلْ النّاصِحُ لِنَفْسِهِ هَذِهِ الْقِصّةَ وَمَا أَنَزَلَ اللّهُ فِيهَا مِنْ الْآيَاتِ .

فَإِنّ أُولَئِكَ لَوْ تَكَلّمُوا بِكَلَامِ الْكُفْرِ وَفَعَلُوا كُفْرًا ظَاهِرًا يُرْضُونَ بِهِ قَوْمَهُمْ لَمْ يَتَأَسّفْ الصّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ . لِأَنّ اللّهَ بَيّنَ لَهُمْ - وَهُمْ بِمَكّةَ - لَمّا عُذّبُوا قَوْلَهُ تَعَالَى (16 : 106) مَنْ كَفَرَ بِاللّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالْإِيمَانِ فَلَوْ سَمِعُوا عَنْهُمْ كَلَامًا أَوْ فِعْلًا يُرْضُونَ بِهِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْرِ إكْرَاهٍ مَا كَانُوا يَقُولُونَ " قَتَلْنَا إخْوَانَنَا " . وَيُوَضّحُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ وَلَمْ يَقُولُوا : كَيْفَ عَقِيدَتُكُمْ ؟ أَوْ كَيْفَ فِعْلُكُمْ ؟ بَلْ . قَالُوا : فِي أَيّ الْفَرِيقَيْنِ كُنْتُمْ ؟ فَاعْتَذَرُوا بِقَوْلِهِمْ كُنّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ <22> فَلَمْ تُكَذّبْهُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا ، بَلْ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ؟ وَيُوَضّحُهُ قَوْلُهُ (4 : 99) إلّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرّجَالِ وَالنّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّا غَفُورًا

فَهَذَا فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي السّابِقِينَ الْأَوّلِينَ مِنْ الصّحَابَةِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِمْ ؟ . وَلَا يَفْهَمُ هَذَا إلّا مَنْ فَهِمَ أَنّ أَهْلَ الدّينِ الْيَوْمَ لَا يَعُدّونَهُ ذَنْبًا . فَإِذَا فَهِمْت مَا أَنَزَلَ اللّهُ فَهْمًا جَيّدًا . وَفَهِمْت مَا عِنْدَ مَنْ يَدّعِي الدّينَ الْيَوْمَ تَبَيّنَ لَك أُمُورٌ مِنْهَا : أَنّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ . فَإِنّ هَذِهِ وَأَمْثَالَهَا : لَا تُعْرَفُ إلّا بِالتّنْبِيهِ . فَإِذَا كَانَتْ قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَى الصّحَابَةِ قَبْلَ نُزُولِ الْآيَةِ فَكَيْفَ بِغَيْرِهِمْ ؟ . وَمِنْهَا : أَنّك تَعْرِفُ أَنّ الْإِيمَانَ لَيْسَ كَمَا يَظُنّهُ غَالِبُ النّاسِ الْيَوْمَ بَلْ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيّ - فِيمَا رَوَى عَنْهُ الْبُخَارِيّ لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتّحَلّي وَلَا بِالتّمَنّي ، وَلَكِنْ مَا

وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدّقَتْهُ الْأَعْمَالُ . نَسْأَلُ اللّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا عِلْمًا نَافِعًا ، وَيُعِيذَنَا مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ . قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَا بُنَيّ لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكُونَ مَالُك وَوَلَدُك ، وَلَكِنّ الْخَيْرَ أَنْ تَعْقِلَ عَنْ اللّهِ ثُمّ تُطِيعَهُ
وَلَمّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ إلَى الْمَدِينَةِ ، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ : شَرَعَ اللّهُ لَهُمْ الْجِهَادَ . وَقَبْلَ ذَلِكَ نُهُوا عَنْهُ وَقِيلَ لَهُمْ (4 : 77) كُفّوا أَيْدِيَكُمْ فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (3 : 216) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرّ لَكُمْ وَاَللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَبَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلّهِ تَعَالَى ، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ فَشَكَرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ وَنَصَرَهُمْ عَلَى مَنْ عَادَاهُمْ مَعَ قِلّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَكَثْرَةِ عَدُوّهِمْ وَقُوّتِهِمْ .
فَمِنْ الْوَقَائِعِ الْمَشْهُورَةِ الّتِي أَنَزَلَ اللّهُ فِيهَا الْقُرْآنَ وَقْعَةُ بَدْرٍ ، قَدْ أَنَزَلَ اللّهُ <23> فِيهَا سُورَةُ الْأَنْفَالِ وَبَعْدَهَا وَقْعَةُ قَيْنُقَاعَ ثُمّ وَقْعَةُ أُحُدٍ بَعْدَ سَنَةٍ وَفِيهَا الْآيَاتُ الّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ ، وَبَعْدَهَا وَقْعَةُ بَنِي النّضِيرِ ، وَفِيهَا الْآيَاتُ الّتِي فِي سُورَةِ الْحَشْرِ ثُمّ وَقْعَةُ الْخَنْدَقِ ، وَبَنِيّ قُرَيْظَةَ . وَفِيهَا الْآيَاتُ الّتِي فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ . ثُمّ وَقْعَةُ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَفَتْحُ خَيْبَرَ . وَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا سُورَةَ الْفَتْحِ . وَفَتْحَ مَكّةَ . وَوَقْعَةَ حُنَيْنٍ ، وَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا سُورَةَ النّصْرِ .
حُنَيْنٍ وَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا سُورَةَ النّصْرِ .
وَذَكَرَ حُنَيْنَ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ . ثُمّ غَزْوَةَ تَبُوكَ وَذَكَرَهَا اللّهُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ . وَلَمّا دَانَتْ لَهُ الْعَرَبُ ، وَدَخَلُوا فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجًا ، وَابْتَدَأَ فِي قِتَالِ الْعَجَمِ : اخْتَارَ اللّهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ . فَتُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعْدَمَا أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ . وَقَدْ بَلّغَ الرّسَالَةَ وَأَدّى الْأَمَانَةَ . فَوَقَعَتْ الرّدّةُ الْمَشْهُورَةُ .
وَذَلِكَ أَنّهُ لَمّا مَاتَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ارْتَدّ غَالِبُ مَنْ أَسْلَمَ وَحَصَلَتْ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ ثَبّتَ اللّهُ فِيهَا مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالثّبَاتِ بِسَبَبِ أَبِي بَكْرٍ الصّدّيقِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فَإِنّهُ قَامَ فِيهَا قِيَامًا لَمْ يُدَانِهِ فِيهَا أَحَدٌ مِنْ الصّحَابَةِ ذَكّرَهُمْ فِيهِ مَا نَسُوا . وَعَلّمَهُمْ مَا جَهِلُوا . وَشَجّعَهُمْ لَمّا جَبُنُوا . فَثَبّتَ اللّهُ بِهِ دِينَ الْإِسْلَامِ . جَعَلَنَا اللّهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَأَتْبَاعِ مَا حَمَلَهُ أَصْحَابُهُ .

قَالَ اللّهُ تَعَالَى (5 : 35) يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبّهُمْ وَيُحِبّونَهُ أَذِلّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ - الْآيَةَ قَالَ الْحَسَنُ : هُمْ وَاَللّهِ أَبُو بَكْرٍ وَأَصْحَابُهُ .
قِتَالُ أَهْلِ الرّدّةِ
وَصُورَةُ الرّدّةِ أَنّ الْعَرَبَ افْتَرَقَتْ فِي رِدّتِهَا . فَطَائِفَةٌ رَجَعَتْ إلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ . وَقَالُوا : لَوْ كَانَ نَبِيّا لَمَا مَاتَ . وَفِرْقَةٌ قَالَتْ نُؤْمِنُ بِاَللّهِ وَلَا نُصَلّي . وَطَائِفَةٌ أَقَرّوا بِالْإِسْلَامِ وَصَلّوْا . وَلَكِنْ مَنَعُوا الزّكَاةَ . وَطَائِفَةٌ شَهِدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ وَأَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللّهِ . وَلَكِنْ صَدّقُوا مُسَيْلِمَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَشْرَكَهُ مَعَهُ النّبُوّةَ . وَذَلِكَ أَنّهُ أَقَامَ شُهُودًا مَعَهُ بِذَلِكَ . وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعْرُوفٌ بِالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ يُقَالُ لَهُ الرّجّالُ فَصَدّقُوهُ لِأَجْلِ مَا عَرَفُوا فِيهِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ . فَفِيهِ <24>
يَقُولُ بَعْضُهُمْ مِمّنْ ثَبَتَ مِنْهُمْ
يَا سُعَادَ الْفُؤَادِ بِنْتَ أَثَالٍ

طَالَ لَيْلِي بِفِتْنَةِ الرّجّالِ
فَتَنَ الْقَوْمَ بِالشّهَادَةِ وَاللـ

ـهُ عَزِيزٌ ذُو قُوّةٍ وَمِحَالِ
وَقَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، صَدّقُوا الْأَسْوَدَ الْعَنْسِيّ فِي ادّعَائِهِ النّبُوّةَ . وَقَوْمٌ صَدّقُوا طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيّ . وَلَمْ يَشُكّ أَحَدٌ مِنْ الصّحَابَةِ فِي كُفْرِ مَنْ ذَكَرْنَا ، وَوُجُوبِ قِتَالِهِمْ إلّا مَانِعَ الزّكَاةِ وَلَمّا عَزَمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَلَى قِتَالِهِمْ .
قِيلَ لَهُ كَيْفَ تُقَاتِلُهُمْ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النّاسَ حَتّى يَقُولُوا : لَا إلَهَ إلّا اللّهُ . فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلّا بِحَقّهَا ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ فَإِنّ الزّكَاةَ مِنْ حَقّهَا ، وَاَللّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدّونَهُ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَقَاتَلْتهمْ عَلَى مَنْعِهِ [13] .

---

[13] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 25) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 21 وغيره) مِن حديثِ أَبِي هريرةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

ثُمّ زَالَتْ الشّبْهَةُ عَنْ الصّحَابَةِ رَضِيَ اللّـهُ عَنْهُـمْ وَعَرَفُـوا وُجُـوبَ قِتَالِهِمْ فَقَاتَلُوهُمْ وَنَصَرَهُمْ اللّهُ عَلَيْهِـمْ . فَقَتَلُـوا مَـنْ قَتَلُـوا مِنْهُـمْ وَسَبَوْا نِسَاءَهُمْ وَعِيَالَهُمْ . فَمِنْ أَهَمّ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ الْيَوْمَ تَأَمّـلُ هَذِهِ الْقِصّةِ الّتِـي جَعَلَهَـا اللّـهُ مِـنْ حُجَجِـهِ عَلَـى خَلْقِـهِ إلَـى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ . فَمَنْ تَأَمّلَ هَذَا تَأَمّلًا جَيّـدًا - خُصُوصًـا إذَا عَـرَفَ أَنّ اللّـهَ شَهَرَهَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامّةِ .

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْوِيبِ أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِـكَ وَجَعَلُـوا مِـنْ أَكْبَـرِ فَضَائِلِهِ وَعِلْمِهِ أَنّهُ لَمْ يَتَوَقّفْ فِي قِتَالِهِمْ بَلْ قَاتَلَهُمْ مِنْ أَوّلِ وَهْلَةٍ . وَعَرَفُوا غَزَارَةَ فَهْمِهِ فِي اسْتِدْلَالِهِ عَلَيْهِمْ بِالـدّلِيلِ الّـذِي أَشْـكِلَ عَلَيْهِمْ . فَرُدّ عَلَيْهِمْ . بِدَلِيلِهِمْ بِعَيْنِهِ مَعَ أَنّ الْمَسْأَلَةَ مُوَضّـحَةٌ فِـي الْقُرْآنِ وَالسّنّةِ . أَمّا الْقُرْآنُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى (9 ـ 5) ـ فَإِذَا انْسَـلَخَ الْأَشْـهُرُ الْحُـرُمُ فَـاقْتُلُوا الْمُشْـرِكِينَ حَيْـثُ وَجَـدْتُمُوهُمْ وَخُـذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُـلّ مَرْصَـدٍ فَـإِنْ تَـابُوا وَأَقَـامُوا الصّـلَاةَ وَآتَوُا الزّكَاةَ فَخَلّوا سَبِيلَهُمْ

وَفِي الصّحِيحَيْنِ [14] : أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ قَـالَ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النّاسَ حَتّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ وَأَنّ مُحَمّـدًا رَسُـولُ اللّـهِ وَيُقِيمُـوا الصّـلَاةَ وَيُؤْتُـوا الزّكَـاةَ . فَـإِذَا فَعَلُـوا ذَلِـكَ عَصَمُوا مِنّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلّا بِحَقّ الْإِسْـلَامِ وَحِسَـابُهُمْ عَلَـى اللّهِ تَعَالَى <25> فَهَذَا كِتَابُ اللّهِ الصّرِيحُ لِلْعَامّيّ الْبَلِيدِ .

وَهَـذَا كَلَامُ رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . وَهَـذَا إجْمَـاعُ الْعُلَمَاءِ الّذِينَ ذَكَرْت لَك . وَالّذِي يُعَرّفُك هَـذَا جَيّـدًا : هُـوَ مَعْرِفَـةُ ضِدّهِ وَهُوَ أَنّ الْعُلَمَاءَ فِي زَمَانِنَا يَقُولُونَ مَنْ قَالَ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " فَهُوَ الْمُسْـلِمُ حَـرَامُ الْمَـالِ وَالـدّمِ لَا يُكَفّـرُ وَلَا يُقَاتَـلُ حَتّـى إنّهُـمْ يُصَرّحُونَ بِذَلِكَ فِي شَأْنِ الْبَدْوِ الّذِينَ يُكَذّبُونَ بِـالْبَعْثِ . وَيُنْكِـرُونَ الشّرَائِعَ . وَيَزْعُمُونَ أَنّ شَرْعَهُمْ الْبَاطِلُ هُوَ حَقّ اللّـهِ وَلَـوْ طَلَـبَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَصْمَهُ أَنْ يُخَاصِـمَهُ عِنْـدَ شَـرْعِ اللّـهِ لَعَـدّوهُ مِـنْ أَنْكَـرِ الْمُنْكَرَاتِ بَلْ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ إنّهُمْ يُكَفّـرُونَ بِـالْقُرْآنِ مِـنْ أَوّلِـهِ إلَـى آخِـرِهِ . وَيُكَفّـرُونَ بِـدِينِ الرّسُـولِ كُلّـهِ مَـعَ إقْرَارِهِـمْ بِـذَلِكَ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَإِقْرَارِهِمْ أَنّ شَرْعَهُمْ أَحْدَثَهُ آبَـاؤُهُمْ لَهُـمْ كُفْـرًا بِشَـرْعِ اللّهِ . وَعُلَمَاءُ الْوَقْتِ يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا كُلّهِ . وَيَقُولُونَ مَـا فِيهِـمْ مِـنْ الْإِسْلَامِ شَعْرَةٌ .

---

[14] () تَقَدَّم تَخريجُه - بِحمدِ اللهِ - .

وَهَذَا الْقَوْلُ تَلَقّتْهُ الْعَامّةُ عَنْ عُلَمَـائِهِمْ وَأَنْكَـرُوا بِـهِ مَـا بَيّنَـهُ اللّـهُ وَرَسُولُهُ . بَلْ كَفّرُوا مَنْ صَدَقَ اللّـهَ وَرَسُـولَهُ فِـي هَـذِهِ الْمَسْـأَلَةِ وَقَالُوا : مَنْ كَفّرَ مُسْلِمًا فَقَدْ كَفَرَ . وَالْمُسْلِمُ عِنْدَهُمْ الّـذِي لَيْـسَ مَعَهُ مِنْ الْإِسْلَامِ شَـعْرَةٌ إلّا أَنّـهُ يَقُـولُ بِلِسَـانِهِ " لَا إلَـهَ إلّا اللّـهُ " وَهُوَ أَبْعَدُ النّاسِ عَنْ فَهْمِهَا وَتَحْقِيقِ مَطْلُوبِهَا عِلْمًا وَعَقِيدَةً وَعَمَلًا .

فَاعْلَمْ - رَحِمَك اللّهُ - أَنّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَهَمّ الْأَشْيَاءِ كُلّهَـا عَلَيْـك . لِأَنّهَا هِيَ الْكُفْرُ وَالْإِسْلَامُ . فَـإِنْ صَـدّقْتهمْ فَقَـدْ كَفَـرْت بِمَـا أَنْـزَلَ عَلَى رَسُولِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ كَمَـا ذَكَرْنَـا لَـك مِـنْ الْقُـرْآنِ الْكَرِيـمِ وَالسّـنّةِ وَالْإِجْمَـاعِ . وَإِنْ صَـدَقْت اللّـهَ وَرَسُـولَهُ عَـادُوك وَكَفّـرُوك . وَهَـذَا الْكُفْـرُ الصّـرِيحُ بِـالْقُرْآنِ وَالرّسُـولِ فِـي هَـذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَدْ اُشْتُهِرَ فِي الْأَرْضِ مَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا . وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ إلّا أَقَلّ الْقَلِيلِ .

فَإِنْ رَجَوْت الْجَنّةَ وَخِفْت مِنْ النّارِ فَاطْلُبْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَادْرُسْهَا مِنْ الْكُتُبِ وَالسّنّةِ وَحَرّرْهَا . وَلَا تُقَصّـرْ فِـي طَلَبِهَـا ، لِأَجْـلِ شِـدّةِ الْحَاجَةِ إلَيْهَا ، وَلِأَنّهَا الْإِسْلَامُ وَالْكُفْرُ . وَقُلْ اللّهُمّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي ، وَفَهّمْنِـي عَنْـك ، وَعَلّمْنِـي مَعَـك ، <26> وَأَعِـذْنِي مِـنْ مُضِـلّاتِ الْفِتَنِ مَا أَحْيَيْتنِي . وَأَكْثَرُ الدّعَاءِ بِالـدّعَاءِ الّـذِي صَـحّ عَـنْ رَسُـولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ كَانَ يَدْعُو بِهِ فِي الصّلَاةِ ؛ وَهُـوَ : « اللّهُمّ رَبّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْـرَافِيلَ فَـاطِرَ السّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشّـهَادَةِ أَنْـتَ تَحْكُـمُ بَيْـنَ عِبَـادِك فِيمَـا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اُخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقّ بِإِذْنِك : إنّك تَهْـدِي مَـنْ تَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » [15] .

وَنَزِيدُ الْمَسْأَلَةَ إيضَاحًا وَدَلَائِلَ لِشِدّةِ الْحَاجَةِ إلَيْهَا ، فَنَقُولُ لِيَفْطِنَ الْعَاقِلُ لَقِصّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا . وَهِيَ أَنّ بَنِي حَنِيفَةَ أَشْهَرُ أَهْلِ الرّدّةِ ، وَهُمْ الّذِينَ يَعْرِفُهُمْ الْعَامّةُ مِنْ أَهْلِ الرّدّةِ . وَهُمْ عِنْدَ النّاسِ أَقْبَـحُ أَهْلِ الرّدّةِ . وَأَعْظَمُهُمْ كُفْرًا . وَهُمْ - مَعَ هَذَا - يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إلَـهَ إلّا اللّهُ وَأَنّ مُحَمّدًا رَسُـولُ اللّـهِ وَيُؤَذّنُـونَ وَيُصَـلّونَ . وَهَـذَا فَـإِنّ أَكْثَرَهُمْ يَظُنّونَ أَنّ النّبِـيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَمَرَهُـمْ بِـذَلِكَ لِأَجْلِ الشّهُودِ الّذِينَ شَهِدُوا مَعَ الرّجّالِ .

---

[15] () أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 770) مِن حديثِ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وَالَّذِي يَعْرِفُ هَذَا - وَلَا يَشُكّ فِيهِ - يَقُولُ مَنْ قَالَ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " فَهُوَ الْمُسْلِمُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مِنْ الْإِسْلَامِ شَعْرَةٌ بَلْ قَدْ تَرَكَهُ وَاسْتَهْزَأَ بِهِ مُتَعَمّدًا . فَسُبْحَانَ اللّهِ مُقَلّبَ الْقُلُوبِ كَيْفَ يَشَاءُ كَيْفَ يَجْتَمِعُ فِي قَلْبِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ - وَلَوْ كَانَ مِنْ أَجْهَلِ النّاسِ - أَنّهُ يَعْرِفُ أَنّ بَنِي حَنِيفَةَ كَفَرُوا ، مَعَ أَنّ حَالَهُمْ مَا ذَكَرْنَا . وَأَنّ الْبَدْوَ إسْلَامٌ . وَلَوْ تَرَكُوا الْإِسْلَامَ كُلّهُ وَأَنْكَرُوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ عَلَى عَمْدٍ . لِأَنّهُمْ يَقُولُونَ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " لَكِنْ أَشْهَدُ أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . نَسْأَلُهُ أَنْ يُثَبّتَ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِهِ وَلَا يَزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْهُ رَحْمَةً . إنّهُ هُوَ الْوَهّابُ .

الدّلِيلُ الثّانِي قِصّةٌ أُخْرَى وَقَعَتْ فِي زَمَنِ الْخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ وَهِيَ أَنّ بَقَايَا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ ، لَمّا رَجَعُوا إلَى الْإِسْلَامِ وَتَبَرّءُوا مِنْ مُسَيْلِمَةَ وَأَقَرّوا بِكَذِبِهِ كَبُرَ ذَنْبُهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ وَتَحَمّلُوا بِأَهْلِيهِمْ إلَى الثّغْرِ لِأَجْلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللّهِ لَعَلّ ذَلِكَ يَمْحُو عَنْهُمْ آثَارَ تِلْكَ الرّدّةِ لِأَنّ اللّهَ تَعَالَى يَقُولُ (25 : <27> 70) إلّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدّلُ اللّهُ سَيّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَيَقُولُ (30 : 82) وَإِنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمّ اهْتَدَى فَنَزَلُوا الْكُوفَةَ .

وَصَارَ لَهُمْ بِهَا مَحَلّةٌ مَعْرُوفَةٌ فِيهَا مَسْجِدٌ يُسَمّى مَسْجِدَ بَنِي حَنِيفَةَ فَمَرّ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَسْجِدِهِمْ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ . فَسَمِعُوا مِنْهُمْ كَلَامًا مَعْنَاهُ أَنّ مُسَيْلِمَةَ كَانَ عَلَى حَقّ وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرُونَ لَكِنْ الّذِي لَمْ يَقُلْهُ لَمْ يُنْكِرْهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ . فَرَفَعُوا أَمْرَهُمْ إلَى عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، فَجَمَعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ الصّحَابَةِ وَاسْتَشَارَهُمْ هَلْ يَقْتُلُهُمْ وَإِنْ تَابُوا ، أَوْ يَسْتَتِيبُهُمْ ؟ فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِقَتْلِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِتَابَةٍ . وَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِاسْتِتَابَتِهِمْ فَاسْتَتَابَ بَعْضَهُمْ وَقَتَلَ بَعْضَهُمْ وَلَمْ يَسْتَتِبْهُ .

فَتَأَمّلْ - رَحِمَك اللّهُ - إذَا كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا مِنْ الْأَعْمَالِ الصّالِحَةِ الشّاقّةِ مَا أَظْهَرُوا ، لَمّا تَبَرّءُوا مِنْ الْكُفْرِ وَعَادُوا إلَى الْإِسْلَامِ . وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ إلّا كَلِمَةٌ أَخْفَوْهَا فِي مَدْحِ مُسَيْلِمَةَ لَكِنْ سَمِعَهَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ . وَمَعَ هَذَا لَمْ يَتَوَقّفْ أَحَدٌ فِي كُفْرِهِمْ كُلّهِمْ - الْمُتَكَلّمُ وَالْحَاضِرُ الّذِي لَمْ يُنْكِرْ - وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا : هَلْ تُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ أَوْ لَا ؟ وَالْقِصّةُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيّ . فَأَيْنَ هَذَا مِنْ كَلَامِ مَنْ يَزْعُمُ أَنّهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَيَقُولُ الْيَدْوُ مَا مَعَهُمْ مِنْ الْإِسْلَامِ شَعْرَةٌ إلّا أَنّهُمْ يَقُولُونَ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " وَمَعَ ذَلِكَ يَحْكُمُ

بِاسْلَامِهِمْ بِذَلِكَ ؟ أَيْنَ هَذَا مِمّا أَجمَـعَ عَلَيْـهِ الصّـحَابَةُ فِيمَـنْ قَـالَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ أَوْ حَضَرَهَا وَلَمْ يُنْكِرْ ؟

سَارَتْ مُشَرّقَةً وَسِرْت مُغَرّبًا

شَتّانَ بَيْنَ مُشَرّقٍ وَمُغَرّبِ

رَبّنَا إنّي أَعُوذُ بِك أَنْ أَكُونَ لِمَـنْ قُلْـت فِيهِـمْ (3 ـ 17) ـ فَلَمّـا أَضَـاءَتْ مَـا حَـوْلَهُ ذَهَـبَ اللّـهُ بِنُـورِهِمْ وَتَرَكَهُـمْ فِـي ظُلُمَـاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ وَلَا مِمّنْ قُلْت فِيهِمْ (8 : 22) إنّ شَرّ الدّوَابّ عِنْدَ اللّهِ الصّمّ الْبُكْمُ الّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

الدّلِيلُ الثّالِثُ مَا وَقَعَ فِي زَمَانِ الْخُلَفَاءِ الرّاشِدِينَ قِصّـةُ أَصْـحَابِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - لَمّا اعْتَقَدُوا فِيهِ الْإِلَهِيّـةَ الّتِـي تُعْتَقَـدُ الْيَـوْمَ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَكْفَرِ بَنِي آدَمَ وَأَفْسَقِهِمْ - فَدَعَاهُمْ إلَى التّوْبَةِ فَأَبَوْا . فَحَدّ لَهُمْ <28> الْأَخَادِيدَ وَمَلَأَهَـا حَطَبًـا . وَأَضْـرَمَ فِيهَـا النّـارَ . وَقَذَفَهُمْ فِيهَـا وَهُـمْ أَحْيَـاءٌ . وَمَعْلُـومٌ أَنّ الْكَـافِرَ - مِثْـلُ الْيَهُـودِيّ وَالنّصْرَانِيّ - إذَا أَمَرَ اللّهُ بِقَتْلِهِ لَا يَجُوزُ إحْرَاقُهُ بِالنّـارِ فَعُلِـمَ أَنّهُـمْ أَغْلَظُ كُفْـرًا مِـنْ الْيَهُـودِ وَالنّصَـارَى . هَـذَا ، وَهُـوَ يَقُومُـونَ اللّيْـلَ وَيَصُـومُونَ النّهَـارَ وَيَقْـرَءُونَ الْقُـرْآنَ آخِـذِينَ لَـهُ عَـنْ أَصْـحَابِ الرّسُولِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

فَلَمّا غَلَوْا فِي عَلِـيّ ذَلِـكَ الْغُلُـوّ أَحْرَقَهُـمْ فِـي النّـارِ وَهُـمْ أَحْيَـاءٌ . وَأَجْمَعَ الصّحَابَةُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ كُلّهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ . فَأَيْنَ هَـذَا مِمّـنْ يَقُولُ فِي الْبَدْوِ تِلْكَ الْمَقَالَةَ مَعَ اعْتِرَافِـهِ بِهَـذِهِ الْقِصّـةِ وَأَمْثَالِهَـا ، وَاعْتِرَافِهِ أَنّ الْبَدْوَ كَفَرُوا بِالْإِسْلَامِ كُلّهِ إلّا أَنّهُـمْ يَقُولُـونَ لَا إلَـهَ إلّا اللّهُ ؟ . وَاعْلَمْ أَنّ جِنَايَةَ هَؤُلَاءِ إنّمَا هِيَ عَلَى الْأُلُوهِيّـةِ وَمَـا عَلِمْنَـا فِيهِمْ جِنَايَةً عَلَى النّبُـوّةِ وَالّـذِينَ قَبْلَهُـمْ جِنَـايَتُهُمْ عَلَـى النّبُـوّةِ مَـا عَلِمْنَا لَهُمْ جِنَايَةً عَلَى الْإِلَهِيّةِ . وَهَذَا مِمّا يُبَيّنُ لَك شَيْئًا مِنْ مَعْنَـى الشّهَادَتَيْنِ اللّتَيْنِ هُمَا أَصْلُ الْإِسْلَامِ .

الدّلِيلُ الرّابِعُ مَا وَقَعَ فِي زَمَنِ الصّحَابَةِ أَيْضًا وَهِيَ قِصّـةُ الْمُخْتَـارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ الثّقَفِيّ . وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ التّابِعِينَ مُصَاهِرٌ لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَعَنْ أَبِيهِ مُظْهِرٌ لِلصّلَاحِ . فَظَهَرَ فِي الْعِـرَاقِ يَطْلُبُ بِدَمِ الْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ فَقُتِلَ ابْنُ زِيَادٍ وَمَالَ إلَيْهِ مَنْ مَـالَ لِطَلَبِهِ دَمَ أَهْلِ الْبَيْـتِ مِمّـنْ ظَلَمَهُـمْ ابْـنُ زِيَـادٍ . فَاسْـتَوْلَوْا عَلَـى الْعِـرَاقِ ، وَأَظْهَـرَ شَـرَائِعَ الْإِسْـلَامِ وَنَصَـبَ الْقُضَـاةَ وَالْأَئِمّـةَ مِـنْ أَصْحَابِ ابْـنِ مَسْـعُودٍ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْـهُ . وَكَـانَ هُـوَ الّـذِي يُصَـلّي

بِالنّاسِ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ لَكِنْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ زَعَمَ أَنّهُ يُوحَى إلَيْـهِ .

فَسَيّرَ إلَيْهِ عَبْـدُ اللّـهِ بْـنُ الزّبَيْـرِ جَيْشًـا ، فَهَزَمُـوا جَيْشَـهُ وَقَتَلُـوهُ وَأَمِيـرُ الْجَيْـشِ مُصْـعَبُ بْـنُ الزّبَيْـرِ ، وَتَحْتَـهُ امْـرَأَةٌ أَبُوهَـا أَحَـدُ الصّحَابَةِ فَدَعَاهَا مُصْعَبٌ إلَى تَكْفِيرِهِ فَأَبَتْ . فَكَتَبَ إلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللّهِ يَسْتَفْتِيهِ فِيهَا فَكَتَبَ إلَيْهِ إنْ لَمْ تَبْرَأْ مِنْـهُ فَاقْتُلْهَـا . فَـامْتَنَعَتْ فَقَتَلَهَا مُصْعَبٌ . وَأَجْمَعَ الْعُلَمَـاءُ كُلّهُـمْ عَلَـى كُفْـرِ الْمُخْتَـارِ - مَـعَ إقَامَتِهِ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ - لِمَا جَنَى عَلَى النّبُوّةِ .

<29> وَإِذَا كَـانَ الصّـحَابَةُ قَتَلُـوا الْمَـرْأَةَ الّتِـي هِـيَ مِـنْ بَنَـاتِ الصّحَابَةِ لَمّا امْتَنَعَتْ مِنْ تَكْفِيرِهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يُكَفّرُوا الْبَـدْوَ مَـعَ إقْرَارِهِ بِحَالِهِمْ ؟ فَكَيْفَ بِمَنْ زَعَـمَ أَنّهُـمْ هُـمْ أَهْـلُ الْإِسْـلَامِ وَمَـنْ دَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ هُوَ الْكَافِرُ ؟ يَا رَبّنَا نَسْأَلُك الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ .

الدّلِيلُ الْخَامِسُ مَا وَقَعَ فِي زَمَنِ التّابِعِينَ وَذَلِكَ قِصّـةُ الْجَعْـدِ بْـنِ دِرْهَمٍ وَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ النّاسِ بِالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ فَلَمّا جَحَدَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللّهِ - مَعَ كَوْنِهَا مَقَالَةً خَفِيّةً عِنْدَ الْأَكْثَـرِ - ضَـحّى بِـهِ خَالِـدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ الْقَسْرِيّ يَوْمَ الْأَضْحَى ، فَقَـالَ يَـا أَيّهَـا النّـاسُ ضَـحّوا تَقَبّلَ اللّهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنّي مُضَحّ بِالْجَعْـدِ بْـنِ دِرْهَـمٍ فَـإِنّهُ زَعَـمَ أَنّ اللّهَ لَمْ يَتّخِذْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ، وَلَمْ يُكَلّـمْ مُوسَـى تَكْلِيمًـا . ثُـمّ نَـزَلَ فَذَبَحَهُ وَلَمْ يُعْلَمْ أَنّ أَحَدًا مِنْ الْعُلَمَاءِ أَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ . بَلْ ذَكَرَ ابْنُ الْقَيّمِ إجْمَاعَهُمْ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ فَقَالَ

شَكَرَ الضّحِيّةَ كُلّ صَاحِبِ سُنّةٍ

لِلّهِ دَرّك مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

فَإِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَشْهَرِ النّاسِ بِالْعِلْمِ وَالْعِبَـادَةِ أَخَـذَ الْعِلْـمَ عَـنْ الصّحَابَةِ أَجْمَعُوا عَلَى اسْتِحْسَانِ قَتْلِهِ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ اعْتِقَادِ أَعْـدَاءِ اللّهِ فِي الْبَدْوِ ؟ .

الدّلِيلُ السّادِسُ قِصّةُ بَنِي عُبَيْدٍ الْقَدّاحِ فَإِنّهُمْ ظَهَـرُوا عَلَـى رَأْسِ الْمِائَةِ الثّالِثَةِ . فَادّعَى عُبَيْدُ اللّهِ أَنّهُ مِنْ آلِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَـالِبٍ ، مِنْ ذُرّيّةِ فَاطِمَةَ وَتَزَيّا بِزَيّ أَهْلِ الطّاعَةِ وَالْجِهَادِ فِـي سَـبِيلِ اللّـهِ فَتَبِعَهُ أَقْوَامٌ مِنْ الْبَرْبَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ . وَصَارَ لَـهُ دَوْلَـةٌ كَبِيـرَةٌ فِـي الْمَغْـرِبِ وَلِأَوْلَادِهِ مِـنْ بَعْـدِهِ . ثُـمّ مَلَكُـوا مِصْـرَ وَالشّـامَ ، وَأَظْهَرُوا شَرَائِعَ الْإِسْـلَامِ و أَقَـامُوا الْجُمُعَـةَ وَالْجَمَاعَـةَ . وَنَصَـبُوا

الْقُضَاةَ وَالْمُفْتِينَ . لَكِنْ أَظْهَرُوا الشِّرْكَ وَمُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ وَظَهَرَ مِنْهُمْ مَا يَدُلّ عَلَى نِفَاقِهِمْ وَشِدّةِ كُفْرِهِمْ . فَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنّهُمْ كُفّارٌ وَأَنّ دَارَهُمْ دَارُ حَرْبٍ مَعَ إظْهَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ .
وَفِي مِصْرَ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ أُنَاسٌ كَثِيرٌ وَأَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرَ لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيمَا - 30 - أَحْدَثُوا مِنْ الْكُفْرِ . وَمَعَ ذَلِكَ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ حَتّى إنّ بَعْضَ أَكَابِرِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمَعْرُوفِينَ بِالصّلَاحِ قَالَ لَوْ أَنّ مَعِي عَشَرَةَ أَسْهُمٍ لَرَمَيْت بِوَاحِدٍ مِنْهَا النّصَارَى الْمُحَارِبِينَ . وَرَمَيْت بِالتّسْعَةِ بَنِي عُبَيْدٍ .
وَلَمّا كَانَ زَمَانُ السّلْطَانِ مَحْمُودِ بْنِ زِنْكِي أَرْسَلَ إلَيْهِمْ جَيْشًا عَظِيمًا بِقِيَادَةِ صَلَاحِ الدّينِ . فَأَخَذُوا مِصْرَ مِنْ أَيْدِيهِمْ . وَلَمْ يَتْرُكُوا جِهَادَهُمْ بِمِصْرِ لِأَجْلِ مَنْ فِيهَا مِنْ الصّالِحِينَ .
فَلَمّا فَتَحَهَا السّلْطَانُ مَحْمُودٌ فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ أَشَدّ الْفَرَحِ . وَصَنّفَ ابْنُ الْجَوْزِيّ فِي ذَلِكَ كِتَابًا سَمّاهُ " النّصْرُ عَلَى مِصْرَ " .
وَأَكْثَرُ عُلَمَاءِ التّصْنِيفِ وَالْكَلَامِ فِي كُفْرِهِمْ مَعَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إظْهَارِهِمْ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظّاهِرَةِ .
فَانْظُرْ مَا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ دِينِنَا : أَنّ الْبَدْوَ إسْلَامٌ مَعَ مَعْرِفَتِنَا بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْبَرَاءَةِ مِنْ الْإِسْلَامِ كُلّهِ إلّا قَوْلَ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " وَلَا تَظُنّ أَنّ أَحَدًا مِنْهُمْ يَكْفُرُ إلّا إنْ انْتَقَلَ يَهُودِيّا أَوْ نَصْرَانِيّا .
فَإِنْ آمَنْت بِمَا ذَكَرَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَبِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ وَتَبَرّأْت مِنْ دِينِ آبَائِك فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَقُلْت : آمَنْت بِاَللّهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللّهُ وَتَبَرّأْت مِمّنْ خَالَفَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، مُخْلِصًا لِلّهِ الدّينَ فِي ذَلِكَ . وَعَلِمَ اللّهُ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِك ، فَأَبْشِرْ . وَلَكِنْ اسْأَلْ اللّهَ التّثْبِيتَ . وَاعْرِفْ أَنّهُ مُقَلّبُ الْقُلُوبِ .
الدّلِيلُ السّابِعُ قِصّةُ التّتَارِ وَذَلِكَ أَنّهُمْ بَعْدَ مَا فَعَلُوا بِالْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا ، وَسَكَنُوا بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ وَعَرَفُوا دِينَ الْإِسْلَامِ اسْتَحْسَنُوهُ وَأَسْلَمُوا . لَكِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ شَرَائِعِهِ . وَأَظْهَرُوا أَشْيَاءَ مِنْ الْخُرُوجِ عَلَى الشّرِيعَةِ لَكِنّهُمْ كَانُوا يَتَلَفّظُونَ بِالشّهَادَتَيْنِ وَيُصَلّونَ الصّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَالْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ . وَلَيْسُوا كَالْبَدْوِ وَمَعَ هَذَا كَفّرَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَقَاتَلُوهُمْ وَغَزَوْهُمْ . حَتّى أَزَالَهُمْ اللّهُ عَنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ . <31> وَفِيمَا ذَكَرْنَا كِفَايَةٌ لِمَنْ هَدَاهُ اللّهُ .

وَأَمّا مَنْ أَرَادَ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَوْ تَنَاطَحَتْ الْجِبَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ ، وَلَوْ ذَكَرْنَا مَا جَرَى مِنْ السّلَاطِينِ وَالْقُضَاةِ مِنْ قَتْلِ مَنْ أَتَى بِأُمُورٍ يَكْفُرُ بِهَا - وَلَوْ كَانَ يُظْهِرُ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ - وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْبَيِّنَةُ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِلْقَتْلِ مَعَ أَنَّ فِي هَؤُلَاءِ الْمَقْتُولِينَ مَنْ كَانَ مِنْ أَعْلَمْ النّاسِ وَأَزْهَدِهِمْ وَأَعْبَدِهِمْ فِي الظّاهِرِ مِثْلُ الْحَلّاجِ وَأَمْثَالِهِ وَمَنْ هُوَ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُصَنّفِينَ كَالْقَفِيهِ عُمَارَةَ .

فَلَوْ ذَكَرْنَا قَصَصَ هَؤُلَاءِ لَاحْتَمَلَ مُجَلّدَاتٍ . وَلَا نَعْرِفُ فِيهِمْ رَجُلًا وَاحِدًا بَلَغَ كُفْرُهُ كُفْرَ الْبَدْوِ الّذِينَ يَقُولُ عَنْهُمْ - مَنْ يَزْعُمُ إسْلَامَهُمْ - إنّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنْ الْإِسْلَامِ شَعْرَةٌ إلّا قَوْلُ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " وَلَكِنْ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُرْشِدًا .

وَالْعَجَبُ أَنّ الْكُتُبَ الّتِي بِأَيْدِيهِمْ وَالّتِي يَزْعُمُونَ أَنّهُمْ يَعْرِفُونَهَا وَيَعْلَمُونَ بِهَا : فِيهَا مَسَائِلُ الرّدّةِ .

وَتَمَامُ الْعَجَبِ أَنّهُمْ يَعْرِفُونَ بَعْضَ ذَلِكَ وَيُقِرّونَ بِهِ وَيَقُولُونَ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ كَفَرَ . وَمَنْ شَكّ فِيهِ كَفَرَ . وَمَنْ سَبّ الشّرْعَ كَفَرَ . وَمَنْ أَنْكَرَ فَرْعًا مُجْمَعًا عَلَيْهِ كَفَرَ . كُلّ هَذَا يَقُولُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ .

فَإِذَا كَانَ مَنْ أَنْكَرَ الْأَكْلَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْكَرَ النّهْيَ عَنْ إسْبَالِ الثّيَابِ أَوْ أَنْكَرَ سُنّةَ الْفَجْرِ أَوْ الْوِتْرِ فَهُوَ كَافِرٌ . وَيُصَرّحُونَ أَنّ مَنْ أَنْكَرَ الْإِسْلَامَ كُلّهُ وَكَذّبَ بِهِ وَاسْتَهْزَأَ بِمَنْ صَدّقَهُ فَهُوَ أَخُوك الْمُسْلِمُ حَرَامُ الدّمِ وَالْمَالِ مَا دَامَ يَقُولُ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " ثُمّ يُكَفّرُونَنَا ، وَيَسْتَحِلّونَ دِمَاءَنَا وَأَمْوَالَنَا ، مَعَ أَنّا نَقُولُ " لَا إلَهَ إلّا اللّهُ " فَإِذَا سُئِلُوا عَنْ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : مَنْ كَفّرَ مُسْلِمًا فَقَدْ كَفَرَ .

تَمّ لَمْ يَكْفِهِمْ ذَلِكَ حَتّى أَفْتَوْا لِمَنْ عَاهَدَنَا بِعَهْدِ اللّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَنْقُضَ الْعَهْدَ وَلَهُ فِي ذَلِكَ ثَوَابٌ عَظِيمٌ وَيُفْتُونَ مَنْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ لَنَا ، أَوْ مَالُ يَتِيمٍ أَنّهُ يَجُوزُ لَهُ أَكْلُ أَمَانَتِنَا . وَلَوْ كَانَتْ مَالَ يَتِيمٍ بِضَاعَةً عِنْدَهُ أَوْ وَدِيعَةً بَلْ يُرْسِلُونَ الرّسَائِلَ لِدَهّامِ بْنِ دَوّاسٍ وَأَمْثَالِهِ إذَا حَارَبُوا التّوْحِيدَ وَنَصَرُوا عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ يَقُولُونَ أَنْتَ يَا فُلَانُ قُمْت مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ . مَعَ إقْرَارِهِمْ أَنّ التّوْحِيدَ - الّذِي نَدْعُو إلَيْهِ - 32 - وَكَفَرُوا بِهِ وَصُدّوا النّاسَ عَنْهُ - هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ الصّلَاةُ وَالسّلَامُ وَأَنّ الشّرْكَ - الّذِي نَهَيْنَا النّاسَ عَنْهُ وَرَغّبُوهُمْ هُمْ فِيهِ وَأَمَرُوهُمْ بِالصّبْرِ عَلَى آلِهَتِهِمْ - أَنّهُ الشّرْكُ الّذِي نَهَى عَنْهُ

الْأَنْبِيَاءُ . وَلَكِنْ هَذِهِ مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْهَا فَلْيَبْكِ عَلَى نَفْسِهِ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

نَسَبُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

<33> مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ اَلنّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِذَارِ بْنِ مَعَدّ بْنِ عَدْنَانَ . إلَى هُنَا مَعْلُومُ الصّحّةِ . وَمَا فَوْقَ عَدْنَانَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ . وَلَا خِلَافَ أَنّ عَدْنَانَ مِنْ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ وَإِسْمَاعِيلُ هُوَ الذّبِيحُ عَلَى الْقَوْلِ الصّوَابِ . وَالْقَوْلُ بِأَنّهُ إسْحَاقُ بَاطِلٌ .

وَلَا خِلَافَ أَنّهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وُلِدَ بِمَكّةَ عَامَ الْفِيلِ . وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْفِيلِ تَقْدِمَةً قَدّمَهَا اللّهُ لِنَبِيّهِ وَبَيْتِهِ وَإِلّا فَأَهْلُ الْفِيلِ نَصَارَى أَهْلُ كِتَابٍ دِينُهُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِ أَهْلِ مَكّةَ . لِأَنّهُمْ عُبّادُ أَوْثَانٍ . فَنَصَرَهُمْ اللّهُ نَصْرًا لَا صُنْعَ لِلْبَشَرِ فِيهِ تَقْدِمَةً لِلنّبِيّ الّذِي أَخْرَجَتْهُ قُرَيْشٌ مِنْ مَكّةَ . وَتَعْظِيمًا لِلْبَلَدِ الْحَرَامِ .

قِصّةُ الْفِيلِ

وَكَانَ سَبَبُ قِصّةِ أَصْحَابِ الْفِيلِ - عَلَى مَا ذَكَرَ مُحَمّدُ بْنُ إسْحَاقَ - أَنّ أَبْرَهَةَ بْنَ الصّبّاحِ كَانَ عَامِلًا لِلنّجَاشِيّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ عَلَى الْيَمَنِ فَرَأَى النّاسَ يَتَجَهّزُونَ أَيّامَ الْمَوْسِمِ إلَى مَكّةَ - شَرّفَهَا اللّهُ - فَبَنَى كَنِيسَةً بِصَنْعَاءَ . وَكَتَبَ إلَى النّجَاشِيّ " إنّي بَنَيْت لَك كَنِيسَةً لَمْ يُبْنَ مِثْلُهَا ، وَلَسْت مُنْتَهِيًا حَتّى أَصْرِفَ إلَيْهَا حَجّ الْعَرَبِ " فَسَمِعَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ فَدَخَلَهَا لَيْلًا . فَلَطّخَ قِبْلَتَهَا بِالْعَذِرَةِ . فَقَالَ أَبْرَهَةُ مَنْ الّذِي اجْتَرَأَ عَلَى هَذَا ؟ قِيلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ سَمِعَ بِالّذِي قُلْت . فَحَلَفَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنّ إلَى الْكَعْبَةِ حَتّى يَهْدِمَهَا . وَكَتَبَ إلَى النّجَاشِيّ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ فَسَأَلَهُ أَنْ يَبْعَث إلَيْهِ بِفِيلِهِ . وَكَانَ لَهُ فِيلٌ يُقَالُ لَهُ مَحْمُودٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ عِظَمًا وَجِسْمًا وَقُوّةً . فَبَعَثَ بِهِ إلَيْهِ . فَخَرَجَ أَبْرَهَةُ سَائِرًا إلَى مَكّةَ . فَسَمِعَتْ الْعَرَبُ <34> بِذَلِكَ فَأَعْظَمُوهُ وَرَأَوْا جِهَادَهُ حَقّا عَلَيْهِمْ .

فَخَرَجَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ ، يُقَالُ لَهُ ذُو نَفَرٍ . فَقَاتَلَهُ . فَهَزَمَهُ أَبْرَهَةُ وَأَخَذَهُ أَسِيرًا ، فَقَالَ أَيّهَا الْمَلِكُ فَاسْتَبْقِنِي خَيْرًا لَك ، فَاسْتَبَقَاهُ وَأَوْثَقَهُ .

وَكَانَ أَبْرَهَةُ رَجُلًا حَلِيمًا . فَسَارَ حَتّى إذَا دَنَا مِـنْ بِلَادِ خَثْعَـمَ خَـرَجَ إلَيْهِ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ الْخَثْعَمِيّ ، وَمَنْ اجْتَمَعَ إلَيْهِ مِنْ قَبَائِلِ الْعَـرَبِ . فَقَاتَلُوهُمْ فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ . فَأَخَذَ نُفَيْلًا ، فَقَالَ لَهُ أَيّهَا الْمَلِكُ إنّنِي دَلِيلُك بِأَرْضِ الْعَرَبِ ، وَهَاتَانِ يَدَايَ عَلَى قَوْمِي بِالسّمْعِ وَالطّاعَـةِ . فَاسْتَبْقِنِي خَيْرًا لَك . فَاسْتَبْقَاهُ . وَخَرَجَ مَعَهُ يَدُلّهُ عَلَى الطّرِيـقِ .

فَلَمّا مَرّ بِالطّائِفِ خَرَجَ إلَيْـهِ مَسْـعُودُ بْـنُ مُعَتّـبٍ فِـي رِجَـالٍ مِـنْ ثَقِيفٍ . فَقَالَ لَهُ أَيّهَا الْمَلِكُ نَحْنُ عَبِيدُك . وَنَحْنُ نَبْعَـثُ مَعَـكَ مَـنْ يَدُلّك . فَبَعَثُوا مَعَهُ بِأَبِي رَغَالٍ مَـوْلًى لَهُـمْ . فَخَـرَجَ حَتّـى إذَا كَـانَ بِالْمُغَمّسِ مَاتَ أَبُو رَغَالٍ ، وَهُوَ الّذِي يُرْجَمُ قَبْـرُهُ . وَبَعَـثَ أَبْرَهَـةُ رَجُلًا مِنْ الْحَبَشَةِ - يُقَالُ لَـهُ الْأَسْـوَدُ بْـنُ مَقْصُـودٍ - عَلَـى مُقَدّمَـةِ خَيْلِهِ وَأَمَرَ بِالْغَارَةِ عَلَى نَعَمِ النّاسِ . فَجَمَـعَ الْأَسْـوَدُ إلَيْـهِ أَمْـوَالَ الْحَرَمِ . وَأَصَابَ لِعَبْدِ الْمُطّلِبِ مِائَتَيْ بَعِيرٍ .

ثُمّ بَعَثَ رَجُلًا مِنْ حِمْيَرَ إلَى أَهْلِ مَكّةَ ، فَقَالَ أَبْلِغْ شَرِيفَهَا أَنّنِي لَمْ آتِ لِقِتَالٍ بَلْ جِئْت لِأَهْدِمَ الْبَيْتَ . فَـانْطَلَقَ فَقَـالَ لِعَبْـدِ الْمُطّلِـبِ ذَلِكَ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ : مَا لَنَا بِهِ يَدَانِ . سَنُخَلّي بَيْنَهُ وَبَيْـنَ مَـا جَـاءَ لَهُ . فَإِنّ هَذَا بَيْتُ اللّهِ وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إبْرَاهِيمَ . فَإِنْ يَمْنَعْهُ فَهُـوَ بَيْتُـهُ وَحَرَمُهُ . وَأَنْ يَخْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ فَوَاَللّهِ مَا لَنَا بِهِ مِنْ قُوّةٍ .

قَالَ فَانْطَلِقْ مَعِي إلَى الْمَلِكِ - وَكَانَ ذُو نَفْرٍ صَدِيقًا لِعَبْدِ الْمُطّلِبِ - فَأَتَاهُ فَقَالَ يَا ذَا نَفْرٍ هَلْ عِنْدَك غَنَـاءٌ فِيمَـا نَـزَلَ بِنَـا ؟ فَقَـالَ مَـا غَنَاءُ رَجُلٍ أَسِيرٍ لَا يَأْمَنُ أَنْ يُقْتَلَ بُكْرَةً أَوْ عَشِـيّا ، وَلَكِـنْ سَـأَبْعَثُ إلَى أُنَيْسٍ سَائِسِ الْفِيلِ فَإِنّهُ لِي صَدِيقٌ فَأَسْأَلُهُ أَنْ يُعَظّمَ خَطَرَك عِنْدَ الْمَلِكِ .

فَأَرْسَلَ إلَيْهِ فَقَالَ لِأَبْرَهَـةَ إنّ هَـذَا سَـيّدُ قُرَيْـشٍ يَسْـتَأْذِنُ عَلَيْـك . وَقَدْ جَاءَ غَيْرُ نَاصِبٍ لَك وَلَا مُخَالِفٍ لِأَمْرِك ، وَأَنَا أُحِبّ أَنْ تَأْذَنَ لَـهُ .

وَكَانَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ رَجُلًا جَسِيمًا وَسِيمًا . فَلَمّا رَآهُ أَبْرَهَةُ أَعْظَمَـهُ وَأَكْرَمَـهُ . وَكَـرِهَ <35> أَنْ يَجْلِـسَ مَعَـهُ عَلَـى سَـرِيرِهِ . وَأَنْ يَجْلِسَ تَحْتَهُ . فَهَبَطَ إلَى الْبِسَاطِ فَدَعَاهُ فَأَجْلَسَـهُ مَعَـهُ . فَطَلَـبَ مِنْهُ أَنْ يَرُدّ عَلَيْهِ مِائَتَيْ الْبَعِيرِ الّتِي أَصَابَهَا مِنْ مَالِهِ .

فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتُرْجُمَانِهِ قُـلْ لَـهُ إنّـك كُنْـت أَعْجَبْتنِـي حِيـنَ رَأَيْتُـك . وَلَقَدْ زَهِدْت فِيك . قَالَ لِمَ ؟ قَالَ جِئْت إلَى بَيْتٍ - هُوَ دِينُك وَدِيـنُ آبَائِك ، وَشَرَفُكُمْ وَعِصْمَتُكُمْ - لأَهْدِمَهُ . فَلَمْ تُكَلِّمْنِي فِيهِ وَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَيْ بَعِيرٍ ؟ قَالَ أَنَا رَبّ الْإِبِلِ . وَالْبَيْتُ لَهُ رَبّ يَمْنَعُهُ مِنْك . فَقَالَ مَا كَانَ لِيَمْنَعَهُ مِنّي . قَالَ فَأَنْتَ وَذَاكَ . فَـأَمَرَ بِـإِبِلِهِ فَـرُدّتْ عَلَيْهِ . ثُمّ خَرَجَ وَأَخْبَـرَ قُرَيْشًـا الْخَبَـرَ . وَأَمَرَهُـمْ أَنْ يَتَفَرّقُـوا فِـي الشّعَابِ وَيَتَحَـرّزُوا فِـي رُءُوسُ الْجِبَـالِ خَوْفًـا عَلَيْهِـمْ مِـنْ مَعَـرّةِ الْجَيْشِ . فَفَعَلُوا . وَأَتَى عَبْدُ الْمُطّلِبِ الْبَيْتَ . فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ الْبَـابِ وَجَعَلَ يَقُولُ

يَـا رَبّ لَا أَرْجُـو لَهُـمْ سِوَاكَا ... يَا رَبّ فَامْنَعْ مِنْهُمُـو حِمَاكَا

إنّ عَـدُوّ الْبَيْـتِ مَـنْ عَادَاكَا ... فَامْنَعْهُمُو أَنْ يُخَرّبُوا قُرَاكَا

وَقَالَ أَيْضًا :

لَا هُمّ إنّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ ... وَحَلَالَهُ فَامْنَعْ حَلَالَك

لَا يَغْلِبَن صَلِيبَهُمْ ... وَمِحَـــالَهُمْ غُـــدُوّا مِحَالَك

جَـــرّوا جُمُـــوعَهُمْ وَبِلَادَهُمْ ... وَالْفِيـلَ كَـيْ يَسُـبّوا عِيَالَك

إنْ كُنْـــت تَـــارِكَهُمْ وَكَعْبَ ... تَنَا فَأْمُرْ مَا بَدَا لَك

ثُـمّ تَـوَجّهَ فِـي بَعْـضِ تِلْـكَ الْوُجُـوهِ مَـعَ قَـوْمِهِ . وَأَصْـبَحَ أَبْرَهَـةُ بِالْمُغَمّسِ قَدْ تَهَيّأَ لِلدّخُولِ . وَعَبّأَ جَيْشَهُ . وَهَيّأَ فِيهِ . فَأَقْبَلَ نُفَيْلٌ إلَى الْفِيلِ . فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ . فَقَالَ اُبْرُكْ مَحْمُودُ . فَإِنّك فِي بَلَـدِ اللّـهِ الْحَرَامِ . فَبَرَكَ الْفِيلُ فَبَعَثُوهُ فَأَبَى . فَوَجّهُوهُ إلَى الْيَمَـنِ ، فَقَـامَ يُهَرْوِلُ . وَوَجّهُـوهُ إلَـى الشّـامِ فَفَعَـلَ مِثْـلَ ذَلِـكَ . وَوَجّهُـوهُ إلَـى الْمَشْرِقِ فَفَعَلَ ذَلِكَ . فَصَرَفُوهُ إلَى الْحَرَمِ فَبَـرَكَ . وَخَـرَجَ نُفَيْـلٌ يَشْتَدّ حَتّى صَعِدَ الْجَبَلَ فَأَرْسَلَ اللّهُ طَيْرًا مِنْ قِبَلِ الْبَحْرِ مَـعَ كُـلّ طَائِرٍ ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ . حَجَرَيْنِ فِي رِجْلَيْهِ وَحَجَرًا فِي مِنْقَـارِهِ . فَلَمّـا

غَشِيَتْ الْقَوْمَ أَرْسَلَتْهَا عَلَيْهِمْ . فَلَمْ تُصِبْ تِلْكَ الْحِجَارَةُ أَحَدًا إلّا هَلَكَ . وَلَيْسَ كُلّ الْقَوْمِ أَصَابَتْ . فَخَرَجَ الْبَقِيّةُ هَارِبِينَ يَسْأَلُونَ عَنْ - 36 - نُفَيْلٍ لِيَدُلّهُمْ عَلَى الطّرِيقِ إلَى الْيَمَنِ . فَمَاجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ . يَتَسَاقَطُونَ بِكُلّ طَرِيقٍ وَيَهْلِكُونَ عَلَى كُلّ مَنْهَلٍ . وَبَعَثَ اللّهُ عَلَى أَبْرَهَةَ دَاءً فِي جَسَدِهِ . فَجَعَلَتْ تَسّاقَطُ أَنَامِلُهُ حَتّى انْتَهَى إلَى صَنْعَاءَ وَهُوَ مِثْلُ الْفَرْخِ . وَمَا مَاتَ حَتّى انْصَدَعَ صَدْرُهُ عَنْ قَلْبِهِ ثُمّ هَلَكَ .

رَجَعْنَا إلَى سِيرَتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

وَفَاةُ عَبْدِ اللّهِ وَالِدِ رَسُولِ اللّهِ

قَدْ اُخْتُلِفَ فِي وَفَاةِ أَبِيهِ هَلْ تُوُفّيَ بَعْدَ وِلَادَتِهِ أَوْ قَبْلَهَا ؟ الْأَكْثَرُ عَلَى أَنّهُ تُوُفّيَ وَهُوَ حَمْلٌ . وَلَا خِلَافَ أَنّ أُمّهُ مَاتَتْ بَيْنَ مَكّةَ وَالْمَدِينَةِ بِالْأَبْوَاءِ مُنْصَرَفَهَا مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ زِيَارَةِ أَخْوَالِهِ . وَلَمْ يَسْتَكْمِلْ إذْ ذَاكَ سِتّ سِنِينَ .

فَكَفَلَهُ جَدّهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ . وَرَقّ عَلَيْهِ رِقّةً لَمْ يَرِقّهَا عَلَى أَوْلَادِهِ . فَكَانَ لَا يُفَارِقُهُ . وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِهِ - إجْلَالًا لَهُ - إلّا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

وَقَدِمَ مَكّةَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ مِنْ الْقَافَةِ . فَلَمّا نَظَرُوا إلَيْهِ قَالُوا لِجَدّهِ احْتَفِظْ بِهِ . فَلَمْ نَجِدْ قَدَمًا أَشْبَهَ بِالْقَدَمِ الّذِي فِي الْمَقَامِ مِنْ قَدَمِهِ . فَقَالَ لِأَبِي طَالِبٍ اسْمَعْ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَاحْتَفِظْ بِهِ .

وَتُوُفّيَ جَدّهُ فِي السّنَةِ الثّامِنَةِ مِنْ مَوْلِدِهِ . وَأَوْصَى بِهِ إلَى أَبِي طَالِبٍ . وَقِيلَ إنّهُ قَالَ لَهُ

أُوصِيك يَا عَبْدَ مَنَافٍ بِمُفْرَدٍ بَعْدَ أَبِيهِ فَرْدِ
بَعْدِي
وَكُنْت كَالْأُمّ لَهُ فِي تُدْنِيهِ مِنْ أَحْشَائِهَا
الْوَجْدِ وَالْكَبِدِ
فَأَنْتَ مِنْ أَرْجَى بَنِيّ لِرَفْعِ ضَيْمٍ وَلِشَدّ
عِنْدِي عَضُدِ

عَبْدُ الْمُطّلِبِ جَدّ رَسُولِ اللّهِ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ مِنْ سَادَاتِ قُرَيْشٍ ، مُحَافِظًا عَلَى الْعُهُودِ . مُتَخَلّقًا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ . يُحِبّ الْمَسَاكِينَ وَيَقُومُ فِي خَدْمَةِ الْحَجِيجِ وَيُطْعِمُ فِي <37> الْأَزَمَاتِ . وَيَقْمَعُ

الظّالِمِينَ . وَكَانَ يُطْعِمُ حَتّى الْوُحُوشَ وَالطّيْرَ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ . وَكَانَ لَهُ أَوْلَادٌ أَكْبَرُهُمْ الْحَارِثُ . تُوُفّيَ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ . وَأَسْلَمَ مِنْ أَوْلَادِ الْحَارِثِ عُبَيْدَةُ . قُتِلَ بِبَدْرٍ وَرَبِيعَةُ ، وَأَبُو سُفْيَانَ وَعَبْدُ اللّهِ .

وَمِنْهُمْ الزّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ شَقِيقُ عَبْدِ اللّهِ . وَكَانَ رَئِيسَ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِيّ الْمُطّلِبِ فِي حَرْبِ الْفُجّارِ . شَرِيفًا شَاعِرًا . وَلَمْ يُدْرِكْ الْإِسْلَامَ . وَاسْم مِنْ أَوْلَادِهِ عَبْدُ اللّهِ . وَاسْتُشْهِدَ بِأَجْنَادِينَ . وَضُبَاعَةُ وَمَجْلٌ وَصَفِيّةُ وَعَاتِكَةُ .

وَأَسْلَمَ مِنْهُمْ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، وَالْعَبّاسُ .

وَمِنْهُمْ أَبُو لَهَبٍ مَاتَ عَقِيبَ بَدْرٍ . وَلَهُ مِنْ الْوَلَدِ عُتَيْبَةُ الّذِي دَعَا عَلَيْهِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَتَلَهُ السّبُعُ . وَلَهُ عُتْبَةُ وَمُعَتّبٌ . أَسْلَمَا يَوْمَ الْفَتْحِ . وَمِنْ بَنَاتِهِ أَرْوَى . تَزَوّجَهَا كُرْزُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ . فَوَلَدَتْ لَهُ عَامِرًا وَأَرْوَى . فَتَزَوّجَ أَرْوَى عَفّانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيّةَ . فَوَلَدَتْ لَهُ عُثْمَانَ ثُمّ خَلّفَ عَلَيْهَا عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَوَلَدَتْ لَهُ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ ، وَعَاشَتْ إلَى خِلَافَةِ ابْنِهَا عُثْمَانَ .

وَمِنْهُنّ بَرّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، أُمّ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ الْمَخْزُومِيّ .

وَمِنْهُنّ عَاتِكَةُ أُمّ عَبْدِ اللّهِ بْنِ أَبِي أُمَيّةَ . وَهِيَ صَاحِبَةُ الْمَنَامِ قَبْلَ يَوْمِ بَدْرٍ . وَاخْتَلَفَ فِي إسْلَامِهَا .

وَمِنْهُنّ صَفِيّةُ أُمّ الزّبَيْرِ بْنِ الْعَوّامِ . أَسْلَمَتْ وَهَاجَرَتْ .

وَأَرْوَى أُمّ آلِ جَحْشٍ - عَبْدِ اللّهِ وَأَبِي أَحْمَدَ وَعُبَيْدِ اللّهِ وَزَيْنَبَ وَحَمْنَةَ .

وَأُمّ عَبْدِ الْمُطّلِبِ : هِيَ سَلْمَى بِنْتُ زَيْدِ مِنْ بَنِي النّجّارِ ، تَزَوّجَهَا أَبُوهُ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ . فَخَرَجَ إلَى الشّامِ - وَهِيَ عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَقَدْ حَمَلَتْ بِعَبْدِ الْمُطّلِبِ - فَمَاتَ بِغَزّةَ . فَرَجَعَ أَبُو رُهْمِ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى وَأَصْحَابَهُ إلَى الْمَدِينَةِ بِتِرْكَتِهِ . وَوَلَدَتْ امْرَأَتُهُ سَلْمَى : عَبْدَ الْمُطّلِبِ . وَسَمّتْهُ شَيْبَةَ الْحَمْدِ . فَأَقَامَ فِي أَخْوَالِهِ مُكَرّمًا . فَبَيْنَمَا هُوَ يُنَاضِلُ الصّبْيَانَ فَيَقُولُ أَنَا ابْنُ هَاشِمٍ سَمِعَهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ لِعَمّهِ الْمُطّلِبِ إنّي مَرَرْت بِدُورِ بَنِي قَيْلَةَ فَرَأَيْت غُلَامًا يَعْتَزِي إلَى أَخِيك . وَمَا يَنْبَغِي تَرْكُ مِثْلِهِ فِي الْغُرْبَةِ . فَرَحَلَ

إلَى الْمَدِينَةِ فِي طَلَبِهِ . فَلَمّا رَآهُ فَاضَتْ عَيْنَاهُ وَضَمّهُ إلَيْهِ وَأَنْشَدَ شِعْرًا : <38>

عَرَفْت شَيْبَةَ وَالنّجّارَ أَبْنَاءَهَا حَوْلَهُ بِالنّبْلِ
قَدْ جَعَلَتْ تَنْتَصِلُ

عَرَفْت أَجْلَادَهُ فِينَا فَفَاضَ مِنّي عَلَيْهِ
وَشِيمَتَهُ وَابِلٌ هَطْلُ

فَأَرْدَفَهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَقَالَ يَا عَمّ ذَلِكَ إلَى الْوَالِدَةِ . فَجَاءَ إلَى أُمّهِ . فَسَأَلَهَا أَنْ تُرْسِلَ بِهِ مَعَهُ فَامْتَنَعَتْ . فَقَالَ لَهَا : إنّمَا يَمْضِي إلَى مُلْكِ أَبِيهِ وَإِلَى حَرَمِ اللّهِ . فَأَذِنَتْ لَهُ . فَقَدِمَ بِهِ مَكّةَ ، فَقَالَ النّاسُ هَذَا عَبْدُ الْمُطّلِبِ . فَقَالَ وَيْحَكُمْ إنّمَا هُوَ ابْنُ أَخِي هَاشِمٍ . فَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتّى تَرَعْرَعَ . فَسَلّمَ إلَيْهِ مُلْكَ هَاشِمٍ مِنْ أَمْرِ الْبَيْتِ وَالرّفَادَةِ وَالسّقَايَةِ وَأَمْرِ الْحَجِيجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكَانَ الْمُطّلِبُ شَرِيفًا مُطَاعًا جَوَادًا ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُسَمّيهِ الْفَيّاضَ لِسَخَائِهِ . وَهُوَ الّذِي عَقَدَ الْحِلْفَ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَبَيْنَ النّجَاشِيّ . وَلَهُ مِنْ الْوَلَدِ الْحَارِثُ وَمَخْرَمَةُ وَعَبّادٌ وَأُنَيْسٌ وَأَبُو عُمَرَ وَأَبُو رُهْمٍ وَغَيْرُهُمْ .

وَلَمّا مَاتَ وَثَبَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ عَلَى أَرْكَاحِ شَيْبَةَ . فَغَصَبَهُ إيّاهَا ، فَسَأَلَ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ النّصْرَةَ عَلَى عَمّهِ . فَقَالُوا : لَا نَدْخُلَ بَيْنَك وَبَيْنَ عَمّك فَكَتَبَ إلَى أَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي النّجّارِ أَبْيَاتًا مَعَهَا :

يَا طُولَ لَيْلِي لِأَحْزَانِي وَإِشْغَالِي هَلْ مِنْ رَسُولٍ إلَى النّجّارِ أَخْوَالِي ؟

بَنِي عَدِيّ وَدِينَارٍ وَمَازِنِهَا وَمَالِكِ عِصْمَةِ الْحَيْرَانِ عَنْ حَالِي

قَدْ كُنْت فِيهِمْ وَمَا أَخْشَى ظُلَامَةَ ذِي ظُلْمٍ عَزِيزًا مَنِيعًا نَاعِمَ الْبَالِ

حَتّى ارْتَحَلْت إلَى قَوْمِي لِذَاكَ مُطّلِبٌ عَمّي بِتَرْحَالِي ،

فَغَابَ مُطّلِبٌ فِي قَعْرِ مَظْلِمَةٍ ثُمّ انْبَرَى نَوْفَلٌ يَعْدُو عَلَى مَالِي

لَمّـــا رَأَى رَجُلًا غَـــابَتْ وَغَـابَ أَخْـوَالُهُ عَنْـهُ بِلَا وَالِي عُمُومَتُهُ

فَاسْتَنْفِرُوا وَامْنُعُوا ضَـيْمَ لَا تَخْـــذُلُوهُ فَمَـــا أَنْتُـــمْ بِجِذَالِي ابْنِ أُخْتِكُمْ

فَلَمّا وَقَفَ خَالُهُ أَبُو سَعْدِ بْنُ عَدِيّ بْـنِ النّجّـارِ عَلَـى كِتَـابِهِ بَكَـى . وَسَارَ مِـنْ الْمَدِينَـةِ فِـي ثَمَـانِينَ رَاكِبًـا ، حَتّـى قَـدِمَ مَكّـةَ . فَنَـزَلَ بِالْأَبْطَحِ فَتَلَقّاهُ عَبْدُ الْمُطّلِـبِ ، وَقَـالَ الْمَنْـزِلُ يَـا خَـالِ . فَقَـالَ لَا وَاَللّهِ حَتّى أَلْقَى نَوْفَلًا . فَقَالَ تَرَكْته بِـالْحَجَرِ جَالِسًـا <39> فِـي مَشَايِخِ قَوْمِهِ . فَأَقْبَلَ أَبُـو سَـعْدٍ حَتّـى وَقَـفَ عَلَيْهِـمْ فَقَـامَ نَوْفَـلٌ قَامِئًا ، فَقَالَ يَا أَبَا سَعْدٍ أَنْعِمْ صَبَاحًا . فَقَالَ لَا أَنْعَمَ اللّهُ لَك صَبَاحًا ، وَسَلّ سَيْفَهُ . وَقَالَ وَرَبّ هَذَا الْبَيْتِ لَئِنْ لَمْ تَرُدّ عَلَى ابْـنِ أُخْتِـي أَرْكَاحَهُ لَأَمَكّنَن مِنْك هَذَا السّـيْفَ . فَقَـالَ رَدَدْتهَـا عَلَيْـهِ . فَأَشْـهَدَ عَلَيْهِ مَشَايِخَ قُرَيْشٍ . ثُمّ نَزَلَ عَلَى شَيْبَةَ فَأَقَـامَ عِنْـدَهُ ثَلَاثًـا . ثُـمّ اعْتَمَرَ وَرَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ . فَقَالَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ :

وَيَـأْبَى مَـازِنٌ وَأَبُـو عَدِيّ وَدِينَارُ بْـنُ تَيْـمِ اللّـهِ ضَيْمِي

بِهِـمْ رَدّ الْإِلَـهُ عَلَـيّ رُكْحِي وَكَانُوا فِـي انْتِسَـابٍ دُونَ قَوْمِي

فَلَمّا جَرَى ذَلِكَ حَالَفَ نَوْفَلُ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ عَبْدِ مَنَـافٍ عَلَـى بَنِي هَاشِمٍ وَحَالَفَتْ بَنُو هَاشِمٍ : خُزَاعَـةَ عَلَـى بَنِـي عَبْـدِ شَـمْسٍ وَنَوْفَلٍ . فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِفَتْحِ مَكّةَ . كَمَا سَيَأْتِي .

فَلَمّا رَأَتْ خُزَاعَةُ نَصْـرَ بَنِـي النّجّـارِ لِعَبْـدِ الْمُطّلِـبِ قَـالُوا : نَحْـنُ وَلَدْنَاهُ كَمَا وَلَدْتُمُوهُ فَنَحْنُ أَحَقّ بِنَصْرِهِ . وَذَلِكَ أَنّ أُمّ عَبْـدِ مَنَـافٍ مِنْهُمْ . فَدَخَلُوا دَارَ النّدْوَةِ وَتَحَالَفُوا وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا .

عَبْدُ اللّهِ وَالِدُ رَسُولِ اللّهِ

وَأَمّا عَبْدُ اللّهِ وَالِدُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَهُوَ الذّبِيحُ .

وَسَـبَبُ ذَلِـكَ أَنّ عَبْـدَ الْمُطّلِـبِ أُمِـرَ فِـي الْمَنَـامِ بِحَفْـرِ زَمْـزَمَ . وَوُصِفَ لَهُ مَوْضِعُهَا . وَكَانَتْ جُرْهُم قَدْ غَلَبَتْ آلَ إسْـمَاعِيلَ عَلَـى مَكّةَ ، وَمَلَكُوهَا زَمَانًا طَوِيلًا . ثُمّ أَفْسَدُوا فِـي حَـرَمِ اللّـهِ . فَوَقَـعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خُزَاعَةَ حَرْبٌ وَخُزَاعَةُ مِنْ قَبَائِلِ الْيَمَنِ ، مِنْ أَهْلِ سَبَإٍ . وَلَمْ يَدْخُلْ بَيْنَهُمْ بَنُو إسْمَاعِيلَ . فَغَلَبَتْهُمْ خُزَاعَةُ . وَنَفَتْ جُرْهُمًا

مِنْ مَكّةَ . وَكَانَتْ جُرْهُمٌ قَدْ دَفَنَتْ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ ، وَالْمَقَامَ وَبِئْرَ زَمْزَمَ . وَظَهَرَ بَعْدَ ذَلِكَ قُصَيّ بْنُ كِلَابٍ عَلَى مَكّةَ . وَرَجَعَ إلَيْهِ مِيرَاثُ قُرَيْشٍ . فَأَنْزَلَ بَعْضَهُمْ دَاخِلَ مَكّةَ - وَهُمْ قُرَيْشُ الْأَبَاطِحِ - وَ بَعْضَهُمْ خَارِجَهَا - وَهُمْ قُرَيْشُ الظّوَاهِرِ - فَبَقِيَتْ زَمْزَمُ مَدْفُونَةً إلَى عَصْرِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ . فَرَأَى فِي الْمَنَامِ مَوْضِعَهَا . فَقَامَ يَحْفِرُ فَوَجَدَ فِيهَا سُيُوفًا مَدْفُونَةً وَحُلِيّا ، وَغَزَالَا مِنْ ذَهَبٍ مُشَبّفًا بِالدّرّ . فَعَلّقَهُ عَبْدُ الْمُطّلِبِ عَلَى الْكَعْبَةِ . وَلَيْسَ مَعَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ إلّا وَلَدُهُ الْحَارِثُ . فَنَازَعَتْهُ قُرَيْشٌ ، وَقَالُوا لَهُ أَشْرِكْنَا ، فَقَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . هَذَا أَمْرٌ خُصِصْت بِهِ . فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مَنْ شِئْتُمْ أَحَاكِمُكُمْ إلَيْهِ .

<40> فَنَذَرَ حِينَئِذٍ عَبْدَ الْمُطّلِبِ : لَئِنْ آتَاهُ اللّهُ عَشَرَةَ أَوْلَادٍ وَبَلَغُوا أَنْ يَمْنَعُوهُ لَيَنْحَرَن أَحَدَهُمْ عِنْدَ الْكَعْبَةِ . فَلَمّا تَمّوا عَشَرَةً . وَعَرَفَ أَنّهُمْ يَمْنَعُونَهُ أَخْبَرَهُمْ بِنَذْرِهِ فَأَطَاعُوهُ . وَكَتَبَ كُلّ مِنْهُمْ اسْمَهُ فِي قَدَحٍ . وَأَعْطَوْهَا الْقِدَاحَ قَيّمَ هُبَلَ - وَكَانَ الّذِي يُجِيلُ الْقِدَاحَ - فَخَرَجَ الْقَدَحُ عَلَى عَبْدِ اللّهِ . وَأَخَذَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ الْمُدْيَةَ لِيَذْبَحَهُ . فَقَامَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ مِنْ نَادِيهَا فَمَنَعُوهُ . فَقَالَ كَيْفَ أَصْنَعُ بِنَذْرِي ؟ فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرَ مَكَانَهُ عَشْرًا مِنْ الْإِبِلِ . فَأُقْرِعَ بَيْنَ عَبْدِ اللّهِ وَبَيْنَهَا . فَوَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَيْهِ . فَاعْتَمّ عَبْدُ الْمُطّلِبِ ، ثُمّ لَمْ يَزَلْ عَشْرًا عَشْرًا ، وَلَا تَقَعُ الْقُرْعَةُ إلّا عَلَيْهِ إلَى أَنْ بَلَغَ مِائَةً . فَوَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى الْإِبِلِ . فَنُحِرَتْ عَنْهُ . فَجَرَتْ سُنّةٌ وَرُوِيَ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ أَنَا ابْنُ الذّبِيحَيْنِ يَعْنِي إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السّلَامُ وَأَبَاهُ عَبْدُ اللّهِ . ثُمّ تَرَكَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ الْإِبِلَ لَا يَرُدّ عَنْهَا إنْسَانًا وَلَا سَبُعًا . فَجَرَتْ الدّيَةُ فِي قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ وَأَقَرّهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الْإِسْلَامِ . وَقَالَتْ صَفِيّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ :

نَحْنُ حَفَرْنَا سُقِيَا الْخَلِيلِ وَابْنِهِ ... لِلْحَجِيجِ زَمْزَمَ الْمُكَرّمِ

جِبْرِيلُ الّذِي لَمْ يُذَمّمْ ... شِفَاءَ سُقْمٍ وَطَعَامُ مُطْعِمِ

أَبُو طَالِبٍ عَمّ رَسُولِ اللّهِ

وَأَمّا أَبُو طَالِبٍ فَهُوَ الّذِي يَتَوَلّى تَرْبِيَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ مِنْ بَعْدِ جَـدّهِ كَمَـا تَقَـدّمَ وَرَقّ عَلَيْـهِ رِقّـةً شَـدِيدَةً . وَكَـانَ يُقَدّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ .

قَالَ الْوَاقِدِيّ : قَامَ أَبُو طَالِبٍ - مِنْ سَنَةِ ثَمَانٍ مِـنْ مَوْلِـدِ رَسُـولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى السّنَةِ الْعَاشِـرَةِ مِـنْ النّبُـوّةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ - يَحُوطُهُ وَيَقُومُ بِأَمْرِهِ وَيَذُبّ عَنْهُ . وَيَلْطُفُ بِهِ .

وَقَالَ أَبُومُحَمّدِ بْنُ قُدَامَةَ : كَانَ يُقِرّ بِنُبُوّةِ النّبِيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ . وَلَهُ فِي ذَلِكَ أَشْعَارٌ . مِنْهَا : <41>

أَلَا أَبْلِغَـا عَنّـي عَلَـى لُؤَيّـا ... وَخُصّـا مِـنْ لُـؤَيّ ذَاتِ بَيْنِنَا ... بَنِي كَعْبٍ

بِأَنّـــا وَجَـــدْنَا فِـــي كِتَابِ مُحَمّدًا ... نَبِيّا كَمُوسَى ، خُـطّ فِـي أَوّلِ الْكُتُبِ

وَأَنّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَـادِ مَحَبّةً ... وَلَا خَيْرَ مِمّنْ خَصّهُ اللّـهُ بِالْحُبّ

وَمِنْهَا :

تَعَلّـمْ خِيَـارَ النّـاسِ أَنّ مُحَمّدًا ... وَزِيـــرًا لِمُوسَـــى وَالْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمِ

فَلَا تَجْعَلُوا لِلّـهِ نِـدّا ... فَـإِنّ طَرِيـقَ الْحَـقّ وَأَسْلِمُوا ... لَيْسَ بِمُظْلِمِ

وَلَكِنّهُ أَبَى أَنْ يَدِينَ بِـذَلِكَ خَشْـيَةَ الْعَـارِ . وَلَمّـا حَضَـرَتْهُ الْوَفَـاةُ . دَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَعِنْـدَهُ أَبُـوجَهْـلِ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي أُمَيّةَ - فَقَالَ يَا عَمّ قُلْ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ كَلِمَةً أُحَـاجّ لَك بِهَا عِنْدَ اللّهِ فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلّةِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُرَدّدُهَا عَلَيْهِ وَهُمَا يُرَدّدَانِ عَلَيْـهِ حَتّـى كَـانَ آخِرَ كَلِمَةٍ قَالَهَا هُوَ عَلَـى مِلّـةِ عَبْـدِ الْمُطّلِـبِ فَقَـالَ رَسُـولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَأَسْتَغْفِرَن لَك مَا لَمْ أُنْهَ عَنْـك فَـأَنْزَلَ اللّـهُ تَعَالَى (9 :ـ 113) ـ مَا كَانَ لِلنّبِيّ وَالّـذِينَ آمَنُـوا أَنْ يَسْـتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَـوْ كَـانُوا أُولِـي قُرْبَـى مِـنْ بَعْـدِ مَـا تَبَـيّـنَ لَهُـمْ أَنّهُـمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (38 : 56) إنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ - الْآيَةَ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَقَدْ رَثَاهُ وَلَدُهُ عَلِيّ بِأَبْيَاتٍ مِنْهَا :

أَرَقْت لِطَيْـرٍ آخِـرَ اللّيْـلِ يَذْكُرُنِي شَجْوًا عَظِيمًا غَرّدَا
مُجَدّدَا

أَبَـــا طَـــالِبٍ مَـــأْوَى حَـوَادًا إذَا مَـا أَصْـدَرَ الصّعَالِيكِ ذَا النّدَى
الْأَمْرَ أَوْرَدَا

فَأَمْسَـــــتْ قُرَيْـــــشٌ وَلَسْت أَرَى حَيّا يَكُونُ يَفْرَحُونَ بِمَوْتِهِ
مُخَلّدَا

أَرَادُوا أُمُـــورًا زَيّفَتْهَـــا سَـتُورِدُهُمْ يَوْمًـا مِـنْ حُلُومُهُمْ
الْغَيّ مَوْرِدَا

يَرْجُــونَ تَكْــذِيبَ النّبِــيّ وَأَنْ يُفْتَرَى قِدَمًا عَلَيْهِ وَقَتْلَهُ
وَيَجْحَدَا

كَذَبْتُمْ وَبَيْـتِ اللّـهِ حَتّـى صُـــــدُورَ الْعَـــــوَالِي نُذِيقَكُمْ
وَالْحُسَامِ الْمُهَنّدَا

خَلّفَ أَبُو طَـالِبٍ أَرْبَعَـةَ ذُكُـورٍ وَابْنَتَيْـنِ . فَالـذّكُورُ طَـالِبٌ وَعُقَيْـلٌ وَجَعْفَرٌ وَعَلِيّ ، وَبَيْنَ كُلّ وَاحِدٍ عَشْرُ سِنِينَ . فَطَـالِبٌ أَسَـنّهُمْ ثُـمّ عُقَيْلٌ ثُمّ جَعْفَرٌ ثُمّ عَلِيّ .

فَأَمّا طَـالِبٌ فَـأَخْرَجَهُ الْمُشْـرِكُونَ يَـوْمَ بَـدْرٍ كُرْهًـا . فَلَمّـا انْهَـزَمَ الْكُفّارُ طَلَبَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي الْقَتْلَـى ، وَلَا فِـي الْأَسْـرَى ، وَلَا رَجَـعَ إلَى مَكّةَ ، وَلَيْسَ لَهُ عَقِبٌ .

وَأَمّا عُقَيْلٌ فَأَسَرّ ذَلِكَ الْيَـوْمَ . وَلَـمْ يَكُـنْ لَـهُ مَـالٌ . فَفَـدَاهُ عَمّـهُ الْعَبّاسُ . ثُمّ رَجَعَ إلَى مَكّةَ . فَأَقَامَ بِهَـا إلَـى السّـنَةِ الثّامِنَـةِ . ثُـمّ هَاجَرَ إلَى الْمَدِينَةِ . فَشَهِدَ مُؤْتَةَ مَعَ أَخِيهِ جَعْفَرٍ . وَهُوَ الّـذِي قَـالَ فِيهِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ : « وَهَـلْ تَـرَكَ لَنَـا عُقَيْـلٌ مِـنْ مَنْزِلٍ ؟ » [16] <42> وَاسْتَمَرّتْ كَفَالَةُ أَبِي طَالِبٍ لِرَسُـولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - كَمَا ذَكَرْنَا -

فَلَمّا بَلَغَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً - وَقِيلَ تِسْعًا خَرَجَ بِهِ أَبُـو طَـالِبٍ إلَـى الشّامِ فِي تِجَارَةٍ فَرَآهُ بُحَيْرِيّ الرّاهِبُ وَأَمَرَ عَمّـهُ أَنْ لَا يَقْـدَمَ بِـهِ

---

[16]() أَخرَجَهُ : البُخـارِي (بِرَقْـمِ : 1588 و3058) ومُسـلِم (بِرَقْـمِ : 1351 و439) مِن حديثِ أسامة بن زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

إِلَى الشّامِ ، خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ الْيَهُودِ . فَبَعَثَهُ عَمّهُ مَعَ بَعْـضِ غِلْمَـانِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَوَقَعَ فِي التّرْمِذِيّ [17] " أَنّهُ بَعَثَ مَعَهُ بِلَالًا " وَهُـوَ غَلَـطٌ وَاضِـحٌ . فَإِنّ بَلَالًا إِذْ ذَلِكَ لَعَلّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا .

خُرُوجُهُ إِلَى الشّامِ وَزَوَاجُهُ خَدِيجَةَ

فَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَـنَةً خَرَجَ إِلَـى الشّـامِ فِـي تِجَـارَةٍ لِخَدِيجَـةَ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْهَـا ، وَمَعَـهُ مَيْسَرَةُ غُلَامُهَا . فَوَصَلَ بُصْرَى .

ثُمّ رَجَعَ فَتَزَوّجَ عَقِبَ رُجُوعِهِ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ . وَهِيَ أَوّلُ امْرَأَةٍ تَزَوّجَهَا ، وَأَوّلُ امْرَأَةٍ مَاتَتْ مِنْ نِسَائِهِ . وَلَمْ يَنْكِـحْ عَلَيْهَـا غَيْرَهَـا . وَأَمَرَهُ جِبْرِيلُ " أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهَا السّلَامَ مِنْ رَبّهَا وَيُبَشّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنّةِ مِنْ قُصْبٍ " [18] .

تَحَنّثُهُ فِي غَارِ حِرَاءٍ

ثُمّ حُبّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ . وَالتّعَبّدُ لِرَبّهِ فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَعَبّدُ فِيهِ . وَبُغِضَتْ إِلَيْهِ الْأَوْثَانُ وَدِينُ قَوْمِهِ . فَلَمْ يَكُـنْ شَـيْءٌ أَبْغَـضَ إِلَيْـهِ مِنْ ذَلِكَ . وَأَنْبَتَهُ اللّهُ نَبَاتًا حَسَنًا ، حَتّى كَانَ أَفْضَـلَ قَـوْمِهِ مُـرُوءَةً وَأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، وَأَعَزّهُـمْ جِـوَارًا ، وَأَعْظَمَهُـمْ حُلْمًـا ، وَأَصْـدَقَهُمْ حَدِيثًا . وَأَحْفَظَهُمْ لِأَمَانَةٍ . حَتّى سَمّاهُ قَوْمُهُ " الْأَمِينَ " لِمَـا جَمَـعَ اللّهُ فِيهِ مِنْ الْأَحْوَالِ الصّالِحَةِ . وَالْخِصَالِ الْكَرِيمَةِ الْمَرْضِيّةِ .

بِنَاءُ الْكَعْبَةِ

وَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ خَمْسًـا وَثَلَاثِيـنَ سَـنَةً قَامَتْ قُرَيْشٌ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ حِينَ تَضَعْضَعَتْ .

<43> قَالَ أَهْلُ السّيَرِ كَـانَ أَمْـرُ الْبَيْـتِ - بَعْـدَ إِسْـمَاعِيلَ عَلَيْـهِ السّلَامُ - إِلَى وَلَدِهِ ثُمّ غَلَبَتْ جُرْهُمٌ عَلَيْهِ . فَلَـمْ يَـزَلْ فِـي أَيْـدِيهِمْ حَتّى اسْتَحَلّوا حُرْمَتَهُ . وَأَكَلُوا مَا يُهْدَى إِلَيْـهِ . وَظَلَمُـوا مَـنْ دَخَـلَ مَكّةَ ثُمّ وُلِيَتْ خُزَاعَةُ الْبَيْـتَ بَعْـدَهُمْ إِلّا أَنّـهُ كَـانَ إِلَـى قَبَائِـلَ مِـنْ مُضَرَ ثَلَاثُ خِلَالٍ-

---

[17] () (بِرَقْـمِ : 3620) مِـن حـدِيثِ أَبِ موسَـى رَضِـيَ اللَّـهُ عَنْـهُ . وقـال : (حَسَـنٌ غَرِيبٌ) .

[18] () أَخرَجَـهُ : البُخـارِي (بِرَقْـمِ : 3820 و 7497) ومُسـلِم (بِرَقْـمِ : 2432) مِـن حدِيثِ أَبِي هرِيرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الْإِجَازَةُ بِالنّاسِ مِنْ عَرَفَةَ يَوْمَ الْحَجّ إلَى مُزْدَلِفَةَ ، تُجِيزُهُمْ صُوفَةُ .

وَالثّانِيَةُ الْإِفَاضَةُ مِنْ جَمْعٍ ، غَدَاةَ النّحْرِ إلَى مِنًى . وَكَانَ ذَلِكَ إلَى يَزِيدَ بْنِ عُدْوَانَ ، وَكَانَ آخِرُ مَنْ وَلِيَ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَبُو سَيّارَةَ .

وَالثّالِثَةُ إنْسَاءُ الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ . وَكَانَ إلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ يُقَالُ لَهُ حُذَيْفَةُ ثُمّ صَارَ إلَى جُنَادَةَ بْنِ عَوْفٍ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَلَمّا بَلَغَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً جَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِبُنْيَانِ الْكَعْبَةِ . وَكَانُوا يَهُمّونَ بِذَلِكَ لِيَسْقُفُوهَا ، وَيَهَابُونَ هَدْمَهَا ، وَإِنّمَا كَانَتْ رَضْمًا فَوْقَ الْقَامَةِ فَأَرَادُوا رَفْعَهَا وَتَسْقِيفَهَا . وَذَلِكَ أَنّ قَوْمًا سَرَقُوا كَنْزَ الْكَعْبَةِ وَكَانَ فِي بِئْرٍ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ . وَكَانَ الْبَحْرُ قَذَفَ عَلَى سَفِينَةً إلَى جِدّةَ لِرَجُلٍ مِنْ تُجّارِ الرّومِ ، فَتَحَطّمَتْ . فَأَخَذُوا خَشَبَهَا فَأَعَدّوهُ لِسُقُفِهَا .

وَكَانَ بِمَكّةَ رَجُلٌ قِبْطِيّ نَجّارٌ . فَهَيّأَ لَهُمْ بَعْضَ مَا كَانَ يُصْلِحُهَا . وَكَانَتْ حَيّةٌ تَخْرُجُ مِنْ بِئْرِ الْكَعْبَةِ الّتِي كَانَ يُطْرَحُ فِيهِ مَا يُهْدَى لَهَا كُلّ يَوْمٍ فَتَتَشَرّقُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، وَكَانَتْ مِمّا يَهَابُونَ . وَذَلِكَ أَنّهُ كَانَ لَا يَدْنُو مِنْهَا أَحَدٌ إلّا اخْزَأَلّتْ وَكَشّتْ وَفَتَحَتْ فَاهَا . فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ تَتَشَرّقُ عَلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، بَعَثَ اللّهُ إلَيْهَا طَائِرًا فَاخْتَطَفَهَا . فَذَهَبَ بِهَا . فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : إنّا لَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللّهُ قَدْ رَضِيَ مَا أَرَدْنَا . عِنْدَنَا عَامِلٌ رَفِيقٌ وَعِنْدَنَا خُشُبٌ . وَقَدْ كَفَانَا اللّهُ الْحَيّةَ .

فَلَمّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي هَدْمِهَا وَبِنَائِهَا : قَامَ أَبُو وَهْبِ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ الْمَخْزُومِيّ فَتَنَاوَلَ مِنْ الْكَعْبَةِ حَجَرًا . فَوَثَبَ مِنْ يَدِهِ حَتّى رَجَعَ إلَى مَوْضِعِهِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَا تُدْخُلُوا فِي بُنْيَانِهَا مِنْ كَسْبِكُمْ إلّا طِيبًا ، لَا يَدْخُلُ فِيهَا مَهْرُ بَغِيّ وَلَا بَيْعُ رِبًا . وَلَا مَظْلِمَةُ أَحَدٍ مِنْ النّاسِ .

ثُمّ إنّ قُرَيْشًا تَجَزّأَتْ الْكَعْبَةَ . فَكَانَ شِقّ الْبَابِ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَزُهْرَةَ . وَمَا بَيْنَ الرّكْنِ الْأَسْوَدِ وَالْيَمَانِيّ - 44 - لِبَنِي مَخْزُومٍ . وَقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ انْضَافَتْ إلَيْهِمْ . وَكَانَ ظَهْرُ الْكَعْبَةِ : لِبَنِي جُمَحَ وَبَنِيّ سَهْمٍ . وَكَانَ شِقّ الْحَجَرِ : لِبَنِي عَبْدِ الدّارِ وَلِبَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزّى ، وَلِبَنِي عَدِيّ . وَهُوَ الْحَطِيمُ .

ثُمّ إنّ النّاسَ هَابُوا هَدْمَهَا . فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ : أَنَا أَبْدَؤُكُمْ فِي هَدْمِهَا ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ . ثُمّ قَامَ عَلَيْهَا . وَهُوَ يَقُولُ اللّهُمّ لَا تُرَعْ - أَوْ لَمْ نَرُعْ - اللّهُمّ إنّا لَا نُرِيدُ إلّا الْخَيْرَ . ثُمّ هَدَمَ مِنْ نَاحِيَةِ الرّكْنَيْنِ . فَتَرَبّصَ النّاسُ تِلْكَ اللّيْلَةَ . وَقَالُوا : إنْ أُصِيبَ لَمْ نَهْدِمْ مِنْهَا شَيْئًا . وَرَدَدْنَاهَا كَمَا كَانَتْ وَإِلّا فَقَدْ رَضِيَ اللّهُ مَا صَنَعْنَا . فَأَصْبَحَ الْوَلِيدُ مِنْ لَيْلَتِهِ غَادِيًا عَلَى عَمَلِهِ . فَهَدَمَ وَهَدَمَ النّاسُ مَعَهُ .

حَتّى إذَا انْتَهَى الْهَدْمُ بِهِمْ إلَى الْأَسَاسِ - أَسَاسِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السّلَامُ - أَفْضَوْا إلَى حِجَارَةٍ خُضْرٍ كَالْأَسِنّةِ أَخَذَ بَعْضَهَا بَعْضًا . فَأَدْخَلَ بَعْضُهُمْ عَتَلَةً بَيْنَ حَجَرَيْنِ مِنْهَا لِيُقْلِعَ أَحَدَهُمَا . فَلَمّا تَحَرّكَ الْحَجَرُ : انْتَفَضَتْ مَكّةُ بِأَسْرِهَا . فَانْتَهَوْا عِنْدَ ذَلِكَ الْأَسَاسِ .

ثُمّ إنّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتْ الْحِجَارَةَ لِبِنَائِهَا ، كُلّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ . ثُمّ بَنَوْهَا . حَتّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ . فَاخْتَصَمُوا فِيهِ كُلّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إلَى مَوْضِعِهِ حَتّى تَحَاوَرُوا وَتَخَالَفُوا وَأَعَدّوا لِلْقِتَالِ فَقَرّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَة دَمًا . تَعَاهَدُوا - هُمْ وَبَنُو عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ - عَلَى الْمَوْتِ وَأَدْخَلُوا أَيْدِيَهُمْ فِي ذَلِكَ الدّمِ . فَسُمّوا " لَعَقَةَ الدّمِ " فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ . أَوْ خَمْسًا .

ثُمّ إنّهُمْ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ . فَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا .

فَزَعَمَ بَعْضُ أَهْلِ الرّوَايَةِ أَنّ أَبَا أُمَيّةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَخْزُومٍ الْمَخْزُومِيّ - وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَسَنّ قُرَيْشٍ كُلّهِمْ - قَالَ اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ أَوّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ . فَفَعَلُوا . فَكَانَ أَوّلَ مَنْ دَخَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَلَمّا رَأَوْهُ قَالُوا " هَذَا الْأَمِينُ رَضِينَا بِهِ هَذَا مُحَمّدٌ " فَلَمّا انْتَهَى إلَيْهِمْ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ . فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَلُمّ إلَيّ ثَوْبًا " فَأُتِيَ بِهِ . فَأَخَذَ الرّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ . ثُمّ قَالَ لِتَأْخُذ كُلّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ الثّوْبِ . ثُمّ ارْفَعُوا جَمِيعًا " فَفَعَلُوا ، حَتّى إذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ بَنَى عَلَيْهِ .

<45> وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ الْحِجَارَةَ . وَكَانُوا يَرْفَعُونَ أُزُرَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ فَفَعَلَ ذَلِكَ

رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلُبِطَ بِهِ - أَيْ طَاحَ عَلَى وَجْهِهِ - وَنُودِيَ " اُسْتُرْ عَوْرَتَك " فَمَا رُئِيَتْ لَهُ عَوْرَةٌ بَعْدَ ذَلِكَ [19] .
فَلَمّا بَلَغُوا خَمْسَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا سَقّفُوهُ عَلَى سِتّةِ أَعْمِدَةٍ .
وَكَانَ الْبَيْتُ يُكْسَى الْقَبَاطِيّ . ثَمّ كُسِيَ الْبُرُودَ . وَأَوّلُ مَنْ كَسَاهُ الدّيبَاجَ الْحَجّاجُ بْنُ يُوسُفَ .
وَأَخْرَجَتْ قُرَيْشٌ الْحَجَرَ لِقِلّةِ نَفَقَتِهِمْ . وَرَفَعُوا بَابَهَا عَنْ الْأَرْضِ لِئَلّا يَدْخُلَهَا إلّا مَنْ أَرَادُوا . وَكَانُوا إذَا أَرَادُوا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ لَا يُرِيدُونَ دُخُولَهُ تَرَكُوهُ حَتّى يَبْلُغَ الْبَابَ ثُمّ يَرْمُونَهُ .
فَلَمّا بَلَغَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ بَعَثَهُ اللّهُ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . وَدَاعِيًا إلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .

بَعْضُ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيّةِ

وَنَذْكُرُ قَبْلَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيّةِ وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .
قَالَ قَتَادَةُ : ذُكِرَ لَنَا : أَنّهُ كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ . كُلّهُمْ عَلَى الْهُدَى ، وَعَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْحَقّ . ثُمّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ . فَبَعَثَ اللّهُ نُوحًا عَلَيْهِ السّلَامُ . وَكَانَ أَوّلَ رَسُولٍ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (2 : 213) كَانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً قَالَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلّهِمْ . وَكَانَ أَوّلَ مَا كَادَهُمْ بِهِ الشّيْطَانُ هُوَ تَعْظِيمُ الصّالِحِينَ وَذَكَرَ اللّهُ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي قَوْلِهِ (71 : 23) وَقَالُوا لَا تَذَرُنّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنّ وَدّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : كَانَ هَؤُلَاءِ قَوْمًا صَالِحِينَ . فَلَمّا مَاتُوا فِي شَهْرٍ جَزِعَ عَلَيْهِمْ أَقَارِبُهُمْ . فَصَوّرُوا صُوَرَهُمْ .
وَفِي غَيْرِ حَدِيثِهِ " قَالَ أَصْحَابُهُمْ لَوْ صَوّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إلَى الْعِبَادَةِ " قَالَ فَكَانَ الرّجُلُ يَأْتِي أَخَاهُ وَابْنَ عَمّهِ فَيُعَظّمُهُ حَتّى ذَهَبَ ذَلِكَ الْقَرْنُ . ثُمّ جَاءَ قَرْنٌ آخَرُ . فَعَظّمُوهُمْ أَشَدّ مِنْ الْأَوّلِ . ثُمّ جَاءَ الْقَرْنُ الثّالِثُ فَقَالُوا : مَا عَظّمَ أَوّلُونَا هَؤُلَاءِ إلّا وَهُمْ يَرْجُونَ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَ اللّهِ فَعَبَدُوهُمْ . <46> فَلَمّا بَعَثَ اللّهُ إلَيْهِمْ نُوحًا - وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ - أَهْبَطَ الْمَاءُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مِنْ أَرْضٍ إلَى أَرْضٍ حَتّى قَذَفَهَا إلَى أَرْضِ جِدّةَ . فَلَمّا نَضَبَ الْمَاءُ بَقِيَتْ عَلَى الشّطّ فَسَفّتْ الرّيحُ عَلَيْهَا التّرَابَ حَتّى وَارَتْهَا .

---

[19] () أَخرَجَ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 364 و 1582) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 76 و 77) نَحوَهُ مِن حديثِ جابرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

عَمْرُو بْنُ لُحَيّ أَوّلُ مَنْ غَيّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ
وَكَانَ عَمْرُو بْنُ لُحَيّ سَيّدَ خُزَاعَةَ كَاهِنًا وَلَهُ رِئِيّ مِنْ الْجِنّ فَأَتَاهُ . فَقَالَ " عَجّلْ السّيْرَ وَالظّعُنَ مِنْ تِهَامَةَ بِالسّعْدِ وَالسّلَامَةِ انْتِ جِدّةَ ، تَجِدُ أَصْنَامًا مُعَدّةً فَأَوْرِدْهَا تِهَامَةَ وَلَا تَهَبْ وَادْعُ الْعَرَبَ إلَى عِبَادَتِهَا تُجَبْ " فَأَتَى جِدّةَ فَاسْتَثَارَهَا ، ثُمّ حَمَلَهَا حَتّى أَوْرَدَهَا تِهَامَةَ .
وَحَضَرَ الْحَجّ ، فَدَعَا الْعَرَبَ إلَى عِبَادَتِهَا . فَأَجَابَهُ عَوْفُ بْنُ عَذِرَةَ فَدَفَعَ إلَيْهِ وَدّا فَحَمَلَهُ . فَكَانَ بِوَادِي الْقُرَى بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ . وَسَمّى ابْنَهُ عَبْدَ وُدّ فَهُوَ أَوّلُ مَنْ سُمّيَ بِهِ . فَلَمْ يَزَلْ بَنُوهُ يَسْدُنُونَهُ حَتّى جَاءَ الْإِسْلَامُ . فَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ لِهَدْمِهِ . فَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بَنُو عُذْرَةَ ، وَبَنُو عَامِرٍ . فَقَاتَلَهُمْ فَقَتَلَهُمْ . ثُمّ هَدَمَهُ وَجَعَلَهُ جُذَاذًا .
وَأَجَابَتْ عَمْرَو بْنَ لُحَيّ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارٍ . فَدَفَعَ إلَى رَجُلٍ مِنْ هُذَيْلٍ سُوَاعًا ، فَكَانَ بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا : وِهَاطٌ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةَ . يَعْبُدُهُ مَنْ يَلِيهِ مِنْ مُضَرَ . وَفِي ذَلِكَ قِيلَ

تَرَاهُمْ حَوْلَ قِبْلَتِهِمْ ... كَمَا عَكَفَتْ هُذَيْلٌ عُكُوفًا
عَلَى سُوَاعٍ

وَأَجَابَتْهُ مَذْحِجُ . فَدَفَعَ إلَى نُعَيْمِ بْنِ عُمَرَ الْمُرَادِيّ يَغُوثَ . وَكَانَ بِأَكَمَةٍ بِالْيَمَنِ تَعْبُدُهُ مَذْحِجُ وَمَنْ وَالَاهَا .
وَأَجَابَتْهُ هَمْدَانُ فَدَفَعَ إلَيْهِمْ يَعُوقَ فَكَانَ بِقَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا خَيْوَانُ . تَعْبُدُهُ هَمْدَانُ وَمَنْ وَالَاهَا مِنْ الْيَمَنِ .
وَأَجَابَتْهُ حِمْيَرُ ، فَدَفَعَ إلَيْهِمْ نَسْرًا . فَكَانَ بِمَوْضِعٍ بِسَبَأٍ تَعْبُدُهُ حِمْيَرُ وَمَنْ وَالَاهَا .
فَلَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ تُعْبَدُ حَتّى بَعَثَ اللّهُ رَسُولَهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَكَسَرَهَا .
<47> وَفِي الصّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَأَيْت عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيّ يَجُرّ قُصْبَهُ فِي النّارِ . فَكَانَ أَوّلَ مَنْ سَيّبَ السّوَائِبَ وَفِي لَفْظٍ وَغَيّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ وَفِي لَفْظٍ عَنْ ابْنِ إسْحَاقَ فَكَانَ أَوّلَ مَنْ غَيّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ وَنَصَبَ الْأَوْثَانَ [20]

---

[20] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3521 و4623) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2856) مِن حَديثِ أَبِي هريرَة رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيّةِ عَلَى ذَلِكَ فِيهِمْ بَقَايَا مِنْ دِينِ إبْرَاهِيمَ مِثْلُ تَعْظِيمِ الْبَيْتِ وَالطّوَافِ بِهِ وَالْحَجّ وَالْعُمْرَةِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ ، وَإِهْدَاءِ الْبُدْنِ . وَكَانَتْ نِزَارٌ تَقُولُ فِي إهْلَالِهَا " لَبّيْكَ اللّهُمّ لَبّيْكَ لَبّيْكَ لَا شَرِيكَ لَك ، إلّا شَرِيكًا هُوَ لَك ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ " فَأَنْزَلَ اللّهُ (30 : 38) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

صَنَمُ مَنَاةَ

وَمِنْ أَقْدَمِ أَصْنَامِهِمْ مَنَاةُ . وَكَانَ مَنْصُوبًا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمُشَلّلِ بِقُدَيْدٍ بَيْنَ مَكّةَ وَالْمَدِينَةِ . وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُعَظّمُهُ قَاطِبَةً وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشَدّ تَعْظِيمًا لَهُ مِنْ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَبِسَبَبِ ذَلِكَ أَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (2 :ـ 158) إنّ الصّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطّوّفَ بِهِمَا - الْآيَةَ [21] فَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلِيّا رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فَهَدَمَهَا عَامَ الْفَتْحِ .

صَنَمُ اللّاتِ

ثُمّ اتّخَذُوا اللّاتِ فِي الطّائِفِ ، قِيلَ إنّ أَصْلَ ذَلِكَ رَجُلٌ كَانَ يَلُتّ السّوِيقَ لِلْحَاجّ فَمَاتَ . فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ . وَكَانَتْ صَخْرَةٌ مُرَبّعَةٌ وَكَانَ سَدَنَتَهَا ثَقِيفٌ ، وَكَانُوا قَدْ بَنَوْا عَلَيْهَا بَيْتًا . فَكَانَ جَمِيعُ الْعَرَبِ يُعَظّمُونَهَا ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمّي زَيْدَ اللّاتِ ، وَتَيْمَ اللّاتِ . وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ مَنَارَةِ مَسْجِدِ الطّائِفِ . فَلَمّا أَسْلَمَتْ ثَقِيفٌ ، بَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَهَدَمَهَا وَحَرَقَهَا بِالنّارِ .

صَنَمُ الْعُزّى

ثُمّ اتّخَذُوا الْعُزّى . وَهِيَ أَحْدَثُ مِنْ اللّاتِ . وَكَانَتْ بِوَادِي نَخْلَةَ . فَوْقَ ذَاتِ عِرْقٍ <48> وَبَنّوا عَلَيْهَا بَيْتًا . وَكَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْهَا الصّوْتَ . وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُعَظّمُهَا . فَلَمّا فَتَحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَكّةَ ، بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَأَتَاهَا فَعَضّدَهَا ، وَكَانَتْ ثَلَاثَ سَمُرَاتٍ . فَلَمّا عَضّدَ الثّالِثَةَ فَإِذَا بِحَبَشِيّةٍ نَافِشَةٍ

---

[21] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4495) بنحوهِ مِن حـديثِ عائِشَـةَ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْهَـا وَ(بِرَقْمِ : 4496) مِن حديثِ أَنَس رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

شَـعْرَهَا ، وَاضِـعَةً يَـدَهَا عَلَـى عَاتِقِهَـا ، تَضْـرِبُ بِأَنْيَابِهَـا . وَخَلْفَهَـا سَادِنُهَا . فَقَالَ خَالِدٌ

يَــا عَــزّ كُفْرَانِــك لَا سُبْحَانَك إنّـي رَأَيْـت اللّـهَ قَـدْ أَهَانَك

ثُمّ ضَرَبَهَا فَفَلَقَ رَأْسَهَا ، فَإِذَا هِيَ حُمَمَةٌ . ثُمّ قَتَلَ السّادِنَ .

صَنَمُ هُبَلَ

وَكَانَتْ لِقُرَيْشٍ أَصْنَامٌ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ وَحَوْلَهَا . وَأَعْظَمُهَا : هُبَلُ . وَكَـانَ مِـنْ عَقِيـقٍ أَحْمَـرَ عَلَـى صُـورَةِ الْإِنْسَـانِ . وَكَـانُوا إذَا اخْتَصَمُوا ، أَوْ أَرَادُوا سَفَرًا : أَتَوْهُ فَاسْتَقْسَمُوا بِالْقِدَاحِ عِنْدَهُ وَهُـوَ الّذِي قَالَ فِيهِ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ " أُعْلُ هُبَلُ " فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " قُولُوا : اللّهُ أَعْلَى وَأَجَلّ [22]

وَكَانَ لَهُمْ إسَافٌ وَنَائِلَةُ . قِيلَ أَصْلُهُمَا أَنّ إسَافًا رَجُلٌ مِنْ جُرْهُمٍ ، وَنَائِلَةُ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ فَدَخَلَا الْبَيْتَ فَفَجَرَ بِهَـا فِيـهِ . فَمَسَـخَهُمَا اللّـهُ فِيهِ حَجَرَيْنِ فَأَخْرَجَهُمَا فَوَضَعُوهُمَا لِيَتّعِظَ بِهِمَا النّاسُ فَلَمّـا طَـالَ الْأَمَدُ وَعُبِدَتْ الْأَصْنَامُ عُبِدَا .

ذُو الْخَلَصَةِ

وَكَانَ لِخَثْعَمَ وَبَجِيلَةَ صَنَمٌ يُقَالُ لَهُ ذُو الْخَلَصَةِ ، بَيْنَ مَكّةَ وَالْمَدِينَـةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لِجَرِيـرِ بْـنِ عَبْـدِ اللّـهِ الْبَجَلِـيّ : « أَلَا تُرِيحُنِـي مِـنْ ذِي الْخَلَصَـةِ ؟ » [23] فَسَـارَ إلَيْـهِ بِأَحْمَسَ . فَقَاتَلَتْهُ هَمْدَانُ ، فَظَفِرَ بِهِمْ وَهَدَمَهُ .

وَكَانَ لِقُضَاعَةَ وَلَخْمٍ وَجُذَامٍ وَعَامِلَةَ وَغَطَفَانَ صَنَمٌ فِي مَشَـارِفِ الشّامِ . وَكَانَ لِأَهْلِ كُلّ وَادٍ بِمَكّةَ صَنَمٌ إذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ سَفَرًا كَانَ آخِرُ مَا يَصْنَعُ فِي مَنْزِلِهِ أَنْ يَتَمَسّحَ بِهِ .

صَنَمُ عَمّ أَنَسٍ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ ، وَكَانَ لِخَوْلَانَ صَنَمٌ يُقَالُ لَهُ عَـمّ أَنَـسٍ ، وَفِيهِـمْ أَنَزَلَ اللّهُ (6 : 136) وَجَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُـرَكَائِنَا فَمَـا كَـانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

---

[22] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4043) مِن حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

[23] () أَخرَجَـهُ : البُخـاري (بِرَقْـمِ : 3036 و 6090) ومُسـلِم (بِرَقْـمِ : 2475) مِـن حديثِ جَريرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

فَلَمّا بَعَثَ اللّـهُ مُحَمّـدًا صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بِالتّوْحِيـدِ قَـالَتْ قُرَيْشٌ (38 : 5) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (24)

وَكَـانَتْ الْعَـرَبُ قَـدْ اتّخَـذَتْ مَـعَ الْكَعْبَـةِ طَـوَاغِيتَ . وَهِـيَ بُيُـوتٌ تُعَظّمُهَا كَتَعْظِيمِ الْكَعْبَةِ . وَلَمّا فَتَحَ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ مَكّةَ : وَجَـدَ حَـوْلَ الْبَيْـتِ ثَلَاثَمِائَـةٍ وَسِـتّينَ صَـنَمًا . فَجَعَـلَ يَطْعَنُ فِي وُجُوهِهَا وَعُيُونِهَا ، وَيَقُـولُ (17 ـ 81) ـ جَـاءَ الْحَـقّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا وَهِيَ تَتَسَاقَطُ عَلَى رُءُوسِهَا ، ثُمّ أَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ مِنْ الْمَسْجِدِ وَحُرّقَتْ .

رَجَعْنَا إلَى سِيرَتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَنَقُولُ

بَدْءُ الْوَحْيِ

فِي الصّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْهَـا قَـالَتْ <50> أَوّلُ مَـا بُـدِئَ بِرَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ مِـنْ الْـوَحْيِ الرّؤْيَـا الصّادِقَةُ . فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إلّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصّـبْحِ ثُـمّ حُبّـبَ إلَيْهِ الْخَلَاءُ . فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ ، فَيَتَحَنّثُ فِيـهِ - وَهُـوَ التّعَبّـدُ - اللّيَالِيَ ذَوَاتَ الْعَدَدِ . قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إلَى أَهْلِهِ . وَيَتَزَوّدُ لِـذَلِكَ . ثُـمّ يَرْجِعُ إلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتّى فَجَأَهُ الْحَقّ ، وَهُوَ فِي غَـارِ حِرَاءٍ ، فَجَـاءَهُ الْمَلَـكُ فَقَـالَ اقْـرَأْ فَقُلْـت : مَـا أَنَـا بِقَـارِئٍ . قَـالَ فَأَخَذَنِي فَغَطّنِي ، حَتّى بَلَغَ مِنّي الْجَهْدَ . ثُمّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ اقْـرَأْ فَقُلْت : مَا أَنَا بِقَـارِئٍ . فَأَخَـذَنِي فَغَطّنِـي الثّانِيَـةَ حَتّـى بَلَـغَ مِنّـي الْجَهْدَ ثُمّ أَرْسَلَنِي . فَقَالَ اقْرَأْ . فَقُلْت : مَا أَنَا بِقَـارِئٍ . فَأَخَـذَنِي فَغَطّنِي الثّالِثَةَ . ثَمّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ لِـي فِـي الثّالِثَـةِ اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبّكَ الْأَكْـرَمُ فَرَجَـعَ بِهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ يَرْجُـفُ فُـؤَادَهُ حَتّـى دَخَـلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ . فَقَالَ زَمّلُونِي ، زَمّلُونِي ، فَزَمّلُوهُ حَتّـى ذَهَبَ عَنْهُ الرّوْعُ . فَقَالَ لِخَدِيجَةَ - وَأَخْبَرَهَا الْخَبَـرَ - لَقَـدْ خَشِـيت عَلَى نَفْسِي . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلّا وَاَللّهِ مَا يُخْزِيك اللّـهُ أَبَـدًا . إنّـك لَتَصِلُ الرّحِـمَ وَتَحْمِـلُ الْكَـلّ وَتَقْـرِي الضّـيْفَ وَتُكْسِـبُ الْمَعْـدُومَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُـزّى - ابْـنِ عَـمّ خَدِيجَـةَ - وَكَـانَ قَـدْ تَنَصّرَ فِي الْجَاهِلِيّةِ . وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَـابَ الْعِبْرَانِـيّ . فَيَكْتُـبُ مِـنْ

---

[24] () أَخرَجَـهُ : البُخـاري (بِرَقْـمِ : 4287 و 4720) وَمُسـلِم (بِرَقْـمِ : 1781) مِـن حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

الْإِنْجِيلِ بالعبرانية مَا شَاءَ اللّـهُ أَنْ يَكْتُـبَ وَكَـانَ شَـيْخًا كَبِيـرًا قَـدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمّ اسْمَعْ مِنْ ابْـنِ أَخِيـك . فَقَـالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي ، مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النّامُوسُ الّذِي أَنَـزَلَ اللّـهُ عَلَـى مُوسَـى ، يَـا لَيْتَنِـي فِيهَـا جَـذَعًا ، لَيْتَنِـي أَكُـونُ حَيّـا إذْ يُخْرِجُك قَوْمُك ؟ قَالَ أَوَ مُخْرِجِيّ هُمْ ؟ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأتِ رَجُلٌ قَطّ بِمِثْلِ مَا جِئْت بِـهِ إلّا عُـودِيَ . وَإِنْ يُـدْرِكَنِي يَوْمُـك أَنْصُـرْك نَصْـرًا مُؤَزّرًا [25] ثُمّ أَنْشَدَ وَرَقَةُ

لَجَجْـــت ، وَكُنْـــت فِـــي الذّكْرَى لَجُوجًا ... لِهَمّ طَالَمَا بَعَثَ النّشِيجَا

وَوَصْفٌ مِـنْ خَدِيجَـةَ بَعْـدَ وَصْفٍ ... فَقَـدْ طَـالَ انْتِظَـارِي يَـا خَدِيجَا

بِبَطْـــنِ الْمَكّتَيْـــنِ عَلَـــى رَجَائِي ... حَـــــدِيثَك أَنْ أَرَى مِنْـــــهُ خُرُوجَا

بِمَا خَبّرْتنَا مِنْ قَوْلِ قُسّ ... مِـــنْ الرّهْبَـــانِ أَكْـــرَهُ أَنْ يَعُوجَا

بِأَنّ مُحَمّدًا سَيَسُودُ قَوْمًا ... وَيَخْصِـمُ مَـنْ يَكُـونَ لَـهُ حَجِيجًا

وَيَظْهَـرُ فِـي الْبِلَادِ ضِـيَاءُ نُورٍ ... يُقِيمُ بِهِ الْبَرِيّةُ أَنْ تَمُوجَا

فَيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا ... وَيَلْقَى مَنْ يُسَالِمُهُ فُلُوجَا

فَيَا لَيْتِي إذَا مَا كَانَ ذَا كَمْ ... شَـــهِدَتْ وَكُنْـــت أَوّلَهُـــمْ وُلُوجَا

وُلُوجًـــا بِاَلّـــذِي كَرِهَـــتْ قُرَيْشٌ ... وَلَوْ عَجّتْ بِمَكّتِهَا عَجِيجَا

أُرَجّي بِاَلّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا ... إلَـــى ذِي الْعَـــرْشِ - إنْ سَفَلُوا - عُرُوجَا

وَهَـلْ أَمْـرُ السّـفَالَةِ غَيْـرُ بِمَـنْ يَخْتَـارُ مِـنْ سَـمَكِ

---

[25] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 9719 و6982) ومُسلم (بِرَقْمِ : 160) .

كُفْرٍ الْبُرُوجَا

فَإِنْ يَبْقَوْا وَأَبْقَ تَكُنْ أُمُورٌ يَضِـــجّ الْكَـــافِرُونَ لَهَـــا ضَجِيجَا

وَإِنْ أَهْلَـــكَ فَكُـــلّ فَتًـــى سَيَلْقَى مِنْ الْأَقْدَارِ مُتْلِفَةً خُرُوجَا

فَلَمْ يَلْبَثْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفّيَ وَفَتَـرَ الْـوَحْيُ حَتّـى حَـزِنَ رَسُـولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حُزْنًا شَدِيدًا . حَتّى كَانَ يَذْهَبُ إلَـى رُءُوسِ شَوَاهِقِ الْجِبَالِ يُرِيدُ أَنْ يُلْقِـيَ بِنَفْسِـهِ مِنْهَـا ، كُلّمَـا أَوْفَـى بِـذَرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدّى لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السّلَامُ ، فَقَالَ " يَا مُحَمّـدُ إنّـك رَسُـولُ اللّهِ حَقّا " فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُـهُ وَتَقَـرّ نَفْسُـهُ فَيَرْجِـعُ فَـإِذَا طَـالَ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الْوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ فَإِذَا أَوْفَى بِذَرْوَةٍ تَبَدّى لَهُ جِبْرِيلُ فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ . <51> فَبَيْنَمَا هُوَ يَوْمًا يَمْشِي إذْ سَمِعَ صَوْتًا مِنْ السّمَاءِ . قَالَ " فَرَفَعْت بَصَرِي . فَإِذَا الْمَلَكُ الّذِي جَـاءَنِي بِحِـرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيّ بَيْـنَ السّـمَاءِ وَالْأَرْضِ فَرُعِبْـت مِنْـهُ فَرَجَعْـت إلَى أَهْلِي ، فَقُلْت : دَثّرُونِي . دَثّرُونِي . فَأَنْزَلَ اللّـهُ (73 نـ 1 ، 2) يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ "

أَنْوَاعُ الْوَحْيِ

وَكَانَ الْوَحْيُ الّذِي يَأْتِيهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَنْوَاعًـا : أَحَـدُهَا : الرّؤْيَا . قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَرَ " رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ " ثُـمّ قَـرَأَ (37 : 102) إنّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنّي أَذْبَحُكَ

الثّانِي : مَا كَانَ الْمَلَكُ يُلْقِيهِ فِـي رَوْعِـهِ - أَيْ قَلْبِـهِ - مِـنْ غَيْـرِ أَنْ يَرَاهُ كَمَا قَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ إنّ رُوحَ الْقُـدُسِ نُفِـثَ فِـي رَوْعِي : أَنّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا ، فَـاتّقُوا اللّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطّلَبِ وَلَا يَحْمِلَنكُـمْ اسْـتِبْطَاءُ الـرّزْقِ عَلَـى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللّهِ . فَإِنّ مَا عِنْدَ اللّهِ لَا يَنَالُ إلّا بِطَاعَتِهِ

الثّالِثُ أَنّ الْمَلَكَ يَتَمَثّلُ لَهُ رَجُلًا فَيُخَاطِبُهُ . وَفِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصّحَابَةُ أَحْيَانًا .

الرّابِـعُ أَنّـهُ كَـانَ يَـأْتِيهِ مِثْـلَ صَلْصَـلَةِ الْجَـرَسِ وَهُـوَ أَشَـدّ عَلَيْـهِ . فَيَلْتَبِـسُ بِـهِ الْمَلَـكُ . حَتّـى إنّ جَبِينَـهُ لَيَتَفَصّـدُ عَرَقًـا فِـي الْيَـوْمِ الشّدِيدِ الْبَرْدِ . وَحَتّى إنّ رَاحِلَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إلَى الْأَرْضِ وَجَاءَهُ مَرّةً وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، فَكَادَتْ تُرَضّ .

الْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَهُ الْمَلَكُ فِي الصّورَةِ الّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا . فَيُوحِي إلَيْهِ مَا شَاءَ اللّهُ وَهَذَا وَقَعَ مَرّتَيْنِ كَمَا ذَكَرَ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النّجْمِ .
السّادِسُ مَا أَوْحَاهُ اللّهُ لَهُ فَوْقَ السّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصّلَاةِ وَغَيْرِهَا .
قَالَ ابْنُ الْقَيّمِ رَحِمَهُ اللّهُ أَوّلُ مَا أَوْحَى إلَيْهِ رَبّهُ أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبّهِ الّذِي خَلَقَ . وَذَلِكَ أَوّلُ نُبُوّتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالتّبْلِيغِ . ثُمّ أَنزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ فَنَبّأَهُ بِاقْرَأْ وَأَرْسَلَهُ بِـ يَا أَيّهَا الْمُدّثّرُ ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ <52> يُنْذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ . ثُمّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ . ثُمّ أَنْذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ . ثُمّ أَنْذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً . ثُمّ أَنْذَرَ الْعَالَمِينَ .
فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً يُنْذِرُ بِالدّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ . وَيَأْمُرُهُ اللّهُ بِالْكَفّ وَالصّبْرِ . ثُمّ أَذِنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ وَأَذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ . ثُمّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ وَيَكُفّ عَمّنْ لَمْ يُقَاتِلْهُ . ثُمّ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتّى يَكُونَ الدّينُ كُلّهُ لِلّهِ .

أَوّلُ مَنْ آمَنَ

وَلَمّا دَعَا إلَى اللّهِ اسْتَجَابَ لَهُ عِبَادٌ مِنْ كُلّ قَبِيلَةٍ . فَكَانَ حَائِزُ السّبْقِ صِدّيقُ الْأُمّةِ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فَوَازَرَهُ فِي دِينِ اللّهِ . وَدَعَا مَعَهُ إلَى اللّهِ . فَاسْتَجَابَ لِأَبِي بَكْرٍ عُثْمَانُ وَطَلْحَةُ وَسَعْدٌ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .
وَبَادَرَ إلَى اسْتِجَابَتِهِ أَيْضًا صِدّيقَةُ النّسَاءِ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا . وَبَادَرَ إلَى الْإِسْلَامِ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَكَانَ ابْنُ ثَمَانِ سِنِينَ وَقِيلَ أَكْثَرُ إذْ كَانَ فِي كِفَالَةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَخَذَهُ مِنْ عَمّهِ .

شَأْنُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ

وَبَادَرَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ حِبّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكَانَ غُلَامًا لِخَدِيجَةَ فَوَهَبَتْهُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا تَزَوّجَهَا . وَقَدِمَ أَبُوهُ حَارِثَةَ وَعَمّهُ فِي فِدَائِهِ . فَقَالَا لِلنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَا ابْنَ سَيّدِ قَوْمِهِ أَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللّهِ وَجِيرَانُهُ تَفُكّونَ الْعَانِيَ وَتُطْعِمُونَ الْأَسِيرَ . جِئْنَاك فِي ابْنِنَا عَبْدِك فَأَحْسِنْ لَنَا فِي فِدَائِهِ . فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " فَهَلْ غَيْرُ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ أَدْعُوهُ فَأُخَيّرُهُ فَإِنْ

اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ . وَإِنْ اخْتَارَنِي : فَوَاَللّهِ مَا أَنَا بِاَلّذِي أَخْتَارُ عَلَى مَنْ اخْتَارَنِي " قَالُوا : قَدْ زِدْتنَا عَلَى النّصْفِ وَأَحْسَنْت . فَدَعَاهُ . فَقَالَ " هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلَاءِ ؟ " قَالَ نَعَمْ أَبِي وَعَمّي . قَالَ " فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْت وَقَدْ رَأَيْت صُحْبَتِي لَكَ . فَاخْتَرْنِي ، أَوْ اخْتَرْهُمَا " فَقَالَ مَا أَنَا بِاَلّذِي أَخْتَارُ عَلَيْك أَحَدًا . أَنْتَ مَكَان أَبِي وَعَمّي . فَقَالَا : وَيْحَك يَا زَيْدُ أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيّةَ عَلَى الْحُرّيّةِ . وَعَلَى أَبِيك وَعَمّك ، وَأَهْلِ بَيْتِك ؟ قَالَ نَعَمْ قَدْ رَأَيْت مِنْ هَذَا الرّجُلِ شَيْئًا ، مَا أَنَا بِاَلّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا أَبَدًا . فَلَمّا رَأَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ذَلِكَ خَرَجَ إلَى الْحَجَرِ . فَقَالَ " أَشْهَدُ أَنّ زَيْدًا ابْنِي ، أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ أَبُوهُ وَعَمّهُ طَابَتْ نَفُوسُهُمَا . فَانْصَرَفَا . وَدُعِيَ زَيْدُ بْنُ مُحَمّدٍ حَتّى جَاءَ <53> اللّهُ بِالْإِسْلَامِ فَنَزَلَتْ (33 : 5) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللّهِ قَالَ الزّهْرِيّ : مَا عَلِمْنَا أَحَدًا أَسْلَمَ قَبْلَ زَيْدٍ .

وَأَسْلَمَ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ . وَفِي جَامِعِ التّرْمِذِيّ " أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَآهُ فِي الْمَنَامِ فِي هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ

وَدَخَلَ النّاسُ فِي دِينِ اللّهِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ . وَقُرَيْشٌ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ حَتّى بَادَأَهُمْ بِعَيْبِ دِينِهِمْ وَسَبّ آلِهَتِهِمْ وَأَنّهَا لَا تَضُرّ وَلَا تَنْفَعُ . فَحِينَئِذٍ شَمّرُوا لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ . فَحَمَى اللّهُ رَسُولَهُ بِعَمّهِ أَبِي طَالِبٍ . لِأَنّهُ كَانَ شَرِيفًا مُعَظّمًا . وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ بَقَاؤُهُ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصَالِحِ الّتِي تَبْدُو لِمَنْ تَأَمّلَهَا .

وَأَمّا أَصْحَابُهُ فَمَنْ كَانَ لَهُ عَشِيرَةٌ تَحْمِيهِ امْتَنَعَ بِعَشِيرَتِهِ وَسَائِرُهُمْ تَصَدّوا لَهُ بِالْأَذَى وَالْعَذَابِ . مِنْهُمْ عَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ ، وَأُمّهُ سُمَيّةُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ . عُذّبُوا فِي اللّهِ . وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذَا مَرّ بِهِمْ - وَهُمْ يُعَذّبُونَ - يَقُولُ صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ . فَإِنّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنّةُ

سُمَيّةُ أَوّلُ شَهِيدَةٍ

وَمَرّ أَبُو جَهْلٍ بِسُمَيّةَ - أُمّ عَمّارٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا - وَهِيَ تُعَذّبُ وَزَوْجُهَا وَابْنُهَا . فَطَعَنَهَا بِحَرْبَةٍ فِي فَرْجِهَا فَقَتَلَهَا .

وَكَانَ الصّدّيقُ إذَا مَرّ بِأَحَدٍ مِنْ الْعَبِيدِ يُعَذّبُ اشْتَرَاهُ وَأَعْتَقَهُ . مِنْهُمْ بِلَالٌ . فَإِنّهُ عُذّبَ فِي اللّهِ أَشَدّ الْعَذَابِ . وَمِنْهُمْ عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ ، وَجَارِيَةٌ لِبَنِي عَدِيّ كَانَ عُمَرُ يُعَذّبُهَا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَقَالَ

أَبُو قُحَافَةَ - عُثْمَانُ بْنُ عَامِرٍ - لِابْنِهِ أَبِـي بَكْـرٍ يَـا بُنَـيّ أَرَاكَ تُعْتِـقُ رِقَابًا ضِعَافًا . فَلَوْ أَعْتَقْت قَوْمًا جَلْدًا يَمْنَعُونَكَ ؟ فَقَالَ إنّي أُرِيدُ < 54> مَا أُرِيدُ . وَكَانَ بِلَالٌ كُلَّمَا اشْتَدّ بِهِ الْعَذَابُ يَقُولُ أَحَدٌ ، أَحَـدٌ .

ابْتِدَاءُ الدّعْوَةِ

وَقَالَ الزّهْرِيّ : لَمّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ أَتَـى جَمَاعَـةٌ مِـنْ كُفّـارِ قُرَيْـشٍ إلَـى مَـنْ آمَـنَ مِـنْ عَشَـائِرِهِمْ فَعَـذّبُوهُمْ وَسَـجَنُوهُمْ وَأَرَادُوا أَنْ يَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ . قَالَ التّرْمِذِيّ حَدّثَنِي مُحَمّـدُ بْـنُ صَـالِحٍ عَـنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَيَزِيدُ بْنُ رُومَانَ وَغَيْرُهُمْ . قَالُوا " قَـامَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِمَكّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ مُسْـتَخْفِيًا " . ثُمّ أَعْلَنَ فِي الرّابِعَةِ . فَدَعَا النّاسُ عَشْرَ سِنِينَ يُـوَافِي الْمَوَاسِـمَ كُلّ عَامٍ يَتّبِعُ النّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ . وَفِي الْمَوَاسِمِ بِعُكَاظٍ وَمَجَنّةَ ، وَذِي الْمَجَازِ يَدْعُوهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُ حَتّى يُبَلّـغَ رِسَـالَاتِ رَبّـهِ . وَلَهُـمْ الْجَنّةُ فَلَا يَجِدُ أَحَـدًا يَنْصُـرُهُ وَيَحْمِيـهِ . حَتّـى لِيَسْـأَلَ عَـنْ الْقَبَائِـلِ وَمَنَازِلِهَا قَبِيلَةً قَبِيلَةً فَيَقُولُ أَيّهَا النّاسُ قُولُوا لَا إلَهَ إلّا اللّهُ تَفْلَحُوا وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ ، وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ . فَإِذَا مُتّمْ كُنْتُمْ مُلُوكًـا فِي الْجَنّةِ وَأَبُو لَهَبٍ وَرَاءَهُ يَقُولُ لَا تُطِيعُوهُ . فَإِنّهُ صَـابِئٌ كَـذّابٌ . فَيَرُدّونَ عَلَى رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَقْبَـحَ الـرّدّ . وَيُؤْذُونَهُ وَيَقُولُونَ عَشِيرَتُك أَعْلَمُ بِك حَيْثُ لَمْ يَتّبِعُوك . وَهُوَ يَقُولُ اللّهُمّ لَوْ شِئْت لَمْ يَكُونُوا هَكَذَا وَلَمّا نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (36 : 214) { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ صَعِدَ الصّـفَا فَنَـادَى وَاصَـبَاحَاه فَلَمّا اجْتَمَعُوا إلَيْهِ قَالَ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنّ خَيْلًا تُرِيدُ أَنْ تَخْـرُجَ عَلَيْكُـمْ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدّقِيّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ مَا جَرّبْنَـا عَلَيْـك كَذِبًا . قَالَ فَإِنّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ تَبّا لَك ، مَا جَمَعْتَنَا إلّا لِهَذَا ؟ فَأَنْزَلَ اللّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

قَالَ ابْنُ الْقَيّمِ رَحِمَهُ اللّهُ دَعَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ إلَى اللّهِ مُسْتَخْفِيًا ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمّ نَزَلَ عَلَيْهِ (15 : 94) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

أَوّلُ دَمٍ أُهْرِيقَ

وَفِـي السّـنَةِ الرّابِعَـةِ ضَـرَبَ سَـعْدُ بْـنُ أَبِـي وَقّـاصٍ رَجُلًا مِـنْ الْمُشْرِكِينَ فَشَجّهُ . وَذَلِكَ أَنّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ

وَسَلّمَ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِي الشّعَابِ فَيُصَلّونَ فِيهَا . فَرَآهُمْ رَجُلٌ مِنْ الْكُفّارِ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ . فَسَبّوهُمْ . وَضَرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ رَجُلًا مِنْهُمْ فَسَالَ دَمُهُ . فَكَانَ أَوّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِي الْإِسْلَامِ .

اسْتِهْزَاءُ الْمُشْرِكِينَ

<55> وَكَانَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذَا جَلَسَ وَحَوْلَهُ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ - مِثْلُ عَمّارِ بْنِ يَاسِرٍ ، وَخَبّابِ بْنِ الْأَرَتّ ، وَصُهَيْبٍ الرّومِيّ وَبِلَالٍ وَأَشْبَاهِهِمْ - فَإِذَا مَرّتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ اسْتَهْزَءُوا بِهِمْ وَقَالُوا : أَهَؤُلَاءِ - جُلَسَاؤُهُ - قَدْ مَنّ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللّهُ (6 ـ 53) أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ وَفِيهِمْ نَزَلَ (16 : 41) وَالّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوّئَنّهُمْ فِي الدّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَاَللّهِ لَئِنْ رَأَيْت مُحَمّدًا يُصَلّي لَأَطَأَنّ عَلَى رَقَبَتِهِ . فَبَلَغَهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ يُصَلّي ، فَأَتَاهُ . فَقَالَ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ الصّلَاةِ ؟ فَانْتَهَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ أَتَنْتَهِرُنِي ، وَأَنَا أَعَزّ أَهْلِ الْبَطْحَاءِ) فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى (96 ـ 9 ، 10) أَرَأَيْتَ الّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذَا صَلّى وَفِي بَعْضِ الرّوَايَاتِ أَنّهُ قَالَ أَلَمْ أَنْهَكَ ؟ فَوَاَللّهِ مَا فِي مَكّةَ أَعَزّ مِنْ نَادِي .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ أَبُو جَهْلٍ " يُعَفّرُ مُحَمّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ فَقِيلَ نَعَمْ فَقَالَ وَاللّاتِ وَالْعُزّى ، لَئِنْ رَأَيْته لَأَطَأَنّ عَلَى رَقَبَتِهِ . فَأَتَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ يُصَلّي ، وَزَعَمَ لَيَطَأُ رَقَبَته ، فَمَا فَجِأَهُمْ إلّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتّقِي بِيَدَيْهِ . وَقَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقٌ مِنْ نَارٍ وَهَوْلٌ وَأَجْنِحَةٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَوْ دَنَا مِنّي لَاخْتَطَفَتْه الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى - لَا نَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوَ شَيْءٌ بَلَغَهُ - (96 : 6 ، 7) كَلّا إنّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى

الْهِجْرَةُ الْأُولَى إلَى الْحَبَشَةِ

وَفِي السّنَةِ الْخَامِسَةِ أَمَرَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَصْحَابَهُ بِالْهِجْرَةِ إلَى الْحَبَشَةِ لَمّا اشْتَدّ عَلَيْهِمْ الْعَذَابُ وَالْأَذَى . وَقَالَ إنّ فِيهَا رَجُلًا لَا يُظْلَمُ النّاسُ عِنْدَهُ

وَكَانَتْ الْحَبَشَةُ مَتْجَرَ قُرَيْشٍ . وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْهِجْرَةِ الْأُولَى : اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا وَأَرْبَعَ نِسْوَةٍ . وَكَانَ أَوّلَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهَا : عُثْمَانُ بْنُ عَفّانَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ رُقَيّةُ بِنْتُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَسَتَرَ قَوْمٌ إسْلَامَهُمْ .

وَمِمّنْ خَرَجَ الزّبَيْرُ وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبُو سَلَمَةَ وَامْرَأَتُهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ . خَرَجُوا مُتَسَلّلِينَ سِرّا ، فَوَفّقَ اللّهُ لَهُمْ سَاعَةَ وُصُولِهِمْ إلَى السّاحِلِ <56> سَفِينَتَيْنِ لِلتّجّارِ . فَحَمَلُوهُمْ إلَى الْحَبَشَةِ . وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمْ حَتّى جَاءُوا الْبَحْرَ . فَلَمْ يُدْرِكُوا مِنْهُمْ أَحَدًا . وَكَانَ خُرُوجُهُمْ فِي رَجَبٍ . فَأَقَامُوا بِالْحَبَشَةِ شَعْبَانَ وَرَمَضَانَ . ثُمّ رَجَعُوا إلَى مَكّةَ فِي شَوّالٍ لَمّا بَلَغَهُمْ أَنّ قُرَيْشًا صَافُوا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكَفّوا عَنْهُ .

وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَرَأَ سُورَةَ النّجْمِ . فَلَمّا بَلَغَ (53 : 18 ، 19) أَفَرَأَيْتُمُ اللّاتَ وَالْعُزّى وَمَنَاةَ الثّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلْقَى الشّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ تِلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَى وَإِنّ شَفَاعَتَهُنّ لَتُرْتَجَى فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ مَا ذَكَرَ آلِهَتَنَا بِخَيْرٍ قَبْلَ الْيَوْمِ . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنّ اللّهَ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَكِنّ آلِهَتَنَا تَشْفَعُ عِنْدَهُ . فَلَمّا بَلَغَ السّجْدَةَ سَجَدَ وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ كُلّهُمْ . إلّا شَيْخًا مِنْ قُرَيْشٍ . رَفَعَ إلَى جَبْهَتِهِ كَفّا مِنْ حَصَى فَسَجَدَ عَلَيْهِ . وَقَالَ يَكْفِينِي هَذَا . فَحَزِنَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حُزْنًا شَدِيدًا ، وَخَافَ مِنْ اللّهِ خَوْفًا عَظِيمًا ، فَأَنْزَلَ اللّهُ (22 : 52 - 55) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيّ إلّا إذَا تَمَنّى أَلْقَى الشّيْطَانُ فِي أُمْنِيّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّهُ مَا يُلْقِي الشّيْطَانُ ثُمّ يُحْكِمُ اللّهُ آيَاتِهِ - الْآيَاتِ وَلَمّا اسْتَمَرّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى سَبّ آلِهَتِهِمْ عَادُوا إلَى شَرّ مِمّا كَانُوا عَلَيْهِ وَازْدَادُوا شِدّةً عَلَى مَنْ أَسْلَمَ .

الْهِجْرَةُ الثّانِيَةُ إلَى الْحَبَشَةِ

فَلَمّا قَرُبَ مُهَاجَرَةُ الْحَبَشَةِ مِنْ مَكّةَ ، وَبَلَغَهُمْ أَمْرَهُمْ تَوَقّفُوا عَنْ الدّخُولِ . ثُمّ دَخَلَ كُلّ رَجُلٍ فِي جِوَارِ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ . ثُمّ اشْتَدّ عَلَيْهِمْ الْبَلَاءُ وَالْعَذَابُ مِنْ قُرَيْشٍ وَسَطَتْ بِهِمْ عَشَائِرُهُمْ وَصَعُبَ عَلَيْهِمْ مَا بَلَغَهُمْ عَنْ النّجَاشِيّ مِنْ حُسْنِ جِوَارِهِ . فَأَذِنَ لَهُمْ

رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الْخُرُوجِ إلَى الْحَبَشَةِ مَرّةً ثَانِيَةً . فَخَرَجُوا .
وَكَانَ عِدّةُ مَنْ خَرَجَ فِي الْمَرّةِ الثّانِيَةِ ثَلَاثَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا - إنْ كَانَ فِيهِمْ عَمّارُ ابْنُ يَاسِرٍ - وَمِنْ النّسَاءِ تِسْعَةَ عَشَرَ امْرَأَةً .
<57> فَلَمّا سَمِعُوا بِمُهَاجِرِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى الْمَدِينَةِ : رَجَعَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا ، وَمِنْ النّسَاءِ ثَمَانٌ . وَمَاتَ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِمَكّةَ . وَحُبِسَ سَبْعَةٌ . وَشَهِدَ بَدْرًا مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ رَجُلًا .

كِتَابُ رَسُولِ اللّهِ إلَى النّجَاشِيّ يُزَوّجُهُ أُمّ حَبِيبَةَ

فَلَمّا كَانَ شَهْرُ رَبِيعٍ سَنَةَ سَبْعٍ مِنْ الْهِجْرَةِ . كَتَبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كِتَابًا إلَى النّجَاشِيّ يَدْعُوهُ إلَى الْإِسْلَامِ . وَكَتَبَ إلَيْهِ أَنْ يُزَوّجَهُ أُمّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ . وَكَانَتْ مُهَاجِرَةً زَوْجَهَا عَبْدَ اللّهِ بْنَ جَحْشٍ . فَتَنَصّرَ هُنَاكَ وَمَاتَ نَصْرَانِيّا .
وَكَتَبَ إلَيْهِ أَيْضًا : أَنْ يَبْعَثَ إلَيْهِ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمّا قَرَأَ الْكِتَابَ أَسْلَمَ . وَقَالَ لَوْ قَدَرْت أَنْ آتِيَهُ لَأَتَيْته . وَزَوّجَهُ أُمّ حَبِيبَةَ وَأَصْدَقَهَا عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ . وَحَمَلَ بَقِيّةَ أَصْحَابِهِ فِي سَفِينَتَيْنِ . فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِخَيْبَرِ وَقَدْ فَتَحَهَا .

بَعْثُ قُرَيْشٍ إلَى النّجَاشِيّ تَطْلُبُ إرْجَاعَ الْمُسْلِمِينَ

وَلَمّا كَانَ بَعْدَ بَدْرٍ اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النّدْوَةِ . وَقَالُوا : إنّ لَنَا فِي الّذِينَ عِنْدَ النّجَاشِيّ ثَأْرًا . فَاجْمَعُوا مَالًا . وَاهْدُوهُ إلَى النّجَاشِيّ ، لَعَلّهُ يَدْفَعُ إلَيْكُمْ مَنْ عِنْدَهُ وَلِتَنْتَدِب لِذَلِكَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ رَأْيِكُمْ . فَبَعَثُوا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَعُمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ مَعَ الْهَدْيِ . فَرَكِبَا الْبَحْرَ . فَلَمّا دَخَلَا ، عَلَى النّجَاشِيّ سَجَدَا ، وَسَلّمَا عَلَيْهِ . وَقَالَا : قَوْمًا لَك نَاصِحُونَ . وَإِنّهُمْ بَعَثُونَا إلَيْك لِنُحَذّرَك هَؤُلَاءِ الّذِينَ قَدِمُوا عَلَيْك لِأَنّهُمْ قَوْمٌ اتّبَعُوا رَجُلًا كَذّابًا . خَرَجَ فِينَا يَزْعُمُ أَنّهُ رَسُولُ اللّهِ وَلَمْ يَتّبِعْهُ إلّا السّفَهَاءُ فَضَيّقْنَا عَلَيْهِمْ وَأَلْجَأْنَاهُمْ إلَى شِعْبٍ بِأَرْضِنَا ، لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ . فَقَتَلَهُمْ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ . فَلَمّا اشْتَدّ عَلَيْهِمْ الْأَمْرُ بَعَثَ إلَيْك ابْنَ عَمّهِ لِيُفْسِدَ عَلَيْك دِينَك وَمُلْكَك . فَاحْذَرْهُمْ . وَادْفَعْهُمْ إلَيْنَا لِنَكْفِيَكَهُمْ وَآيَةُ ذَلِكَ أَنّهُمْ إذَا دَخَلُوا عَلَيْك لَا يَسْجُدُونَ لَك ، وَلَا يُحَيّونَك بِالتّحِيّةِ الّتِي تُحَيّي بِهَا ، رَغْبَةً عَنْ دِينِك .

فَدَعَاهُمْ النّجَاشِيّ . فَلَمّا حَضَرُوا . صَاحَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِالْبَابِ " يَسْتَأْذِنُ عَلَيْك حِزْبَ اللّهِ " فَقَالَ النّجَاشِيّ : مُرُوا هَذَا الصّائِحَ فَلْيُعِدْ كَلَامَهُ . فَفَعَلَ . قَالَ <58> نَعَمْ . فَلْيَدْخُلُوا بِإِذْنِ اللّهِ وَذِمّتِهِ . فَدَخَلُوا وَلَمْ يَسْجُدُوا لَهُ . فَقَالَ مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا لِي ؟ قَالُوا : إنّمَا نَسْجُدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَك وَمُلْكَك ، وَإِنّمَا كَانَتْ تِلْكَ التّحِيّةُ لَنَا وَنَحْنُ نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ . فَبَعَثَ اللّهُ فِينَا نَبِيّا صَادِقًا . وَأَمَرَنَا بِالتّحِيّةِ الّتِي رَضِيَهَا اللّهُ . وَهِيَ " السّلَامُ " تَحِيّةُ أَهْلِ الْجَنّةِ .
فَعَرَفَ النّجَاشِيّ أَنّ ذَلِكَ حَقّ . وَأَنّهُ فِي التّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ .
فَقَالَ أَيّكُمْ الْهَاتِفُ يَسْتَأْذِنُ ؟ فَقَالَ جَعْفَرٌ أَنَا . قَالَ فَتَكَلّمَ .
قَالَ إنّك مَلِكٌ لَا يَصْلُحُ عِنْدَك كَثْرَةُ الْكَلَامِ وَلَا الظّلْمِ . وَأَنَا أُحِبّ أَنْ أُجِيبَ عَنْ أَصْحَابِي . فَأَمَرَ هَذَيْنِ الرّجُلَيْنِ فَلْيَتَكَلّمْ أَحَدُهُمَا ، فَتَسَمّعَ مُحَاوَرَتَنَا .
فَقَالَ عَمْرٌو لِجَعْفَرٍ تَكَلّمْ . فَقَالَ جَعْفَرٌ لِلنّجَاشِيّ سَلْهُ أَعَبِيدٌ نَحْنُ أَمْ أَحْرَارٌ ؟ فَإِنْ كُنّا عَبِيدًا أَبْقِنَا مِنْ أَرْبَابِنَا فَارْدُدْنَا إلَيْهِمْ . فَقَالَ عَمْرٌو : بَلْ أَحْرَارٌ كِرَامٌ .
فَقَالَ هَلْ أَهْرَقْنَا دَمًا بِغَيْرِ حَقّ فَيُقْتَصّ مِنّا ؟ قَالَ عَمْرٌو : وَلَا قَطْرَةٌ .
فَقَالَ هَلْ أَخَذْنَا أَمْوَالَ النّاسِ بِغَيْرِ حَقّ فَعَلَيْنَا قَضَاؤُهَا ؟ فَقَالَ عَمْرٌو : وَلَا قِيرَاطٌ .
فَقَالَ النّجَاشِيّ : فَمَا تَطْلُبُونَ مِنْهُ ؟ قَالَ كُنّا نَحْنُ وَهُمْ عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ عَلَى دِينِ آبَائِنَا . فَتَرَكُوا ذَلِكَ وَاتّبَعُوا غَيْرَهُ .
فَقَالَ النّجَاشِيّ : مَا هَذَا الّذِي كُنْتُمْ عَلَيْهِ . وَمَا الّذِي اتّبَعْتُمُوهُ ؟ قُلْ وَاصْدُقْنِي .
فَقَالَ جَعْفَرٌ أَمّا الّذِي كُنّا عَلَيْهِ فَتَرَكْنَاهُ وَهُوَ دِينُ الشّيْطَانِ . كُنّا نُكَفّرُ بِاَللّهِ وَنَعْبُدُ الْحِجَارَةَ . وَأَمّا الّذِي تَحَوّلْنَا إلَيْهِ فَدِينُ اللّهِ الْإِسْلَامُ جَاءَنَا بِهِ مِنْ اللّهِ رَسُولٌ وَكِتَابٌ مِثْلُ كِتَابِ ابْنِ مَرْيَمَ مُوَافِقًا لَهُ .
فَقَالَ تَكَلّمْت بِأَمْرٍ عَظِيمٍ . فَعَلَى رِسْلِك .
ثُمّ أَمَرَ بِضَرْبِ النّاقُوسِ . فَاجْتَمَعَ إلَيْهِ كُلّ قِسّيسٍ وَرَاهِبٍ . فَقَالَ لَهُمْ أَنْشُدُكُمْ اللّهَ الّذِي أَنَزَلَ الْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى ، هَلْ

تَجِدُونَ بَيْنَ عِيسَى وَبَيْنَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ نَبِيّا ؟ قَالُوا : اللّهُمّ نَعَمْ . قَدْ بَشّرْنَا بِهِ عِيسَى ، وَقَالَ مَنْ آمَنَ بِهِ فَقَدْ آمَنَ بِي ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ فَقَدْ كَفَرَ بِي .

<59> فَقَالَ النّجَاشِيّ لِجَعْفَرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ مَاذَا يَقُولُ لَكُمْ هَذَا الرّجُلُ ؟ وَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ؟ وَمَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ ؟ .

فَقَالَ يَقْرَأُ عَلَيْنَا كِتَابَ اللّهِ وَيَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ . وَيَأْمُرُنَا بِحُسْنِ الْجِوَارِ وَصِلَةِ الرّحِمِ وَبِرّ الْيَتِيمِ . وَيَأْمُرُنَا بِأَنْ نَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

فَقَالَ اقْرَأْ مِمّا يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ . فَقَرَأَ سُورَتَيْ الْعَنْكَبُوتِ وَالرّومِ . فَفَاضَتْ عَيْنَا النّجَاشِيّ مِنْ الدّمْعِ . وَقَالَ زِدْنَا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الطّيّبِ . فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْكَهْفِ .

فَأَرَادَ عَمْرٌو أَنْ يُغْضِبَ النّجَاشِيّ . فَقَالَ إنّهُمْ يَشْتُمُونَ عِيسَى وَأُمّهُ .

فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى وَأُمّهِ ؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ مَرْيَمَ . فَلَمّا أَتَى عَلَى ذِكْرِ عِيسَى وَأُمّهِ رَفَعَ النّجَاشِيّ بِقَشّةٍ مِنْ سِوَاكِهِ قَدْرَ مَا يُقْذِي الْعَيْنَ . فَقَالَ وَاَللّهِ مَا زَاد الْمَسِيحُ عَلَى مَا تَقُولُونَ نَقِيرًا .

وَفِيهِ نَزَلَ قَوْلُ اللّهِ تَعَالَى (5 : 83 - 85) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إلَى الرّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقّ يَقُولُونَ رَبّنَا آمَنّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقّ - الْآيَاتِ .

فَأَقْبَلَ النّجَاشِيّ عَلَى جَعْفَرٍ . ثُمّ قَالَ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سيوم بِأَرْضِي - والسيوم الْآمِنُونَ - مِنْ سبكم غرم . فَلَا هَوَادَةَ الْيَوْمِ عَلَى حِزْبِ إبْرَاهِيمَ .

مَوْتُ النّجَاشِيّ

وَلَمّا مَاتَ النّجَاشِيّ خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَصَلّى عَلَيْهِ كَمَا يُصَلّي عَلَى الْجَنَائِزِ . فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ يُصَلّي عَلَى عِلْجٍ مَاتَ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ . فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (3 : 199) وَإِنّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ الْآيَةَ .

وَقِيلَ إنّ إرْسَالَ قُرَيْشٍ فِي طَلَبِهِمْ كَانَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ ، <60> وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ مِنْ النّبُوّةِ اسْتَتَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ .

إسْلَامُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ

وَفِي السّنَةِ السّادِسَةِ أَسْلَمَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ وَعُمَرُ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : مَرّ أَبُو جَهْلٍ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْدَ الصّفَا : فَآذَاهُ وَنَالَ مِنْهُ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَاكِتٌ . فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ . وَكَانَتْ مَوْلَاةٌ لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ جُعْدَانَ فِي مَسْكَنٍ لَهَا عَلَى الصّفَا ، تَسْمَعُ مَا يَقُولُ أَبُو جَهْلٍ . وَأَقْبَلَ حَمْزَةُ مِنْ الْقَنْصِ مُتَوَشّحًا قَوْسَهُ . وَكَانَ يُسَمّى : أَعَزّ قُرَيْشٍ . فَأَخْبَرَتْهُ مَوْلَاةُ ابْنِ جُدْعَانَ بِمَا سَمِعَتْ مِنْ أَبِي جَهْلٍ . فَغَضِبَ . وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ - وَأَبُو جَهْلٍ جَالِسٌ فِي نَادِي قَوْمِهِ - فَقَالَ لَهُ حَمْزَةُ يَا مُصَفّرَ اسْتِهِ . تَشْتُمُ ابْنَ أَخِي وَأَنَا عَلَى دِينِهِ ؟ ثُمّ ضَرَبَهُ بِالْقَوْسِ فَشَجّهُ مُوضِحَةً . فَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ . وَثَارَ بَنُو هَاشِمٍ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ دَعَوَا أَبَا عُمَارَةَ . فَإِنّي سَبَبْت ابْنَ أَخِيهِ سَبّا قَبِيحًا . فَعَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ عَزّ . فَكَفّوا عَنْهُ بَعْضَ مَا كَانُوا يَنَالُونَ مِنْهُ .

إسْلَامُ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ اللّهُمّ أَعِزّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبّ الرّجُلَيْنِ إلَيْك : إمّا عُمَرَ بْنِ الْخَطّابِ . أَوْ أَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ فَكَانَ أَحَبّهُمَا إلَى اللّهِ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

وَرُوِيَ عَنْ <61> ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا : أَنّهُ قَالَ لِعُمَرِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ لِمَ سُمّيت الْفَارُوقَ ؟ فَقَالَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ قَبْلِي بِثَلَاثَةِ أَيّامٍ . ثُمّ شَرَحَ اللّهُ صَدْرِي لِلْإِسْلَامِ . وَأَوّلُ شَيْءٍ سَمِعْته مِنْ الْقُرْآنِ وَوَقِرَ فِي صَدْرِي (20 ـ 8) اللّهُ لَا إلَهَ إلّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَمَا فِي الْأَرْضِ نَسَمَةٌ أَحَبّ إلَيّ مِنْ نَسَمَةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَسَأَلْت عَنْهُ ؟ فَقِيلَ لِي : هُوَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ . فَأَتَيْت الدّارَ - وَحَمْزَةُ فِي أَصْحَابِهِ جُلُوسًا فِي الدّارِ . وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الْبَيْتِ - فَضَرَبْت الْبَابَ فَاسْتَجْمَعَ الْقَوْمُ . فَقَالَ لَهُمْ حَمْزَةُ مَا لَكُمْ ؟ فَقَالُوا : عُمَرُ فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَأَخَذَ بِمَجَامِعِ ثِيَابِي .

ثُمّ نَتَرَنِي نَثْرَةً لَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ وَقَعْت عَلَى رُكْبَتِـي . فَقَـالَ مَـا أَنْـتَ بِمُنْتَهٍ يَا عُمَرُ ؟ فَقُلْت : أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ ، وَأَنّك رَسُولُ اللّـهِ فَكَبّرَ أَهْلُ الدّارِ تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا أَهْلُ الْمَسْجِدِ . فَقُلْت : يَـا رَسُـولَ اللّهِ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقّ إنْ مُتْنَا أَوْ حَيِينَا ؟ قَالَ بَلَى . فَقُلْت : فَفِيـمَ الِاخْتِفَاءُ ؟ وَالّذِي بَعَثَـك بِـالْحَقّ لَتَخْرُجَـن ، فَخَرَجْنَـا فِـي صِـفّينَ . حَمْزَةُ فِي صَفّ . وَأَنَا فِي صَفّ - لَهُ كَدِيدٌ كَكَدِيـدِ الطّحْـنِ - حَتّـى دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ . فَلَمّا نَظَرَتْ إلَيْنَا قُرَيْشٌ أَصَابَتْهُمْ كَآبَةٌ لَمْ يُصِبْهُمْ مِثْلُهَا قَطّ . فَسَمّانِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْفَارُوقَ . وَقَالَ صُهَيْبٌ لَمّا أَسْلَمَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْـهُ جَلَسْـنَا حَـوْلَ الْبَيْـتِ حِلَقًا ، فَطُفْنَا وَاسْتَنْصَفْنَا مِمّا غَلُظَ عَلَيْنَا .

حِمَايَةُ أَبِي طَالِبٍ لِرَسُولِ اللّهِ

وَلَمّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ يَتَزَايَـدُ أَمْرُهُ وَيَقْوَى ، وَرَأَوْا مَا صَنَعَ أَبُو طَالِبٍ بِهِ . مَشَوْا إلَيْهِ بِعُمَارَةَ بْـنِ الْوَلِيدِ . فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبٍ ، هَذَا أَنْهَدُ فَتًى فِي قُرَيْشٍ وَأَجْمَلُـهُ . فَخُذْهُ وَادْفَعْ إلَيْنَا هَذَا الّذِي خَالَفَ دِينَك وَدِينَ آبَائِـك فَنَقْتُلُـهُ فَإِنّمَـا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ . فَقَالَ بِئْسَمَا تَسُومُونَنِي ، تُعْطُـونِي ابْنَكُـمْ أُرَبّيـهِ لَكُمْ وَأُعْطِيكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ ؟ فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ بْنِ نَوْفَـلٍ : يَا أَبَا طَالِبٍ قَدْ أَنْصَفَك قَوْمُك ، وَجَهَدُوا عَلَى التّخَلّـصِ مِنْـك بِكُـلّ طَرِيقٍ . قَالَ وَاَللّهِ مَا أَنْصَفْتُمُونِي ، وَلَكِنّك أَجْمَعْت عَلَى خِذْلَانِي . فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك .

وَقَالَ أَشْرَافُ مَكّةَ لِأَبِي طَالِبٍ إمّا أَنْ تُخَلّيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَنَكْفِيكَـهُ . فَإِنّك عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ أَوْ أَجْمَعَ لِحَرْبِنَا . فَإِنّـا لَسْـنَا بِتَـارِكِي ابْنِ أَخِيك عَلَى هَذَا ، حَتّى نُهْلِكَهُ أَوْ يَكُفّ عَنّا ، فَقَدْ طَلَبْنَا التّخَلّـصَ مِنْ حَرْبِك بِكُلّ مَا نَظُنّ أَنّهُ يَخْلُص . فَبَعَثَ أَبُو طَالِبٍ إلَى رَسُـولِ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فَقَـالَ لَـهُ يَـا ابْـنَ أَخِـي ، إنّ قَوْمَـك جَاءُونِي ، وَقَالُوا كَذَا وَكَذَا ، فَأَبْقَ عَلَيّ وَعَلَى نَفْسِك ، وَلَا تُحَمّلْنِي مَا لَا أُطِيقُ أَنَا وَلَا أَنْتَ . فَاكْفُفْ عَنْ قَوْمِك مَا يَكْرَهُونَ مِنْ قَوْلِـك . فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَاَللّهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي ، مَـا تَرَكْـت هَـذَا الْأَمْـرَ حَتّـى يُظْهِـرَهُ اللّـهُ أَوْ أَهْلَكَ فِي طَلَبِهِ فَقَالَ امْضِ عَلَى أَمْـرِك ، فَـوَاَللّهِ لَا أَسْـلِمُك أَبَـدًا وَدَعَـا أَبُـو طَـالِبٍ أَقَـارِبَهُ إلَـى نُصْـرَتِهِ فَأَجَـابَهُ بَنُـو هَاشِـمٍ وَبَنُـو الْمُطّلِبِ ، غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ ، وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ

وَاَللّهِ لَـنْ يَصِـلُوا إلَيْـك حَتّــى أُوَسّــدَ فِــي التّرَابِ دَفِينَا بِجَمْعِهِمْ

فَاصْــدَعْ بِــأَمْرِك مَــا وَأَبْشِــرْ وَقَــرّ بِــذَاكَ عَلَيْك غَضَاضَةٌ مِنْك عُيُونَا

وَدَعَــوْتنِي ، وَعَرَفْــت وَلَقَدْ صَدَقْت ، وَكُنْت أَنّك نَاصِحِي ثَمّ أَمِينَا

وَعَرَضْــت دِينًــا قَــدْ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيّةِ عَرَفْت بِأَنّهُ دِينَا

لَـوْلَا الْمَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارُ لَوَجَــدْتنِي سَــمْحًا مَسَبّةٍ بِذَاكَ مُبِينَا

حِصَارُ بَنِي هَاشِمٍ فِي الشّعْبِ

<62> وَلَمّا اجْتَمَعُوا - مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ - عَلَى مَنْعِ رَسُولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ . فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُجَالِسُـوهُمْ وَلَا يُبَـايِعُوهُمْ وَلَا يَـدْخُلُوا بُيُـوتَهُمْ . حَتّـى يُسْـلِمُوا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْقَتْـلِ . وَكَتَبُـوا بِـذَلِكَ صَـحِيفَةً فِيهَا عُهُودٌ وَمَوَاثِيقُ " أَنْ لَا يَقْبَلُوا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ صُلْحًا أَبَــدًا ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ بِهِمْ رَأْفَةٌ حَتّى يُسْلِمُوهُ لِلْقَتْلِ " فَـأَمَرَهُمْ أَبُـو طَـالِبٍ أَنْ يَـدْخُلُوا . شِـعْبَهُ فَلَبِثُـوا فِيـهِ ثَلَاثَ سِـنِينَ . وَاشْـتَدّ عَلَيْهِـمْ الْبَلَاءُ وَقَطَعُوا عَنْهُمْ الْأَسْوَاقَ . فَلَا يَتْرُكُونَ طَعَامًا يَدْخُلُ مَكّـةَ ، وَلَا بَيْعًـا إلّا بَادَرُوا فَاشْتَرَوْهُ .

وَمَنَعُوهُ أَنْ يَصِلَ شَيْءٌ مِنْهُ إلَـى بَنِـي هَاشِـمٍ . حَتّـى كَـانَ يَسْـمَعُ أَصْوَاتَ نِسَائِهِمْ يَتَضَاغَوْنَ مِنْ وَرَاءِ الشّعْبِ مِنْ الْجُوعِ . وَاشْـتَدّوا عَلَى مَنْ أَسْـلَمَ مِمّـنْ لَـمْ يَـدْخُلْ الشّـعْبَ ، فَـأَوْثَقَهُمْ . وَعَظُمَـتْ الْفِتْنَةُ وَزُلْزِلُوا زِلْـزَالًا شَـدِيدًا ، وَكَـانَ أَبُـو طَـالِبٍ إذَا أَخَـذَ النّـاسُ مَضَاجِعَهُمْ . أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَنْ يَضْـطَجِعَ عَلَى فِرَاشِهِ حَتّى يَرَى ذَلِكَ مَنْ أَرَادَ اغْتِيَالَهُ .

فَإِذَا نَامَ النّاسُ أَمَرَ أَحَدَ بَنِيهِ أَوْ إخْوَتِهِ أَوْ بَنِي عَمّهِ فَاضْطَجَعَ عَلَـى فِرَاشِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ . وَأَمَـرَهُ أَنْ يَـأْتِيَ أَحَـدٌ فُرُشَهُمْ . وَفِي ذَلِكَ عَمِلَ أَبُو طَالِبٍ قَصِـيدَتَهُ اللّامِيّـةَ الْمَشْـهُورَةَ الّتِي قَالَ فِيهَا <63> <64>

وَلَمّـا رَأَيْـت الْقَـوْمَ لَا وُدّ فِيهِمُو وَقَدْ قَطعُوا كُـلّ الْعُـرَى وَالْوَسَائِلِ

وَقَـدْ صَـارَحُونَا بِالْعَـدَاوَةِ وَالْأَذَى وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَـدُوّ الْمُزَايِلِ

صِـــرْت لَهُـــمْ نَفْسِـــي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ

وَأَحْضَـــرْت عِنْـــدَ الْبَيْـــتِ رَهْطِي وَأُسْرَتِي وَأَمْسَـكْت مِـنْ أَثْـوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ

أَعُوذُ بِرَبّ النّاسِ مِنْ كُـلّ طَاعِنٍ عَلَيْنَـا بِسُـوءٍ أَوْ مُلْـحٍ بِبَاطِلِ

وَمِـنْ كَاشِـحٍ يَسْـعَى لَنَـا بِمُغِيظَةٍ وَمِنْ مُلْحَـقٍ فِـي الـدّينِ مَا لَمْ يُحَاوِلْ

وَثَـوْرٍ وَمَـنْ أَرْسَـى ثَبِيـرًا مَكَانَهُ وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِـي حِـرَاءٍ وَنَازِلِ

وَبِالْبَيْتِ - حَقّ الْبَيْتِ - مِنْ بَطْنِ مَكّةَ وَبِـاَللّهِ إنّ اللّـهَ لَيْـسَ بِغَافِلِ

وَبِـــالْحَجَرِ الْمُسَـــوّدِ إذْ يَمْسَحُونَهُ إذَا اكْتَنَفُـوهُ بِالصّـحَى وَالْأَصَائِلِ

وَمَـــوْطِئُ إبْرَاهِيـــمَ فِـــي الصّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَـدَمَيْهِ حَافِيًـا غَيْـرَ نَاعِلِ

وَأَشْـوَاطٌ بَيْـنَ الْمَرْوَتَيْـنِ إلَى الصّفَا وَمَـا فِيهِمَـا مِـنْ صُـورَةٍ وَتَمَاثُلِ

وَبِالْمُشْـعِرِ الْأَقْصَـى ، إذَا الْإِلّ إلَـــى مُفْضَـــى السّرَاحِ الْقَوَابِلِ عَمَدُوا لَهُ

وَمنْ حَجّ بَيْتِ اللّهِ مِنْ كُلّ رَاكِبٍ وَمِنْ كُـلّ ذِي نَـذْرٍ وَمِـنْ كُلّ رَاجِلِ

وَلَيْلَةَ جَمْعٍ وَالْمَنَـازِلُ مِـنْ مِنَى وَهَلْ فَوْقَهَـا مِـنْ حُرْمَـةٍ وَمَنَازِلِ ؟

فَهَـلْ بَعْـدَ هَـذَا مِـنْ مُعَـاذٍ وَهَـلْ مِـنْ مُعِيـذٍ يَتّقِـي اللّهَ عَادِلِ ؟ لِعَائِذٍ ؟

كَـذَبْتُمْ وَبَيْـتَ اللّـهِ نَتْـرُكُ وَنَظْعَـنُ إلّا أَمْرَكُـمْ فِـي بَلَابِلِ مَكّةَ

كَـذَبْتُمْ وَبَيْـتَ اللّـهِ نَبْـزَى وَلَمّـا نُطَـاعِنُ دُونَـهُ وَنُنَاضِلُ مُحَمّدًا

وَنُسْلِمُهُ حَتّى نُصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَـذْهَلُ عَـنْ آبَائِنَـا وَالْحَلَائِلِ

وَيَنْهَضُ قَـوْمٌ فِـي الْحَدِيـدِ إلَيْكُمُو نُهُوضُ الرّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصّلَاصِلِ

وَإِنّا لَعَمْرُ اللّـهِ إنْ جَـدّ مَـا أَرَى لَتُلْتَبَسْـنَ أَسْـيَافُنَا بِالْأَمَاثِلِ

بِكَفّي فَتًى مِثْـلُ الشّـهَابِ سُمَيْدِعٌ أَخِي ثَقْوٍ حَامِي الْحَقِيقَةِ بَاسِلِ

وَمَا تَرْكُ قَوْمٍ - لَا أَبَا لَك - سَيّدًا يَحُوطُ الذّمَارُ غَيْـرَ ذَرَبٍ مُوَاكِلِ

وَأَبْيَضُ يَسْتَسْـقِي الْغَمَـامَ رَبِيـعُ الْيَتَـامَى عِصْـمَةٌ لِلْأَرَامِلِ بِوَجْهِهِ

يَلُـوذُ بِـهِ الْهَلَاكُ مِـنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُـمْ عِنْـدَهُ فِـي حُرْمَـةٍ وَفَوَاضِلِ

فَعُتْبَـةُ لَا تَسْـمَعْ بِنَـا قَـوْلَ كَاشِحٍ حَسُـودٍ كَـذُوبٍ مُبْغِـضٍ ذِي دَغَائِلِ

وَمَـرّ أَبُـو سُـفْيَانَ عَنّـي مُعْرِضًا كَمَا مَرّ قَيْلٌ مِنْ عِظَـامِ الْمَقَاوِلِ

تَفِرّ إلَى نَجْدٍ وَبُرْدٍ مِيَاهُهُ وَتَزْعُمُ أَنّي لَسْـت عَنْـك بِغَافِلِ

أَمُطْعِـمٌ لَـمْ أَخْـذُلْك فِـي يَوْمِ نَجْدَةٍ وَلَا مُعْظَـمَ عِنْـدَ الْأُمُـورِ الْجَلَائِلِ

أَمُطْعِمٌ إنّ الْقَوْمَ سَامُوك خُطّةً وَإِنّي مَتَى أُوكِلَ فَلَسْت بِآكِلِي

جَزَى اللّهُ عَنّا عَبْدَ شَمْسٍ عُقُوبَةً شَرّ عَاجِلًا غَيْرَ وَنَوْفَلًا آجِلِ

فَعَبْدُ مَنَافٍ أَنْتُمُو خَيْرَ قَوْمِكُمْ فَلَا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلّ وَاغِلِ

وَكُنْتُمْ حَدِيثًا حَطْبَ قِدْرٍ فَأَنْتُمُو الْآنَ حِطَابُ أَقْدَرَ وَمَرَاجِلِ

فَكُلّ صَدِيقٍ وَابْنُ أُخْتٍ لَعَمْرِي وَجَدْنَا غَبّهُ غَيْرَ طَائِلِ نَعُدّهُ

سِوَى أَنّ رَهْطًا مِنْ كِلَابِ بُرَاءٌ إلَيْنَا مِنْ مَعَقّةِ بْنِ مُرّةَ خَاذِلِ

وَنِعْمَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ غَيْرُ زُهَيْرًا حُسَامًا مُفْرَدًا مِنْ مُكَذّبٍ حَمَائِلِ

لَعَمْرِي لَقَدْ كُلّفْت وَجْدًا وَإِخْوَتِهِ دَأْبُ الْمُحِبّ بِأَحْمَدَ الْمُوَاصِلِ

فَمَنْ مَثَلُهُ فِي النّاسِ أَيّ إذَا قَاسَهُ الْحُكّامُ عِنْدَ مُؤَمّلٍ التّفَاضُلِ ؟

حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ يُوَالِي إلَهًا لَيْسَ عَنْهُ طَائِشٍ بِغَافِلِ

فَوَاَللّهِ لَوْلَا أَنْ أَجِيءَ بِسُبّةٍ تَجُرّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ

لَكُنّا اتّبَعْنَاهُ عَلَى كُلّ حَالَةٍ مِنْ الدّهْرِ جَدّا ، غَيْرَ قَوْلِ التّهَازُلِ

لَقَدْ عَلِمُوا أَنّ ابْنَنَا لَا لَدِينًا ، وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ مُكَذّبُ

حَدَبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَدَافَعْت عَنْهُ بِالذّرَى وَحَمِيتُهُ وَالْكَلَاكِلِ

نَقْضُ الصّحِيفَةِ
ثُمّ بَعْدَ ذَلِكَ مَشَى هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ . وَكَانَ يَصِلُ بَنِي هَاشِمٍ فِي الشّعْبِ خُفْيَةً بِاللّيْلِ بِالطّعَامِ - مَشَى إلَى زُهَيْرِ بْنِ أَبِي أُمَيّةَ الْمَخْزُومِيّ - وَكَانَتْ أُمّهُ عَاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ - وَقَالَ يَا زُهَيْرُ أَرَضِيت أَنْ تَأْكُلَ الطّعَامَ وَتَشْرَبَ الشّرَابَ وَأَخْوَالُك بِحَيْثُ تَعْلَمُ ؟ فَقَالَ وَيْحَك ، فَمَا أَصْنَعُ وَأَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ؟ أَمّا وَاَللّهِ لَوْ كَانَ مَعِي رَجُلٌ آخَرُ لَقُمْت فِي نَقْضِهَا . قَالَ أَنَا . قَالَ أَبْغِنَا ثَالِثًا . قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ بْنُ هِشَامٍ . قَالَ ابْغِنَا رَابِعًا . قَالَ زَمَعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ . قَالَ أَبْغِنَا خَامِسًا . قَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ . قَالَ فَاجْتَمَعُوا عِنْدَ الْحَجُونِ ، وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ بِنَقْضِ الصّحِيفَةِ . فَقَالَ زُهَيْرٌ أَنَا أَبْدَأُ بِهَا .
فَجَاءُوا إلَى الْكَعْبَةِ - وَقُرَيْشٌ مُحْدِقَةٌ بِهَا - فَنَادَى زُهَيْرٌ يَا أَهْلَ مَكّةَ ، إنّا نَأْكُلُ الطّعَامَ . وَنَشْرَبُ الشّرَابَ وَنَلْبَسُ الثّيَابَ وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى . وَاَللّهِ لَا أَقْعُدُ حَتّى تُشَقّ الصّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظّالِمَةُ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : كَذَبْت . وَاَللّهِ لَا تَشُقّ . فَقَالَ زَمَعَةُ أَنْتَ وَاَللّهِ أَكْذَبُ . مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا حِينَ كُتِبَتْ . وَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ صَدَقَ زَمَعَةُ لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا وَلَا نَقَارّ عَلَيْهِ . فَقَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ . وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ . نَبْرَأُ إلَى اللّهِ مِنْهَا وَمِمّا كُتِبَ فِيهَا . وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عُمَرَ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ هَذَا أَمْرٌ قَدْ قُضِيَ بِلَيْلٍ تُشُووِرَ فِيهِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ .
وَبَعَثَ اللّهُ عَلَى صَحِيفَتِهِمْ الْأَرَضَةَ فَلَمْ تَتْرُكْ اسْمًا لِلّهِ إلّا لَحَسَتْهُ و بَقِيَ مَا فِيهَا <65> مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَقَطِيعَةٍ وَأَطْلَعَ اللّهُ رَسُولَهُ عَلَى الّذِي صُنِعَ بِصَحِيفَتِهِمْ . فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَمّهِ . فَقَالَ لَا ، وَالثّوَاقِبِ مَا كَذَبْتنِي . فَانْطَلَقَ يَمْشِي بِعِصَابَةٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، حَتّى أَتَى الْمَسْجِدَ وَهُوَ حَافِلٌ فِي قُرَيْشٍ . فَلَمّا رَأَوْهُمْ ظَنّوا أَنّهُمْ خَرَجُوا مِنْ شِدّةِ الْحِصَارِ وَأَتَوْا لِيُعْطُوهُمْ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَتَكَلّمَ أَبُو طَالِبٍ . فَقَالَ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ . لَعَلّهُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ صُلْحًا . فَأْتُوا بِصَحِيفَتِكُمْ - وَإِنّمَا قَالَ ذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يَنْظُرُوا فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا بِهَا ، فَلَا يَأْتُونَ بِهَا - فَأَتَوْا بِهَا مُعْجَبِينَ . لَا يَشُكّونَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَدْفُوعٌ إلَيْهِمْ قَالُوا : قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَفِيئُوا وَتَرْجِعُوا خَطَرًا لِهَلَكَةِ قَوْمِكُمْ .

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ : لَأُعْطِيَنكُمْ أَمْرًا فِيهِ نِصْفٌ . إنّ ابْنِي أَخْبَرَنِي - وَلَمْ يَكْذِبْنِي - أَنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ بَرِيءٌ مِنْ هَذِهِ الصّحِيفَةِ الّتِي فِي أَيْدِيكُمْ وَأَنّهُ مَحَا كُلّ اسْمٍ لَهُ فِيهَا ، وَتَرَكَ فِيهَا غَدْرَكُمْ وَقَطِيعَتَكُمْ . فَإِنْ كَانَ مَا قَالَ حَقّا ، فَوَاَللّهِ لَا نُسَلّمُهُ إلَيْكُمْ حَتّى نَمُوتَ عَنْ آخِرِنَا . وَإِنْ كَانَ الّذِي يَقُولُ بَاطِلًا ، دَفَعْنَاهُ إلَيْكُمْ فَقَتَلْتُمُوهُ . أَوْ اسْتَحْيَيْتُمُوهُ . قَالُوا : قَدْ رَضِينَا . فَفَتَحُوا الصّحِيفَةَ فَوَجَدُوهَا كَمَا أَخْبَرَ . فَقَالُوا : هَذَا سِحْرٌ مِنْ صَاحِبِكُمْ فَارْتَكَسُوا وَعَادُوا إلَى شَرّ مَا هُمْ عَلَيْهِ . فَتَكَلّمَ عِنْدَ ذَلِكَ النّفَرُ الّذِينَ تَعَاقَدُوا - كَمَا تَقَدّمَ - وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ شِعْرًا يَمْدَحُ النّفَرَ الّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى نَقْضِ الصّحِيفَةِ . وَيَمْدَحُ النّجَاشِيّ ، مِنْهُ

جَزَى اللّهُ رَهْطًا عَلَى مَلَأٍ يُهْدَى بِحُزَمٍ ... وَيَرْشُدُ بِالْحَجُونِ تَتَابَعُوا

أَعَانَ عَلَيْهَا كُلّ صَقْرٍ إذَا مَا مَشَى فِي رَفْرَفِ ... الدّرْعِ أَجْرَدَ كَأَنّهُ

قُعُودًا لَدَى جَنْبِ مُقَاوَلَةً بَلْ هُمْ أَعَزّ ... وَأَمْجَدُ بِالْحَجُونِ كَأَنّهُمْ

وَأَسْلَمَ هِشَامُ بْنُ عَمْرِو يَوْمَ الْفَتْحِ . وَخَرَجَ بَنُو هَاشِمٍ مِنْ شِعْبِهِمْ وَخَالَطُوا النّاسَ . وَكَانَ خُرُوجُهُمْ فِي سَنَةِ عَشْرٍ مِنْ النّبُوّةِ . مَاتَ أَبُو طَالِبٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِتّةِ أَشْهُرٍ .

مَوْتُ خَدِيجَةَ وَأَبِي طَالِبٍ

وَمَاتَتْ خَدِيجَةُ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِي طَالِبٍ بِأَيّامٍ . فَاشْتَدّ <66> الْبَلَاءُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ مَوْتِ خَدِيجَةَ وَعَمّهِ وَتَجَرّءُوا عَلَيْهِ وَكَاشَفُوهُ بِالْأَذَى . وَأَرَادُوا قَتْلَهُ . فَمَنَعَهُمْ اللّهُ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا " حَضَرْتهمْ . وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ فِي الْحِجْرِ . فَذَكَرُوا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ صَبْرِنَا عَلَيْهِ سَفّهَ أَحْلَامَنَا . وَشَتَمَ آبَاءَنَا . وَفَرّقَ جَمَاعَتَنَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ . إذْ أَقْبَلَ . فَاسْتَلَمَ الرّكْنَ . فَلَمّا مَرّ بِهِمْ غَمَزُوهُ " . وَفِي حَدِيثٍ أَنّهُ قَالَ لَهُمْ فِي الثّانِيَةِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذّبْحِ وَأَنّهُمْ قَالُوا لَهُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا كُنْت جَهُولًا . فَانْصَرَفَ رَاشِدًا .

فَلَمّا كَانَ مِنْ الْغَدِ اجْتَمَعُوا فَقَالُوا : ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ حَتّى إذَا أَتَاكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ . فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ . إذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : قُومُوا إلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ . فَلَقَدْ رَأَيْت عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ آخِذًا بِمَجَامِعِ رِدَائِهِ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ دُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي . يَقُولُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبّي اللّهُ ؟ . وَفِي حَدِيثِ أَسْمَاءَ فَأَتَى الصّرِيخُ إلَى أَبِي بَكْرٍ . فَقَالُوا : أَدْرِكْ صَاحِبَك ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا وَلَهُ غَدَائِرُ أَرْبَعُ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ وَيْلَكُمْ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبّي اللّهُ ؟ فَلَهَوْا عَنْهُ وَأَقْبَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ . فَرَجَعَ إلَيْنَا لَا يَمَسّ شَيْئًا مِنْ غَدَائِرَ إلّا رَجَعَ مَعَهُ .

وَمَرّةً كَانَ يُصَلّي عِنْدَ الْبَيْتِ ، وَرَهْطٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَرَوْنَهُ فَأَتَى أَحَدُهُمْ بِسَلَا جَزُورٍ . فَرَمَاهُ عَلَى ظَهْرِهِ . وَكَانُوا يَعْلَمُونَ صِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ . وَأَنّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقّ . لَكِنّهُمْ كَمَا قَالَ اللّهُ تَعَالَى (6 : 33) فَإِنّهُمْ لَا يُكَذّبُونَك وَلَكِنّ الظّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ

وَذَكَرَ الزّهْرِيّ : أَنّ أَبَا جَهْلٍ . وَجَمَاعَةً مَعَهُ وَفِيهِمْ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ ، اسْتَمَعُوا قِرَاءَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي اللّيْلِ فَقَالَ الْأَخْنَسُ لِأَبِي جَهْلٍ يَا أَبَا الْحَكَمِ : مَا رَأْيك فِيمَا سَمِعْت مِنْ مُحَمّدٍ ؟ فَقَالَ تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشّرَفَ أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا . وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا . وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا . حَتّى إذَا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرّكْبِ وَكُنّا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ . قَالُوا : مَا نَبِيّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنْ السّمَاءِ فَمَتَى نُدْرِكُ هَذَا ؟ وَاَللّهِ لَا نَسْمَعُ لَهُ أَبَدًا . وَلَا نُصَدّقُهُ أَبَدًا " . <67>

وَفِي رِوَايَةٍ " إنّي لَأَعْلَمُ أَنّ مَا يَقُولُ حَقّ ، وَلَكِنْ بَنِي قُصَيّ قَالُوا : فِينَا النّدْوَةُ فَقُلْنَا : نَعَمْ . قَالُوا : وَفِينَا الْحِجَابَةُ فَقُلْنَا : نَعَمْ . قَالُوا : فِينَا السّقَايَةُ . فَقُلْنَا : نَعَمْ . وَذَكَرَ نَحْوَهُ " .

سُؤَالُهُمْ عَنْ الرّوحِ وَأَهْلِ الْكَهْفِ

وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إلَى أَهْلِ الْكِتَابِ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْ أَمْرِهِ ؟ قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ : بَعَثَتْ قُرَيْشٌ النّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ ، إلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ ، فَقَالُوا لَهُمَا : سَلَاهُمْ عَنْ مُحَمّدٍ وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ . فَإِنّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ . وَعِنْدَهُ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ .

فَخَرَجَا حَتّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ ، فَسَأَلَاهُمْ عَنْهُ ؟ وَوَصَفَا لَهُمْ أَمْرَهُ . فَقَالَتْ لَهُمَا أَحْبَارُ الْيَهُودِ : سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثٍ . فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنّ

فَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَإِلّا فَهُوَ رَجُلٌ مَنْقُولٌ . سَلُوهُ عَنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدّهْرِ الْأَوّلِ مَا كَانَ أَمَرَهُمْ ؟ فَإِنّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ . وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا . فَمَا كَانَ نَبَؤُهُ ؟ وَسَلُوهُ عَنْ الرّوحِ مَا هُوَ ؟ فَأَقْبَلَا ، حَتّى قَدِمَا مَكّةَ . فَقَالُوا : قَدْ جِئْنَاكُمْ بِفَصْلِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمّدٍ . قَدْ أَخْبَرَنَا أَحْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمَرُونَا بِهَا .

فَجَاءُوا رَسُولَ اللّهِ فَسَأَلُوهُ عَمّا أَخْبَرَهُمْ أَحْبَارُ يَهُودَ . فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ بِسُورَةِ الْكَهْفِ فِيهَا خَبَرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ . مِنْ الْفِتْيَةِ وَالرّجُلِ الطّوّافِ . وَجَاءَهُ بِقَوْلِهِ (17 ـ 85) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ - الْآيَةَ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَافْتَتَحَ السّورَةَ بِحَمْدِهِ وَذِكْرِ نُبُوّةِ رَسُولِهِ لَمّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ . فَقَالَ (18 : 1) الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ يَعْنِي أَنّك رَسُولٌ مِنّي ، أَيْ تَحْقِيقُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ نُبُوّتِك وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا أَيْ أَنْزَلَهُ مُعْتَدِلًا . لَا خِلَافَ فِيهِ - وَذَكَرَ تَفْسِيرَ السّورَةِ - إلَى أَنْ قَالَ (18 : 9) أَمْ حَسِبْتَ أَنّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا أَيْ مَا رَأَوْا مِنْ قُدْرَتِي فِي أَمْرِ الْخَلَائِقِ ، وَفِيمَا وَضَعْت عَلَى الْعِبَادِ مِنْ حُجَجِي مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ .

وَعَنْ ابْنِ عَبّاسٍ : الّذِي آتَيْتُك مِنْ الْكِتَابِ وَالسّنّةِ أَعْظَمُ مِنْ شَأْنِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ . قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : وَالْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرُوا . فَإِنّ مُكْثَهُمْ نِيَامًا ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ <68> آيَةٌ دَالّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللّهِ وَمَشِيئَتِهِ

وَهِيَ آيَةٌ دَالّةٌ عَلَى مُعَادِ الْأَبْدَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (18 ـ 21) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَأَنّ السّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا وَكَانَ النّاسُ قَدْ تَنَازَعُوا فِي زَمَانِهِمْ هَلْ تُعَادُ الْأَرْوَاحُ وَحْدَهَا ؟ أَمْ الْأَرْوَاحُ وَالْأَبْدَانُ ؟ فَجَعَلَهُمْ اللّهُ آيَةً دَالّةً عَلَى مُعَادِ الْأَبْدَانِ وَأَخْبَرَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِقِصّتِهِمْ . مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَهُ بِشَرّ . آيَةٌ دَالّةٌ عَلَى نُبُوّتِهِ . فَكَانَتْ قِصّتُهُمْ آيَةً دَالّةً عَلَى الْأُصُولِ الثّلَاثَةِ الْإِيمَانِ بِاَللّهِ . وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

وَمَعَ هَذَا : فَمِنْ آيَاتِ اللّهِ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ . وَقَدْ ذَكَرَ اللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سُؤَالَهُمْ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الّتِي سَأَلُوهُ عَنْهَا لِيَعْلَمُوا : هَلْ هُوَ نَبِيّ صَادِقٌ . أَوْ كَاذِبٌ ؟ فَقَالَ (18 ـ 83 ـ 100)

وَنَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا - إلَى قَوْلِهِ - وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا وَقَوْلُهُ (13 : 7 - 103) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ - إلَى قَوْلِهِ - إذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ إخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ الْمَاضِي . الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ الْبَشَرِ . إلَّا مِنْ جِهَةِ الْأَنْبِيَاءِ . لَا مِنْ جِهَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَلَا مِنْ جِهَةِ غَيْرِهَا .

وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَتَعَلَّمُ هَذَا مِنْ بَشَرٍ . فَفِيهِ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى صِدْقِهِ وَنُبُوَّتِهِ .

قَوْلُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْقُرْآنِ سِحْرٌ

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ إنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ ، جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَقَالَ اقْرَأْ عَلَيَّ . فَقَرَأَ عَلَيْهِ (16 : 90) إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى الْآيَةَ فَقَالَ أَعِدْ . فَأَعَادَ . فَقَالَ وَاَللَّهِ إنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً . وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً . وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ . وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ . وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ . وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ .

وَفِي رِوَايَةٍ " وَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَهْلٍ ، فَأَتَاهُ . فَقَالَ يَا عَمِّ إنَّ قَوْمَك يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَك مَالًا . قَالَ وَلِمَ ؟ قَالَ آتَيْت مُحَمَّدًا لِتُعَوِّضَ مِمَّا قَبْلَهُ . قَالَ قَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا . قَالَ فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَك : إنَّك مُنْكِرٌ لَهُ . قَالَ مَاذَا أَقُولُ ؟ فَوَاَللَّهِ مَا فِيكُمْ أَعْلَمُ بِالْأَشْعَارِ مِنِّي إلَخْ " .

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ قَالَ لَهُمْ - وَقَدْ حَضَرَ الْمَوْسِمَ - " سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ <69> وُفُودُ الْعَرَبِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ . فَأَجْمَعُوا فِيهِ رَأْيًا ، وَلَا تَخْتَلِفُوا ، فَيُكَذِّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . فَقَالُوا : فَأَنْتَ فَقُلْ . فَقَالَ بَلْ قُولُوا وَأَنَا أَسْمَعُ . قَالُوا : نَقُولُ كَاهِنٌ . قَالَ مَا هُوَ بِزُمْرَةِ الْكُهَّانِ وَلَا سَجْعِهِمْ . قَالُوا نَقُولُ مَجْنُونٌ قَالَ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ . لَقَدْ رَأَيْنَا الْجُنُونَ وَعَرَفْنَاهُ . فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ وَلَا وَسْوَسَتِهِ وَلَا تَخَالُجِهِ . قَالُوا : نَقُولُ شَاعِرٌ . قَالَ مَا هُوَ بِشَاعِرٍ . لَقَدْ عَرَفْنَا الشِّعْرَ رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ . وَمَقْبُوضَهُ وَمَبْسُوطَهُ قَالُوا : نَقُولُ سَاحِرٌ قَالَ مَا هُوَ بِسَاحِرٍ . لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحَرَةَ وَسِحْرَهُمْ فَمَا هُوَ بِعِقْدِهِمْ وَلَا نَفْثِهِمْ قَالُوا : فَمَا نَقُولُ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ؟ قَالَ مَا نَقُولُ مِنْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا إلَّا عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَإِنَّ أَقْرَبَ الْقَوْلِ أَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ

وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَبَيْنَ الْمَـرْءِ وَعَشِـيرَتِهِ فَتَفَرّقُـوا عَنْـهُ بِـذَلِكَ . فَجَعَلُوا يَجْلِسُونَ لِلنّاسِ لَا يَمُرّ بِهِـمْ أَحَـدٌ إلّا حَـذّرُوهُ رَسُـولَ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

فَأَنْزَلَ اللّهُ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ (74 : 11 - 26) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا - إلَى قَوْلِهِ - سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَنَزَلَ فِي النّفَرِ الّـذِينَ كَانُوا مَعَهُ يُصَنّفُونَ الْقَوْلَ فِي رَسُولِ اللّهِ وَفِيمَا جَاءَ بِـهِ مِـنْ عِنْـدِ اللّهِ (15 : 91) الّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ أَيْ أَصْنَافًا . وَكَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْآيَاتِ فَمِنْهَا مَا يَأْتِيهِمْ اللّهُ بِهِ لِحِكْمَةٍ أَرَادَهَا اللّهُ سُبْحَانَهُ .

انْشِقَاقُ الْقَمَرِ

فَمِنْ ذَلِكَ أَنّهُـمْ سَـأَلُوهُ أَنْ يُرِيَهُـمْ آيَـةً فَـأَرَاهُمْ انْشِـقَاقَ الْقَمَـرِ . وَأَنْزَلَ قَوْلَهُ (54 : 1 - 3) اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقّ الْقَمَرُ الْآيَاتِ إلَى قَوْلِهِ وَكُلّ أَمْرٍ مُسْتَقِرّ فَقَالُوا : سَحَرَكُمْ انْظُرُوا إلَى السّـفّارِ فَإِنْ كَانُوا رَأَوْا مِثْلَ مَا رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ . فَقَدِمُوا مِـنْ كُـلّ وَجْـهٍ . فَقَالُوا : رَأَيْنَا . وَكَانَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ رُبّمَـا طَلَبَ مِنْ الْآيَاتِ - الّتِي يَقْتَرِحُونَ - رَغْبَةً مِنْهُ فِي إيمَانِهِمْ فَيُجَـابُ بِأَنّهَا : لَا تَسْتَلْزِمُ الْهُدَى . بَلْ تُوجِبُ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ لِمَنْ كَـذّبَ بِهَا .

سُؤَالُهُمْ الْآيَاتِ

وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ يُظْهِـرُ الْآيَـاتِ الْكَثِيـرَةَ . مَـعَ طَبْعِـهِ عَلَـى قَلْـبِ الْكَـافِرِ كَفِرْعَـوْنَ <70> قَـالَ تَعَـالَى (6 ـ 109 ـ 111) وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِـنْ جَـاءَتْهُمْ آيَـةٌ لَيُـؤْمِنُنّ بِهَـا - إلَـى قَوْلِهِ - وَلَكِنّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ وَقَالَ تَعَالَى (17 : 59) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إلّا أَنْ كَذّبَ بِهَا الْأَوّلُونَ الْآيَةَ .

بَيّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : أَنّهُ إنّمَا مَنَعَهُ أَنْ يُرْسِلَ بِهَا إلّا أَنْ كَـذّبَ بِهَـا الْأَوّلُـونَ فَـإِذْ كَـذّبَ هَـؤُلَاءِ كَـذَلِكَ اسْـتَحَقّوا عَـذَابَ الِاسْتِئْصَـالِ . وَرَوَى أَهْلُ التّفْسِيرِ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ . قَـالَ " سَـأَلَهُ أَهْلُ مَكّةَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ الصّفَا ذَهَبًا ، وَأَنْ يُنَحّيَ عَنْهُمْ الْجِبَالَ حَتّى يَزْرَعُوا . فَقِيلَ لَـهُ إنْ شِـئْت نَسْـتَأْنِي بِهِـمْ وَإِنْ شِـئْت أَنْ نُـؤْتِيَهُمْ الّذِي سَأَلُوا ، فَإِنْ كَفَرُوا هَلَكُوا ، كَمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَهُـمْ . فَقَـالَ بَـلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ فَأَنْزَلَ اللّهُ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِـلَ بِالْآيَـاتِ إلّا أَنْ كَـذّبَ بِهَا الْأَوّلُونَ الْآيَةَ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْحَسَنِ فِي الْآيَةِ . قَالَ رَحْمَةٌ لَكُمْ أَيَّهَا الْأُمَّةُ إنَّا لَوْ أَرْسَلْنَا بِالْآيَاتِ فَكَذَّبْتُمْ بِهَا : أَصَابَكُمْ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ . وَكَانَتْ الْآيَاتُ تَأْتِيهِمْ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ . فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهَا قَالَ تَعَالَى (6 : 4 - 6) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ الْآيَاتِ .

أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنَّ الْآيَاتِ تَأْتِيهِمْ فَيُعْرِضُونَ عَنْهَا ، وَأَنَّهُمْ سَيَرَوْنَ صِدْقَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرّسُلُ كَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالذُّنُوبِ الَّتِي هِيَ تَكْذِيبُ الرّسُلِ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ (38 : 59) وَمَا كَانَ رَبّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتّى يَبْعَثَ فِي أُمّهَا رَسُولًا الْآيَةَ وَأَخْبَرَ بِشِدّةِ كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَوْ أُنَزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسّوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَكَذَّبُوا بِهِ وَبَيّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَوْ جُعِلَ الرّسُولُ مَلَكًا لَجَعَلَهُ عَلَى صُورَةِ الرّجُلِ . إذْ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوْا الْمَلَائِكَةَ فِي صُوَرِهِمْ الّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا . وَحِينَئِذٍ يَقَعُ اللّبْسُ عَلَيْهِمْ لِظَنّهِمْ الرّسُولَ بَشَرًا لَا مَلَكًا .

وَقَالَ تَعَالَى (17 : 90 - 96) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا الْآيَاتِ . وَهَذِهِ الْآيَاتُ لَوْ أُجِيبُوا إلَيْهَا ، ثُمّ لَمْ يُؤْمِنُوا : لَأَتَاهُمْ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ وَهِيَ لَا تُوجِبُ الْإِيمَانَ بَلْ إقَامَةً لِلْحُجّةِ وَالْحُجّةُ قَائِمَةٌ بِغَيْرِهَا . وَهِيَ أَيْضًا مِمّا لَا يَصْلُحُ فَإِنّ قَوْلَهُمْ حَتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا يَقْتَضِي تَفْجِيرَهَا بِمَكّةَ فَيَصِيرُ وَادِيًا ذَا زَرْعٍ وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَضَى بِسَابِقِ حِكْمَتِهِ أَنْ جَعَلَ بَيْتَهُ بِوَادٍ <71> غَيْرِ ذِي زَرْعٍ لِئَلّا يَكُونَ عِنْدَهُ مَا تَرْغَبُ النّفُوسُ فِيهِ مِنْ الدّنْيَا . فَيَكُونُ حَجّهُمْ لِلدّنْيَا .

وَإِذَا كَانَ لَهُ جَنّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ كَانَ فِي هَذَا مِنْ التّوَسّعِ فِي الدّنْيَا مَا يَقْتَضِي نَقْصَ دَرَجَتِهِ . وَكَذَلِكَ إذَا كَانَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ زُخْرُفٍ . وَهُوَ الذّهَبُ . أَمّا إسْقَاطُ السّمَاءِ كِسَفًا : فَهَذَا لَا يَكُونُ إلّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَأَمّا الْإِتْيَانُ بِاَللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، : فَهَذَا لَمّا سَأَلَ قَوْمُ مُوسَى مُوسَى مَا هُوَ دُونَهُ أَخَذَتْهُمْ الصّاعِقَةُ . وَقَالَ تَعَالَى (4 : 153 - 161) يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السّمَاءِ الْآيَاتِ .

بَيّنَ سُبْحَانَهُ أَنّ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ سَأَلُوهُ إنْزَالَ كِتَابٍ مِنْ السّمَاءِ وَبَيّنَ أَنّ الطّائِفَتَيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ إذَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ وَأَنّهُمْ إنّمَا

سَأَلُوهُ تَعَنّتًا ، فَقَالَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (6 ـ 7) ـ وَلَوْ نَزّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ الْآيَةَ .
وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (4 : 153) فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ - إلَى قَوْلِهِ - مِيثَاقًا غَلِيظًا فَهُمْ - مَعَ هَذَا - نَقَضُوا الْمِيثَاقَ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتَلُوا النّبِيّينَ . فَكَانَ فِيهِ مِنْ الِاعْتِبَارِ أَنّ الّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ إذَا جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ الْمُقْتَرَحَةُ لَمْ يَكُنْ فِي مَجِيئِهَا مَنْفَعَةٌ لَهُمْ بَلْ فِيهَا وُجُوبُ عُقُوبَةِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا ، وَتَغْلِيظُ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (4 : 160) فَبِظُلْمٍ مِنَ الّذِينَ هَادُوا الْآيَةَ . فَكَانَ فِي إنْزَالِ مِثْلِ هَذِهِ أَعْظَمَ رَحْمَةً وَحِكْمَةً .
وَلَمّا طَلَبَ الْحَوَارِيّونَ مِنْ الْمَسِيحِ الْمَائِدَةَ كَانَتْ مِنْ الْآيَاتِ الْمُوجِبَةِ لِمَنْ كَفَرَ بِهَا عَذَابًا ، لَمْ يُعَذّبْ اللّهُ بِهِ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ . وَكَانَ قَبْلَ نُزُولِ التّوْرَاةِ يُهْلِكُ اللّهُ الْمُكَذّبِينَ بِالرّسُلِ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ عَاجِلًا . وَأَظْهَرَ آيَاتٍ كَثِيرَةً لَمّا أَرْسَلَ مُوسَى لِيَبْقَى ذِكْرُهَا فِي الْأَرْضِ . إذْ كَانَ بَعْدَ نُزُولِ التّوْرَاةِ لَمْ يُهْلِكْ أُمّةً بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (28 ـ 43) ـ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَلْ كَانَ بَنُو إسْرَائِيلَ لَمّا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ - مِنْ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي - يُعَذّبُ اللّهُ بَعْضَهُمْ وَيُبْقِي بَعْضَهُمْ إذْ كَانُوا لَا يَتّفِقُونَ عَلَى الْكُفْرِ وَلَمْ يَزَلْ فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ أُمّةٌ بَاقِيَةٌ عَلَى الصّلَاحِ . قَالَ تَعَالَى (7 : 168 > 72>) وَقَطّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ الْآيَةَ وَقَالَ (3 : 113 ، 114) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاءَ اللّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ الْآيَتَيْنِ .
وَكَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ - لَمّا أَرْسَلَ مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ - أَنْ لَا يُهْلِكَ قَوْمَهُ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ بَلْ عَذّبَ بَعْضَهُمْ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ كالمستهزئين الّذِينَ قَالَ اللّهُ فِيهِمْ (15 : 95 ، 96) إنّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الْآيَاتِ .
وَالّذِي دَعَا عَلَيْهِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ يُسَلّطَ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِهِ فَافْتَرَسَهُ الْأَسَدُ كَمَا قَالَ تَعَالَى (9 ـ 52) ـ قُلْ هَلْ تَرَبّصُونَ بِنَا إلّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ الْآيَةَ . فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنّهُ يُعَذّبُ الْكُفّارَ تَارَةً بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ بِالْجِهَادِ وَالْحُدُودِ وَتَارَةً بِغَيْرِ ذَلِكَ .

فَكَانَ ذَلِكَ مِمّا يُوجِبُ إيمَانَ أَكْثَرِهِمْ كَمَا جَرَى لِقُرَيْشٍ وَغَيْرِهِـمْ . فَإِنّهُ لَوْ أَهْلَكَهُمْ لَبَادُوا ، وَانْقَطَعَتْ الْمَنْفَعَةُ بِهِمْ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ ذُرّيّةٌ تُؤْمِنُ بِخِلَافِ مَا عَذّبَهُمْ بِهِ مِنْ الْإِذْلَالِ وَالْقَهْـرِ فَـإِنّ فِـي ذَلِـكَ مَـا يُوجِبُ عَجْزَهُمْ وَالنّفُوسُ إذَا كَانَتْ قَادِرَةً عَلَـى كَمَـالِ أَغْرَاضِـهَا ، فَلَا تَكَادُ تَنْصَرِفُ عَنْهَا . بِخِلَافِ عَجْزِهَـا عَنْهَـا . فَـإِنّهُ يَـدْعُوهَا إلَـى النّوْبَةِ كَمَا قِيلَ مِنْ الْعِصْمَةِ أَنْ لَا تَقْدِرَ وَلِهَذَا آمَنَ عَـامّتُهُمْ . وَقَـدْ ذَكَرَ اللّهُ فِي التّوْرَاةِ لِمُوسَى
" إنّي أُقَسّي قَلْبَ فِرْعَوْنَ . فَلَا يُؤْمِنُ بِك لِتُظْهِرَ آيَـاتِي وَعَجَـائِبِي " .
بَيّنَ أَنّ فِي ذَلِكَ مِنْ الْحِكْمَةِ انْتِشَارُ آيَاتِهِ الدّالّةِ عَلَى صِدْقِ أَنْبِيَائِهِ فِي الْأَرْضِ إذْ كَانَ مُوسَى أَخْبَرَ بِتَكْلِيمِ اللّهِ لَهُ وَبِكِتَابَةِ التّوْرَاةِ لَـهُ فَأَظْهَرَ لَهُ مِنْ الْآيَاتِ مَا يَبْقَى ذِكْرُهُ فِي الْأَرْضِ . وَكَانَ فِي ضِـمْنِ ذَلِكَ مِنْ تَقْسِـيَةِ قَلْـبِ فِرْعَـوْنَ مَـا أَوْجَـبَ هَلَاكَـهُ وَهَلَاكَ قَـوْمِهِ . وَفِرْعَوْنُ كَانَ جَاحِدًا لِلصّانِعِ . فَلِذَلِكَ أُوتِيَ مُوسَى مِنْ الْآيَـاتِ مَـا يُنَاسِبُ حَالَهُ .
وَأَمّا بَنُو إسْرَائِيلَ - مَعَ الْمَسِيحِ - فَكَـانُوا مُقِرّيـنَ بِالْكِتَـابِ الْأَوّلِ . فَلَمْ يَحْتَاجُوا إلَى مِثْلِ مَا احْتَاجَ إلَيْـهِ مُوسَـى . وَلَـمْ يَكُـنْ مُحْتَاجًـا إلَى جِنْسِ تَقْرِيرِ النّبُوّةِ إذْ كَانَتْ الرّسُلُ قَبْلَهُ جَاءَتْ بِمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ . وَإِنّمَا الْحَاجَةُ إلَى تَثْبِيتِ نُبُوّتِهِ . <73> وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَظْهَرَ اللّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ الْآيَاتِ مِثْلَ آيَاتِ مَنْ قَبْلَهُ وَأَعْظَمَ وَمَعَ هَذَا لَمْ يَـأْتِ بِآيَاتِ الِاسْتِئْصَالِ . بَلْ بَيّـنَ اللّـهُ فِـي الْقُـرْآنِ أَنّهَـا لَا تَنْفَعُهُـمْ بَـلْ تَضُرّهُمْ . لِأَنّهُ عَلِمَ أَنّ قُلُوبَهُمْ كَقُلُوبِ الْأَوّلِينَ . كَمَا قَـالَ تَعَـالَى (51 : 52 ، 53) كَذَلِكَ مَا أَتَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ الْآيَةَ وَقَالَ تَعَالَى (2 : 118) كَذَلِكَ قَالَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ الْآيَةَ وَقَالَ تَعَـالَى (54 : 43) أَكُفّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ؟ الْآيَةَ وَسُورَةُ اقْتَرَبَتْ الّتِي ذَكَرَ فِيهَا انْشِقَاقَ الْقَمَرِ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْ الْآيَاتِ وَقَوْلَهُمْ سِحْرٌ مُسْـتَمِرّ وَقَالَ فِيهَا (54 : 4) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ أَيْ يَزْجُرُهُمْ عَنْ الْكُفْرِ زَجْرًا شَدِيدًا ، إذْ كَانَ فِـي تِلْـكَ الْأَنْبَـاءِ صِـدْقُ الرّسُلِ وَالْإِنْـذَارُ بِالْعَـذَابِ الّـذِي وَقَـعَ بالمتقـدمين . وَلِهَـذَا يَقُـولُ عَقِيبَ كُلّ قِصّةٍ فَكَيْفَ كَانَ عَـذَابِي وَنُـذُرِ أَيْ عَـذَابِي لِمَـنْ كَـذّبَ رُسُلِي ، وَإِنْذَارِي لَهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ مَجِيئِهِ .

ثُمّ قَالَ أَكُفّارُكُمْ أَيّتُهَا الْأُمّةُ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ الّـذِي كَـذّبُوا الرّسُـلَ مِـنْ قَبْلِكُـمْ أَمْ لَكُـمْ بَـرَاءَةٌ فِـي الزّبُـرِ ؟ أَمْ يَقُولُـونَ نَحْـنُ جَمِيـعٌ مُنْتَصِـرٌ ؟ وَذَلِـكَ أَنّ كَـوْنَكُمْ تُعَـذّبُونَ مِثْلَهُـمْ . إمّـا لِكَـوْنِكُمْ لَا تَسْتَحِقّونَ مَا اسْتَحَقّوا ، أَوْ لِكَوْنِ اللّـهِ أَخْبَـرَ أَنّـهُ لَا يُعَـذّبُكُمْ فَهَـذَا بِالنّظَرِ إلَى فِعْلِ اللّهِ . وَأَمّا بِالنّظَرِ إلَى قُوّةِ الرّسُـولِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَتْبَـاعِهِ . فَيَقُولُـونَ نَحْـنُ جَمِيـعٌ مُنْتَصِـرٌ فَـإِنّهُمْ أَكْثَـرُ وَأَقْوَى ، كَمَا قَالُوا (19 : 73) أَيّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيّا - إلَى قَوْلِهِ - أَثَاثًا وَرِئْيًا أَيْ أَمْوَالًا وَمَنْظَرًا .

فَقَالَ تَعَالَى (54 : 45) ـ سَيُهْزَمُ الْجَمْـعُ وَيُوَلّـونَ الـدّبُرَ أَخْبَـرَ رَسُولَهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِهَزِيمَتِهِمْ وَهُوَ بِمَكّةَ فِي قِلّةِ الْأَتْبَاعِ وَضَعْفٍ مِنْهُمْ . وَلَا يَظُنّ أَحَدٌ - قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ - بِالْعَادَةِ الْمَعْرُوفَـةِ أَنّ أَمْرَهُ يَعْلُو ، وَيُقَاتِلُهُمْ . فَكَانَ كَمَا أَخْبَرَ . وَذَلِكَ بِبَدْرٍ وَتِلْكَ سُـنّةُ اللّهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى (48 : 33) سُنّةَ اللّهِ الّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ الْآيَةَ . وَحَيْثُ يَظْهَرُ الْكُفّارُ وَيُغْلَبُونَ فَإِنّمَا يَكُونُ ذَلِـكَ لِـذُنُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الّتِي أَوْجَبَتْ نَقْصَ إيمَانِهِمْ فَإِذَا تَابُوا نَصَـرَهُمْ اللّـهُ كَمَـا قَالَ تَعَالَى (3 : 139) ـ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَـوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ <74> فَإِذَا كَانَ مِنْ تَمَامِ الْحِكْمَـةِ وَالرّحْمَـةِ أَنْ لَا يُهْلِكَهُمْ بِالِاسْتِئْصَالِ كَالّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَـالَ تَعَـالَى أَكُفّـارُكُمْ خَيْـرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزّبُرِ كَانَ لَا يَأْتِي بِمُوجِبِ ذَلِـكَ مَـعَ إتْيَانِهِ سُبْحَانَهُ بِمَا يُقِيمُ الْحُجّةَ أَكْمَلَ فِي الْحِكْمَةِ وَالرّحْمَةِ إذْ كَـانَ مَا أَتَى بِهِ حَصَلَ بِهِ كَمَالُ الْهُدَى وَالْحُجّةِ وَمَا امْتَنَعَ مِنْـهُ دَفَـعَ مِـنْ عَـذَابِ الِاسْتِئْصَـالِ مَـا أَوْجَـبَ بَقَـاءَ جُمْهُـورِ الْأُمّـةِ حَتّـى يَهْتَـدُوا وَيُؤْمِنُوا .

وَكَانَ فِي إرْسَالِ خَاتَمِ الرّسُلِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْمِنَنِ السّابِغَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي رِسَالَةِ غَيْرِهِ . صَلَوَاتُ اللّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

رَجَعْنَا إلَى سِيرَتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

خُرُوجُهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى الطّائِفِ

وَلَمّا اشْتَدّ الْبَلَاءُ مِنْ قُرَيْـشٍ عَلَـى رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ بَعْدَ مَوْتِ عَمّهِ خَرَجَ إلَى الطّائِفِ ، رَجَاءَ أَنْ يُؤْوُهُ وَيَنْصُرُوهُ عَلَى قَوْمِهِ وَيَمْنَعُوهُ مِنْهُمْ حَتّى يُبَلّـغَ رِسَـالَةَ رَبّـهِ . وَدَعَـاهُمْ إلَـى اللّهِ عَزّ وَجَلّ فَلَمْ يُرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يُرَ نَاصِرًا ، وَآذَوْهُ أَشَدّ الْأَذَى .

وَنَالُوا مِنْهُ مَا لَمْ يَنَلْ قَوْمَهُ . وَكَانَ مَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مَوْلَاهُ . فَأَقَامَ بَيْنَهُمْ عَشَرَةَ أَيّام . لَا يَدَعُ أَحَدًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ إلّا كَلّمَهُ فَقَالُوا : اُخْرُجْ مِنْ بَلَدِنَا . وَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُمْ . فَوَقَفُوا لَهُ سِمَاطَيْنِ . وَجَعَلُوا يَرْمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ وَبِكَلِمَاتٍ مِنْ السّفَهِ هِيَ أَشَدّ وَقْعًا مِنْ الْحِجَارَةِ . حَتّى دَمِيَتْ قَدَمَاهُ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَقِيهِ بِنَفْسِهِ حَتّى أَصَابَهُ شِجَاجٌ فِي رَأْسِهِ فَانْصَرَفَ إلَى مَكّةَ مَحْزُونًا .

وَفِي مَرْجِعِهِ دَعَا بِالدّعَاءِ الْمَشْهُورِ : « **اللّهُمّ إنّي أَشْكُو إلَيْك ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ، أَوْ إلَى عَدُوّ مَلّكْته أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك غَضَبٌ عَلَيّ فَلَا أُبَالِي ، غَيْرَ أَنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي . أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِك الّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلّ عَلَيّ غَضَبُك ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُك . لَك الْعُتْبَى حَتّى تَرْضَى . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوّةَ إلّا بِك** » [26] فَأَرْسَلَ رَبّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلَيْهِ مَلَكَ الْجِبَالِ يَسْتَأْمِرُهُ أَنْ يُطْبِقَ الْأَخْشَبَيْنِ عَلَى أَهْلِ مَكّةَ - وَهُمَا جَبَلَاهَا اللّذَانِ هِيَ بَيْنَهُمَا - فَقَالَ : « بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ . لَعَلّ <75> اللّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » [27]

فَلَمّا نَزَلَ بِنَخْلَةَ فِي مَرْجِعِهِ قَامَ يُصَلّي مِنْ اللّيْلِ مَا شَاءَ اللّهُ فَصَرَفَ اللّهُ إلَيْهِ نَفَرًا مِنْ الْجِنّ . فَاسْتَمَعُوا قِرَاءَتَهُ وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى نَزَلَ عَلَيْهِ (46 : 28 - 32) - وَإِذْ صَرَفْنَا إلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنّ - إلَى قَوْلِهِ - أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [28] .

وَأَقَامَ بِنَخْلَةَ أَيّامًا . فَقَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ أَخْرَجُوك ؟ - يَعْنِي قُرَيْشًا - فَقَالَ يَا زَيْدُ إنّ اللّهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرَجًا وَمَخْرَجًا . وَإِنّ اللّهَ نَاصِرٌ دِينَهُ وَمُظْهِرٌ نَبِيّهُ . ثُمّ انْتَهَى إلَى مَكّةَ . فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ إلَى الْمُطْعِمِ بْنِ عَدِيّ أَدْخُلُ فِي جِوَارِك ؟ فَقَالَ نَعَمْ . فَدَعَا الْمُطْعِمُ بَنِيهِ وَقَوْمَهُ

---

[26] () أَخرَجَهُ : الطَّبَراني في (الكَبير) مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بنِ جَعفَرٍ . قال الهَيثَمِي في المَجمعِ 6/35 : (فيه ابنُ إسحاقَ وَهُو مُدَلِّسٌ ثِقَةٌ ، وَبَقِيّةُ رِجالُهُ ثِقاتٌ) .

[27] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3231 و 7389) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1795) مِن حديثِ عائِشَة مُطَوَّلاً .

[28] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 773 و 4921) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 449) مِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .

فَقَالَ الْبَسُوا السّلَاحَ وَكُونُوا عِنْدَ أَرْكَانِ الْبَيْتِ . فَإِنّي قَدْ أَجَرْت مُحَمّدًا . فَلَا يَهْجُهُ أَحَدٌ . فَانْتَهَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى الرّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ . وَصَلّى رَكْعَتَيْنِ . وَانْصَرَفَ إلَى بَيْتِهِ وَالْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ وَوَلَدُهُ مُحْدِقُونَ بِهِ فِي السّلَاحِ حَتّى دَخَلَ بَيْتَهُ .

الْإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

ثُمّ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى بَيْتِ الْقُدْسِ رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ صُحْبَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السّلَامُ . فَنَزَلَ هُنَاكَ . وَصَلّى بِالْأَنْبِيَاءِ إمَامًا . وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ . ثُمّ عَرَجَ بِهِ إلَى السّمَاءِ الدّنْيَا . فَرَأَى فِيهَا آدَمَ . وَرَأَى أَرْوَاحَ السّعَدَاءِ عَنْ يَمِينِهِ وَالْأَشْقِيَاءِ عَنْ شِمَالِهِ . ثُمّ إلَى الثّانِيَةِ . فَرَأَى فِيهَا عِيسَى وَيَحْيَى . ثُمّ إلَى الثّالِثَةِ . فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ . ثُمّ إلَى الرّابِعَةِ . فَرَأَى فِيهَا إدْرِيسَ . ثُمّ إلَى الْخَامِسَةِ . فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ . ثُمّ إلَى السّادِسَةِ . فَرَأَى فِيهَا مُوسَى . فَلَمّا جَاوَزَهُ بَكَى . فَقِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيك ؟ قَالَ أَبْكِي أَنّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنّةَ مِنْ أُمّتِهِ أَكْثَرُ مِمّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمّتِي . ثُمّ عَرَجَ بِهِ إلَى السّمَاءِ السّابِعَةِ . فَلَقِيَ فِيهَا إبْرَاهِيمُ . ثُمّ إلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . ثُمّ رُفِعَ إلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ . فَرَأَى هُنَاكَ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ لَهُ سِتّمِائَةِ جَنَاحٍ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (53 : 13 - 14) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى [29] وَكَلّمَهُ رَبّهُ وَأَعْطَاهُ مَا أَعْطَاهُ . وَأَعْطَاهُ الصّلَاةَ . فَكَانَتْ قُرّةَ عَيْنِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ <76> فَلَمّا أَصْبَحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي قَوْمِهِ وَأَخْبَرَهُمْ اشْتَدّ تَكْذِيبُهُمْ لَهُ وَسَأَلُوهُ أَنْ يَصِفَ لَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ . فَجَلّاهُ اللّهُ لَهُ حَتّى عَايَنَهُ . وَجَعَلَ يُخْبِرُهُمْ بِهِ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدّوا عَلَيْهِ شَيْئًا [30] . وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عِيرِهِمْ الّتِي رَآهَا فِي مُسَرّاهُ وَمَرْجِعِهِ وَعَنْ وَقْتِ قُدُومِهَا ، وَعَنْ الْبَعِيرِ الّذِي يَقْدُمُهَا . فَكَانَ كَمَا قَالَ [31] . فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إلّا تُبُورًا . وَأَبَى الظّالِمُونَ إلّا كُفُورًا .

فَصْلٌ فِي الْهِجْرَةِ

---

[29] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3232 و4856 وغيره) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 174 و 282) مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

[30] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4710 و3886)ومُسلِم (بِرَقْمِ : 170) مِن حديثِ جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

[31] () أَخرَجَهُ : أحمد 1/374 .من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما .

قَدْ ذَكَرْنَا <77> أَنّهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يُـوَافِي الْمَوْسِـمَ كُلّ عَامٍ يَتّبِعُ الْحَاجّ فِي مَنَازِلِهِمْ وَفِـي عُكَـاظٍ وَغَيْرِهَـا . يَـدْعُوهُمْ إلَى اللّهِ . فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ . وَلَمْ يُؤْوِهِ . فَكَانَ مِمّنْ صَنَعَ اللّـهُ لِرَسُولِهِ أَنّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَـانُوا يَسْـمَعُونَ مِـنْ حُلَفَـائِهِمْ يَهُـودِ الْمَدِينَةِ : أَنّ نَبِيّا يُبْعَثُ فِي هَذَا الزّمَانِ فَنَتّبِعُهُ وَنَقْتُلُكُمْ مَعَـهُ قَتْـلَ عَادٍ .

وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ تَحُجّ ، كَغَيْرِهَا مِنْ الْعَرَبِ ، دُونَ الْيَهُودِ . فَلَمّـا رَأَى الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَدْعُو النّاسَ إلَى اللّـهِ . وَتَأَمّلُوا أَحْوَالَهُ . قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ تَعْلَمُونَ وَاَللّهِ يَا قَوْمِ أَنّ هَـذَا الّذِي تَوَعّدَكُمْ بِهِ الْيَهُودُ . فَلَا يَسْبِقَنّكُمْ إلَيْهِ وَقَدّرَ اللّهُ بَعْـدَ ذَلِـكَ . أَنّ الْيَهُودَ يُكَفّرُونَ بِهِ . فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (2 : 89) وَلَمّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصَدّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِـنْ قَبْـلُ يَسْـتَفْتِحُونَ عَلَى الّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْآيَةَ بَعْدَهَا .

بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الْأُولَى

فَلَقِيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْـدَ الْعَقَبَـةِ : سِـتّةُ نَفَـرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ كُلّهُمْ مِنْ الْخَزْرَجِ . مِنْهُمْ أَسْعَدُ بْـنُ زُرَارَةَ وَجَـابِرُ بْـنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ رِئَابٍ السّلَمِيّ . فَدَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا . ثُـمّ رَجَعُوا إلَى الْمَدِينَةِ ، فَدَعَوْا إلَى الْإِسْـلَامِ . فَنَشَـأَ الْإِسْـلَامُ فِيهَـا ، حَتّى لَمْ تَبْقَ دَارٌ إلّا وَدَخَلَهَا . فَلَمّا كَـانَ الْعَـامُ الْمُقْبِـلُ جَـاءَ مِنْهُـمْ اثْنَيْ عَشَـرَ رَجُلًا - السّـتّةُ الْأُوَلُ . خَلَا جَـابِرًا - وَمَعَهُـمْ عُبَـادَةُ بْـنُ الصّامِتِ ، وَأَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التّيْهَانِ ، وَغَيْرُهُـمْ . الْجَمِيـعُ اثْنَـا عَشَـرَ رَجُلًا .

وَكَانَ السّتّةُ الْأَوّلُونَ قَدْ قَالُوا لَهُ - لَمّا أَسْلَمُوا - إنّ بَيْنَ قَوْمِنَا مِنْ الْعَـدَاوَةِ وَالشّـرّ مَـا بَيْنَهُـمْ . وَعَسَـى اللّـهُ أَنْ يَجْمَعَهُـمْ بِـك ، وَسَنَدْعُوهُمْ إلَى أَمْرِك . فَإِنْ يَجْمَعَهُـمْ اللّـهُ عَلَيْـك فَلَا رَجُـلَ أَعَـزّ مِنْك ، وَكَانَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَخَوَانِ لِأُمّ وَأَبٍ . أَصْلُهُمْ مِنْ الْيَمَـنِ مِنْ سَبَإٍ . وَأُمّهُمْ قَيْلَةُ بِنْتُ كَاهِلٍ - امْـرَأَةٌ مِـنْ <78> قُضَـاعَةَ - وَيُقَالُ لَهُمْ لِذَلِكَ أَبْنَاءُ قَيْلَةَ . قَالَ الشّاعِرُ .

بَهَالِيـلُ مِـنْ أَوْلَادِ قَيْلَةَ لَمْ يَجِدْ ... عَلَيْهِـمْ خَلِيـطٌ فِـي مُخَالَطَةِ عُتْبَا

فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ الْعَدَاوَةُ بِسَبَبِ قَتِيلٍ فَلَبِثَتْ بَيْنَهُمْ الْحَرْبُ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً إلَى أَنْ أَطْفَأَهَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ . وَأَلَّفَ بَيْنَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَلِكَ قَوْلُهُ (3 ـ 103) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْوَانًا - الْآيَةَ .

فَلَمّا جَاءَهُ الِاثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا الْعَام الْآتِي - الّذِينَ ذَكَرْنَا - وَمِنْهُمْ اثْنَانِ مِنْ الْأَوْسِ : أَبُو الْهَيْثَمِ وَعُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ وَالْبَاقِي مِنْ الْخَزْرَجِ .

فَلَمّا انْصَرَفُوا بَعَثَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُقْرِئَهُمْ الْقُرْآنَ وَيُعَلّمَهُمْ الْإِسْلَامَ . فَنَزَلَ عَلَى أَبِي أُمَامَةَ - أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ - فَخَرَجَ بِمُصْعَبٍ - فِي إحْدَى خُرُجَاتِهِ - فَدَخَلَ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ بَنِي ظَفَرٍ . فَجَلَسَا فِيهِ وَاجْتَمَعَ إلَيْهِمَا رِجَالٌ مِمّنْ أَسْلَمَ .

إسْلَامُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ، وَأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ - سَيّدُ الْأَوْسِ - لِأُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ اذْهَبْ إلَى هَذَيْنِ اللّذَيْنِ قَدْ أَتَيَا لِيُسَفّهَا ضُعَفَاءَنَا ، فَازْجُرْهُمَا . فَإِنّ أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ ابْنُ خَالَتِي ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَفَيْتُك ذَلِكَ . وَكَانَ سَعْدٌ وَأُسَيْدٌ سَيّدَيْ قَوْمِهِمَا . فَأَخَذَ أُسَيْدٌ حَرْبَتَهُ . ثُمّ أَقْبَلَ إلَيْهِمَا . فَلَمّا رَآهُ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَالَ لِمَصْعَبٍ هَذَا سَيّدُ قَوْمِهِ قَدْ جَاءَك . فَاصْدُقْ اللّهَ فِيهِ . قَالَ مُصْعَبٌ إنْ يُكَلّمْنِي أُكَلّمْهُ . فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا . فَقَالَ مَا جَاءَ بِكُمَا إلَيْنَا ؟ تُسَفّهَانِ ضُعَفَاءَنَا ؟ اعْتَزِلَا ، إنْ كَانَ لَكُمَا فِي أَنْفُسِكُمَا حَاجَةٌ . فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ أَوَ تَجْلِسُ فَتَسْمَعُ . فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا قَبِلْته ، وَإِنْ كَرِهْته كُفّ عَنْك مَا تَكْرَهُ . فَقَالَ أَنْصَفْت . ثُمّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ وَجَلَسَ فَكَلّمَهُ مُصْعَبٌ بِالْإِسْلَامِ وَتَلَا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ . قَالَ فَوَاَللّهِ لَعَرَفْنَا فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلّمَ فِي إشْرَاقِهِ وَتَهَلّلِهِ .

ثُمّ قَالَ مَا أَحْسَنَ هَذَا وَمَا أَجْمَلَهُ كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي هَذَا الدّينِ ؟ . <79> قَالَا لَهُ تَغْتَسِلُ وَتَطْهُرُ ثَوْبَك . ثُمّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقّ . ثُمّ تُصَلّي رَكْعَتَيْنِ فَقَامَ وَاغْتَسَلَ . وَطَهّرَ ثَوْبَهُ . وَتَشَهّدَ وَصَلّى رَكْعَتَيْنِ . ثُمّ قَالَ إنّ وَرَائِي رَجُلًا إنْ تَبِعَكُمَا لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ . وَسَأُرْشِدُهُ إلَيْكُمَا الْآنَ - سَعْدُ بْنُ

مُعَاذٍ - ثُمّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ وَانْصَرَفَ إلَى سَعْدٍ فِي قَوْمِهِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ .
فَقَالَ سَعْدٌ أَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ . فَلَمّا وَقَفَ عَلَى النّادِي . قَالَ لَهُ سَعْدٌ مَا فَعَلَتْ ؟ فَقَالَ كَلّمْت الرّجُلَيْنِ . فَوَاَللّهِ مَا رَأَيْت بِهِمَا بَأْسًا . وَقَدْ نَهَيْتهمَا ، فَقَالَا : نَفْعَلُ مَا أَحْبَبْت .
وَقَدْ حُدّثْت : أَنّ بَنِي حَارِثَةَ خَرَجُوا إلَى أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ لِيَقْتُلُوهُ - وَذَلِكَ أَنّهُمْ عَرَفُوا أَنّهُ ابْنُ خَالَتِك - لِيَخْفِرُوك . فَقَامَ سَعْدٌ مُغْضَبًا لِلّذِي ذُكِرَ لَهُ . فَأَخَذَ حَرْبَتَهُ فَلَمّا رَآهُمَا مُطْمَئِنّينَ عَرَفَ أَنّ أُسَيْدًا إنّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمَا ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمَا مُتَشَتّمًا . ثُمّ قَالَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ وَاَللّهِ يَا أَبَا أُمَامَةَ . لَوْلَا مَا بَيْنِي وَبَيْنَك مِنْ الْقَرَابَةِ مَا رَمَتْ هَذَا مِنّي ، تَغَشّانَا فِي دَارِنَا بِمَا نَكْرَهُ ؟ .
وَقَدْ كَانَ أَسْعَدُ قَالَ لِمُصْعَبٍ جَاءَك وَاَللّهِ سَيّدُ مِنْ وَرَائِهِ قَوْمُهُ . إنْ يَتّبِعْك لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْك مِنّهُمْ أَحَدٌ .
فَقَالَ لَهُ مُصْعَبٌ أَوَ تَقْعُدُ فَتَسْمَعُ ؟ فَإِنْ رَضِيت أَمْرًا قَبِلْته ، وَإِنْ كَرِهْته عَزَلْنَا عَنْك مَا تَكْرَهُ قَالَ قَدْ أَنْصَفْت . ثُمّ رَكَزَ حَرْبَتَهُ فَجَلَسَ .
فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ . قَالَ فَعَرَفْنَا وَاَللّهِ فِي وَجْهِهِ الْإِسْلَامَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلّمَ فِي إشْرَاقِهِ وَتَهَلّلِهِ . ثُمّ قَالَ كَيْفَ تَصْنَعُونَ إذَا أَسْلَمْتُمْ ؟ قَالَا : تَغْتَسِلُ وَتُطَهّرُ ثَوْبَك ثُمّ تَشْهَدُ شَهَادَةَ الْحَقّ . ثُمّ تُصَلّي رَكْعَتَيْنِ فَفَعَلَ ذَلِكَ . ثُمّ أَخَذَ حَرْبَتَهُ . فَأَقْبَلَ إلَى نَادِي قَوْمِهِ . فَلَمّا رَأَوْهُ قَالُوا : نَحْلِفُ بِاَللّهِ لَقَدْ رَجَعَ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الّذِي ذَهَبَ بِهِ فَقَالَ يَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ كَيْفَ أَمْرَى فِيكُمْ ؟ قَالُوا : سَيّدُنَا . وَابْنُ سَيّدِنَا ، وَأَفْضَلُنَا رَأَيًا ، وَأَيْمَنُنَا نَقِيبَةً . قَالَ فَإِنّ كَلَامَ رِجَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ عَلَيّ حَرَامٌ حَتّى تُؤْمِنُوا بِاَللّهِ وَبِرَسُولِهِ . فَمَا أَمْسَى فِيهِمْ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إلّا أَسْلَمُوا ، إلّا الْأُصَيْرِمَ . فَإِنّهُ تَأَخّرَ إسْلَامُهُ إلَى يَوْمِ أُحُدٍ .
<80> فَأَسْلَمَ وَقَاتَلَ وَقُتِلَ وَلَمْ يَسْجُدْ لِلّهِ سَجْدَةً . فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا [32]

---

[32] () أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 2808) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1900) مِن حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَأَقَامَ مُصْعَبٌ فِي مَنْزِلِ أَسْعَدَ يَدْعُو النّاسَ إلَى الْإِسْلَامِ حَتّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إلّا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ مُسْلِمُونَ إلّا مَا كَانَ مِنْ دَارِ بَنِي أُمَيّةَ بْنِ زَيْدٍ وَخَطْمَةَ وَوَائِلٍ وَوَاقِفٍ .
وَذَلِكَ أَنّهُمْ كَانَ فِيهِمْ قَيْسُ بْنُ الْأَسْلَتِ الشّاعِرُ . وَكَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْهُ فَوَقَفَ بِهِمْ عَنْ الْإِسْلَامِ حَتّى كَانَ عَامَ الْخَنْدَقِ ، بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .
فَلَمّا كَانَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ . وَجَاءَ مَوْسِمُ الْحَجّ . قَالَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ الْأَنْصَارِ : حَتّى مَتَى نَتْرُكُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَطْرُدُ فِي جِبَالِ مَكّةَ وَيَخَافُ ؟ فَخَرَجُوا مَعَ مُشْرِكِي قَوْمِهِمْ حُجّاجًا .
بَيْعَةُ الْعَقَبَةِ الثّانِيَةِ
فَلَمّا وَصَلُوا وَاعَدُوهُ الْعَقَبَةَ ، مِنْ أَوَاسِطِ أَيّامِ التّشْرِيقِ لِلْبَيْعَةِ بَعْدَ مَا انْقَضَى حَجّهُمْ . فَقَالَ لَهُ الْعَبّاسُ مَا أَدْرِي مَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الّذِينَ جَاءُوك ؟ إنّي ذُو مَعْرِفَةٍ بِأَهْلِ يَثْرِبَ . فَلَمّا كَانَ اللّيْلُ تَسَلّلُوا مِنْ رِحَالِهِمْ مُخْتَفِينَ وَمَعَهُمْ عَبْدُ اللّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ - أَبُو جَابِرٍ - وَهُوَ مُشْرِكٌ وَكَانُوا يُكَاتِمُونَهُ الْأَمْرَ . فَلَمّا كَانَتْ اللّيْلَةُ الّتِي وَاعَدُوا فِيهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالُوا : يَا أَبَا جَابِرٍ ، إنّك شَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا . وَإِنّا نَرْغَبُ بِك أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنّارِ غَدًا ، قَالَ وَمَا ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ . فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ الْعَقَبَةَ وَكَانَ نَقِيبًا .

فَلَمّا مَضَى ثُلُثُ اللّيْلِ خَرَجُوا لِلْمِيعَادِ حَتّى اجْتَمَعَ عِنْدَهُ مِنْ رَجُلِ وَرَجُلَيْنِ وَمَعَهُ عَمّهُ الْعَبّاسُ - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ - وَلَكِنّهُ أَحَبّ أَنْ يُحْضِرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثّقُ لَهُ .

فَلَمّا نَظَرَ الْعَبّاسُ فِي وُجُوهِهِمْ قَالَ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا نَعْرِفُهُمْ هَؤُلَاءِ أَحْدَاثٌ وَكَانَ أَوّلَ مَنْ تَكَلّمَ . فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ - وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمّي الْجَمِيعَ الْخَزْرَجَ - إنّ مُحَمّدًا مِنّا حَيْثُ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا وَهُوَ فِي مَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ إلّا أَنّهُ أَبَى إلّا الِانْقِطَاعَ إلَيْكُمْ وَاللّحُوقَ بِكُمْ . فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنّكُمْ <81> وَافُونَ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمّلْتُمْ . وَإِنْ كُنْتُمْ

تَرَوْنَ أَنّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَـاذِلُوهُ - بَعْـدَ خُرُوجِـهِ إلَيْكُـمْ - فَمِـنْ الْآنَ فَدَعُوهُ . فَإِنّهُ فِي عِزّ وَمَنَعَةٍ .

قَالُوا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْت . فَتَكَلّمْ يَـا رَسُـولَ اللّـهِ وَخُـذْ لِنَفْسِـك وَلِرَبّك مَا شِئْت .

فَتَكَلّمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَـالَ أُبَـايِعُكُمْ عَلَـى أَنْ تَمْنَعُونِي - إذَا قَدِمْت عَلَيْكُمْ - مِمّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَـاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنّةُ [33] .

فَكَانَ أَوّلَ مَنْ بَايَعَهُ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ . فَقَالَ وَالّذِي بَعَثَـك بِـالْحَقّ لَنَمْنَعَنّكَ مِمّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا . فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللّـهِ . فَنَحْـنُ أَهْـلُ الْحَرْبِ وَالْحَلْقَةِ وَرِثْنَاهَا صَاغِرًا عَنْ كَـابِرٍ . فَاعْتَرَضَـهُ أَبُـو الْهَيْثَـمِ بْنُ التّيّهَانِ ، وَقَالَ إنّ بَيْنَنَـا وَبَيْـنَ النّـاسِ حِبَـالًا وَنَحْـنُ قَاطِعُوهَـا ، فَهَلْ عَسَيْت - إنْ أَظْهَرَك اللّـهُ - أَنْ تَرْجِـعَ إلَـى قَوْمِـك وَتَـدَعَنَا ؟ فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ قَالَ لَا وَاَللّهِ بَلْ الدّمَ الدّمَ وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنْتُمْ مِنّي وَأَنَا مِنْكُـمْ . أُحَـارِبُ مَـنْ حَـارَبْتُمْ . وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ

فَلَمّا قَدِمُوا يُبَايِعُونَهُ أَخَذَ بِيَدِهِ أَصْغَرَهُمْ - أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ - فَقَـالَ رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إنّا لَمْ نَضْرِبْ إلَيْهِ أَكْبَادَ الْإِبِلِ إلّا وَنَحْـنُ نَعْلَـمُ أَنّهُ رَسُولُ اللّهِ وَإِنّ إخْرَاجَـهُ الْيَـوْمَ مُفَارَقَـةُ لِلْعَـرَبِ كَافّـةً وَقَتْـلَ خِيَارُكُمْ وَأَنْ تَعَضّكُمْ السّيُوفُ . فَإِمّـا أَنْتُـمْ تَصْـبِرُونَ عَلَـى ذَلِـكَ . فَخُذُوهُ وَأَجْرَكُمْ عَلَى اللّهِ وَإِمّا أَنْتُمْ تَخَـافُونَ مِـنْ أَنْفُسِـكُمْ خِيفَـةً فَذَرُوهُ . فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللّهِ . فَقَالُوا : أَمِطْ عَنّا يَدَك ، فَوَاَللّهِ مَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا .

فَقَامُوا إلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ مِنْهُمْ وَيُعْطِيهِـمْ بِـذَلِكَ الْجَنّـةَ ثُـمّ كَثُـرَ اللّغَطُ فَقَالَ الْعَبّاسُ عَلَى رِسْلِكُمْ . فَإِنّ عَلَيْنَا عُيُونًا .

---

[33] () أَخرَجَهُ : أحمـدُ 3/322 و339 و340 وابـنُ حِبَّـانَ (بِرَقْـمِ : 6274 و7012) والحاكِمُ 2/624-625 مِن حديثِجابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَخْرِجُوا إلَيّ مِنْكُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا كُفَلَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ كَكِفَالَةِ الْحَوَارِيّينَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَوْمِي "وَفِي رِوَايَةِ " أَنّ مُوسَى اتّخَذَ مِنْ قَوْمِهِ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

فَكَانَ نَقِيبُ بَنِي النّجّارِ : أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ . وَنَقِيبُ بَنِي سَلِمَةَ : الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ، وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ . وَنَقِيبُ بَنِي سَاعِدَةَ : سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، <82> وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو . وَنَقِيبُ بَنِي زُرَيْقٍ : رَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ عَجْلَانَ . وَنَقِيبُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ : عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَسَعْدُ بْنُ الرّبِيعِ وَنَقِيبُ الْقَوَافِلِ عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ . وَنَقِيبُ الْأَوْسِ : أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَأَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التّيْهَانِ . وَنَقِيبُ بَنِي عَوْفٍ سَعْدُ بْنُ خَيْثَمَةَ .

وَكَانَ جَمِيعُ أَهْلِ الْعَقَبَةِ : سَبْعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَتَيْنِ .

فَلَمّا بَايَعُوهُ صَرَخَ الشّيْطَانُ بِأَنْفَذَ صَوْتٍ سُمِعَ قَطّ : يَا أَهْلَ الْأَخَاشِبِ ، هَلْ لَكُمْ فِي مُحَمّدٍ وَالصّبَاةِ مَعَهُ ؟ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَذَا أَزَبّ الْعَقَبَةِ ، أَمَا وَاَللّهِ يَا عَدُوّ اللّهِ لَأُفْرُغَن لَك " ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " ارْفُضُوا إلَى رِحَالِكُمْ

فَقَالَ الْعَبّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ : وَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ إنْ شِئْت لَنَمِيلَنّ عَلَى أَهْلِ مَكّة غَدًا بِأَسْيَافِنَا . فَقَالَ " لَمْ نُؤْمَرْ بِذَلِكَ وَلَكِنْ ارْجِعُوا إلَى رِحَالِكُمْ " فَرَجَعُوا

فَلَمّا أَصْبَحُوا غَدَتْ عَلَيْهِمْ جَلّةُ قُرَيْشٍ . فَقَالُوا : إنّهُ بَلَغَنَا أَنّكُمْ جِئْتُمْ صَاحِبَنَا الْبَارِحَةَ تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا ، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِنَا . وَإِنّ اللّهَ مَا مِنْ حَيّ مِنْ الْعَرَبِ أَبْغَضُ إلَيْنَا مِنْ أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْكُمْ . فَانْبَعَثَ رِجَالٌ - مِمّنْ لَمْ يَعْلَمْ - يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاَللّهِ مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَاَلّذِينَ يَشْهَدُونَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ . وَجَعَلَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ يَقُولُ هَذَا

بَاطِلٌ . مَا كَانَ هَذَا . وَمَا كَانَ قَوْمِي لِيَفْتَاتُوا عَلَيّ بِمِثْلِ هَـذَا . لَـوْ كُنْت بِيَثْرِبَ مَا صَنَعَ قَوْمِي هَذَا . حَتّى يُؤَامِرُونِي .

فَقَامَ الْقَوْمُ - وَفِيهِمْ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ - وَعَلَيْـهِ نَعْلَانِ جَدِيـدَانِ . فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : كَلِمَةً - كَـأَنَّهُ يُرِيـدُ أَنْ يُشْـرِكَ الْقَـوْمَ فِيمَـا قَالُوا - فَقَالَ يَا آبَا جَابِرٍ مَـا تَسْـتَطِيعُ أَنْ تَتّخِـذَ - وَأَنْـتَ سَـيّدٌ مِـنْ سَادَتِنَا - مِثْلُ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَى ؟ فَسَـمِعَهَا الْحَـارِثُ . فَجَعَلَهَـا مِـنْ رِجْلَيْهِ . ثُمّ رَمَى بِهِمَا إلَيْـهِ . وَقَـالَ وَاَللّـهِ لَتَنْتَعِلَنهُمَـا . فَقَـالَ أَبُـو جَابِرٍ مَهْ ؟ أَحَفِظْت الْفَتَى . فَـارْدُدْ إلَيْـهِ نَعْلَيْـهِ ؟ فَقَـالَ لَا أَرُدّهُمَـا إلَيْهِ وَاَللّهِ فَأْلٌ صَالِحٌ . لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لَأَسْلُبَنهُ .

فَلَمّا انْفَصَلَتْ الْأَنْصَارُ عَنْ مَكّةَ : صَحّ الْخَبَرُ عِنْدَ قُرَيْشٍ . فَخَرَجُوا فِي <83> طَلَبِهِمْ فَأَدْرَكُوا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وَالْمُنْذِرَ بْنَ عَمْـرٍو . فَأَعْجَزَهُمْ الْمُنْذِرُ وَمَضَى . وَأَمّا سَعْدٌ فَقَـالُوا لَـهُ أَنْـتَ عَلَـى دِيـنِ مُحَمّدٍ ؟ قَالَ نَعَمْ فَرَبَطُوا يَدَيْهِ إلَى عُنُقِهِ بِنِسْـعَةِ رَحْلِـهِ . وَجَعَلُـوا يَسْحَبُونَهُ بِشَعْرِهِ وَيَضْرِبُوهُ - وَكَانَ ذَا جُمّةٍ - حَتّى أَدْخَلُـوهُ مَكّـةَ ، فَجَاءَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيّ وَالْحَارِثُ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيّةَ . فَخَلّصَاهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ .

وَتَشَـاوَرَتْ الْأَنْصَـارُ أَنْ يَكْـرُوَا إلَيْـهِ . فَـإِذَا هُـوَ قَـدْ طَلَـعَ عَلَيْهِـمْ . فَرَحَلُوا إلَى الْمَدِينَةِ .

وَكَانَ الّذِي أَسَرَهُ ضِرَارُ بْنُ الْخَطّابِ الْفِهْرِيّ وَقَالَ

تَدَارَكْت سَعْدًا عَنْوَةً فَأَسَرْته

وَكَانَ شِفَائِي ، لَوْ تَدَارَكْت مُنْذِرَا

وَلَوْ نِلْته طُلّتْ هُنَاكَ جِرَاحَةٌ

أَحَقّ دِمَاءً أَنْ تُهَانَ وَتُهْدَرَا

فَأَجَابَهُ حَسّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ

فَخَرّتْ بِسَعْدِ الْخَيْرِ حِينَ أَسَرْته

وَقُلْت : شِفَائِي لَوْ تَدَارَكْت مُنْذِرَا

وَإِنْ امْرَأً يَهْدِي الْقَصَائِدَ نَحْوَنَا

كَمُسْتَبْضَعٍ تَمْرًا إلَى أَهْلِ خَيْبَرَا

فَلَا تَكُ كَالشّاةِ الّتِي كَانَ حَتْفُهَا

بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا . فَلَمْ تَرْضَ مِحْفَرَا

وَلَا تَكُ كَالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنّهُ

بِقَرْيَةِ كِسْرَى ، أَوْ بَقَرِيّةِ قَيْصَرَا

وَلَا تَكُ كَالثّكْلَى ، وَكَانَتْ بِمَعْزِلٍ

عَنْ الثّكْلِ . لَوْ أَنّ الْفُؤَادَ تَفَكّرَا

وَلَا تَكُ كَالْعَاوِي ، وَأَقْبَلَ نَحْرَهُ

وَلَمْ يَخْشَهُ سَهْمٌ مِنْ النّبْلِ مُضْمَرَا

أَتَفْخَرُ بِالْكَتّانِ لَمّا لَبِسْته

وَقَدْ يُلْبَسُ الْأَنْبَاطُ رَيْطًا مُقَصّرَا

فَلَوْلَا أَبُو وَهْبٍ لَمَرّتْ قَصَائِدُ

عَلَى شَرَفِ الْبَيْدَاءِ يَهْوِينَ حُسّرَا

وَسَمِعَتْ قُرَيْشٌ قَائِلًا يَقُولُ بِاللّيْلِ عَلَى أَبَى قُبَيْسٍ

فَإِنْ يَسْلَمْ السّعْدَانُ يُصْبِحْ مُحَمّدٌ

بِمَكّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمَخَالِفِ

قَالُوا : مَنْ هُمَا ؟ قَالَ أَبِهِ سُفْيَانَ أَسْعَدُ بْنُ بَكْرٍ أَمْ سَعْدُ بْنُ هُزَيْمٍ ؟ فَلَمّا كَانَتْ اللّيْلَةُ الْقَابِلَةُ سَمِعُوهُ <84> يَقُولُ

فَيَا سَعْدُ - سَعْدَ الْأَوْسِ - كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا

وَيَا سَعْدُ - سَعْدَ الْخَزْرَجَيْنِ - الْغَطَارِفِ

أَجِيبَا إلَى دَاعِي الْهُدَى . وَتَمَنّيَا

عَلَى اللّهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مِنّةَ عَارِفِ

فَإِنّ ثَوَابَ اللّهِ لِلطّالِبِ الْهُدَى

جِنَانٌ مِنْ الْفِرْدَوْسِ ذَاتِ رَفَارِفِ

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ هَذَا وَاَللّٰهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ .
الْهِجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ
وَأَذِنَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ . فَبَادَرُوا إِلَيْهَا . وَأَوّلُ مَنْ خَرَجَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ ، وَزَوْجَتُهُ أُمّ سَلَمَةَ . وَلَكِنّهَا حُبِسَتْ عَنْهُ سَنَةً وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا . ثُمّ خَرَجَتْ بَعْدُ هِيَ وَوَلَدُهَا إِلَى الْمَدِينَةِ .

ثُمّ خَرَجُوا أَرْسَالًا ، يَتّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بِمَكّةَ أَحَدٌ إِلّا رَسُولُ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَلِيّ - أَقَامَا بِأَمْرِ رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَهُمَا - وَإِلّا مَنْ احْتَبَسَهُ الْمُشْرِكُونَ كُرْهًا .

وَأَعَدّ رَسُولُ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَهَازَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ بِالْخُرُوجِ . وَأَعَدّ أَبُو بَكْرٍ جَهَازَهُ .
تَآمُرُ قُرَيْشٍ بِدَارِ النّدْوَةِ عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللّٰهِ
فَلَمّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ تَجَهّزُوا وَخَرَجُوا بِأَهْلِيهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ : عَرَفُوا أَنّ الدّارَ دَارُ مَنَعَةٍ وَأَنّ الْقَوْمَ أَهْلُ حَلْقَةٍ وَبَأْسٍ فَخَافُوا خُرُوجَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ، فَيَشْتَدّ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ . فَاجْتَمَعُوا فِي دَارِ النّدْوَةِ . وَحَضَرَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ .
فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَشَارَ كُلّ مِنْهُمْ بِرَأْيٍ وَالشّيْخُ يَرُدّهُ وَلَا يَرْضَاهُ إِلَى أَنْ قَالَ أَبُو جَهْلٍ قَدْ فُرِقَ لِي فِيهِ بِرَأْيٍ مَا أَرَاكُمْ وَقَعْتُمْ عَلَيْهِ قَالُوا : مَا هُوَ ؟ قَالَ أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلّ قَبِيلَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ غُلَامًا جَلْدًا . ثُمّ نُعْطِيهِ سَيْفًا صَارِمًا ، ثُمّ يَضْرِبُونَهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَتَفَرّقُ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ . فَلَا تَدْرِي بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ بَعْدَ ذَلِكَ مَا تَصْنَعُ وَلَا يُمْكِنُهَا مُعَادَاةُ الْقَبَائِلِ كُلّهَا ، وَنَسُوقُ دِيَتَهُ .
فَقَالَ الشّيْخُ لِلّهِ دَرّ هَذَا الْفَتَى . هَذَا وَاَللّٰهِ الرّأْيُ . فَتَفَرّقُوا عَلَى ذَلِكَ .

فَجَاءَ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِذَلِكَ . وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَنَامَ فِي مَضْجَعِهِ تِلْكَ اللّيْلَةَ .

<85> وَجَاءَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى أَبِي بَكْرٍ نِصْفَ النّهَارِ - فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِيهِ فِيهَا - مُتَقَنّعًا ، فَقَالَ " أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَك " فَقَالَ إنّمَا هُمْ أَهْلُك يَا رَسُولَ اللّهِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " إنّ اللّهَ قَدْ أَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ . قَالَ " نَعَمْ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَخُذْ - بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي - إحْدَى رَاحِلَتَيّ هَاتَيْنِ فَقَالَ " بِالثّمَنِ

وَأَمَرَ عَلِيّا أَنْ يَبِيتَ تِلْكَ اللّيْلَةَ عَلَى فِرَاشِهِ .

وَاجْتَمَعَ أُولَئِكَ النّفَرُ يَتَطَلّعُونَ مَنْ صَيّرَ الْبَابَ وَيَرْصُدُونَهُ يُرِيدُونَ بَيَاتَهُ وَيَأْتَمِرُونَ أَيّهُمْ يَكُونُ أَشْقَاهَا ؟ فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَيْهِمْ . فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ الْبَطْحَاءِ فَذَرّهَا عَلَى رُءُوسِهِمْ وَهُوَ يَتْلُو (36 : 9) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَأَنْزَلَ اللّهُ (8 : 30) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

وَمَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ . فَخَرَجَا مِنْ خَوْخَةٍ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ لَيْلًا . فَجَاءَ رَجُلٌ فَرَأَى الْقَوْمَ بِبَابِهِ فَقَالَ مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ قَالُوا : مُحَمّدًا . قَالَ خِبْتُمْ وَخَسِرْتُمْ قَدْ وَاَللّهِ مَرّ بِكُمْ وَذَرّ عَلَى رُءُوسِكُمْ التّرَابَ . قَالُوا : وَاَللّهِ مَا أَبْصَرْنَاهُ وَقَامُوا يَنْفُضُونَ التّرَابَ عَنْ رُءُوسِهِمْ .

فَلَمّا أَصْبَحُوا : قَامَ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ الْفِرَاشِ فَسَأَلُوهُ عَنْ مُحَمّدٍ ؟ فَقَالَ لَا عِلْمَ لِي بِهِ [34] . وَمَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو بَكْرٍ إلَى غَارِ ثَوْرٍ ، فَنَسَجَتْ الْعَنْكَبُوتُ عَلَى بَابِهِ [35] .

وَكَانَا قَدْ اسْتَأْجَرَا عَبْدَ اللّهِ بْنَ أُرَيْقِطٍ اللّيْثِيّ وَكَانَ هَادِيًا مَاهِرًا - وَكَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ - وَأَمّنَاهُ عَلَى ذَلِكَ وَسَلّمَا إلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثٍ [36] .

---

[34] () أَخرَجَهُ : أحمد 1/348 مِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاْ .
[35] () أَخرَجَهُ : أحمد 1/348 مِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاْ .
[36] () أَخرَجَهُ : البُخاريّ (بِرَقْمِ : 3905) مِن حديثِ عائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وَجَدّتْ قُرَيْشٌ فِي طَلَبِهِمَا ، وَأَخَذُوا مَعَهُمْ الْقَافَةَ حَتّى انْتَهَوْا إلَى بَابِ الْغَارِ . فَوَقَفُوا عَلَيْهِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللّهِ لَوْ أَنّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إلَى مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا . فَقَالَ " مَا ظَنّك بِاثْنَيْنِ اللّهُ ثَالِثُهُمَا ؟ لَا تَحْزَنْ إنّ اللّهَ مَعَنَا [37]

<86> وَكَانَا يَسْمَعَانِ كَلَامَهُمْ إلّا أَنّ اللّهَ عَمَى عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمَا .

وَعَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ يَرْعَى غَنَمًا لِأَبِي بَكْرٍ وَيَتَسَمّعُ مَا يُقَالُ عَنْهُمَا بِمَكّةَ . ثُمّ يَأْتِيهِمَا بِالْخَبَرِ لَيْلًا . فَإِذَا كَانَ السّحَرُ سَرَحَ مَعَ النّاسِ . [38]

قَالَتْ عَائِشَةُ فَجَهّزْنَاهُمَا أَحَثّ الْجَهَازِ . وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ . فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ . قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا ، فَأَوْكَتْ بِهِ فَمَ الْجِرَابِ وَقَطَعَتْ الْأُخْرَى عِصَامًا لِلْقِرْبَةِ . فَبِذَلِكَ لُقّبَتْ " ذَاتَ النّطَاقَيْنِ " .

وَمَكَثَا فِي الْغَارِ ثَلَاثًا . حَتّى خَمَدَتْ نَارُ الطّلَبِ . فَجَاءَهُمَا ابْنُ أُرَيْقِطٍ بِالرّاحِلَتَيْنِ فَارْتَحَلَا ، . وَأَرْدَفَ أَبُو بَكْرٍ عَامِرَ بْنَ فُهَيْرَةَ .

قِصّةُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ

فَلَمّا آيَسَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمَا جَعَلُوا لِمَنْ جَاءَ فِيهَا دِيَةَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، لِمَنْ يَأْتِي بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا . فَجَدّ النّاسُ فِي الطّلَبِ . وَاَللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

فَلَمّا مَرّوا بِحَيّ مِنْ مُدْلِجٍ مُصْعِدِينَ مِنْ قُدَيْدٍ . بَصُرَ بِهِمْ رَجُلٌ فَوَقَفَ عَلَى الْحَيّ . فَقَالَ لَقَدْ رَأَيْت آنِفًا بِالسّاحِلِ أَسْوِدَةً مَا أَرَاهَا إلّا مُحَمّدًا وَأَصْحَابَهُ .

فَفَطِنَ بِالْأَمْرِ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ ، فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ الظّفَرُ لَهُ . وَشَدّ سَبَقَ لَهُ مِنْ الظّفَرِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ . فَقَالَ بَلْ هُمَا فُلَانٌ وَفُلَانٌ خَرَجَا فِي طَلَبِ حَاجَةٍ لَهُمَا . ثُمّ مَكَثَ قَلِيلًا . ثُمّ قَامَ فَدَخَلَ خِبَاءَهُ وَقَالَ لِجَارِيَتِهِ أُخْرُجِي بِالْفَرَسِ مِنْ وَرَاءِ الْخِبَاءِ وَمَوْعِدُك وَرَاءَ الْأَكَمَةِ . ثُمّ أَخَذَ رُمْحَهُ وَخَفّضَ عَالِيَهُ يَخُطّ بِهِ الْأَرْضَ حَتّى

---

[37] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3653 وغيره) ومُسلم (بِرَقْمِ : 2381) مِن حديثِ أَبِي بَكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه .

[38] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3905 و4093 وغيرُه) مِن حديثِ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

رَكِبَ فَرَسَهُ . فَلَمّا قَرُبَ مِنْهُمْ وَسَمِعَ قِرَاءَةَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا يَلْتَفِتُ - قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ قَدْ رَهِقَنَا . فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَسَاخَتْ يَدَا فَرَسِهِ فِي الْأَرْضِ .

فَقَالَ قَدْ عَلِمْت أَنّ الّذِي أَصَابَنِي بِدُعَائِكُمَا . فَادْعُوا اللّهَ لِي ، وَلَكُمَا أَنْ أَرُدّ النّاسَ عَنْكُمَا ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَخَلَصَتْ يَدَا فَرَسِهِ . فَانْطَلَقَ . وَسَأَلَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا ، فَكَتَبَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ بِأَمْرِهِ فِي أَدِيمٍ . وَكَانَ الْكِتَابُ مَعَهُ إلَى يَوْمِ فَتْحِ مَكّةَ . فَجَاءَ بِهِ فَوَفَى لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [39] .
فَرَجَعَ . فَوَجَدَ النّاسَ فِي الطّلَبِ فَجَعَلَ يَقُولُ قَدْ اسْتَبْرَأْت لَكُمْ الْخَبَرَ ، وَقَدْ <87> كَفَيْتُمْ مَا هَهُنَا . فَكَانَ أَوّلُ النّهَارِ جَاهِدًا عَلَيْهِمَا . وَكَانَ آخِرُهُ حَارِسًا لَهُمَا .

قِصّةُ أُمّ مَعْبَدٍ [40]

ثُمّ مَرّوا بِخَيْمَةِ أُمّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيّةِ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً بَرْزَةً جَلْدَةً تَحْتَبِي بِفِنَاءِ الْخَيْمَةِ ثُمّ تُطْعِمُ وَتَسْقِي مَنْ مَرّ بِهَا ، يَسْأَلُاهَا : هَلْ عِنْدَهَا شَيْءٌ يَشْتَرُونَهُ ؟ فَقَالَتْ وَاَللّهِ لَوْ عِنْدَنَا شَيْءٌ مَا أَعْوَزَكُمْ الْقِرَى . وَالشّاءُ عَازِبٌ - وَكَانَتْ سَنَةً شَهْبَاءَ - فَنَظَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى شَاةٍ فِي كِسْرِ الْخَيْمَةِ فَقَالَ " مَا هَذِهِ الشّاةُ ؟ " قَالَتْ خَلّفَهَا الْجَهْدُ عَنْ الْغَنَمِ . فَقَالَ " هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ " قَالَتْ هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ " أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلُبَهَا ؟ " قَالَتْ نَعَمْ - بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي - إنْ رَأَيْت بِهَا حَلِيبًا فَاحْلُبْهَا .

فَمَسَحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا ، وَسَمّى اللّهَ وَدَعَا ، فَتَفَاجّتْ عَلَيْهِ وَدَرّتْ . فَدَعَا بِإِنَاءٍ لَهَا يَرْبِضُ الرّهْطَ فَحَلَبَ فِيهِ حَتّى عَلَتْهُ الرّغْوَةُ فَسَقَاهَا فَشَرِبَتْ حَتّى رَوِيَتْ وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتّى رَوَوْا . ثُمّ شَرِبَ هُوَ . وَحَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا فَمَلَأَ الْإِنَاءَ . ثُمّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا وَارْتَحَلُوا .

---

[39] () أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 3906) وأحمد 4/175-176 وابنُ خِبَّان (بِرَقْمِ : 6280) مِن حديثِ مَالك المدلجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه .

[40] () أَخرَجَها : الحاكِمُ 3/9-10 مِن حديثِ هِشام بن حبيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَقَلّ مَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ هُـزَالًا . فَلَمّا رَأَى اللّبَنَ قَالَ مِنْ أَيْنَ هَذَا ؟ وَالشّاءُ عَازِبٌ . وَلَا حَلُوبَةَ فِـي الْبَيْتِ .

قَالَتْ لَا وَاَللّهِ إلّا أَنّهُ مَرّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ وَمِنْ حَـدِيثِهِ كَيْـت وَكَيْـت قَالَ وَاَللّهِ إنّي لَأَرَاهُ صَاحِبَ قُرَيْشٍ الّذِي تَطْلُبُهُ . صِفِيهِ لِـي يَـا أُمّ مَعْبَدٍ .

قَالَتْ ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ أَبْلَجُ الْوَجْهِ حَسَنُ الْخُلُقِ لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَـةً وَلَـمْ تَزِرْ بِهِ صَعْلَةً وَسِيمٌ قَسِيمٌ فِي عَيْنَيْـهِ دَعَـجٌ وَفِـي أَشْـفَارِهِ وَطَـفٌ وَفِي صُورَتِهِ صَحَلٌ وَفِي عُنُقِـهِ سَـطَعٌ . وَفِـي لِحْيَتِـهِ كَثَاثَـةٌ أَحْـوَرُ أَكْحَلُ أَزَجّ أَقْرَنُ شَدِيدُ سَوَادِ الشّـعْرِ إذَا صَـمَتَ عَلَاهُ الْوَقَـارُ وَإِذَا تَكَلّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ أَجْمَلُ النّـاسِ وَأَبْهَـاهُ مِـنْ بَعِيـدٍ وَأَحْسَـنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ . حُلْوُ الْمَنْطِقِ . لَا نَـذْرٌ وَلَا هَـذْرٌ كَـأَنّ مَنْطِقَـهُ خَـرَزَاتُ نَظْمٍ يَتّحِدُونَ رَبْعَةٌ لَا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ وَلَا تَشْنَؤُهُ مِنْ طُـولٍ . غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا . لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفّـونَ بِـهِ . إذَا قَـالَ <88> اسْـتَمَعُوا لِقَـوْلِهِ . وَاذَا أَمَـرَ تَبَادَرُوا إلَى أَمْرِهِ مَحْفُودٌ مَحْشُودٌ . لَا عَابِسٌ وَلَا مُفْنِدٌ .

قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ هَذَا - وَاَللّهِ صَـاحِبُ - قُرَيْـشٍ الّـذِي تَطْلُبُـهُ . وَلَقَـدْ هَمَمْت أَنْ أَصْحَبَهُ وَلَأَفْعَلَن ، إنْ وَجَدْت إلَى ذَلِـكَ سَـبِيلًا . وَأَصْـبَحَ صَوْتٌ عَالٍ بِمَكّةَ يَسْمَعُونَهُ وَلَا يَرَوْنَ الْقَائِلَ يَقُولُ

جَزَى اللّهُ رَبّ النّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ

رَفِيقَيْنِ حَلّا خَيْمَتَيْ أُمّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلَا بِالْبَرّ وَارْتَحَلَا بِهِ

فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمّدِ

فَيَا لَقُصَيّ مَا زَوَى اللّهُ عَنْكُمُو

بِهِ مِنْ فَخَارٍ . لَا يُحَاذَى وَسُؤْدُدِ

وَقَدْ غَادَرْت وَهْنًا لَدَيْهَا بِحَالِبٍ

يَرُدّ بِهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمّ مَوْرِدِ

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا

فَإِنّكُمُوا إنْ تَسْأَلُوا الشّاةَ تَشْهَدْ

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلّبَتْ

لَهُ بِصَرِيحِ ضَرّةِ الشّاةِ مَزِيدِ

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيّهُمْ

وَقُدّسَ مَنْ يَسْرِي إلَيْهِ وَيَغْتَدِي

تَرَحّلَ عَنْ قَوْمٍ . فَزَالَتْ عُقُولُهُمْ

وَحَلّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدّدِ

هَدَاهُمْ بِهِ - بَعْدَ الضّلَالَةِ - رَبّهُمْ

وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتّبِعُ الْحَقّ يُرْشَدْ

وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبَ

رِكَابُ هُدًى ، حَلّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعَدِ

نَبِيّ يَرَى مَا لَا يَرَى النّاسُ حَوْلَهُ

وَيَتْلُو كِتَابَ اللّهِ فِي كُلّ مَشْهَدِ

وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ

فَتَصْدِيقُهَا فِي ضَحْوَةِ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ

لِيَهْنَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدّهِ

بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدْ اللّهُ يَسْعَدْ

وَيَهْنَ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ

وَيُقْعِدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ . مَكَثْنَا ثَلَاثَ لَيَالٍ لَا نَدْرِي : أَيْنَ تَوَجّهَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ إذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ الْجِنّ مِنْ أَسْفَلِ مَكّةَ يَتَغَنّى بِأَبْيَاتِ غِنَاءِ الْعَرَبِ ، وَالنّاسُ يَتّبِعُونَهُ وَيَسْمَعُونَ مِنْهُ وَلَا يَرَوْنَهُ حَتّى خَرَجَ مِنْ أَعْلَى مَكّةَ فَعَرَفْنَا أَيْنَ تَوَجّهَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

قَالَتْ وَلَمّا خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ احْتَمَلَ مَعَهُ مَالَهُ . فَدَخَلَ عَلَيْنَا جَدّي أَبُو قُحَافَةَ - وَقَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ - فَقَالَ إنّي وَاَللّهِ لَأَرَاهُ قَدْ فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مَعَ نَفْسِهِ . قُلْت : كَلّا <89> وَاَللّهِ قَدْ تَرَكَ لَنَا خَيْرًا .

وَأَخَذَتْ حِجَارَةً فَوَضَعَتْهَا فِي كُوّةِ الْبَيْتِ . وَقُلْت : ضَعْ يَدَك عَلَى الْمَالِ . فَوَضَعَهَا ، وَقَالَ لَا بَأْسَ . إنْ كَانَ قَدْ تَرَكَ لَكُمْ هَذَا فَقَدْ أَحْسَنَ قَالَتْ وَاَللّهِ مَا تَرَكَ لَنَا شَيْئًا وَإِنّمَا أَرَدْت أَنْ أَسْكِتْ الشّيْخَ .[41]

دُخُولُ رَسُولِ اللّهِ الْمَدِينَةَ

وَلَمّا بَلَغَ الْأَنْصَارُ مَخْرَجَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ مَكّةَ . كَانُوا يَخْرُجُونَ كُلّ يَوْمٍ إلَى الْحَرّةِ يَنْتَظِرُونَهُ . فَإِذَا اشْتَدّ حَرّ الشّمْسِ رَجَعُوا إلَى مَنَازِلِهِمْ . فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ ثَانِيَ عَشَرَ رَبِيعَ الْأَوّلِ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ نُبُوّتِهِ . فَخَرَجُوا عَلَى عَادَتِهِمْ . فَلَمّا حَمِيَتْ الشّمْسُ رَجَعُوا ، فَصَعِدَ رَجُلٌ مِنْ الْيَهُودِ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ . فَرَأَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَصْحَابَهُ مُبَيّضِينَ يَزُولُ بِهِمْ السّرَابَ . فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا بَنِي قَيْلَةَ هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ جَاءَ هَذَا جَدّكُمْ الّذِي تَنْتَظِرُونَهُ . فَثَارَ الْأَنْصَارُ إلَى السّلَامِ لِيَتَلَقّوْا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

وَسَمِعْت الْوَجْبَةَ وَالتّكْبِيرَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ . وَكَبّرَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحًا بِقُدُومِهِ . وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ فَتَلَقّوْهُ وَحَيّوْهُ بِتَحِيّةِ النّبُوّةِ . وَأَحْدَقُوا بِهِ مَطِيفِينَ حَوْلَهُ .

فَلَمّا أَتَى الْمَدِينَةَ ، عَدَلَ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتّى نَزَلَ بِقُبَاءٍ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَنَزَلَ عَلَى كُلْثُومِ بْنِ الْهَدْمِ - أَوْ عَلَى سَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ - فَأَقَامَ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً . وَأَسّسَ مَسْجِدَ قُبَاءَ . وَهُوَ أَوّلُ مَسْجِدٍ أُسّسَ بَعْدَ النّبُوّةِ .

فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ رَكِبَ . فَأَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ . فَجَمَعَ بِهِمْ فِي الْمَسْجِدِ الّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي . ثُمّ رَكِبَ . فَأَخَذُوا بِخِطَامِ رَاحِلَتِهِ يَقُولُونَ . هَلُمّ إلَى الْقُوّةِ وَالْمَنَعَةِ وَالسّلَاحِ . فَيَقُولُ خَلّوا سَبِيلَهَا ، فَإِنّهَا مَأْمُورَةٌ فَلَمْ تَزَلْ نَاقَتُهُ سَائِرَةً لَا يَمُرّ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ ، إلّا رَغِبُوا إلَيْهِ فِي النّزُولِ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ دَعُوهَا فَإِنّهَا مَأْمُورَة فَسَارَتْ حَتّى وَصَلَتْ إلَى مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ الْيَوْمَ فَبَرَكَتْ وَلَمْ يَنْزِلْ عَنْهَا ، حَتّى نَهَضَتْ

---

[41]() أَخرَجَهُ : أحمد 6/350 والطَّبرانِي 24/88 مِن حديثِ أَسماءٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .

وَسَارَتْ قَلِيلًا . ثُمّ رَجَعَتْ وَبَرَكَتْ فِي مَوْضِعِهَا الْأَوّلِ . فَنَزَلَ عَنْهَا .

وَذَلِكَ فِي بَنِي النّجّارِ ، أَخْوَالُهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [42] .

<90> وَكَانَ مِنْ تَوْفِيقِ اللّهِ لَهَا . فَإِنّهُ أَحَبّ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى أَخْوَالِهِ يُكْرِمَهُمْ . فَجَعَلَ النّاسُ يُكَلّمُونَهُ فِي النّزُولِ عَلَيْهِمْ .

وَبَادَرَ أَبُو أَيّوبَ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ إلَى رَحْلِهِ فَأَدْخَلَهُ بَيْتَهُ . فَجَعَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِه وَجَاءَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ . فَكَانَتْ عِنْدَهُ [43] .

وَأَصْبَحَ كَمَا قَالَ قَيْسُ بْنُ صِرْمَةَ - وَكَانَ ابْنُ عَبّاسٍ يَخْتَلِفُ إلَيْهِ لِيَحْفَظَهَا عَنْهُ .

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حُجّةً ... يُذَكّرُ لَوْ يَلْقَى حَبِيبًا مُوَاتِيًا

وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يُرَ مَنْ يُؤْوَى وَلَمْ يُرَ دَاعِيًا

فَلَمّا أَتَانَا وَاسْتَقَرّ بِهِ وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيْبَةِ النّوَى ... رَاضِيًا

وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى ظِلَامَةَ بَعِيدٍ وَلَا يَخْشَى مِنْ النّاسِ ظَالِمٍ ... بَاغِيًا

بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلّ وَأَنْفُسِنَا عِنْدَ الْوَغَى مَالِنَا ... وَالتّآسِيَا

نُعَادِي الّذِي عَادَى مِنْ جَمِيعًا . وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ النّاسِ كُلّهِمْ ... الْمُصَافِيَا

وَنَعْلَمُ أَنّ اللّهَ لَا رَبّ غَيْرَهُ ... وَأَنّ كِتَابَ اللّهِ أَصْبَحَ هَادِيًا

وَكَمَا قَالَ حَسّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

قَوْمِي الّذِينَ هَمّوا وَصَدّقُوهُ ... وَأَهْلُ الْأَرْضِ كُفّارُ آوَوْا نَبِيّهُمُو

---

[42] () أخرَجَ البُخاريّ (بِرَقْم : 3096) نَحوهُ .

[43] () راجِعْ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3911) ومُسلِم 3/1623 وسِيرَة ابـن كَـثيرٍ 1/279-280 .

إِلّا خَصَـائِصُ أَقْـوَامٍ فِـي الصّـالِحِينَ مَـعَ الْأَنْصَارِ أَنْصَارٌ
هُمُو تَبَعٌ

مُسْتَبْشِـرِينَ بِقَسْـمِ اللّهِ . قَوْلُهُمُو لَمّا أَتَاهُمْ كَرِيمُ الْأَصْـلِ مُخْتَارٌ

أَهْلًا وَسَـهْلًا . فَفِـي أَمْنٍ وَفِي سَعَةٍ نِعْـمَ النّبِـيّ . وَنِعْـمَ الْقَسْمُ وَالْجَارُ

فَأَنْزَلُوهُ بِدَارٍ لَا يَخَـافُ بِهَا مَنْ كَانَ جَـارَهُمُو . دَارٌ هِيَ الدّارُ

وَقَاسَمُوهُ بِهَا الْأَمْوَالَ إِذْ قَدِمُوا مُهَـاجِرِينَ . وَقَسْـمُ الْجَاحِدِ النّارُ

وَكَمَا قَالَ

نَصَرْنَا وَآوَيْنَـا النّبِـيّ مُحَمّدًا عَلَى أُنُـفٍ رَاضٍ مِـنْ مَعَدّ وَرَاغِمِ

قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : كَانَ النّبِيّ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بِمَكّـةَ فَـأُمِرَ بِالْهِجْرَةِ . وَأَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ (17 : 80) وَقُلْ رَبّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَالنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَعْلَمُ أَنْ لَا طَاقَـةَ لَـهُ بِهَـذَا الْأَمْـرِ إلّا بِسُلْطَانٍ . فَسَأَلَ اللّهَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ، فَأَعْطَاهُ [44] . قَالَ الْبَرَاءُ . : أَوّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا : مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَابْنُ أُمّ مَكْتُـومٍ ، فَجَعَلَا يَقْرَآنِ النّاسَ الْقُرْآنَ . ثُمّ جَاءَ عَمّارُ بْـنُ يَاسِـرٍ ، وَبِلَالٌ وَسَـعْدٌ ثُـمّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ <91> فِي عِشْرِينَ رَاكِبًا . ثُمّ جَاءَ رَسُـولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . فَمَـا رَأَيْـتُ النّـاسَ فَرِحُـوا بِشَـيْءٍ فَرَحُهُمْ بِهِ حَتّى جَعَلَ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ وَالْإِمَاءُ يَقُلْنَ قَـدِمَ رَسُـولُ اللّهِ جَاءَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ [45] .

قَالَ أَنَسٌ شَهِدْتُه يَوْمَ دَخَلَ الْمَدِينَـةَ ، فَمَـا رَأَيْـتُ يَوْمًـا قَـطّ كَـانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ الْيَوْمِ الّـذِي دَخَـلَ الْمَدِينَـةَ عَلَيْنَـا . وَشَـهِدْتُه

---

[44] () أَخرَجَهُ : الترمذي (بِرَقْمِ : 3139) والحاكم 3/3 من حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

[45] () أَخرَجَهُ : اللبُخاري (بِرَقْمِ : 3925 و 4941) مِن حديثِ البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

يَوْمَ مَاتَ . فَمَا رَأَيْت يَوْمًا قَطّ كَانَ أَقْبَحَ وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَـوْمِ مَـاتَ .[46]

فَأَقَامَ فِي بَيْتِ أَبِي أَيّوبَ حَتّى بَنَى حَجَرَهُ وَمَسْجِدَهُ .
وَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ - وَهُـوَ فِـي مَنْـزِلِ أَبِـي أَيّوبَ - زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَأَبَا رَافِعٍ . وَأَعْطَاهُمَـا بَعِيرَيْـنِ وَخَمْسَـمِائَةِ دِرْهَمٍ إلَى مَكّةَ ، فَقَدِمَا عَلَيْهِ بِفَاطِمَةَ وَأُمّ كُلْثُومٍ ابْنَتَيْهِ . وَسَـوْدَةَ بِنْتِ زَمَعَةَ زَوْجِهِ وَأُسَامَةَ بْـنِ زَيْـدٍ ، وَأُمّ أَيْمَـنَ . وَأَمّـا زَيْنَـبُ فَلَـمْ يُمَكّنْهَا زَوْجُهَا أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرّبِيعِ مِنْ الْخُـرُوجِ وَخَـرَجَ عَبْـدُ اللّـهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بِعِيَالِ أَبِـي بَكْـرٍ . وَفِيهِـم عَائِشَـةُ [فَنَزَلُـوا فِـي بَيـتِ حارِثَةَ بنِ النّعمانَ] .
بِنَاءُ الْمَسْجِدِ
قَالَ الزّهْرِيّ : بَرَكَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْـدَ مَوْضِعِ مَسْجِدِهِ وَكَانَ مُرِيدًا لِسَـهْلٍ وَسُـهَيْلٍ غُلَامَيْـنِ يَتِيمَيْـنِ مِـنْ الْأَنْصَارِ ، كَانَا فِي حِجْـرِ أَسْـعَدَ بْـنِ زُرَارَةَ . فَسَـاوَمَ رَسُـولَ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْغُلَامَيْنِ بِالْمِرْبَـدِ لِيَتّخِـذَهُ مَسْـجِدًا فَقَـالَا : بَلْ نَهَبُهُ لَك يَا رَسُـولَ اللّـهِ . فَـأَبَى رَسُـولُ اللّـهِ فَاشْـتَرَاهُ مِنْهُمَـا بِعَشَرَةِ دَنَانِيرَ .
وَفِي الصّحِيحِ أَنّهُ قَالَ يَا بَنِي النّجّارِ ، ثَامِنُونِي بِحَـائِطِكُمْ . قَـالُوا : لَا ، وَاَللّهِ لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إلّا إلَى اللّهِ وَكَانَ فِيهِ شَجَرٌ غَرْقَدُ وَنَخْلٌ ، وَقُبُورٌ لِلْمُشْـرِكِينَ . فَـأَمَرَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بِـالْقُبُورِ فَنُبِشَـتْ وَبِالنّخِيـلِ وَالشّـجَرِ فَقُطِـعَ . وَصُـفّتْ فِـي قِبْلَـةِ الْمَسْجِدِ . وَجُعِلَ طُولُهُ مِمّا يَلِي الْقِبْلَةَ إلَـى مُـؤَخّرَةِ مِائَـةِ ذِرَاعٍ . وَفِي الْجَانِبَيْنِ مِثْلُ ذَلِكَ أَوْ دُونَهُ . وَأَسَاسُهُ قَرِيبًا مِـنْ ثَلَاثَـةِ أَذْرُعٍ . ثُمّ بَنَوْهُ بِاللّبَنِ . وَجَعَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ يَبْنِـي مَعَهُمْ وَيَنْقُلُ اللّبَنَ وَالْحِجَارَةَ بِنَفْسِهِ وَيَقُولُ

اللّهُـمّ إنّ الْعَيْـشَ فَـاغْفِرْ لِلْأَنْصَـارِ
عَيْشُ الْآخِرَةِ وَالْمُهَاجِرَةِ [47]

---

[46]() أَخرَجَهُ : أحمَد 3/122 والدَّارِمي (بِرَقْمِ : 89) مِن حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[47]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 428) ومُسلِم (بِرَقْـمِ : 9524) مِـن حـديثِ أنَـسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

وَكَانَ يَقُولُ

هَذَا الْحَمّالُ لَا حَمّالُ خَيْبَرَ هَذَا أَبَرّ رَبّنَا وَأَطْهَرُ

<92> وَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ فِي رَجَزِهِ

وَلَئِنْ قَعَدْنَا لِذَاكَ مِنّا الْعَمَلَ الْمُضَلّلَ وَالرّسُولُ يَعْمَلُ

وَجَعَلَ قِبْلَتَهُ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ . وَجَعَلَ لَهُ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ بَابٌ فِي مُؤَخّرَةٍ وَبَابٌ يُقَالُ لَهُ بَابُ الرّحْمَةِ . وَالْبَابُ الّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَجَعَلَ عُمُدَهُ الْجُذُوعَ . وَسُقُفَهُ الْجَرِيدَ . وَقِيلَ لَهُ أَلَا تُسْقِفُهُ ؟ قَالَ " عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى " وَبَنَى بُيُوتَ نِسَائِهِ إلَى جَانِبَيْهِ . بُيُوتُ الْحُجَرِ بِاللّبِنِ وَسُقُفُهَا بِالْجُذُوعِ وَالْجَرِيدِ .

بِنَاؤُهُ بِعَائِشَةَ

فَلَمّا فَرَغَ مِنْ الْبِنَاء بَنَى بِعَائِشَةَ فِي الْبَيْتِ الّذِي بَنَاهُ لَهَا شَرْقِيّ الْمَسْجِدِ . وَكَانَ بِنَاؤُهُ بِهَا فِي شَوّالٍ مِنْ السّنَةِ الْأُولَى ، وَكَانَ بَعْضُ النّاسِ . يَكْرَهُ الْبِنَاءَ فِي شَوّالٍ . قِيلَ إنّ أَصْلَهُ أَنّ طَاعُونًا وَقَعَ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَتَحَرّى أَنْ تَدْخُلَ نِسَاءَهَا فِي شَوّالٍ وَتُخَالِفُهُمْ . وَجَعَلَ لِسَوْدَةِ بَيْتًا آخَرَ .

الْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ

ثُمّ آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَكَانُوا تِسْعِينَ رَجُلًا . نِصْفُهُمْ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ ، وَنِصْفُهُمْ مِنْ الْأَنْصَارِ ، آخَى بَيْنَهُمْ عَلَى الْمُوَاسَاةِ وَعَلَى أَنْ يَتَوَارَثُوا بَعْدَ الْمَوْتِ دُونَ ذَوِي الْأَرْحَامِ . إلَى وَقْعَةِ بَدْرٍ . فَلَمّا أَنْزَلَ اللّهُ (8 ـ 75) ـ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ . وَالتّوَارُثُ إلَى الْأَرْحَامِ [دُونَ عَقْدِ الْأُخُوّةِ] [48] .

وَقِيلَ إنّهُ آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ مُؤَاخَاةً ثَانِيَةً . وَاتّخَذَ عَلِيّا أَخًا لِنَفْسِهِ وَالْأَثْبَتُ الْأَوّلُ .

---

[48] () أَخْرَجَهُ : الْبُخَارِي (بِرَقْمِ : 2292 و 4580 و 6747) مِن حَدِيثِ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .

وَفِي الصّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ " قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ وَهِيَ وَبِيئَةٌ . فَمَرِضَ أَبُو بَكْرٍ . وَكَانَ يَقُولُ إذَا أَخَذَتْهُ الْحُمّى .

كُلّ امْرِئٍ مُصَبّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وَكَانَ بِلَالٌ إذَا أَقْلَعَتْ عَنْهُ الْحُمّى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ وَيَقُولُ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي . هَلْ أَبِيتَن لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إذْخِرٌ وَجَلِيلُ ؟

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنّةٍ ؟ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ ؟

<93> اللّهُمّ الْعَنْ ابْنَ رَبِيعَةَ ، وَأُمَيّةَ بْنَ خَلَفٍ ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ . كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ .

فَأَخْبَرْت رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ اللّهُمّ حَبّبْ إلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبّنَا مَكّةَ أَوْ أَشَدّ . اللّهُمّ صَحّحْهَا . وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدّهَا وَانْقُلْ جَمّاهَا إلَى الْجُحْفَةِ . قَالَتْ فَكَانَ الْمَوْلُودُ يُولَدُ فِي الْجُحْفَةِ . فَلَا يَبْلُغُ الْحُلُمَ حَتّى تَصْرَعُهُ الْحُمّى " [49] .

حَوَادِثُ السّنَةِ الْأُولَى

وَفِي السّنَةِ الْأُولَى : زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ رَكْعَتَيْنِ . فَصَارَتْ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ .

وَفِيهَا : نَزَلَ أَهْلُ الصّفّةِ الْمَسْجِدَ . وَكَانَتْ مَكَانًا فِي الْمَسْجِدِ يَنْزِلُ فِيهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الّذِي لَا أَهْلَ لَهُمْ وَلَا مَالَ . وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُفَرّقُهُمْ فِي أَصْحَابِهِ إذَا جَاءَ اللّيْلُ وَيَتَعَشّى طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَهُ حَتّى جَاءَ اللّهُ بِالْغِنَى .

وَهَذِهِ السّنَةُ الرّابِعَةَ عَشَرَ مِنْ النّبُوّةِ هِيَ الْأُولَى مِنْ الْهِجْرَةِ كَمَا تَقَدّمَ . وَمِنْهَا أُرّخَ التّارِيخُ .

وَتُوُفّيَ فِيهَا مِنْ الْأَعْيَانِ : أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ قَبْلَ أَنْ يَفْرُغَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ . وَتُوُفّيَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ فِي صَفَرٍ قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ . وَهُوَ أَوّلُ مَنْ مَاتَ مِنْ النّقَبَاءِ . وَفِيهَا : تُوُفّيَ ضَمْرَةُ بْنُ

---

[49] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 1889) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1376) مِن حديثِ عائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا .

جُنْدُبٍ . وَكَانَ قَـدْ مَـرِضَ بِمَكّـةَ . فَقَـالَ لَبَنِيـهِ اُخْرُجُـوا بِـي مِنْهَـا فَخَرَجُوا بِهِ يُرِيدُ الْهِجْرَةَ . فَلَمّا بَلَغَ أَضَاةَ بَنِي عَقَـارٍ - أَوْ التّنْعِيـمَ - مَاتَ . فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (4 : 100) وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَـدْ وَقَـعَ أَجْـرُهُ عَلَـى اللّـهِ - الْآيَةَ .

وَكُلْثُومُ بْنُ الْهَدْمِ الّذِي نَزَلَ عَلَيْـهِ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ .

وَفِيهَا : وَادَعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِـنْ الْمَدِينَـةِ مِـنْ الْيَهُودِ .

وَكَتَبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كِتَابًا .

إسْلَامُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلّامٍ

وَبَادَرَ عَالِمُ الْيَهُودِ وَحَبْرُهُمْ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَلّامٍ فَأَسْـلَمَ [50] . وَأَبَـى عَامّتُهُمْ إلّا الْكُفْرَ وَكَـانُوا ثَلَاثَ قَبَائِـلَ قَيْنُقَـاعُ وَالنّضِـيرُ وَقُرَيْظَـةُ . فَنَقَضَ الثّلَاثُ الْعَهْدَ . وَحَارَبَهُمْ .

<94> فَمَنّ عَلَى بَنِي قَيْنُقَاعَ وَأَجْلَـى بَنِـي النّضِـيرِ . وَقَتَـلَ بَنِـي قُرَيْظَةَ . وَنَزَلَتْ سُورَةُ الْحَشْرِ فِي بَنِي النّضِيرِ وَسُـورَةُ الْأَحْـزَابِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ .

حَوَادِثُ السّنَةِ الثّانِيَةِ

وَفِي السّنَةِ الثّانِيَةِ رَأَى عَبْدُ اللّهِ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبّهِ الْأَذَانَ فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى بِلَالٍ .

وَفِيهَـا : فُـرِضَ صَـوْمُ رَمَضَـانَ . وَنُسِـخَ صَـوْمُ عَاشُـورَاءَ . وَبَقِـيَ صَوْمُهُ مُسْتَحَبّا .

وَفِيهَا : زَوّجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلِيّا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا .

وَفِيهَا : صَرَفَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ الْقِبْلَةَ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إلَى الْكَعْبَـةِ .

تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ

وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ اسْـتَقْبَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ سِتّةَ عَشَـرَ شَـهْرًا ، قَبْـلَ الْيَهُـودِ . وَكَـانَ يُحِـبّ أَنْ يَصْرِفَهُ اللّهُ إلَى الْكَعْبَةِ . وَقَالَ لِجِبْرِيلَ ذَلِكَ . فَقَالَ إنّمَا أَنَا عَبْـدٌ .

---

[50] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3911) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَادْعُ رَبّك وَاسْأَلْهُ . فَجَعَلَ يُقَلّبُ وَجْهَـهُ فِـي السّـمَاءِ يَرْجُـو ذَلِـكَ حَتّى أَنزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ (2 : 144 - 155) قَدْ نَرَى تَقَلّبَ وَجْهِكَ فِي السّمَاءِ فَلَنُوَلّيَنّكَ قِبْلَةً تَرْضَـاهَا فَـوَلّ وَجْهَـكَ شَـطْرَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ الْآيَاتِ [51] .

وَكَانَ فِي ذَلِكَ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمِحْنَةٌ لِلنّاسِ مُسْلِمُهُمْ وَكَـافِرُهُمْ . فَأَمّا الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا (3 : 6) آمَنّا بِهِ كُلّ مِنْ عِنْدِ رَبّنَا وَهُمْ الّذِينَ هَدَى اللّهُ وَلَمْ تَكُنْ بِكَبِيرَةٍ عَلَيْهِمْ .

وَأَمّا الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا (2 : 142) مَا وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .

وَأَمّا الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا إنْ كَانَتْ الْقِبْلَةُ الْأُولَى حَقّا : فَقَـدْ تَرَكَهَـا . وَإِنْ كَانَتْ الثّانِيَةُ هِيَ الْحَقّ فَقَدْ كَانَ عَلَى بَاطِلٍ .

وَلَمّا كَانَ ذَلِكَ عَظِيمًا وَطّأَ اللّهُ سُبْحَانَهُ قَبْلَهُ أَمْرَ النّسْـخِ وَقُـدْرَتَهُ عَلَيْهِ وَأَنّهُ سُبْحَانَهُ يَأْتِي بِخَيْـرٍ مِـنْ الْمَنْسُـوخِ أَوْ مِثْلِـهِ . ثُـمّ عَقّـبَ ذَلِكَ بِالْمُعَاتَبَةِ لِمَنْ تَعَنّتَ عَلَى رَسُولِهِ وَلَمْ يَنْقَدْ لَهُ .

ثُمّ ذَكَرَ بَعْدَهُ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنّصَارَى ، وَشَهَادَةَ بَعْضِـهِمْ <95> عَلَى بَعْضٍ بِأَنّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ . ثُمّ ذَكَرَ شِرْكَهُمْ بِقَوْلِهِمْ اتّخَذَ اللّهُ وَلَدًا .

ثُمّ أَخْبَرَ أَنّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ لِلّهِ . فَأَيْنَمَا وَلّـى عِبَـادَهُ وُجُـوهَهُمْ فَثَمّ وَجْهُهُ . وَأَخْبَرَ رَسُولَهُ أَنّ أَهْـلَ الْكِتَـابِ لَا يَرْضَـوْنَ عَنْـهُ حَتّـى يَتّبِعَ قِبْلَتَهُمْ .

ثُمّ ذَكَرَ خَلِيلَهُ إبْرَاهِيمَ وَبِنَاءَهُ الْبَيْتَ بِمُعَاوَنَةِ ابْنِهِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السّلَامُ وَأَنّهُ جَعَلَ إبْرَاهِيمَ إمَامًا لِلنّاسِ وَأَنّهُ لَا يَرْغَبُ عَنْ مِلّتِـهِ إلّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ .

ثُمّ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَأْتَمّوا بِهِ وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ إلَى رَسُولِهِ مُحَمّدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ وَإِلَى سَائِرِ النّبِيّينَ .

وَأَخْبَرَ أَنّ اللّهَ - الّذِي يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ - هُـوَ الّذِي هَدَاهُمْ إلَى هَذِهِ الْقِبْلَةِ الّتِي هِيَ أَوْسَطُ الْقِبَلِ وَهُـمْ أَوْسَـطُ الْأُمَمِ كَمَا اخْتَارَ لَهُمْ أَفْضَلَ الرّسُلِ وَأَفْضَلَ الْكُتُبِ .

---

[51] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4488) بِنَحوِهِ مِن حَدِيثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاْ ، ومِن حدِيثِ أنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (بِرَقْـمِ : 4489) ومِـن حـدِيثِ البَـرَاءِ بـن عـازِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (بِرَقْمِ : 4492) ، وانظر (جامعَ الأصولِ) لابنِ الأثيرِ (بِرَقْمِ : 475-476) .

وَأَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ إلَّا الظَّالِمِينَ فَإِنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْحُجَجِ الْبَاطِلَةِ الْوَاهِنَةِ . الَّتِي لَا يَنْبَغِي أَنْ تَعَارَضَ الرُّسُلُ بِأَمْثَالِهَا وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَيَهْدِيَهُمْ .
ثُمَّ ذَكَرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرُّسُولِ الْخَاتَمِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ . وَأَمَرَهُمْ بِذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ وَيَشْكُرُ مَنْ شَكَرَهُ .
وَأَمَرَهُمْ بِمَا لَا يُتِمُّ ذَلِكَ إلَّا بِهِ وَهُوَ الِاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ . وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

فَصْلٌ [الإِذْنُ بِالقِتالِ وَفَرْضُ الجِهادِ]

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَيَّدَهُ اللَّهُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ الْعَدَاوَةِ . وَمَنَعَتْهُ أَنْصَارُ اللَّهِ مِنْ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ وَالْيَهُودُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدٍ وَشَمَّرُوا عَنْ سَاقِ الْعَدَاوَةِ وَالْمُحَارَبَةِ .
وَاَللَّهُ يَأْمُرُ رَسُولَهُ <96> وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْكَفِّ وَالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ حَتَّى قَوِيَتْ الشَّوْكَةُ . فَحِينَئِذٍ أَذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ وَلَمْ يَفْرِضْهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ تَعَالَى (22 : 39) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . وَهِيَ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْقِتَالِ[52] .
ثُمَّ فُرِضَ عَلَيْهِمْ قِتَالُ مَنْ قَاتَلَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى (2 : 190) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ - الْآيَةَ . ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً فَقَالَ (9 : 37) وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً - الْآيَةَ .

بَعْضُ خَصَائِصِ رَسُولِ اللَّهِ

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَايِعُ أَصْحَابَهُ فِي الْحَرْبِ عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا وَرُبَّمَا بَايَعَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ . وَرُبَّمَا بَايَعَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ . وَرُبَّمَا بَايَعَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ .
وَبَايَعَهُمْ عَلَى الْهِجْرَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ .
وَبَايَعَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْتِزَامِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

---

[52] () أَخرَجَهُ : التِّرمِذيّ (بِرَقْمِ : 3171 و3172) والنَّسائِي 6/2 وأحمَد 1/216 وابنُ حِبَّانَ (بِرَقْمِ : 4710) والحاكم 3/7-8 مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِنَحوِهِ .

وَبَايَعَ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَى أَنْ لَا يَسْأَلُوا النّاسَ شَيْئًا. فَكَانَ السّوْطُ يَسْقُطُ مِنْ أَحَدِهِمْ . فَيَنْزِلُ فَيَأْخُذَهُ وَلَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاوِلَهُ إيّاهُ [53] .

وَكَانَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ يَأْتُونَهُ بِخَبَرِ عَدُوّهِ . وَيَطّلِعُ الطّلَائِعَ وَيَبُثّ الْحَرْثَ وَالْعُيُونَ ، حَتّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ عَدُوّهِ شَيْءٌ .

وَكَانَ إذَا لَقَى عَدُوّهُ دَعَا اللّهَ وَاسْتَنْصَرَ بِهِ وَأَكْثَرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ وَالتّضَرّعِ لَهُ .

وَكَانَ كَثِيرُ الْمُشَاوَرَةِ لِأَصْحَابِهِ فِي الْجِهَادِ .

وَكَانَ يَتَخَلّفُ فِي سَاقَتِهِمْ . فَيُزْجِي الضّعِيفَ وَيُرْدِفُ الْمُنْقَطِعَ .

وَكَانَ إذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِهَا [54] .

وَكَانَ يُرَتّبُ الْجَيْشَ وَالْمُقَاتِلَةَ وَيَجْعَلُ فِي كُلّ جَنْبَةٍ كُفُؤًا لَهَا .

وَكَانَ يُبَارِزُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِأَمْرِهِ . وَكَانَ يَلْبَسُ لِلْحَرْبِ عُدّتَهُ . وَرُبّمَا ظَاهَرَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ كَمَا فَعَلَ يَوْمَ بَدْرٍ [55] .

وَكَانَ لَهُ أَلْوِيَةٌ ، وَكَانَ إذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِمْ ثَلَاثًا ثُمّ قَفَلَ [56] <97> وَكَانَ إذَا أَرَادَ أَنْ يُغِيرَ يَنْتَظِرُ . فَإِذَا سَمِعَ مُؤَذّنًا لَمْ يُغِرْ وَإِلّا أَغَارَ [57] .

وَكَانَ يَحِبُ الْخُرُوجُ يَوْمَ الْخَمِيسِ بُكْرَةً .

وَكَانَ إذَا اشْتَدّ الْبَأْسُ اتّقَوْا بِهِ [58] .

وَكَانَ أَقْرَبَهُمْ إلَى الْعَدُوّ .

وَكَانَ يُحِبّ الْخُيَلَاءَ فِي الْحَرْبِ .

وَيُنْهِي عَنْ قَتْلِ النّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ [59] .

---

[53]() أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 1043) والنَّسائِي 1/229 وابن ماجةَ (بِرَقْمِ : 2867) وأحمَد 6/27 وابنُ حِبَّانَ (بِرَقْمِ : 3385) من حديث عَوفِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[54]() أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 2757 وغيره) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2769 و 3318 و 3319) من حديثِ كعب بن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[55]() أَخرَجَهُ : أبو داودَ (بِرَقْمِ : 2590) وابن ماجةَ (بِرَقْمِ : 2806) وأحمد 3/449 مِن حدبثِ السَّائِبِ بن يَزِيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قال البُوصَيرِيَ : (إِسنادُهُ صَحيحٌ على شَرطِ البُخارِي) .

[56]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 2976) مِن حديثِ أنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[57]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 610) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 382) من حديثِ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[58]() أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 4316) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1776) مِن حديثِ البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[59]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3014) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1744) مِن حديثِ ابنِ

وَيُنْهِي عَنْ السّفَرِ بِالْقُرْآنِ إلَى أَرْضِ الْعَدُوّ [60] .

أَوّلُ لِوَاءٍ عَقَدَهُ رَسُولُ اللّهِ

وَأَوّلُ لِوَاءٍ عَقَدَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى قَوْلِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ - لِوَاءُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي السّنَةِ الْأُولَى ، بَعَثَهُ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ خَاصّةً يَعْرِضُ عِيرًا لِقُرَيْشٍ جَاءَتْ مِنْ الشّامِ ، فِيهَا أَبُو جَهْلٍ فِي ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ حَتّى بَلَغُوا سَيْفَ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعِيصِ ، فَالْتَقَوْا وَاصْطَفّوْا لِلْقِتَالِ فَحَجَزَ بَيْنَهُمْ مَجْدِيّ بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِيّ .
وَكَانَ مُوَادِعًا لِلْفَرِيقَيْنِ . فَلَمْ يَقْتَتِلُوا .

سَرِيّةُ عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ

ثُمّ بَعَثَ عُبَيْدَةَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ فِي شَوّالٍ مِنْ تِلْكَ السّنَةِ فِي سَرِيّةٍ إلَى بَطْنِ رَابِغَ فِي سِتّينَ رَجُلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ خَاصّةً . فَلَقِيَ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ رَابِغَ . فَكَانَ بَيْنَهُمْ الرّمْيُ . وَلَمْ يَسُلّوا السّيُوفَ . وَإِنّمَا كَانَتْ مُنَاوَشَةٌ .
وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ أَوّلَ مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ ، ثُمّ انْصَرَفَ الْفَرِيقَانِ وَقَدّمَ ابْنُ إسْحَاقَ سَرِيّةَ حَمْزَةَ .

سَرِيّةُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقّاصٍ

ثُمّ بَعَثَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ تِلْكَ السّنَةِ إلَى الْخَرّارِ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ ، يَعْتَرِضُونَ عِيرًا لِقُرَيْشٍ . وَعَهِدَ إلَيْهِ أَنْ لَا يُجَاوِزَ الْخَرّارَ ، وَكَانُوا عِشْرِينَ . فَخَرَجُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ يَسِيرُونَ بِاللّيْلِ وَيَكْمُنُونَ بِالنّهَارِ . حَتّى بَلَغُوا الْخَرّارَ ، فَوَجَدُوا الْعِيرَ قَدْ مَرّتْ بِالْأَمْسِ . ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّانِيَةُ .

غَزْوَةُ الْأَبْوَاءِ

<98> فَغَزَا فِيهَا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غَزْوَةَ الْأَبْوَاءِ . وَكَانَتْ أَوّلَ غَزْوَةٍ غَزَاهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِنَفْسِهِ . خَرَجَ فِي الْمُهَاجِرِينَ خَاصّةً يَعْتَرِضُ عِيرًا لِقُرَيْشٍ فَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا . وَفِيهَا وَادَعَ بَنِي ضَمْرَةَ عَلَى أَنْ لَا يَغْزُوَهُمْ وَلَا يَغْزُوَهُ وَلَا يُعِينُوا عَلَيْهِ أَحَدًا .

غَزْوَةُ بُوَاطٍ

عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .
[60] () أخرَجَهُ: البُخاري (بِرَقْمِ : 2990) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1869) مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

ثُمّ غَزَا بُوَاطًا فِي رَبِيعٍ الْأَوّلِ . خَـرَجَ يَعْتَـرِضُ عِيـرًا لِقُرَيْـشٍ فِيهَـا أُمَيّةُ بْنُ خَلَفٍ وَمِائَةُ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ . فَبَلَغَ بُوَاطًا - جَبَلًا مِـنْ جِبَالِ جُهَيْنَةَ - فَرَجَعَ وَلَمْ يَلْقَ كَيْدًا .

خُرُوجُهُ لِطَلَبِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ

ثُمّ خَرَجَ فِي طَلَبِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ الْفِهْرِيّ . وَقَـدْ أَغَـارَ عَلَـى سَـرْحِ الْمَدِينَةِ ، فَاسْتَاقَهُ . فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِـي أَثَرِهِ حَتّى بَلَغَ سَفْوَانَ مِنْ نَاحِيَةِ بَدْرٍ وَفَاتَهُ كُرْزٌ .

غَزْوَةُ الْعُشَيْرَةِ

ثُمّ خَرَجَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ فِي مِائَـةٍ وَخَمْسِـينَ مِـنْ الْمُهَـاجِرِينَ يَعْتَرِضُونَ عِيرًا لِقُرَيْشٍ ذَاهِبَةً إلَى الشّامِ . وَخَرَجَ فِي ثَلَاثِينَ بَعِيرًا يَتَعَاقَبُونَهَا . فَبَلَغَ ذَاتَ الْعُشَيْرَةِ مِنْ نَاحِيَةِ يَنْبُعَ . فَوَجَدَ الْعِيرَ فَـاتَتْهُ بِأَيّامٍ . وَهِيَ الّتِي خَرَجُوا لَهَا يَوْمَ بَدْرٍ لَمّا جَاءَتْ عَائِدَةً مِنْ الشّامِ . وَفِيهَا : وَادَعَ بَنِي مُدْلِجٍ وَحُلَفَاءَهُمْ .

بَعْثُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَحْشٍ

ثُمّ بَعَثَ عَبْدَ اللّهِ بْنَ جَحْشٍ إلَى نَخْلَةَ فِي رَجَـبٍ فِـي اثْنَـيْ عَشَـرَ رَجُلًا مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كُلّ اثْنَيْنِ عَلَـى بَعِيـرٍ . فَوَصَـلُوا إلَـى نَخْلَـةَ ، يَرْصُدُونَ عِيرًا لِقُرَيْشٍ . وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ قَدْ كَتَبَ لَهُ كِتَابًا . وَأَمَرَهُ أَنْ لَا يَنْظُرَ فِيهِ حَتّى يَسِيرَ يَوْمَيْنِ . فَلَمّا فَتَحَ الْكِتَابَ إذَا فِيهِ إذَا نَظَرْت فِي كِتَابِي هَذَا ، فَامْضِ حَتّـى تَنْـزِلَ بِنَخْلَةَ بَيْنَ مَكّةَ وَالطّائِفِ ، فَتَرَصّدْ قُرَيْشًا ، وَتَعَلّمْ لَنَا أَخْبَارَهَا [61] .

<99> فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَأَخْبَرَهُمْ أَنّهُ لَا يَسْـتَكْرِهُهُمْ فَقَـالُوا : سَمْعًا وَطَاعَةً . فَلَمّا كَانَ فِي أَثْنَاءِ الطّرِيـقِ أَضَـلّ سَـعْدُ بْـنُ أَبِـي وَقّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَـزْوَانَ بَعِيرَهُمَـا . فَتَخَلّفَـا فِـي طَلَبِـهِ . وَمَضَـوْا حَتّى نَزَلُوا نَخْلَةَ .

قَتْلُ عَمْرِو بْنِ الْحَضْرَمِيّ

فَمَـرّتْ بِهِـمْ عِيـرُ قُرَيْـشٍ تَحْمِـلُ زَبِيبًـا وَتِجَـارَةً فِيهَـا عَمْـرُو بْـنُ الْحَضْرَمِيّ ، فَقَتَلُـوهُ وَأَسَـرّوا عُثْمَـانَ وَنَـوْفَلًا ابْنَـيْ عَبْـدِ اللّـهِ بْـنِ الْمُغِيـرَةِ وَالْحَكَـمَ بْـنَ كَيْسَـانَ مَـوْلَى بَنِـي الْمُغِيـرَةِ . فَقَـالَ الْمُسْلِمُونَ نَحْنُ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ رَجَـبٍ . فَـإِنْ قَاتَلْنَـاكُمْ انْتَهَكْنَـا الشّهْرَ الْحَرَامَ وَإِنْ تَرَكْنَاهُمْ اللّيْلَةَ دَخَلُوا الْحَرَمَ . ثُمّ أَجْمَعُوا عَلَى مُلَاقَاتِهِمْ . فَرَمَى أَحَـدُهُمْ عَمْـرَو بْـنَ الْحَضْـرَمِيّ فَقَتَلَـهُ وَأَسَـرُوا

---

[61] () سِيرَةُ ابنِ كَثِيرٍ 2/366 .

عُثْمَانَ وَالْحَكَمَ . وَأَفْلَتَ نَوْفَلٌ . ثُمّ قَدِمُوا بِالْعِيرِ وَالْأَسِيرَيْنِ حَتّى عَزَلُوا مِنْ ذَلِكَ الْخُمُسَ . فَكَانَ أَوّلُ خُمُسٍ فِي الْإِسْلَامِ وَأَوّلُ قَتْلٍ فِي الْإِسْلَامِ وَأَوّلُ أَسْرٍ . فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا فَعَلُوهُ . وَاشْتَدّ إنْكَارُ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ . وَزَعَمُوا : أَنّهُمْ وَجَدُوا مَقَالًا . فَقَالُوا قَدْ أَحَلّ مُحَمّدٌ الشّهْرَ الْحَرَامَ . وَاشْتَدّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ حَتّى أَنَزَلَ اللّهُ (2 : 217) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ الْآيَةَ . يَقُولُ سُبْحَانَهُ هَذَا الّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ - وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا - فَمَا ارْتَكَبْتُمُونَهُ مِنْ الْكُفْرِ بِاَللّهِ وَالصّدّ عَنْ سَبِيلِهِ وَبَيْتِهِ وَإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللّهِ

مَعْنَى الْفِتْنَةِ

و " الْفِتْنَةُ " هُنَا الشّرْكُ كَقَوْلِهِ (2 : 193) ـ وَقَاتِلُوهُمْ حَتّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَقَوْلِهِ (6 : 23) ثُمّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلّا أَنْ قَالُوا وَاَللّهِ رَبّنَا مَا كُنّا مُشْرِكِينَ أَيْ مَا تَكُنْ عَاقِبَةُ شِرْكِهِمْ وَآخِرَةُ أَمْرِهِمْ إلّا أَنْ أَنْكَرُوهُ وَتَبَرّءُوا مِنْهُ .

وَحَقِيقَتُهَا : الشّرْكُ الّذِي يَدْعُو إلَيْهِ صَاحِبُهُ وَيُعَاقِبُ مَنْ لَمْ يَفْتَتِنْ بِهِ . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى (85 : 10) ـ إنّ الّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمّ لَمْ يَتُوبُوا الْآيَةَ . فُسّرَتْ بِتَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ وَإِحْرَاقِهِمْ بِالنّارِ لِيَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ .

وَقَدْ تَأْتِي " الْفِتْنَةُ " وَيُرَادُ بِهَا : الْمَعْصِيَةُ . كَقَوْلِهِ تَعَالَى (9 : 49) ـ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنّي - الْآيَةَ . <100> وَكَفِتْنَةِ الرّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ وَكَالْفِتَنِ الّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وَأَمّا الّتِي يُضِيفُهَا اللّهُ لِنَفْسِهِ فَهِيَ بِمَعْنَى الِامْتِحَانِ وَالِابْتِلَاءِ وَالِاخْتِبَارِ .

وَقْعَةُ بَدْرٍ الْكُبْرَى يَوْمَ الْفُرْقَانِ

فَلَمّا كَانَ فِي رَمَضَانَ بَلَغَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَبَرَ الْعِيرِ الْمُقْبِلَةِ مِنْ الشّامِ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ فِيهَا أَمْوَالُ قُرَيْشٍ فَنَدَبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْخُرُوجِ إلَيْهَا فَخَرَجَ مُسْرِعًا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ وَبِضْعَ عَشْرَةَ رَجُلًا . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنْ الْخَيْلِ إلّا فَرَسَانِ فَرَسٌ لِلزّبَيْرِ وَفَرَسٌ لِلْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ . وَكَانَ

مَعَهُمْ سَبْعُونَ بَعِيرًا يَعْتَقِبُ الرَّجُلَانِ وَالثَّلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ . وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ .
فَلَمَّا كَانَ بِالرَّوْحَاءِ رَدَّ أَبَا لُبَابَةَ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ .
وَدَفَعَ اللِّوَاءَ إلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ وَالرَّايَةَ إلَى عَلِيّ وَرَايَةَ الْأَنْصَارِ إلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ .
وَلَمَّا قَرُبَ مِنْ الصَّفْرَاءِ : بَعَثَ بَسْبَسَ بْنَ عَمْرٍو وَعَدِيّ بْنَ أَبِي الزَّغْبَاءِ يَتَحَسَّسَانِ أَخْبَارَ الْعِيرِ .
وَبَلَغَ أَبَا سُفْيَانَ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَاسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيّ . وَبَعَثَهُ حَثِيثًا إلَى مَكَّةَ مُسْتَصْرِخًا قُرَيْشًا بِالنَّفِيرِ إلَى عِيرِهِمْ . فَنَهَضُوا مُسْرِعِينَ . وَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أَشْرَافِهِمْ سِوَى أَبِي لَهَبٍ . فَإِنَّهُ عَوَّضَ عَنْهُ رَجُلًا بِجُعْلٍ . وَحَشَدُوا فِيمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ . وَلَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُمْ مِنْ بُطُونِ قُرَيْشٍ إلَّا بَنِي عَدِيّ فَلَمْ يَشْهَدْهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ وَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى (8 ـ 47) بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَجَمَعَهُمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى (8 : 43) وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ .
وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ خُرُوجُ قُرَيْشٍ : اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ . فَتَكَلَّمَ الْمُهَاجِرُونَ فَأَحْسَنُوا ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ ثَانِيًا . فَتَكَلَّمَ الْمُهَاجِرُونَ . ثُمَّ ثَالِثًا . فَعَلِمَتْ الْأَنْصَارُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إنَّمَا يَعْنِيهِمْ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : كَأَنَّك تُعَرِّضُ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ - وَكَانَ إنَّمَا يَعْنِيهِمْ لِأَنَّهُمْ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنْ دِيَارِهِمْ - وَكَأَنَّك تَخْشَى أَنْ <101> تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَنْصُرُوك إلَّا فِي دِيَارِهِمْ . وَإِنِّي أَقُولُ عَنْ الْأَنْصَارِ وَأُجِيبُ عَنْهُمْ . فَامْضِ بِنَا حَيْثُ شِئْتُ وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتُ وَاقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتُ وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْت . وَأَعْطِنَا مِنْهَا مَا شِئْت . وَمَا أَخَذْت مِنْهَا كَانَ أَحَبّ إلَيْنَا مِمَّا تَرَكْت . فَوَاَللَّهِ لَئِنْ سِرْت بِنَا حَتَّى تَبْلُغَ الْبَرْكَ مِنْ غُمْدَانَ لَنَسِيرَنَّ مَعَكُ وَوَاَللَّهِ لَئِنْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَك .
وَقَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ : إذَنْ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى (5 : 24) فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ وَلَكِنْ نُقَاتِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُ وَمِنْ خَلْفِكُ وَعَنْ يَمِينِك وَعَنْ شِمَالِك . فَأَشْرَقَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا سَمِعَ مِنْهُمْ .

وَقَالَ سِيرُوا وَأَبْشِرُوا . فَإِنّ اللّهَ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ . وَإِنّـي قَدْ رَأَيْت مَصَارِعَ الْقَوْمِ [62] .
وَكَرِهَ بَعْضُ الصّحَابَةِ لِقَاءَ النّفِيرِ وَقَالُوا : لَمْ نَسْتَعِدّ لَهُمْ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (8 : 5 - 8) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقّ وَإِنّ فَرِيقًا مِـنَ الْمُـؤْمِنِينَ لَكَـارِهُونَ يُجَادِلُونَـكَ فِـي الْحَـقّ بَعْـدَمَا تَبَيّـنَ لِشُرَكَائِهِمْ - إلَى قَوْلِهِ - وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .
وَسَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ إلَـى بَـدْرٍ . وَخَفَـضَ أَبُـو سُفْيَانَ . فَلَحِقَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ . وَكَتَـبَ إلَـى قُرَيْـشٍ : أَنْ ارْجِعُـوا فَـإِنّكُمْ إنّمَـا خَرَجْتُـمْ لِتُحْـرِزُوا عِيرَكُـمْ . فَأَتَـاهُمْ الْخَبَـرُ . فَهَمّـوا بِالرّجُوعِ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَاَللّهِ لَا نَرْجِعُ حَتّى نَقْدَمَ بَدْرًا فَنُقِيمَ بِهَا نُطْعِمَ مَنْ حَضَرَنَا وَنَسْقِي الْخَمْرَ وَتَعْزِفُ عَلَيْنَا الْقِيَـانُ . وَتَسْـمَعُ بِنَا الْعَرَبُ . فَلَا تَزَالُ تَهَابُنَا أَبَدًا وَتَخَافُنَا .
فَأَشَارَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ عَلَيْهِمْ بِالرّجُوعِ فَلَمْ يَفْعَلُوا . فَرَجَعَ هُـوَ وَبَنُو زُهْرَةَ . فَلَمْ يَزَلْ الْأَخْنَسُ فِي بَنِي زُهْرَةَ مُطَاعًا بَعْدَهَا .
وَأَرَادَ بَنُو هَاشِمٍ الرّجُوعَ . فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ لَا تُفَارِقُنَا هَـذِهِ الْعِصَـابَةُ حَتّى نَرْجِعَ فَسَارُوا إلّا طَالِبَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ . فَرَجَعَ .
وَسَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى نَزَلَ عَلَى مَاءٍ أَدْنَـى مِيَاهِ بَدْرٍ . فَقَالَ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : إنْ رَأَيْت أَنْ نَسِيرَ إلَى قُلُـبِ - قَدْ عَرَفْنَاهَا - كَثِيرَةِ الْمَاءِ عَذْبَةً فَتَنْزِلُ عَلَيْهَا . وَنَغُورُ مَـا سِـوَاهَا مِنْ الْمِيَاهِ ؟ وَأَنْزَلَ اللّهُ تِلْكَ اللّيْلَةَ مَطَرًا وَاحِـدًا صَـلّبَ <102> الرّمَلَ . وَثَبّتَ الْأَقْدَامَ . وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ . وَمَشَى رَسُولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي مَوْضِـعِ الْمَعْرَكَـةِ . وَجَعَـلَ يُشِـيرُ بِيَـدِهِ وَيَقُولُ هَـذَا مَصْـرَعُ فُلَانٍ . وَهَـذَا مَصْـرَعُ فُلَانٍ إنْ شَـاءَ اللّـه فَمَـا تَعَدّى أَحَدٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَ إشَارَتِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَلَمّا طَلَـعَ الْمُشْرِكُونَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ اللّهُـمّ هَـذِهِ قُرَيْشٌ جَاءَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا جَاءَتْ تُحَادّكَ وَتُكَـذّبُ رَسُـولَك . اللّهُمّ فَنَصْرُك الّذِي وَعَـدْتنِي . اللّهُـمّ أَحِنْهُـمْ الْغَـدَاة وَقَـامَ وَرَفَـعَ يَدَيْهِ وَاسْتَنْصَرَ رَبّـهُ وَبَـالَغَ فِـي التّضَـرّعِ وَرَفَـعَ يَـدَيْهِ حَتّـى سَـقَطَ رِدَاؤُهُ . وَقَـالَ اللّهُـمّ أَنْجِـزْ لِـي مَـا وَعَـدْتنِيهِ اللّهُـمّ إنّـي أَنْشُـدُك

---

[62] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3925 و 4609) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1779 و 2874) مِن حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

عَهْدَك وَوَعْدَك . اللّهُمّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لَنْ تُعْبَدَ فِـي الْأَرْضِ بَعْدَ [63] .
فَالْتَزَمَهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ حَسْبُك مُنَاشَـدَتَك رَبّـك يَا رَسُولَ اللّهِ . أَبْشِرْ فَوَالّذِي نَفْسِـي بِيَـدِهِ لَيُنْجِـزَن اللّـهُ لَـك مَـا وَعَدَك . وَاسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ اللّهَ وَاسْتَغَاثُوهُ . فَأَوْحَى اللّـهُ إلَـى الْمَلَائِكَةِ (8 ـ 12) أَنّي مَعَكُمْ فَثَبّتُوا الّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِـي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُـمْ كُلّ بَنَانٍ وَأَوْحَى اللّهُ إلَى رَسُولِهِ (8 : 9) أَنّي مُمِدّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ بِكَسْرِ الدّالِ وَفَتْحِهَا . قِيلَ إرْدَافًـا لَكُـمْ . وَقِيـلَ يُرْدِفُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا لَمْ يَجِيئُوا دَفْعَةً وَاحِدَةً .
فَلَمّا أَصْبَحُوا أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ فِي كَتَائِبِهَا . وَقَلّلَ اللّهُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ حَتّى قَالَ أَبُو جَهْلٍ - لَمّـا أَشَـارَ عُتْبَـةُ بْـنُ رَبِيعَـةَ بِـالرّجُوعِ خَوْفًا عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ التّفَـرّقِ وَالْقَطِيعَـةِ إذَا قَتَلُـوا أَقَـارِبَهُمْ - إنّ ذَلِكَ لَيْسَ بِهِ . وَلَكِنّهُ - يَعْنِـي عُتْبَـةَ - عَـرَفَ أَنّ مُحَمّـدًا وَأَصْـحَابَهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ وَفِيهِمْ ابْنُهُ فَقَدْ تَخَوّفَكُمْ عَلَيْهِ . وَقَلّلَ اللّهُ الْمُشْـرِكِينَ أَيْضًا فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .
وَأَمَرَ أَبُو جَهْلٍ عَامِرَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ - أَخَـا عَمْـرِو بْـنِ الْحَضْـرَمِيّ - أَنْ يَطْلُبَ دَمَ أَخِيهِ . فَصَاحَ . وَكَشَفَ عَنْ اسْـتِهِ يَصْـرُخُ وَاعَمْـرَاهُ وَاعَمْرَاهُ . فَحَمَى الْقَوْمُ . وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ .
وَعَدّلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الصّفُوفَ . ثُـمّ انْصَـرَفَ وَغَفَا غَفْوَةً . وَأَخَـذَ الْمُسْـلِمِينَ النّعَـاسُ وَأَبُـو بَكْـرٍ الصّـدّيقُ مَـعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَحْرُسُهُ . وَعِنْدَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ <103> وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ . فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَثِـبُ فِـي الـدّرْعِ . وَيَتْلُـو هَـذِهِ الْآيَـةَ (54 : 45) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلّونَ الدّبُرَ
وَمَنَحَ اللّهُ الْمُسْلِمِينَ أَكْتَافَ الْمُشْرِكِينَ . فَتَنَاوَلُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْـرًا . فَقَتَلُوا سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ .
وَخَرَجَ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ : يَطْلُبُونَ الْمُبَـارَزَةَ . فَخَرَجَ إلَيْهِمْ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالُوا : أَكْفَاءٌ كِرَامٌ . مَا لَنَـا بِكُـمْ مِنْ حَاجَةٍ . إنّمَا نُرِيدُ مِنْ بَنِي عَمّنَا . فَبَرَزَ إلَيْهِـمْ حَمْـزَةُ وَعُبَيْـدَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْمُطّلِبِ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . فَقَتَلَ عَلِيّ قِرْنَـهُ

---

[63] () أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 1763) مِن حديثِ عُمر بن الخَطّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الْوَلِيدَ . وَقَتَلَ حَمْزَةُ قِرْنَهُ شَيْبَةَ . وَاخْتَلَفَ عُبَيْدَةُ وَعُتْبَـةُ ضَـرْبَتَيْنِ كِلَاهُمَا أَثْبَتَ صَاحِبَهُ . فَكَرّ حَمْزَةُ وَعَلِيّ عَلَى قِرْنِ عُبَيْدَةَ فَقَتَلَاهُ . وَاحْتَمَلَا عُبَيْدَةَ قَدْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ . فَقَـالَ لَـوْ كَـانَ أَبُـو طَـالِبٍ حَيّـا لَعَلِمَ أَنَا أَوْلَى مِنْهُ بِقَوْلِهِ

وَنُسَلِّمُهُ حَتّى نُصَرّعْ حَوْلَهُ ... وَنُـذْهَلَ عَـنْ أَبْنَائِنَـا وَالْحَلَائِلِ

وَمَـاتَ بِالصّـفْرَاءِ وَفِيهِـمْ نَزَلَـتْ (22 ـ 19) هَـذَانِ خَصْـمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ الْآيَةَ . فَكَانَ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ يَقُولُ أَنَا أَوّلُ مَنْ يَجْثُو لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيْ اللّهِ عَزّ وَجَلّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [64] .

وَلَمّا عَزَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْخُرُوجِ وَذَكَرُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي كِنَانَةَ مِنْ الْحَرْبِ . فَتَبَدّى لَهُمْ إبْلِيسُ فِـي صُـورَةِ سُـرَاقَةَ بْـنِ مَالِـكٍ . فَقَالَ (8 ـ 48) لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَإِنّي جَارٌ لَكُـمْ . فَلَمّا تَعَبّئُوا لِلْقِتَالِ وَرَأَى الْمَلَائِكَةَ فَرّ وَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْـهِ فَقَـالُوا : إلَى أَيْنَ يَا سُرَاقَةُ ؟ فَقَالَ (8 ـ 48) إنّي أَرَى مَا لَا تَـرَوْنَ إنّـي أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

وَظَنّ الْمُنَافِقُونَ وَمِنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ أَنّ الْغَلَبَةَ بِالْكَثْرَةِ فَقَـالُوا (8 : 50) غَرّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ فَأَخْبَرَ اللّهُ سُبْحَانَهُ أَنّ النّصْرَ إنّمَا هُوَ بِالتّوَكّلِ عَلَى اللّهِ وَحْدَهُ .

وَلَمّا دَنَا الْعَدُوّ : قَامَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فَـوَعَظَ النّاسَ . وَذَكّرَهُمْ بِمَا لَهُمْ فِي الصّبْرِ وَالثّبَاتِ مِنْ النّصْـرِ وَأَنّ اللّـهَ قَدْ أَوْجَبَ الْجَنّةَ لِمَنْ يُسْتَشْهَدُ فِي سَبِيلِهِ .

فَأَخْرَجَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ بْنِ الْجَمُوحِ تَمَـرَاتٍ مِـنْ قَرْنِـهِ يَـأْكُلُهُنّ . ثُمّ قَالَ لَئِنْ حَيِيت حَتّـى آكُـلَ تَمَرَاتِـي هَـذِهِ إنّهَـا لَحَيَـاةٌ طَوِيلَـةٌ " فَرَمَى بِهِنّ وَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ فَكَانَ أَوّلَ قَتِيلٍ .

<104> وَأَخَذَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِلْءَ كَفّهِ تُرَابًا فَرَمَى بِهِ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ . فَلَمْ تَتْرُكْ رَجُلًا مِنْهُمْ إلّا مَلَأَتْ عَيْنَيْـهِ . فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (8 ـ 17) وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْـتَ وَلَكِـنّ اللّـهَ رَمَى .

وَاسْتَفْتَحَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَأَتَانَـا بِمَـا لَا نَعْـرِفُ فَأَحْنِهِ الْغَدَاةَ .

---

[64] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3965 وغيرُهُ) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 3033) مِن حديثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

وَلَمّا وَضَعَ الْمُسْلِمُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعَدُوّ يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ - وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَاقِفٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي رِجَالٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي الْعَرِيشِ - رَأَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي وَجْهِ سَعْدٍ الْكَرَاهِيَةَ . فَقَالَ كَأَنّك تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ النّاسُ ؟ قَالَ أَجَلْ وَاَللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَتْ أَوّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللّهُ فِي الْمُشْرِكِينَ . وَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ أَحَبّ إلَيّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرّجَالِ

وَلَمّا بَرَدَتْ الْحَرْبُ وَانْهَزَمَ الْعَدُوّ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ يَنْظُرُ لَنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ ؟ فَانْطَلَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَوَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَهُ مُعَوّذٌ وَعَوْفٌ - ابْنَا عَفْرَاءَ - حَتّى بَرَدَ . فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فَقَالَ أَنْتَ أَبُو جَهْلٍ ؟ فَقَالَ لِمَنْ الدّائِرَةُ الْيَوْمَ ؟ قَالَ لِلّهِ وَرَسُولِهِ . ثُمّ قَالَ لَهُ هَلْ أَخْزَاك اللّهُ يَا عَدُوّ اللّهِ ؟ قَالَ وَهَلْ فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ ؟ فَاحْتَزّ رَأْسَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ . ثُمّ أَتَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ قَتَلْتُهُ فَقَالَ " آللّهَ الّذِي لَا إلَهَ إلّا هُوَ ؟ - ثَلَاثًا - ثُمّ قَالَ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ . وَنَصَرَ عَبْدَهُ . وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ . انْطَلِقْ فَأَرِنِيهِ ، فَانْطَلَقْنَا فَأَرَيْته إيّاهُ . فَلَمّا وَقَفَ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمّةِ [65] .

وَأَسَرَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أُمَيّةَ بْنَ خَلَفٍ وَابْنَهُ عَلِيّا . فَأَبْصَرَهُ بِلَالٌ - وَكَانَ يُعَذّبُهُ بِمَكّةَ - فَقَالَ رَأْسُ الْكُفْرِ أُمَيّةُ ؟ لَا نَجَوْت إنْ نَجَا . ثُمّ اسْتَحْمَى جَمَاعَةً مِنْ الْأَنْصَارِ .

وَاشْتَدّ عَبْدُ الرّحْمَنِ بِهِمَا يَحْجِزُهُمَا مِنْهُمْ فَأَدْرَكُوهُمْ . فَشَغَلَهُمْ عَنْ أُمَيّةَ بِابْنِهِ عَلِيّ فَفَرَغُوا مِنْهُ ثُمّ لَحِقُوهُمَا . فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرّحْمَنِ اُبْرُكْ . فَبَرَكَ وَأَلْقَى عَلَيْهِ عَبْدُ الرّحْمَنِ بِنَفْسِهِ . فَضَرَبُوهُ بِالسّيُوفِ مِنْ تَحْتِهِ حَتّى قَتَلُوهُ . وَأَصَابَ بَعْضُ السّيُوفِ رِجْلَ عَبْدِ الرّحْمَنِ . وَكَانَ أُمَيّةُ قَدْ قَالَ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَنْ الْمُعَلّمُ فِي صَدْرِهِ بِرِيشَةِ النّعَامِ ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ . قَالَ ذَاكَ الّذِي فَعَلَ بِنَا الْأَفَاعِيلَ .

<105> وَانْقَطَعَ يَوْمَئِذٍ سَيْفُ عُكّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ . فَأَعْطَاهُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَذْلًا مِنْ حَطَبٍ فَلَمّا أَخَذَهُ وَهَزّهُ عَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا طَوِيلًا فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ بِهِ حَتّى قُتِلَ يَوْمَ الرّدّةِ . وَلَمّا انْقَضَتْ الْحَرْبُ أَقْبَلَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى وَقَفَ

---

[65] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3962 وغيرهُ) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1800) مِن حديثِ أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

عَلَى الْقَتْلَى . فَقَالَ بِئْسَ عَشِيرَةُ النّبِيّ كُنْتُمْ . كَذّبْتُمُونِي . وَصَدّقَنِي النّاسُ . وَخَذَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النّاسُ . وَأَخْرَجْتُمُونِي . وَآوَانِي النّاسُ . ثُمّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا حَتّى أُلْقُوا فِي الْقَلِيبِ - قَلِيبِ بَدْرٍ - ثُمّ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةُ وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةُ وَيَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبّكُمْ حَقّا ؟ فَإِنّي قَدْ وَجَدْت مَا وَعَدَنِي رَبّي حَقّا فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا تُخَاطِبُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَيّفُوا ؟ فَقَالَ مَا أَنْتَ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ [وَلَكِنّهُم لا يَقْدِرونَ أَنْ يُجِيبُوا] [66] .

ثُمّ ارْتَحَلَ مُؤَيّدًا مَنْصُورًا فَرِيرَ الْعَيْنِ مَعَهُ الْأَسْرَى وَالْمَغَانِمُ . فَلَمّا كَانَ بِالصّفْرَاءِ قَسَمَ الْغَنَائِمَ وَضَرَبَ عُنُقَ النّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ . ثُمّ لَمَا نَزَلَ بِعِرْقِ الظّبْيَةِ : ضَرَبَ عُنُقَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ .

ثُمّ دَخَلَ الْمَدِينَةَ مُؤَيّدًا مَنْصُورًا . قَدْ خَافَهُ كُلّ عَدُوّ لَهُ بِالْمَدِينَةِ . فَأَسْلَمَ بَشَرٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَدَخَلَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ وَأَصْحَابُهُ فِي الْإِسْلَامِ .

وَجُمْلَةُ مَنْ حَضَرَ بَدْرًا : ثَلَاثُمِائَةٍ وَبِضْعَ عَشْرَةَ رَجُلًا . وَاسْتُشْهِدَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : كَانَ أُنَاسٌ قَدْ أَسْلَمُوا . فَلَمّا هَاجَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَبَسَهُمْ أَهْلُهُمْ بِمَكّةَ . وَفَتَنُوهُمْ فَافْتَتَنُوا . ثُمّ سَارُوا مَعَ قَوْمِهِمْ إلَى بَدْرٍ . فَأُصِيبُوا فَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهِمْ (4 : 97) إِنّ الّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ .

قَسْمُ غَنَائِمِ بَدْرٍ

ثُمّ إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَمَرَ بِالْغَنَائِمِ فَجُمِعَتْ فَاخْتَلَفُوا . فَقَالَ مَنْ جَمَعَهَا : هِيَ لَنَا . وَقَالَ مَنْ هَزَمَ الْعَدُوّ لَوْلَانَا مَا أَصَبْتُمُوهَا ، وَقَالَ الّذِينَ يَحْرَسُونَ رَسُولَ اللّهِ <106> صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقّ بِهَا مِنّا . قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ : فَنَزَعَهَا اللّهُ مِنْ أَيْدِينَا . فَجَعَلَهَا إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَسَمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (8 ـ 1) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرّسُولِ الْآيَاتِ .

وَذَكَرَ ابْنُ إسْحَاقَ عَنْ نَبِيّهِ بْنِ وَهْبٍ . قَالَ " فَرّقَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْأَسْرَى عَلَى أَصْحَابِهِ . وَقَالَ اسْتَوْصُوا

---

[66] () أَخرَجَهُ : البُخارِيّ (بِرَقْمِ : 3976) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2874) مِن حـديثِ أنَـسٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

بِالْأَسْرَى خَيْرًا فَكَانَ أَبُو عَزِيزِ بْنُ عُمَيْرٍ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ مُصْعَبٌ شُدّ يَدَك بِهِ . فَإِنّ أُخْتَه ذَاتُ مَتَاعٍ . فَقَالَ أَبُو عَزِيزٍ يَا أَخِي ، هَذِهِ وَصِيّتُك بِي ؟ فَقَالَ مُصْعَبٌ إنّهُ أَخِي دُونَك . قَالَ عَزِيزٌ وَكُنْت مَعَ رَهْطٍ مِنْ الْأَنْصَارِ حِينَ قَفَلُوا ، فَكَانُوا إذَا قَدِمُوا طَعَامًا خَصّونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التّمْرَ . لِوَصِيّةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إيّاهُمْ بِنَا ، مَا يَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةٌ إلّا نَفَحَنِي بِهَا . قَالَ فَأَسْتَحِي فَأَرُدّهَا عَلَى أَحَدِهِمَا . فَيَرُدّهَا عَلَيّ مَا يَمَسّهَا .

أُسَارَى بَدْرٍ

وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَصْحَابَهُ فِي الْأَسْرَى ، وَهُمْ سَبْعُونَ . وَكَذَلِكَ الْقَتْلَى سَبْعُونَ أَيْضًا . فَأَشَارَ الصّدّيقُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ تَكُونُ لَهُمْ قُوّةً . وَيُطْلِقَهُمْ لَعَلّ اللّهَ يَهْدِيهِمْ لِلْإِسْلَامِ . فَقَالَ عُمَرُ لَا وَاَللّهِ مَا أَرَى ذَلِكَ . وَلَكِنّي أَرَى أَنْ تُمَكّنَنَا ، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ . فَإِنّ هَؤُلَاءِ أَئِمّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُ الشّرْكِ فَهَوَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ . فَقَالَ " إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنْ اللّبِنِ وَإِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ لَيُشَدّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتّى تَكُونَ أَشَدّ مِنْ الْحِجَارَةِ . وَإِنّ مَثَلَك يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إبْرَاهِيمَ إذْ قَالَ (14 : 36) فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنّ مَثَلَك يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى ، إذْ قَالَ (5 :ـ 118) إنْ تُعَذّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ الْآيَةَ . وَإِنّ مَثَلَك يَا عُمَرُ كَمَثَلِ مُوسَى ، قَالَ (10 : 88) رَبّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ الْآيَةَ . وَإِنّ مَثَلَك يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ (71 : 67) رَبّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّارًا ثُمّ قَالَ أَنْتُمْ الْيَوْمَ عَالَةٌ . فَلَا يَنْفَلِتَن مِنْهُمْ أَحَدٌ إلّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ . فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى (8 :ـ 67) مَا كَانَ لِنَبِيّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ الْآيَتَيْنِ [67]

قَالَ عُمَرُ فَلَمّا كَانَ مِنْ الْغَدِ غَدَوْت عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ - هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ - يَبْكِيَانِ . فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ <107> أَخْبِرْنِي مَا يُبْكِيك ؟ وَصَاحِبَك ؟ فَإِنْ وَجَدْت بُكَاءً بَكَيْت ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ تَبَاكَيْت لِبُكَائِكُمَا .

---

[67] () أَخرَجَهُ : أَحمدُ (بِرَقْمِ : 3632) وَأَبُو يَعلَى (بِرَقْمِ : 5187) والطَّبرَانِي (بِرَقْمِ : 10258) مِن حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَقَالَ أَبْكِي لِلّذِي عَرَضَ عَلَيّ أَصْحَابُك مِنْ الْغَدِ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ . فَقَدْ عَرَضَ عَلَيّ عَذَابَهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ - لِشَجَرَةِ قَرِيبَةٍ مِنْهُ - وَقَالَ لَوْ نَزَلَ عَذَابٌ مَا سَلِمَ مِنْهُ إلّا عُمَرُ [68] .

وَقَالَ الْأَنْصَارُ له صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نُرِيدُ أَنْ نَتْرُكَ لِابْنِ أُخْتِنَا الْعَبّاسِ فِدَاءَهُ فَقَالَ لَا تَدَعُوا مِنْهُ دِرْهَمًا [69] .

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّالِثَةُ مِنْ الْهِجْرَةِ .

غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ

فَكَانَتْ فِيهَا غَزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاعَ . وَكَانُوا مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ . فَنَقَضُوا الْعَهْدَ . فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَمْسَةَ عَشَرَ لَيْلَةً . فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ فَشَفَعَ فِيهِمْ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ . وَأَلَحّ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِيهِمْ . فَأَطْلَقَهُمْ لَهُ وَكَانُوا سَبْعَمِائَةِ رَجُلٍ . وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلَامٍ .

غَزْوَةُ أُحُد

وَفِيهَا كَانَتْ وَقْعَةُ أُحُدٍ فِي شَوّالٍ .

وَذَلِك أَنّ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمّا أَوْقَعَ بِقُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَتَرَأّسَ فِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ لِذَهَابِ أَكَابِرِهِمْ أَخَذَ يُؤَلّبُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَيَجْمَعُ الْجُمُوعَ . فَجَمَعَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِ آلَافٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَالْحُلَفَاءِ وَالْأَحَابِيشِ . وَجَاءُوا بِنِسَائِهِمْ لِئَلّا يَفِرّوا . ثُمّ أَقْبَلَ بِهِمْ نَحْوَ الْمَدِينَةِ . فَنَزَلَ قَرِيبًا مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ .

فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَصْحَابَهُ فِي الْخُرُوجِ إلَيْهِمْ . وَكَانَ رَأْيُهُ أَنْ لَا يَخْرُجُوا . فَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمْ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَفْوَاهِ السّكَكِ وَالنّسَاءُ مِنْ فَوْقِ الْبُيُوتِ وَوَافَقَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ - رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ - عَلَى هَذَا الرّأْيِ . فَبَادَرَ جَمَاعَةً مِنْ فُضَلَاءِ الصّحَابَةِ - مِمّنْ فَاتَهُ بَدْرٌ - وَأَشَارُوا عَلَى رَسُولِ اللّهِ بِالْخُرُوجِ . وَأَلَحّوا عَلَيْهِ .

فَنَهَضَ وَدَخَلَ بَيْتَهُ وَلَبِسَ لَأْمَتَهُ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى الْخُرُوجِ . ثُمّ قَالُوا : إنْ

---

[68] () أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 1763) مِن حديثِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاْ .

[69] () أَخرَجَهُ : البُخاريّ (بِرَقْمِ : 2537 و3048 و4018) مِن حديثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

أَحْبَبْتِ أَنْ تَمْكُثَ بِالْمَدِينَةِ فَافْعَلْ فَقَالَ " مَا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ " .
<108> فَخَرَجَ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ . وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رُؤْيَا : رَأَى " أَنَّ فِي سَيْفِهِ ثُلْمَةً وَأَنَّ بَقَرًا تُذْبَحُ . وَأَنَّهُ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ . فَتَأَوَّلَ الثَّلْمَةَ بِرَجُلٍ يُصَابُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَالْبَقَرَ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُقْتَلُونَ وَالدِّرْعُ بِالْمَدِينَةِ " فَخَرَجَ وَقَالَ لأَصْحَابِهِ " عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَأْسِ إِذَا لَقِيتُمْ الْعَدُوّ . وَانْظُرُوا مَاذَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ بِهِ فَافْعَلُوا " . فَلَمّا كَانَ بِالشَّوْطِ - بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ - انْخَذَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بِنَحْوٍ ثُلُثِ الْعَسْكَرِ وَقَالَ عَصَانِي . وَسَمِعَ مِنْ غَيْرِي مَا نَدْرِي : عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَهُنَا أَيّهَا النّاسُ ؟
فَرَجَعَ وَتَبِعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو - وَالِدُ جَابِرٍ - يُحَرّضُهُمْ عَلَى الرّجُوعِ . وَيَقُولُ " قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمْ نَرْجِعْ " فَرَجَعَ عَنْهُمْ وَسَبّهُمْ . وَسَأَلَ نَفَرٌ مِنْ الْأَنْصَارِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِحُلَفَائِهِمْ مِنْ يَهُودَ . فَأَبَى ، وَقَالَ " مَنْ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَثَبٍ ؟ " . فَخَرَجَ بِهِ بَعْضُ الْأَنْصَارِ ، حَتّى سَلَكَ فِي حَائِطٍ لِمِرْبَعِ بْنِ قَيْظِيّ مِنْ الْمُنَافِقِينَ - وَكَانَ أَعْمَى - فَقَامَ يَحْثُو التّرَابَ فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ لَا أَحِلّ لَك أَنْ تَدْخُلَ فِي حَائِطِي ، إِنْ كُنْت رَسُولَ اللَّهِ . فَابْتَدَرُوهُ لِيَقْتُلُوهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا تَقْتُلُوهُ فَهَذَا أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ " .
وَنَفَذَ حَتّى نَزَلَ الشّعْبَ مِنْ أُحُدٍ ، فِي عُدْوَةِ الْوَادِي الدّنْيَا . وَجَعَلَ ظَهْرَهُ إلَى أُحُدٍ وَنَهَى النّاسَ عَنْ الْقِتَالِ حَتّى يَأْمُرَهُمْ .
فَلَمّا أَصْبَحَ يَوْمُ السّبْتِ تَعَبّأَ لِلْقِتَالِ . وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْهُمْ خَمْسِينَ فَارِسًا . وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الرّمَاةِ - وَكَانُوا خَمْسِينَ - عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ . وَأَمَرَهُمْ أَنْ لَا يُفَارِقُوا مَرْكَزَهُمْ وَلَوْ رَأَوْا الطّيْرَ تَخْتَطِفُ الْعَسْكَرَ . وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَنْضَحُوا الْمُشْرِكِينَ بِالنّبْلِ لِئَلّا يَأْتُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ . وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ دِرْعَيْنِ .
وَأَعْطَى اللّوَاءَ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ ، وَجَعَلَ عَلَى إحْدَى الْمُجَنّبَتَيْنِ الزّبَيْرَ بْنَ الْعَوّامِ <109> وَعَلَى الْأُخْرَى : الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو .

وَاسْتَعْرَضَ الشّبَابَ يَوْمَئِذٍ . فَرَدّ مَنْ اسْتَصْغَرَ عَنْ الْقِتَالِ - كَابْنِ عُمَرَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْبَرَاءِ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَعَرَابَةَ الْأَوْسِيّ - وَأَجَازَ مَنْ رَآهُ مُطِيقًا .
وَتَعَبّأَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ . وَفِيهِمْ مِائَتَا فَارِسٍ . فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ . وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ .
وَدَفَعَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَيْفَهُ إلَى أَبِي دُجَانَةَ .
وَكَانَ أَوّلَ مَنْ بَدَرَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَبُو عَامِرٍ - عَبْدُ عَمْرِو بْنِ صَيْفِيّ - الْفَاسِقُ . وَكَانَ يُسَمّى الرّاهِبَ . وَهُوَ رَأْسُ الْأَوْسِ فِي الْجَاهِلِيّةِ . فَلَمّا جَاءَ الْإِسْلَامُ شَرَقَ بِهِ وَجَاهَرَ بِالْعَدَاوَةِ . فَذَهَبَ إلَى قُرَيْشٍ يُؤَلّبُهُمْ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَوَعَدَهُمْ بِأَنّ قَوْمَهُ إذَا رَأَوْهُ أَطَاعُوهُ . فَلَمّا نَادَاهُمْ وَتَعَرّفَ إلَيْهِمْ قَالُوا : لَا أَنْعَمَ اللّهُ بِك عَيْنًا يَا فَاسِقُ . فَقَالَ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرّ . ثُمّ قَاتَلَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا شَدِيدًا . ثُمّ أَرْضَخَهُمْ بِالْحِجَارَةِ .
وَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ أَبُو دُجَانَةَ وَطَلْحَةُ وَحَمْزَةُ وَعَلِيّ ، وَالنّضْرُ بْنُ أَنَسٍ وَسَعْدُ بْنُ الرّبِيعِ بَلَاءً حَسَنًا . وَكَانَتْ الدّوْلَةُ أَوّلَ النّهَارِ لِلْمُسْلِمِينَ . فَانْهَزَمَ أَعْدَاءُ اللّهِ وَوَلّوْا مُدْبِرِينَ . حَتّى انْتَهَوْا إلَى نِسَائِهِمْ . فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ الرّمَاةُ قَالُوا : الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ . فَذَكّرَهُمْ أَمِيرُهُمْ عَهْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلَمْ يَسْمَعُوا . فَأَخْلَوْا الثّغْرَ وَكَرّ فُرْسَانُ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهِ فَوَجَدُوهُ خَالِيًا . فَجَاءُوا مِنْهُ وَأَقْبَلَ آخِرُهُمْ حَتّى أَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ فَأَكْرَمَ اللّهُ مَنْ أَكْرَمَ مِنْهُمْ بِالشّهَادَةِ - وَهُمْ سَبْعُونَ - وَوَلّى الصّحَابَةُ .
وَخَلَصَ الْمُشْرِكُونَ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَجَرَحُوهُ جِرَاحَاتٍ وَكَسَرُوا رُبَاعِيّتَهُ . وَقُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَدَفَعَ اللّوَاءَ إلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . وَأَدْرَكَهُ الْمُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ . فَحَالَ دُونَهُ نَحْوَ عَشَرَةٍ حَتّى قُتِلُوا . ثُمّ جَلَدَهُمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللّهِ حَتّى أَجْهَضَهُمْ عَنْهُ . وَتَرّسَ أَبُو دُجَانَةَ عَلَيْهِ بِظَهْرِهِ وَالنّبْلُ يَقَعُ فِيهِ وَهُوَ لَا يَتَحَرّكُ .
وَأُصِيبَتْ يَوْمَئِذٍ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ النّعْمَانِ . فَأُتِيَ بِهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَرَدّهَا بِيَدِهِ . فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ .

<110> وَصَرَخَ الشّيْطَانُ إنّ مُحَمّـدًا قَـدْ قُتِـلَ فَوَقَـعَ ذَلِـكَ فِـي قُلُـوبِ كَثِيـرٍ مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ فَمَـرّ أَنَـسُ بْـنُ النّضْـرِ بِقَـوْمٍ مِـنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالُوا : قُتِلَ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ مَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ ؟ قُومُوا فَمُوتُـوا عَلَـى مَا مَاتَ عَلَيْهِ . ثُمّ اسْتَقْبَلَ النّاسَ وَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ، فَقَـالَ يَـا سَعْدُ إنّي لَأَجِدُ رِيحَ الْجَنّةِ مِنْ دُونِ أُحُدٍ . فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ . وَوَجَدَ بِهِ سَبْعُونَ جِرَاحَةً .
وَقَتَلَ وَحْشِيّ الْحَبَشِيّ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْـهُ . رَمَاهُ بِحَرْبَةِ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَبَشَةِ .
وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نَحْوَ الْمُسْـلِمِينَ . فَكَـانَ أَوّلَ مَنْ عَرَفَهُ تَحْتَ الْمِغْفَرِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ . فَصَاحَ بِأَعْلَى صَـوْتِهِ يَا مَعْشَرَ الْمُسْـلِمِينَ هَـذَا رَسُـولُ اللّـهِ فَأَشَـارَ إلَيْـهِ أَنْ اُسْـكُتْ . فَاجْتَمَعَ إلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . وَنَهَضُوا مَعَهُ إلَى الشّعْبِ الّذِي نَزَلَ فِيهِ .
فَلَمّا أَسْنَدُوا إلَى الْجَبَلِ أَدْرَكَهُ أُبَيّ بْنُ خَلَفٍ عَلَـى فَـرَسٍ لَـهُ كَـانَ يَزْعُمُ بِمَكّةَ أَنّهُ يَقْتُلُ عَلَيْهِ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلَمّا اقْتَرَبَ مِنْهُ طَعَنَـهُ رَسُـولُ اللّـهِ " صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ " فِـي تَرْقُوَتِهِ فَكَرّ مُنْهَزِمًا . فَقَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ مَا بِك مِنْ بَأْسٍ . فَقَالَ وَاَللّهِ لَوْ كَـانَ مَـا بِـي بِأَهْـلِ ذِي الْمَجَـازِ لَمَـاتُوا أَجْمَعِيـنَ . فَمَـاتَ بِسَرِفَ . وَحَانَتْ الصّلَاةُ فَصَلّى بِهِمْ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ جَالِسًا .
وَشَدّ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَـى أَبِـي سُـفْيَانَ . فَلَمّـا تَمَكّـنَ مِنْـهُ حَمَلَ عَلَيْهِ شَدّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ حَنْظَلَةُ جَنْبًا . فَإِنّهُ سَـمِعَ الصّيْحَةَ وَهُوَ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِهِ - قَامَ مِنْ فَوْرِهِ إلَى الْجِهَادِ فَـأَخْبَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّ الْمَلَائِكَةَ تُغَسّلُهُ
وَكَانَ الْأُصَيْرِمُ - عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ - يَـأْبَى الْإِسْـلَامَ . وَهُـوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ . فَلَمّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ : قَذَفَ اللّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِهِ لِلْحُسْنَى الّتِي سَبَقَتْ لَهُ . فَأَسْلَمَ وَأَخَذَ سَيْفَهُ . فَقَاتَلَ حَتّـى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحُ وَلَمْ يَعْلَمْ أَحَدٌ بِأَمْرِهِ . فَلَمّا طَافَ بَنُـو عَبْـدِ الْأَشْـهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ وَجَـدُوا الْأُصَـيْرِمَ - وَبَـهْ رَمَـقٌ يَسِـيرٌ - فَقَـالُوا : وَاَللّهِ إنّ هَذَا الْأُصَيْرِمَ . ثُمّ سَأَلُوهُ مَا الّذِي جَاءَ بِك ؟ أَحَدَبٌ عَلَـى قَوْمِك ، أَمْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَ بَلْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ آمَنْـت

بِاَللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَسْلَمْت . <111> وَمَـاتَ مِـنْ وَقْتِـهِ . فَـذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ " هُوَ مِـنْ أَهْـلِ الْجَنّـةِ " وَلَمْ يُصَلّ لِلّهِ سَجْدَةً قَطّ [70]

وَلَمّا انْقَضَـتْ الْحَـرْبُ أَشْـرَفَ أَبُـو سُـفْيَانَ عَلَـى الْجَبَـلِ وَنَـادَى : أَفِيكُمْ مُحَمّدٌ ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ . فَقَالَ أَفِيكُمْ ابْنُ أَبِـي قُحَافَـةَ ؟ فَلَـمْ يُجِيبُوهُ . فَقَالَ أَفِيكُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ ؟ فَلَمْ يُجِيبُوهُ .

فَقَالَ أَمّا هَؤُلَاءِ فَقَدْ كَفَيْتُمُوهُمْ . فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ أَنْ قَالَ يَـا عَدُوّ اللّهِ إنّ الّذِينَ ذَكَرْتهمْ أَحْيَـاءٌ وَقَـدْ أَبْقَـى اللّـهُ لَـك مَعَهُـمْ مَـا يَسُوءُك . ثُمّ قَالَ اُعْلُ هُبَلُ فَقَـالَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ " أَلَا تُجِيبُـوهُ ؟ " قَـالُوا : مَـا نَقُـولُ ؟ قَـالَ " قُولُـوا : اللّـهُ أَعْلَى وَأَجَلّ " ثُمّ قَالَ لَنَا الْعُزّى ، وَلَا عُزّى لَكُمْ قَـالَ " أَلَا تُجِيبُـوهُ ؟ " قَالُوا : مَا نَقُولُ ؟ قَالَ " قُولُوا : اللّهُ مَوْلَانَا . وَلَا مَوْلَى لَكُمْ " [71] ثُمّ قَالَ يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ . وَالْحَرْبُ سِـجَالٌ فَقَـالَ عُمَـرُ لَا سَـوَاءٌ قَتْلَانَا فِي الْجَنّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النّارِ .

وَأَنْزَلَ اللّـهُ عَلَيْهِـمْ النّعَـاسَ فِـي بَـدْرٍ وَفِـي أُحُـدٍ . وَالنّعَـاسُ فِـي الْحَرْبِ مِنْ اللّهِ . وَفِي الصّلَاةِ وَمَجَالِسِ الذّكْرِ مِنْ الشّيْطَانِ .

وَقَاتَلَتْ الْمَلَائِكَةُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَفِي الصّحِيحَيْنِ عَنْ سَعْدٍ قَالَ رَأَيْت رَسُولَ اللّهِ يَـوْمَ أُحُـدٍ وَمَعَـهُ رَجُلَانِ يُقَاتِلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ . كَأَشَدّ الْقِتَالِ وَمَا رَأَيْتهمَـا قَبْـلُ وَلَا بَعْدُ [72]

وَمَرّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ بِرَجُلِ مِنْ الْأَنْصَارِ - وَهُـوَ يَتَشَـحّطُ فِـي دَمِهِ - فَقَالَ يَا فُلَانُ أَشَعَرْت أَنّ مُحَمّدًا قُتِـلَ ؟ فَقَـالَ الْأَنْصَـارِيّ : إنْ كَانَ قَدْ قُتِلَ فَقَدْ بَلَغَ فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ فَنَـزَلَ (3 ـ 144) وَمَا مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ الْآيَةَ .

وَكَانَ يَوْمُ أُحُدٍ يَوْمَ بَلَاءٍ وَتَمْحِيصٍ اخْتَبَرَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَظْهَرَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ .

وَأَكْرَمَ فِيـهِ مَـنْ أَرَادَ كَرَامَتَـهُ بِالشّـهَادَةِ . فَكَـانَ مِمّـا نَـزَلَ مِـنْ الْقُرْآنِ فِي يَوْمِ أُحُدٍ : إحْدَى وَسِتّونَ آيَةً مِنْ آلِ عِمْـرَانَ ، أَوّلُهَـا (

---

[70] () أَخرَجَهُ : أحمد 5/428-429 من حديث أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[71] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3039 وغيره) مِن حديثِ البَـراءِ بـنِ عـازِبٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[72] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4054) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2306) من حـديثِ سَـعدِ بنِ أبي وَقّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ (3 : 121 - 180) الْآيَاتِ .

وَلَمّا انْصَرَفَتْ قُرَيْشٌ تَلَاوَمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَقَالُوا : لَمْ تَصْنَعُوا شَيْئًا ، أَصَبْتُمْ شَوْكَتَهُمْ ثُمّ تَرَكْتُمُوهُمْ وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ رُءُوسٌ يَجْمَعُونَ لَكُمْ . فَارْجِعُوا حَتّى نَسْتَأْصِلَ بَقِيّتَهُمْ .

<112> فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَنَادَى فِي النّاسِ بِالْمَسِيرِ إلَيْهِمْ وَقَالَ " لَا يَخْرُجُ مَعَنَا إلّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ " فَقَالَ لَهُ ابْنُ أُبَيّ : أَرْكَبُ مَعَك ؟ قَالَ لَا . فَاسْتَجَابَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ - عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ الْقَرْحِ الشّدِيدِ - وَقَالُوا : سَمْعًا وَطَاعَةً . وَقَالَ جَابِرٌ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي أُحِبّ أَنْ لَا تَشْهَدَ مَشْهَدًا إلّا كُنْت مَعَك . وَإِنّمَا خَلّفَنِي أَبِي عَلَى بَنَاتِهِ فَأْذَنْ لِي أَسِيرُ مَعَك . فَأَذِنَ لَهُ .

فَسَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ حَتّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ فَرَجَعُوا إلَى مَكّةَ . وَشَرَطَ أَبُو سُفْيَانَ لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ شَرْطًا عَلَى أَنّهُ إذَا مَرّ بِالنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُخَوّفَهُمْ وَيَذْكُرُ لَهُمْ أَنّ قُرَيْشًا أَجْمَعُوا لِلْكَرّةِ عَلَيْكُمْ لِيَسْتَأْصِلُوا بَقِيّتَكُمْ . فَلَمّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ قَالُوا (3 : 173) حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الرّابِعَةُ . فَكَانَتْ فِيهَا وَقْعَةُ خَيبِرٍ وَأَصْحَابِهِ فِي صَفَرٍ .

وَقْعَةُ بِئْرِ مَعُونَةَ

وَفِي هَذَا الشّهْرِ بِعَيْنِهِ مِنْ السّنَةِ الْمَذْكُورَةِ كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ بِئْرِ مَعُونَةَ . وَفِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوّلِ كَانَتْ غَزْوَةُ بَنِي النّضِيرِ . وَنَزَلَ فِيهَا سُورَةُ الْحَشْرِ . ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْخَامِسَةُ .

غَزْوَةُ الْمُرَيْسِيعِ

فَكَانَتْ فِيهَا غَزْوَةُ الْمُرَيْسِيعِ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُمْ غَارّونَ . فَسَبَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ النّسَاءَ وَالنّعَمَ وَالشّاةَ . وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ السّبْيِ جُوَيْرِيّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ ، سَيّدُ الْقَوْمِ وَقَعَتْ فِي سَهْمِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ . فَكَاتَبَهَا ، فَأَدّى عَنْهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَتَزَوّجَهَا ، فَأَعْتَقَ الْمُسْلِمُونَ - بِسَبَبِ هَذَا التّزَوّجِ - مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ . وَقَالُوا : أَصْهَارُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

قِصّةُ الْإِفْكِ

<113> وَفِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ كَانَتْ قِصّةُ الْإِفْكِ . وَذَلِك أَنّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَعَهُ بِقُرْعَةِ - وَتِلْكَ كَانَتْ عَادَتُهُ مَعَ نِسَائِهِ - فَلَمّا رَجَعُوا : نَزَلَ فِي طَرِيقِهِمْ بَعْضُ الْمَنَازِلِ . فَخَرَجَتْ عَائِشَةُ لِحَاجَتِهَا ، ثُمّ رَجَعَتْ . فَفَقَدَتْ عِقْدًا عَلَيْهَا . فَرَجَعَتْ تَلْتَمِسُهُ . فَجَاءَ الّذِينَ يُرَحّلُونَ هَوْدَجَهَا . فَحَمَلُوهُ . وَهُمْ يَظُنّونَهَا فِيهِ . لِأَنّهَا صَغِيرَةُ السّنّ . فَرَجَعَتْ - وَقَدْ أَصَابَتْ الْعِقْدَ - إلَى مَكَانِهِمْ . فَإِذَا لَيْسَ بِهِ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ . فَقَعَدَتْ فِي الْمَنْزِلِ وَظَنّتْ أَنّهُمْ يَفْقِدُونَهَا ، وَيَرْجِعُونَ إلَيْهَا . فَغَلَبَتْهَا عَيْنَاهَا . فَلَمْ تَسْتَيْقِظْ إلّا بِقَوْلِ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطّلِ : إنّا لِلّهِ وَإِنّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ وَكَانَ صَفْوَانُ قَدْ عَرّسَ فِي أَخْرَيَاتِ الْجَيْشِ لِأَنّهُ كَانَ كَثِيرَ النّوْمِ . فَلَمّا رَآهَا عَرَفَهَا - وَكَانَ يَرَاهَا قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَرْجَعَ . وَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَرَكِبَتْ وَمَا كَلّمَهَا كَلِمَةً وَاحِدَةً . وَلَمْ تَسْمَعْ مِنْهُ إلّا اسْتِرْجَاعَهُ . ثُمّ سَارَ يَقُودُ بِهَا ، حَتّى قَدِمَ بِهَا . وَقَدْ نَزَلَ الْجَيْشُ فِي نَحْرِ الظّهِيرَةِ . فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ النّاسُ تَكَلّمَ كُلّ مِنْهُمْ بِشَاكِلَتِهِ . وَوَجَدَ رَأْسُ الْمُنَافِقِينَ عَدُوّ اللّهِ عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ مُتَنَفّسًا . فَتَنَفّسَ مِنْ كَرْبِ النّفَاقِ وَالْحَسَدِ . فَجَعَلَ يَسْتَحْكِي الْإِفْكَ وَيَجْمَعُهُ وَيُفَرّقُهُ . وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَتَقَرّبُونَ إلَيْهِ به .

فَلَمّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ : أَفَاضَ أَهْلُ الْإِفْكِ فِي الْحَدِيثِ . وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَاكِتٌ لَا يَتَكَلّمُ . ثُمّ اسْتَشَارَ فِي فِرَاقِهَا . فَأَشَارَ عَلَيْهِ عَلِيّ بِفِرَاقِهَا ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ أُسَامَةُ بِإِمْسَاكِهَا .

وَاقْتَضَى تَمَامُ الِابْتِلَاءِ أَنْ حَبَسَ اللّهُ عَنْ رَسُولِهِ الْوَحْيَ شَهْرًا فِي شَأْنِهَا ، لِيَزْدَادَ الْمُؤْمِنُونَ إيمَانًا ، وَثَبَاتًا عَلَى الْعَدْلِ وَالصّدْقِ . وَيَزْدَادَ الْمُنَافِقُونَ إفْكًا وَنِفَاقًا وَلِتَتِمّ الْعُبُودِيّةُ الْمُرَادَةُ مِنْ الصّدّيقَةِ وَأَبَوَيْهَا ، وَتَتِمّ نِعْمَةُ اللّهِ عَلَيْهِمْ وَلِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهَا مِنْ الْمَخْلُوقِ وَتَيْأَسَ مِنْ حُصُولِ النّصْرِ وَالْفَرَجِ إلّا مِنْ اللّهِ .

فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَعِنْدَهَا أَبَوَاهَا . فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمّ قَالَ " يَا عَائِشَةُ إنْ كُنْت بَرِيئَةً فَسَيُبَرّئُك اللّهُ وَإِنْ كُنْت قَدْ أَلْمَمْت بِذَنْبِ فَاسْتَغْفِرِي . فَإِنّ الْعَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ . ثُمّ تَابَ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ " .

<114> قَالَتْ لِأَبِيهَا : أَجِبْ عَنّـي رَسُـولَ اللّـهِ . قَـالَ وَاَللّـهِ مَـا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ .
فَقَالَتْ لِأُمّهَا مِثْلَ ذَلِكَ وَقَالَتْ أُمّهَا مِثْلَ ذَلِكَ .
قَالَتْ فَقُلْـت : إنّـي بَرِيئَـةٌ - وَاَللّـهُ يَعْلَـمُ أَنّـي بَرِيئَـةٌ - لَا تُصَدّقُونِي . وَلَا أَجِدُ لِـي وَلَكُـمْ مَثَلًا . إلّا أَبَـا يُوسُـفَ حَيْـثُ قَـالَ (12 : 18) فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ
قَالَتْ فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَأَمّا أَنَا : فَعَلِمْت أَنّ اللّهَ لَا يَقُولُ إلّا الْحَقّ . وَأَمّا أَبَوَايَ فَوَاَلّـذِي ذَهَـبَ بِأَنْفَاسِهِمَا ، مَا أَقْلَعُ عَنْ رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ إلّا خِفْت أَنّ أَرْوَاحَهُمَا سَتَخْرُجَانِ . فَكَانَ أَوّلَ كَلِمَةٍ قَالَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَمّا اللّهُ يَا عَائِشَةُ فَقَدْ بَرّأَك .
فَقَالَ أَبَوَيّ قُومِي إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . قُلْـت وَاَللّهِ لَا أَقُومُ إلَيْهِ وَلَا أَحْمَـدُ إلّا اللّـهَ " [73] . وَكَـانَ حَسّـانُ رَضِـيَ اللّهُ عَنْهُ مِمّنْ قِيلَ عَنْهُ إنّهُ يَتَكَلّمُ مَعَ أَهْلِ الْإِفْكِ فَقَالَ يَعْتَـذِرُ إلَـى عَائِشَةَ . وَيَمْدَحُهَا :

حَصَـانٌ رَزَانٌ مَـا تَـرَنّ وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ بَرِيئَةً الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةُ حَيّ مِـنْ لُـؤَيّ بْـنِ كِـرَامِ الْمَسَـاعِي . غَالِبٍ مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَذّبَـةٌ قَـدْ طَيّـبَ اللّـهُ طَهّرَهَـا مِـنْ كُـلّ سُـوءٍ خَيْمَهَا وَبَاطِلِ
لَئِنْ كَانَ مَا قَدْ قِيلَ عَنّـي فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إلَـيّ أَنَامِلِي قُلْته
وَكَيْفَ ؟ وَوُدّي مَا حَيِيت ، لِآلِ رَسُـولِ اللّـهِ زَيْـنُ وَنُصْرَتِي الْمَحَافِلِ

وَكَانَتْ عَائِشَةُ لَا تَرْضَى أَنْ يَذْكُرَ حَسّانُ بِشَيْءِ يَكْرَهُهُ وَتَقُولُ إنّـهُ الّذِي يَقُولُ

فَإِنّ أَبِي ، وَوَالِدَتِي ، وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمّدٍ مِنْكُـمْ وَقَاءَ

---

[73] () جُزءٌ مِن حديثِ البُخاريّ (بِرَقْمِ : 4757) .

فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْقِصّةِ أَوّلَ سُورَةِ النّورِ مِنْ قَوْلِهِ (24 : 1 - 26) الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ إلَى آخِرِ الْقِصّةِ .

غَزْوَةُ الْأَحْزَابِ

<115> وَفِي هَذِهِ السّنَةِ - وَهِيَ سَنَةُ خَمْسٍ - كَانَتْ وَقْعَةُ الْخَنْدَقِ فِي شَوّالٍ . وَسَبَبُهَا : أَنّ الْيَهُودَ لَمّا رَأَوْا انْتِصَارَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، خَرَجَ أَشْرَافُهُمْ - كَسَلّامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ - وَغَيْرِهِ إلَى قُرَيْشٍ بِمَكّةَ يُحَرّضُونَهُمْ عَلَى غَزْوِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَوَعَدَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ النّصْرَ لَهُمْ . فَأَجَابَتْهُمْ قُرَيْشٌ . ثُمّ خَرَجُوا إلَى غَطَفَانَ : فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ ثُمّ طَافُوا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إلَى ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ .

فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ - وَقَائِدُهُمْ أَبُو سُفْيَانَ - فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ . وَوَافَقَهُمْ بَنُو سُلَيْمٍ بِمَرّ الظّهْرَانِ ، وَبَنُو أَسَدٍ ، وَفَزَارَةُ وَأَشْجَعُ وَغَيْرُهُمْ . وَكَانَ مَنْ وَافَى الْخَنْدَقَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ عَشَرَةَ آلَافٍ .

فَلَمّا سَمِعَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِمَسِيرِهِمْ إلَيْهِ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ . فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَدُوّ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَبَادَرَ إلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ . وَعَمِلَ فِيهِ بِنَفْسِهِ . وَكَانَ فِي حَفْرِهِ مِنْ آيَاتِ نُبُوّتِهِ مَا قَدْ تَوَاتَرَ الْخَبَرُ بِهِ .

وَخَرَجَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُمْ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ . فَلَمّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنْ الشّدّةِ وَالْجُوعِ . قَالَ

اللّهُمّ لَا عَيْشَ إلّا عَيْشُ الْآخِرَةِ ... فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ

نَحْنُ الّذِينَ بَايَعُوا مُحَمّدًا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا

وَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . فَتَحَصّنَ بِالْجَبَلِ مِنْ خَلْفِهِ - جَبَلُ سَلْعٍ - وَبِالْخَنْدَقِ أَمَامَهُ . وَأَمَرَ بِالنّسَاءِ وَالذّرَارِيّ فَجُعِلُوا فِي آطَامِ الْمَدِينَةِ .

وَانْطَلَقَ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَدَنَا مِنْ حِصْنِهِمْ فَأَبَى كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ أَنْ يَفْتَحَ لَهُ . فَلَمْ يَزَلْ يُكَلّمُهُ حَتّى فَتَحَ لَهُ . فَلَمّا دَخَلَ الْحِصْنَ قَالَ جِئْتُك بِعِزّ الدّهْرِ . جِئْتُك بِقُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ

وَأَسَدٍ ، عَلَى قَادَتِهَا لِحَرْبِ مُحَمّدٍ قَالَ بَلْ جِئْتنِـي <116> وَاَللّـهِ بِذُلّ الدّهْرِ جِئْتنِي بِجِهَامِ قَدْ أَرَاقَ مَاءَهُ . فَهُوَ يَرْعُدُ وَيَبْـرُقُ لَيْـسَ فِيَة شَيْءٌ .
فَلَمْ يَزَلْ حَتّى نَقَضَ الْعَهْدَ الّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَدَخَـلَ مَـعَ الْمُشْـرِكِينَ . وَسُـرّ بِـذَلِكَ الْمُشْـرِكُونَ وَشَرَطَ كَعْبٌ عَلَى حُيَـيّ أَنّهُـمْ إنْ لَـمْ يَظْفَـرُوا بِمُحَمّـدِ أَنْ يَجِيـءَ حَتّى يَدْخُلَ مَعَهُمْ فِي حِصْنِهِمْ فَيُصِـيبُهُ مَـا يُصِـيبُهُمْ فَشَـرَطَ ذَلِـكَ وَوَفَى لَهُ .
وَبَلَغَ رَسُولَ اللّهِ الْخَبَرُ . فَبَعَثَ إلَيْهِمْ السّعْدَيْنِ - سَعْدَ بْـنَ مُعَـاذٍ ، وَسَـعْدَ بْـنَ عُبَـادَةَ - وَخَـوّاتُ بْـنُ جُبَيْـرٍ . وَعَبْـدُ اللّـهِ بْـنُ رَوَاحَـةَ لِيَتَعَرّفُوا الْخَبَرَ . فَلَمّا دَنَوْا مَعَهُمْ وَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَـا يَكُـونُ . وَجَاهَرُوهُمْ بِالسّبّ . وَنَالُوا مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .
فَانْصَرَفُوا وَلَحّنُوا لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَحْنًا .
فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ " اللّهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا ، يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ " .
وَاشْتَدّ الْبَلَاءُ وَنَجَمَ النّفَاقُ . وَاسْتَأْذَنَ بَعْضُ بَنِي حَارِثَةَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي الذّهَابِ إلَـى الْمَدِينَـةِ . وَقَـالُوا (33 : 13) إِنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلّا فِرَارًا
وَأَقَامَ الْمُشْرِكُونَ مُحَاصِرِينَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ شَهْرًا . وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لِأَجْـلِ الْخَنْـدَقِ ، إلّا أَنّ فَـوَارِسَ مِـنْ قُرَيْشٍ - مِنْهُـمْ عَمْـرُو بْـنُ عَبْـدِ وُدّ - أَقْبَلُـوا نَحْـوَ الْخَنْـدَقِ . فَلَمّـا وَقَفُوا عَلَيْهِ قَالُوا : إنّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا كَـانَتْ الْعَـرَبُ تَعْرِفُهَـا . ثُـمّ تَيَمّمُوا مَكَانًا ضَيّقًا مِنْهُ وَجَالَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ فِي السّبْخَةِ وَدُعُوا إلَى الْبَرَازِ . فَانْتَدَبَ لِعَمْرِو : عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَبَارَزَهُ . فَقَتَلَهُ اللّهُ عَلَى يَدَيْ عَلِيّ . وَكَانَ مِنْ أَبْطَالِ الْمُشْرِكِينَ .
وَانْهَزَمَ أَصْحَابُهُ . وَلَمّا طَـالَتْ هَـذِهِ الْحَـالُ عَلَـى الْمُسْـلِمِينَ أَرَادَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَنْ يُصَـالِحَ عُيَيْنَـةَ بْـنَ حِصْـنٍ وَالْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ - رَئِيسَيْ غَطَفَـانَ - عَلَـى ثُلُـثِ ثِمَـارِ الْمَدِينَـةِ وَيَنْصَـرِفَا بِقَوْمِهِمَـا . وَجَـرَتْ الْمُفَاوَضَـةُ عَلَـى ذَلِـكَ . وَاسْتَشَـارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ السّعْدَيْنِ . فَقَالَا : إنْ كَانَ اللّـهُ أَمَرَك : فَسَمْعًا وَطَاعَةً . وَإِنْ كَانَ شَيْئًا تُحِبّ أَنْ تَصْنَعَهُ صَـنَعْنَاهُ .

وَإِنْ <117> كَانَ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا ، فَلَا . لَقَدْ كُنّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا ثَمَرَةً إلّا قُرًى أَوْ بَيْعًا . أَفَحِينَ أَكْرَمَنَا اللّهُ بِالْإِسْلَامِ وَأَعَزّنَا بِك ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ؟ وَاَللّهِ لَا نُعْطِيهِمْ إلّا السّيْفَ . فَصَوّبَ رَأْيَهُمَا .

وَقَالَ " إنّمَا هُوَ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ ، لَمّا رَأَيْت الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ " .

ثُمّ إنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ - وَلَهُ الْحَمْدُ - صَنَعَ أَمْرًا مِنْ عِنْدِهِ خَذَلَ بِهِ الْعَدُوّ .

فَمِنْ ذَلِكَ أَنّ رَجُلًا مِنْ غَطَفَانَ - يُقَالُ لَهُ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ - جَاءَ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ قَدْ أَسْلَمْت ، فَمُرْ بِي بِمَا شِئْت . فَقَالَ " إنّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ . فَخَذّلْ عَنّا مَا اسْتَطَعْت . فَإِنّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ " . فَذَهَبَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وَكَانَ عَشِيرًا لَهُمْ - فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِهِ . فَقَالَ إنّكُمْ قَدْ حَارَبْتُمْ مُحَمّدًا . وَإِنّ قُرَيْشًا إنْ أَصَابُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوهَا ، وَإِلّا انْشَمِرُوا قَالُوا : فَمَا الْعَمَلُ ؟ قَالَ لَا تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ حَتّى يُعْطُوكُمْ رَهَائِنَ . فَقَالُوا : قَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ . ثُمّ مَضَى إلَى قُرَيْشٍ فَقَالَ هَلْ تَعْلَمُونَ وُدّي لَكُمْ وَنُصْحِي ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ إنّ الْيَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ وَإِنّهُمْ قَدْ أَرْسَلُوا إلَى مُحَمّدٍ أَنّهُمْ يَأْخُذُونَ مِنْكُمْ رَهَائِنَ يَدْفَعُونَهَا إلَيْهِ ثُمّ يُمَالِئُونَهُ عَلَيْكُمْ فَإِنْ سَأَلُوكُمْ فَلَا تُعْطُوهُمْ . ثُمّ ذَهَبَ إلَى غَطَفَانَ . فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ .

فَلَمّا كَانَتْ لَيْلَةُ السّبْتِ مِنْ شَوّالٍ بَعَثُوا إلَى يَهُودَ إنّا لَسْنَا مَعَكُمْ بِأَرْضٍ مُقَامٍ وَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفّ . فَاغْدُوَا بِنَا إلَى مُحَمّدٍ حَتّى نُنَاجِزَهُ فَأَرْسَلُوا إلَيْهِمْ إنّ الْيَوْمَ يَوْمُ السّبْتِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِنَا حِينَ أَحْدَثُوا فِيهِ . وَمَعَ هَذَا فَلَا نُقَاتِلُ مَعَكُمْ حَتّى تَبْعَثُوا لَنَا رَهَائِنَ .

فَلَمّا جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ قَالُوا : قَدْ صَدَقَكُمْ وَاَللّهِ نُعَيْمٌ . فَبَعَثُوا إلَيْهِمْ إنّا وَاَللّهِ لَا نَبْعَثُ إلَيْكُمْ أَحَدًا . فَقَالَتْ قُرَيْظَةُ قَدْ صَدَقَكُمْ وَاَللّهِ نُعَيْمٌ . فَتَخَاذَلَ الْفَرِيقَانِ .

وَأَرْسَلَ اللّهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ جُنْدًا مِنْ الرّيحِ فَجَعَلَتْ تُقَوّضُ خِيَامَهُمْ وَلَا تَدَعُ لَهُمْ قَدْرًا إلّا كَفَأَتْهَا ، وَلَا طُنُبًا إلّا قَلَعَتْهُ وَجُنْدًا مِنْ

الْمَلَائِكَةِ يُزَلْزِلُونَ بِهِمْ وَيُلْقُونَ فِي قُلُوبِهِمْ الرّعْبَ كَمَا قَالَ اللّـهُ (33 : 9) يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لّـمْ تَرَوْهَـا . <118> وَأَرْسَـلَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ حُذَيْفَـةَ بْـنَ الْيَمَـانِ } يَـأْتِيهِ بِخَبَرِهِمْ . فَوَجَدَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ وَقَدْ تَهَيّئُـوا لِلرّحِيـلِ . فَرَجَـعَ إلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ بِرَحِيلِهِمْ .

فَلَمّـا أَصْـبَحَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ انْصَـرَفَ عَـنْ الْخَنْدَقِ ، رَاجِعًـا وَالْمُسْـلِمُونَ إلَـى الْمَدِينَـةِ . فَوَضَـعُوا السّـلَاحَ . فَجَـاءَهُ جِبْرِيـلُ وَقْـتَ الظّهْـرِ فَقَـالَ أَقَـدْ وَضَـعْتُمْ السّـلَاحَ ؟ إنّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا ، انْهَضْ إلَى هَؤُلَاءِ - يَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ - فَنَادَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا فَلَا يُصَلّيَن الْعَصْرَ إلّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ " [74] .

فَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ سِرَاعًا ، حَتّـى إذَا دَنَـا رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ يَا إخْوَانَ الْقِرَدَةِ هَـلْ أَخْزَاكُـمْ اللّـهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ ؟ [75] .

وَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ خَمْسًـا وَعِشْـرِينَ لَيْلَةً حَتّى جَهَـدَهُمْ الْحِصَـارُ . وَقَـذَفَ اللّـهُ فِـي قُلُـوبِهِمْ الرّعْـبَ . فَقَالَ لَهُمْ رَئِيسُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ : إنّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًـا ، خُذُوا أَيّهَا شِئْتُمْ نُصَدّقُ هَـذَا الرّجُـلَ وَنَتّبِعُـهُ . فَـإِنّكُمْ تَعْلَمُـونَ أَنّـهُ النّبِيّ الّذِي تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التّوْرَاةِ .

قَالُوا لَا نُفَارِقُ حُكْمَ التّوْرَاةِ أَبَدًا .

قَالَ فَاقْتُلُوا أَبْنَـاءَكُمْ وَنِسَـاءَكُمْ وَاخْرُجُـوا إلَيْـهِ مُصْـلِتِي سُـيُوفَكُمْ حَتّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ .

قَالُوا : فَمَا خَيْرُ الْعَيْشِ بَعْدَ أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا ؟

قَالَ فَانْزِلُوا اللّيْلَةَ . فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمّنُـوكُمْ فِيهَا لِأَنّهَا لَيْلَةُ السّبْتِ - لَعَلّنَا نُصِيبُ مِنْهُمْ غُرّةً . قَـالُوا : لَا نُفْسِـدُ سَبْتَنَا . وَقَدْ عَلِمْت مَا أَصَابَ مَنْ اعْتَدَوْا فِي السّبْتِ . قَالَ مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ - مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمّهُ لَيْلَةً مِنْ الدّهْرِ حَازِمًا . ثُمّ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَحَكّـمَ فِيهِـمْ سَـعْدَ بْـنَ

---

[74] () أَخرَجَهُ : البُخارِي (بِرَقْمِ : 947 و 4119) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1770) مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[75] () أَخرَجَهُ : الحاكمُ 3/34-35 مِن حديثِ عائِشَةِ ؛ وصَحَّحَهُ وَسَكَتَ الذَّهَبِي .

مُعَاذٍ فَحَكَمَ أَنْ تُقْتَلَ الرّجَالُ وَتُقْسَمُ الْأَمْوَالُ وَتُسْبَى الذّرَارِيّ وَالنّسَاءُ . وَأَنْزَلَ اللّهُ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ صَدْرَ سُورَةِ الْأَحْزَابِ . وَذَكَرَ قِصّتَهُمْ فِي قَوْلِهِ (33 : 9 - 27) يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ - إلَى قَوْلِهِ - وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ السّادِسَةُ .

صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ

وَفِيهَا كَانَتْ وَقْعَةُ الْحُدَيْبِيَةِ . وَعِدّةُ الصّحَابَةِ إذْ ذَاكَ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ . وَهُمْ أَهْلُ الشّجَرَةِ ، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرّضْوَانِ . <119> خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِهِمْ مُعْتَمِرًا ، لَا يُرِيدُ قِتَالًا . فَلَمّا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلّدَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ وَبَعَثَ عَيْنًا مِنْ خُزَاعَةَ يُخْبِرُهُ عَنْ قُرَيْشٍ . حَتّى إذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْ عُسْفَانَ أَتَاهُ عَيْنُهُ فَقَالَ : إنّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيّ قَدْ جَمَعُوا جُمُوعًا ، وَهُمْ مُقَاتِلُوك ، وَصَادّوك عَنْ الْبَيْتِ .

حَتّى إذَا كَانَ بِبَعْضِ الطّرِيقِ قَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " إنّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِكُرَاعِ الْغَمِيمِ ، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ " .

فَمَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتّى إذَا هُوَ بِغَبَرَةِ الْجَيْشِ . فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا . وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى إذَا كَانَ فِي ثَنِيّةِ الْمِرَارِ ، الّتِي يَهْبِطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا : بَرَكَتْ رَاحِلَتُهُ فَقَالَ النّاسُ حَلْ حَلْ . فَقَالُوا : خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ فَقَالَ " مَا خَلَأَتْ الْقَصْوَاءُ وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ . ثُمّ قَالَ وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطّةً يُعَظّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللّهِ إلّا أَعْطَيْتهمْ إيّاهَا " .

ثُمّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ بِهِ . فَعَدَلَ حَتّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ . فَلَمْ يَلْبَثْ النّاسُ أَنْ نَزَحُوهُ . فَشَكَوْا إلَيْهِ . فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ . وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ فَوَاَللّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرّيّ حَتّى صَدَرُوا عَنْهُ [76] .

وَفَزِعَتْ قُرَيْشٌ لِنُزُولِهِ . فَأَحَبّ أَنْ يَبْعَثَ إلَيْهِمْ رَجُلًا . فَدَعَا عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ لَيْسَ لِي بِمَكّةَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ يَغْضَبُ لِي إنْ أُوذِيت ، فَأَرْسِلْ عُثْمَانَ . فَإِنّ عَشِيرَتَهُ بِهَا ، وَإِنّهُ يُبَلّغُ مَا أَرَدْت . فَدَعَاهُ فَأَرْسَلَهُ إلَى قُرَيْشٍ ، وَقَالَ " أَخْبِرْهُمْ أَنّا

---

[76] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 2731 و 2732) من حديثِ الْمِسوَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ وَإِنّمَا جِئْنَا عُمّارًا ، وَادْعُهُمْ إلَى الْإِسْـلَامِ وَأَمَـرَهُ أَنْ يَأْتِيَ رِجَالًا بِمَكّةَ مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَـاتٍ . فَيُبَشّـرُهُمْ فِـي الْفَتْـحِ وَأَنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ مُظْهِرٌ دِينَهُ بِمَكّةَ حَتّـى لَا يَتَخَفّـى فِيهَـا الْإِيمَـانُ " .

فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ . فَمَرّ عَلَى قُرَيْـشٍ . فَقَـالُوا : إلَـى أَيْـنَ ؟ فَقَـالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَدْعُوكُمْ إلَـى اللّـهِ وَإِلَـى الْإِسْلَامِ وَيُخْبِرُكُمْ أَنّهُ لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ . وَإِنّمَا جِئْنَـا عُمّـارًا . قَـالُوا : قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ . فَانْفُذْ إلَى حَاجَتِك .

وَقَامَ إلَيْهِ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْـنِ الْعَـاصِ ، فَرَحّـبَ بِـهِ . وَحَمَلَـهُ عَلَـى الْفَرَسِ ، وَأَرْدَفَهُ أَبَانٌ حَتّى جَاءَ مَكّةَ. <120> وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ خَلَصَ عُثْمَانُ مِنْ بَيْنِنَا إلَى الْبَيْتِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " مَا أَظُنّهُ طَـافَ بِـالْبَيْتِ وَنَحْنُ مَحْصُورُونَ " قَالُوا : وَمَا يَمْنَعُهُ يَا رَسُولَ اللّهِ وَقَدْ خَلَـصَ ؟ قَالَ " ذَلِكَ ظَنّي بِهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ حَتّى نَطُوفَ مَعَهُ " .

وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمُشْرِكِينَ فِي أَمْرِ الصّلْحِ . فَرَمَى رَجُلٌ مِنْ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ رَجُلًا مِنْ الْفَرِيقِ الْآخَرِ . فَكَـانَتْ مَعْرَكَـةٌ . وَتَرَامَـوْا بِالنّبْلِ وَالْحِجَارَةِ . وَصَاحَ الْفَرِيقَانِ وَارْتَهَنَ كُلّ مِنْهُمَا مَنْ فِيهِمْ .

وَبَلَغَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ . فَـدَعَا إلَى الْبَيْعَةِ . فَتَبَادَرُوا إلَيْهِ وَهُوَ تَحْتَ الشّجَرَةِ . فَبَايَعُوهُ عَلَى أَنْ لَا يَفِرّوا . فَأَخَذَ بِيَدِ نَفْسِهِ وَقَالَ " هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ " [77] .

وَلَمّا تَمّتْ الْبَيْعَةُ رَجَعَ عُثْمَـانُ فَقَـالُوا لَـهُ اشْـتَفَيْت مِـنْ الطّـوَافِ بِالْبَيْتِ . فَقَالَ بِئْسَمَا ظَنَنْتُمْ بِي . وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ مَكَثْت بِهَا سَنَةً وَرَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَسَـلّمَ بِالْحُدَيْبِيَـةِ مَـا طُفْت بِهَا حَتّى يَطُوفَ . وَلَقَدْ دَعَتْنِي قُرَيْشٌ إلَى الطّوَافِ فَـأَبَيْت . فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ رَسُولُ اللّهِ أَعْلَمُ بِاَللّهِ وَأَحْسَنُنَا ظَنّا .

وَكَانَ عُمَرُ أَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْبَيْعَةِ وَهُـوَ تَحْتَ الشّجَرَةِ ، فَبَايَعَهُ الْمُسْلِمُونَ كُلّهُمْ . لَمْ يَتَخَلّفْ إلّا الْجَـدّ بْـنُ قَيْسٍ .

وَكَانَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ آخِذًا بِغُصْنِهَا يَرْفَعُهُ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَكَانَ أَوّلَ مَـنْ بَـايَعَهُ أَبُـو سِـنَانٍ وَهْـبُ بْـنُ مِحْصَـنٍ

---

[77] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3130 و3698 وَغَيرُهُ) من حديثِ ابنِ عُمَرٍ رَضِـيَ اللّهُ عَنْهُ .

الْأَسَدِيّ ، وَبَايَعَهُ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ثَلَاثَ مَرّاتٍ فِي أَوّلِ النّاسِ وَوَسَطِهِمْ وَآخِرِهِمْ .
فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرِ خُزَاعَةَ - وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحٍ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ - فَقَالَ إنّي تَرَكْت ابْنَ لُؤَيّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيّ : قَدْ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ ، مَعَهُمْ الْعَوْذُ الْمَطَافِيلُ . وَهُمْ مُقَاتِلُوك وَصَادّوك عَنْ الْبَيْتِ . فَقَالَ " إنّا لَمْ نجِئ لِقِتَالِ أَحَدٍ . وَإِنّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ . وَإِنّ قُرَيْشًا نَهَكَتْهُمْ الْحَرْبَ وَأَضَرّتْ بِهِمْ . فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتهمْ وَيُخَلّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النّاسِ . فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النّاسُ فَعَلُوا ، وَإِلّا فَقَدْ جَمّوا ، وَإِنْ أَبَوْا إلّا الْقِتَالَ فَوَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنّاهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي ، أَوْ لَيُنْفِذَن اللّهُ أَمْرَهُ " .
<121> قَالَ بُدَيْلٌ سَأُبَلّغُهُمْ مَا تَقُولُ . فَانْطَلَقَ حَتّى أَتَى قُرَيْشًا ، فَقَالَ إنّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرّجُلِ وَسَمِعْته يَقُولُ قَوْلًا . فَإِنْ شِئْتُمْ عَرَضْته عَلَيْكُمْ .
فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُحَدّثَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ . وَقَالَ ذَوُو الرّأْيِ مِنْهُمْ هَاتِ مَا سَمِعْته يَقُولُ قَالَ سَمِعْته يَقُولُ كَذَا وَكَذَا .
فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إنّ هَذَا قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ . فَقَالُوا : ائْتِهِ . فَأَتَاهُ . فَجَعَلَ يُكَلّمُهُ . فَقَالَ لَهُ نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ . فَقَالَ عُرْوَةُ أَيْ مُحَمّدُ ، أَرَأَيْت لَوْ اسْتَأْصَلْت قَوْمَك ، هَلْ سَمِعْت بِأَحَدٍ مِنْ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَك ؟ وَإِنْ تَكُنْ الْأُخْرَى ، فَوَاَللّهِ إنّي لَأَرَى أَوْ شَابّا مِنْ النّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرّوا وَيَدَعُوك .
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : اُمْصُصْ بَظْرَ اللّاتِ ، أَنَحْنُ نَفِرّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ ؟ .
قَالَ عُرْوَةُ مَنْ ذَا يَا مُحَمّدُ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ . قَالَ أَمَا وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَك عِنْدِي - لَمْ أَجْزِك بِهَا - لَأَجَبْتُك .
وَجَعَلَ يُكَلّمُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَيَرْمُقُ أَصْحَابَهُ . فَوَاَللّهِ مَا انْتَخَمَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ نُخَامَةً إلّا وَقَعَتْ فِي كَفّ رَجُلٍ مِنْهُمْ . فَدَلّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ وَإِذَا أَمَرَ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ . وَإِذَا تَوَضّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ . وَإِذَا تَكَلّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ . وَمَا يَجِدُونَ إلَيْهِ النّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ .

فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ أَيْ قَـوْمِ وَاَللّـهِ لَقَـدْ وَفَـدْت عَلَـى الْمُلُوكِ - كِسْـرَى ، وَقَيْصَـرَ . وَالنّجَاشِـيّ - وَاَللّـهِ إنْ رَأَيْـت مَلِكًـا يُعَظّمُهُ أَصْحَابُهُ كَمَا يُعَظّمُ أَصْحَابُ مُحَمّدٍ مُحَمّدًا . وَاَللّهِ مَا انْتَخَمَ نُخَامَةً إلّا وَقَعَتْ فِي كَفّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَدَلّكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْـدَهُ . ثُـمّ أَخْبَرَهُمْ بِجَمِيعِ مَا تَقَدّمَ ثُمّ قَـالَ وَقَـدْ عَـرَضَ عَلَيْكُـمْ خُطّـةَ رُشْـدٍ فَاقْبَلُوهَا .

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ " دَعُونِي آتِهِ فَقَالُوا : ائْتِهِ . فَلَمّا أَشْـرَفَ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ " هَذَا فُلَانٌ وَهُـوَ مِـنْ قَـوْمٍ يُعَظّمُونَ الْبُدْنَ . فَابْعَثُوهَا لَـهُ " فَفَعَلُـوا وَاسْـتَقْبَلَهُ الْقَـوْمُ يُلَبّـونَ فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ . قَالَ سُبْحَانَ اللّهِ مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يَصُـدّوا عَـنْ الْبَيْتِ . فَرَجَعَ إلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ . <122> فَبَيْنَـا هُـمْ كَـذَلِكَ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو . فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " قَـدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ " .

فَقَالَ هَاتِ أُكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَك كِتَابًا . فَدَعَا الْكَاتِبَ وَهُوَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - فَقَالَ " اُكْتُبْ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ " فَقَـالَ سُـهَيْلٌ أَمّا الرّحْمَنُ فَمَا أَدْرِي مَا هُوَ ؟ وَلَكِنْ اُكْتُبْ " بِاسْمِك اللّهُمّ " كَمَـا كُنْت تَكْتُـبُ . فَقَـالَ الْمُسْـلِمُونَ وَاَللّـهِ لَا نَكْتُبُهَـا إلّا " بِسْـمِ اللّـهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ " فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ " اُكْتُـبْ بِاسْـمِك اللّهُمّ " ثُمّ قَالَ " اُكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمّـدٌ رَسُـولُ اللّـهِ " فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاَللّهِ لَوْ نَعْلَمُ أَنّك رَسُولُ اللّهِ مَا صَدَدْنَاك عَنْ الْبَيْـتِ وَلَكِنْ اُكْتُبْ " مُحَمّدَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ " فَقَالَ " إنّي رَسُـولُ اللّـهِ وَإِنْ كَذّبْتُمُونِي ، اُكْتُبْ مُحَمّدَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ " ثُمّ قَالَ النّبِـيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " عَلَـى أَنْ تُخَلّـوا بَيْنَنَـا وَبَيْـنَ الْبَيْـتِ . فَنَطُـوفَ بِـهِ " فَقَالَ سُهَيْلٌ وَاَللّهِ لَا تُحَدّثُ الْعَرَبُ أَنّنَـا أُخِـذْنَا ضَغْطَةً وَلَكِـنْ ذَاكَ مِنْ الْعَامِ الْمُقْبِلِ . فَقَالَ سُهَيْلٌ " وَعَلَـى أَنْ لَا يَأْتِيَـك رَجُـلٌ مِنّـا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِك ، إلّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا " فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ " سُـبْحَانَ اللّهِ كَيْفَ يُرَدّ إلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا ؟ " .

فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ وَقَدْ خَـرَجَ مِـنْ أَسْـفَلَ مَكّةَ يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ حَتّى رَمَى بِنَفْسَةِ بَيْنَ أَظْهُـرِ الْمُسْـلِمِينَ . فَقَالَ سُهَيْلٌ هَذَا أَوّلُ مَا أُقَاضِيك عَلَيْهِ أَنْ تَرُدّهُ إلَـيّ فَقَـالَ النّبِـيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " إنّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ " فَقَالَ إذًا وَاَللّـهِ لَا أُصَالِحُك عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا . فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ " فَأَجِزْهُ لِي " قَالَ مَا أَنَا بِمُجْتَزّهِ لَك . قَالَ " بَلَى فَافْعَلْ " قَـالَ مَـا

أَنَا بِفَاعِلِ . قَالَ أَبُـو جَنْـدَلٍ يَـا مَعْشَـرَ الْمُسْـلِمِينَ كَيْـفَ أُرَدّ إِلَـى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْـت مُسْـلِمًا ؟ أَلَا تَـرَوْنَ مَـا لَقِيـت ؟ وَكَـانَ قَـدْ عُذّبَ فِي اللّهِ عَذَابًا شَدِيدًا - قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ : " وَاَللّـهِ مَـا شَكَكْت مُنْذُ أَسْـلَمْت إلّا يَوْمَئِـذٍ . فَـأَتَيْت النّبِـيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ أَلَسْت نَبِيّ اللّهِ ؟ فَالَ . بَلَى . قُلْـت : أَلَسْنَا عَلَى حَقّ وَعَدُوّنَا عَلَـى الْبَاطِـلِ ؟ قَـالَ بَلَـى . قُلْـت عَلَامَ نُعْطِي الدّنِيّةَ فِي دِينِنَا ؟ وَنَرْجِعُ وَلَمّا يَحْكُمُ اللّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَعْـدَائِنَا ؟ فَقَالَ إنّي رَسُولُ اللّهِ وَهُوَ نَاصِرِي . وَلَسْت أَعْصِـيهِ . قُلْـت . أَوَ لَسْت تُحَدّثُنَا : أَنّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ قَـالَ بَلَـى ، أَفَأَخْبَرْتُـك أَنّك تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قُلْت : لَا . قَـالَ فَإِنّـك آتِيـهِ وَمُطّـوّفٌ بِـهِ . قَـالَ فَأَتَيْت أَبَا بَكْرٍ . فَقُلْت لَهُ مِثْلَمَا قُلْت لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ . وَرَدّ عَلَيّ كَمَا رَدّ عَلَيّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ سَوَاءً وَزَادَ فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ حَتّى نَمُوتَ .
فَوَاَللّهِ إنّهُ لَعَلَى الْحَقّ . فَعَمِلْت لِـذَلِكَ أَعْمَـالًا " . <123> فَلَمّـا فَرَغَ مِنْ قَضِيّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لِأَصْحَابِهِ " قُومُوا فَانْحَرُوا . ثُمّ احْلِقُوا " قَالَ فَوَاَللّهِ مَا قَامَ مِنْهُـمْ رَجُلٌ حَتّى قَالَهَا ثَلَاثَ مَرّاتٍ . فَلَمّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَـدٌ ، قَـامَ وَلَـمْ يُكَلّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتّى نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ .
فَلَمّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا . وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِـقُ بَعْضًـا ، حَتّـى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمّا . ثُمّ جَاءَ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فَأَنْزَلَ اللّـهُ (60 :ـ 10) ـ يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَـاتُ مُهَـاجِرَاتٍ فَـامْتَحِنُوهُنّ - حَتّـى بَلَـغَ - بِعِصَـمِ الْكَـوَافِرِ فَطَلّـقَ عُمَـرُ يَوْمَئِـذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشّرْكِ .
وَفِي مَرْجِعِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنَزَلَ اللّهُ سُورَةَ الْفَتْحِ (48 : 1 ـ إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ مَا تَقَـدّمَ مِـنْ ذَنْبِـكَ وَمَـا تَأَخّرَ - الْآيَةَ . فَقَالَ عُمَرُ أَوَ فَتْحٌ هُوَ يَـا رَسُـولَ اللّـهِ ؟ قَـالَ نَعَـمْ . قَالَ الصّحَابَةُ هَذَا لَك يَا رَسُولَ اللّهِ فَمَا لَنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللّهُ (48 : 4 ، 5) هُوَ الّذِي أَنْزَلَ السّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيمَانًا مَعَ إيمَانِهِمْ - الْآيَتَيْنِ إلَى قَوْلِهِ - فَوْزًا عَظِيمًا
وَلَمّا رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ جَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - مُسْلِمًا ، فَأَرْسِلُوا فِي طَلَبِـهِ رَجُلَيْـنِ وَقَـالُوا : الْعَهْـدَ الّـذِي بَيْنَنَـا وَبَيْنَـك .

فَدَفَعَهُ إلَى الرّجُلَيْنِ . فَخَرَجَا بِهِ حَتّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ . فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ .
فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِهِمَا : إنّي أَرَى سَيْفَك هَذَا جَيّدًا . فَقَالَ أَجَلْ . وَاَللّهِ إنّهُ لَجَيّدٌ لَقَدْ جَرّبْت بِهِ ثُمّ جَرّبْت فَقَالَ أَرِنِي أَنْظُرُ إلَيْهِ . فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ . فَضَرَبَهُ حَتّى بَرَدَ . وَفَرّ الْآخَرُ . حَتّى بَلَغَ الْمَدِينَةَ . فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا " فَلَمّا انْتَهَى إلَيْهِ قَالَ قُتِلَ وَاَللّهِ صَاحِبِي ، وَإِنّي لَمَقْتُولٌ .
فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ ، فَقَالَ يَا نَبِيّ اللّهِ قَدْ أَوْفَى اللّهُ ذِمّتَك ، قَدْ رَدَدْتنِي إلَيْهِمْ فَأَنْجَانِي اللّهُ مِنْهُمْ . فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " وَيْلَ أُمّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ " .
فَلَمّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنّهُ سَيَرُدّهُ إلَيْهِمْ . فَخَرَجَ حَتّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ . وَتَفَلّتَ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ . فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ . فَلَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ - قَدْ أَسْلَمَ - إلّا لَحِقَ بِهِ .
حَتّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ . فَوَاَللّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ خَرَجَتْ إلَى الشّامِ إلّا اعْتَرَضُوا لَهَا ، فَقَاتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ . فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ تُنَاشِدُهُ اللّهَ وَالرّحِمَ لَمّا أَرْسَلَ إلَيْهِمْ فَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ .

غَزْوَةُ خَيْبَرَ

وَلَمّا <124> قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الْحُدَيْبِيَةِ ، مَكَثَ بِالْمَدِينَةِ عِشْرِينَ يَوْمًا ، أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا . ثُمّ خَرَجَ إلَى خَيْبَرَ . وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ وَقَدِمَ أَبُو هَرِيرَةَ حِينَئِذٍ الْمَدِينَةَ مُسْلِمًا . فَوَافَى سِبَاعًا فِي صَلَاةِ الصّبْحِ . فَسَمِعَهُ يَقْرَأُ وَيْلٌ لِلْمُطَفّفِينَ فَقَالَ - وَهُوَ فِي الصّلَاةِ - وَيْلُ أَبِي فُلَانٍ لَهُ مِكْيَالَانِ إذَا اكْتَالَ بِالْوَافِي ، وَإِذَا كَالَ كَالَ بِالنّاقِصِ .
وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : خَرَجْنَا إلَى خَيْبَرٍ . فَقَالَ رَجُلٌ لِعَامِرِ بْنِ الْأَكْوَعِ أَلَا تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيّاتِك ؟ فَنَزَلَ يَحْدُو وَيَقُولُ

لَا هُمّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدّقْنَا وَلَا صَلّيْنَا

فَأَنْزِلَن سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبّتْ الْأَقْدَامَ إنْ لَاقَيْنَا

إنّا إذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا وَبِالصّـــيَاحِ عَوّلُـــوا عَلَيْنَا

وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " مَنْ هَذَا السّائِقُ ؟ " قَالُوا : عَامِرُ بْـنُ الْأَكْوَعِ . قَالَ " رَحِمَهُ اللّهُ " [78] فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ : وَجَبَـتْ يَـا رَسُولَ اللّهِ لَوْلَا مَتّعْتنَا بِهِ ؟ .
قَالَ فَأَتَيْنَا خَيْبَـرَ . فَحَاصَـرْنَاهُمْ حَتّـى أَصَـابَتْنَا مَخْمَصَـةٌ شَـدِيدَةٌ . فَلَمّا تَصَافّوا خَرَجَ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بِسَيْفِهِ وَيَقُولُ -

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّـي مَرْحَبٌ شَاكّي السّلَاحِ بَطَـلٌ مُجَرّبُ

إذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلْهَبُ

فَنَزَلَ إلَيْهِ عَامِرٌ وَهُوَ يَقُولُ -

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّـي عَامِرٌ شَاكّي السّلَاحِ بَطَـلٌ مُغَامِرُ

فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ . فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ فِـي تُـرْسِ عَـامِرٍ فَعَضّـهُ . فَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ لَهُ - وَكَانَ سَـيْفُهُ قَصْـرًا - فَرَجَـعَ إلَيْـهِ سَـيْفُ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ فَمَاتَ .
قَالَ سَلَمَةُ فَقُلْت لِلنّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ زَعَمُـوا أَنّ عَـامِرًا حَبَطَ عَمَلُهُ فَقَالَ " كَذَبَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ إنّ لَهُ أَجْرَانِ - وَجَمَـعَ بَيْـنَ إصْبَعَيْهِ - إنّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ ، قَلّ عَرَبِيّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ " [79] . <1 25> وَلَمّا دَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ خَيْبَرَ قَـالَ " قِفُوا " فَوَقَفَ الْجَيْشُ .
فَقَالَ " اللّهُمّ رَبّ السّمَوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ وَرَبّ الْأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضَلَلْنَ وَرَبّ الرّيَاحِ وَمَـا أَذْرَيْـنَ . فَإِنّـا

---

[78]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 6331) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1802) من حديثِ سَلمة بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .
[79]() أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4196) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1802)مِن حـديثِ سَـلمة بنِ الأكوعِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

نَسْأَلُك خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا ، وَخَيْرَ مَا فِيهَا . وَنَعُوذُ بِك مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا ، وَشَرّ مَا فِيهَا . أَقْدِمُوا بِاسْمِ اللّهِ " .
فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً . وَكَانَتْ أَرْضًا وَخْمَةً شَدِيدَةَ الْحَرّ . فَجَهَدَ الْمُسْلِمُونَ جَهْدًا شَدِيدًا . فَقَامَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِيهِمْ . فَوَعَظَهُمْ وَحَضّهُمْ عَلَى الْجِهَادِ .
وَكَانَ فِيهِمْ عَبْدٌ أَسْوَدُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي رَجُلٌ أَسْوَدُ اللّوْنِ قَبِيحُ الْوَجْهِ مُنْتِنُ الرّيحِ لَا مَالَ لِي . فَإِنْ قَاتَلْت هَؤُلَاءِ حَتّى أُقْتَلَ أَدْخُلْ الْجَنّةَ ؟ قَالَ " نَعَمْ " فَتَقَدّمَ . فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ ، فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا رَآهُ " لَقَدْ حَسّنَ اللّهَ وَجْهَك ، وَطَيّبَ رِيحَك . وَكَثّرَ مَالَك " وَقَالَ " لَقَدْ رَأَيْت زَوْجَتَيْهِ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ تَتَنَازَعَانِ جُبّةً عَلَيْهِ . وَتَدْخُلَانِ فِيمَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَجُبّتِهِ " .
فَافْتَتَحَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَسَلّمَ بَعْضَهَا ، ثُمّ تَحَوّلَ إلَى الْكَعْبَةِ ، وَالْوَطِيحِ ، وَالسّلَالِمِ . فَإِنّ خَيْبَرَ كَانَتْ جَانِبَيْنِ الْأَوّلُ الشّقّ وَالنّطَاةُ ، الّذِي افْتُتِحَ أَوّلًا . وَالثّانِي : مَا ذَكَرْنَا .
فَحَاصَرَهُمْ حَتّى إذَا أَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ سَأَلُوهُ الصّلْحَ . وَنَزَلَ إلَيْهِ سَلّامُ ابْنُ أَبِي الْحَقِيقِ فَصَالَحَهُمْ عَلَى حَقْنِ الدّمَاءِ وَعَلَى الذّرّيّةِ وَيَخْرُجُونَ مِنْ خَيْبَرَ ، وَيُخَلّونَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ مَالٍ وَأَرْضٍ . وَعَلَى الصّفْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ وَالْحَلْقَةِ إلّا ثَوْبًا عَلَى ظَهْرِ إنْسَانٍ .
فَلَمّا أَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ قَالُوا : نَحْنُ أَعْلَمُ بِهَذِهِ الْأَرْضِ مِنْكُمْ . فَدَعْنَا نَكُونُ فِيهَا . فَأَعْطَاهُمْ إيّاهَا ، عَلَى شَطْرِ مَا يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرِهَا وَزَرْعِهَا .
ثُمّ قَسَمَهَا عَلَى سِتّةٍ وَثَلَاثِينَ سَهْمًا ، كُلّ سَهْمٍ مِائَةُ سَهْمٍ . فَكَانَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَسِتّمِائَةِ سَهْمٍ . نِصْفُهَا لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَا يَنْزِلُ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ . وَالنّصْفُ الْآخَرُ قَسَمَهُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ

قُدُومُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَصَحْبِهِ مِنْ الْحَبَشَةِ

وَفِي <126> هَذِهِ الْغَزْوَةِ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمّهِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابُهُ . وَمَعَهُمْ الْأَشْعَرِيّونَ : أَبُو مُوسَى ، وَأَصْحَابُهُ .
قَالَ أَبُو مُوسَى بَلَغْنَا مَخْرَجَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ . فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إلَيْهِ - أَنَا وَأَخَوَانِ لِي - فِي بِضْعٍ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي . فَرَكِبْنَا سَفِينَةً . فَأَلْقَتْنَا إلَى النّجَاشِيّ

، فَوَافَقْنَا جَعْفَرٌ وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ فَقَالَ إِنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَنَا وَأَمَرَنَا بِالْإِقَامَةِ فَأَقِيمُوا مَعَنَا . فَأَقَمْنَا حَتّى قَدِمْنَا فَتْحَ خَيْبَرَ . وَكَانَ نَاسٌ يَقُولُونَ لَنَا : سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ . فَدَخَلَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ عَلَى حَفْصَةَ . فَدَخَلَ عَلَيْهَا عُمَرُ وَعِنْدَهَا أَسْمَاءُ . فَقَالَ مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ . قَالَ الْحَبَشِيّةُ هَذِهِ ؟ الْبَحْرِيّةُ هَذِهِ ؟ قَالَتْ أَسْمَاءُ نَعَمْ قَالَ سَبَقْنَاكُمْ بِالْهِجْرَةِ . نَحْنُ أَحَقّ بِرَسُولِ اللّهِ مِنْكُمْ . فَغَضِبَتْ وَقَالَتْ كَلّا وَاَللّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُطْعِمُ جَائِعَكُمْ وَيَعِظُ جَاهِلَكُمْ . وَكُنّا فِي أَرْضِ الْبَعْدَاءِ الْبَغْضَاءِ . وَذَلِكَ فِي ذَاتِ اللّهِ وَفِي رَسُولِهِ وَاَيْمُ اللّهِ لَا أُطْعِمُ طَعَامًا ، وَلَا أَشْرَبُ شَرَابًا حَتّى أَذْكُرَ مَا قُلْت لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَلَمّا جَاءَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ذَكَرْت لَهُ ذَلِكَ . فَقَالَ مَا قُلْت لَهُ ؟ قَالَتْ قُلْت لَهُ كَذَا وَكَذَا . قَالَ لَيْسَ بِأَحَقّ بِي مِنْكُمْ . لَهُ لِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكُمْ أَنْتُمْ - يَا أَهْلَ السّفِينَةِ - هِجْرَتَانِ [80]

فَكَانَ أَبُو مُوسَى وَأَصْحَابُ السّفِينَةِ يَأْتُونَهَا أَرْسَالًا ، يَسْأَلُونَهَا عَنْ الْحَدِيثِ مَا مِنْ الدّنْيَا شَيْءٌ هُمْ بِهِ أَفْرَحُ وَلَا أَعْظَمُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِمّا قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

مُحَاصَرَةُ رَسُولِ اللّهِ بَعْضَ الْيَهُودِ بِوَادِي الْقُرَى

ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ خَيْبَرَ إلَى وَادِي الْقُرَى وَكَانَ بِهِ جَمَاعَةٌ مِنْ الْيَهُودِ ، وَانْضَافَ إلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ مِنْ الْعَرَبِ .

فَلَمّا نَزَلُوا اسْتَقْبَلَتْهُمْ يَهُودُ بِالرّمْيِ وَهُمْ عَلَى غَيْرِ تَعْبِئَةٍ . فَقُتِلَ مُدَعّمٌ - عَبْدٌ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . كَانَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الْجُذَامِيّ وَهَبَهُ لِرَسُولِ اللّهِ فَقَالَ النّاسُ هَنِيئًا لَهُ الْجَنّةُ . فَقَالَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " كَلّا ، وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ . إنّ الشّمْلَةَ الّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنْ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْقِسْمَةُ لِتَشْتَعِلَ عَلَيْهِ نَارًا فَلَمّا سَمِعَ ذَلِكَ <127> النّاسُ جَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ ، أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ [81] .

---

[80] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3136 و 3876 وغيره) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2502-2503) من حديثِ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

[81] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4234) ومُسلم (بِرَقْمِ : 115) من حديثِ أَبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فَعَبّأَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ وَصَفّهُمْ ثُمّ دَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَأَبَوْا . وَبَرَزَ رَجُلٌ مِنْهُمْ . فَبَرَزَ إلَيْهِ الزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ فَقَتَلَهُ . ثُمّ بَرَزَ آخَرُ فَبَرَزَ إلَيْهِ عَلِيّ فَقَتَلَهُ . حَتّى قُتِلَ مِنْهُمْ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا . فَقَاتَلَهُمْ حَتّى أَمْسَوْا . ثُمّ غَدَا عَلَيْهِمْ . فَلَمْ تَرْتَفِعْ الشّمْسُ قَدْرَ رُمْحٍ حَتّى افْتَتَحَهَا عَنْوَةً . وَأَصَابُوا أَثَاثًا وَمَتَاعًا كَثِيرًا . فَقَسَمَهُ فِي أَصْحَابِهِ .وَتَرَكَ الْأَرْضَ وَالنّخْلَ بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَعَامَلَهُمْ عَلَيْهَا . وَلَمّا رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ رَدّ الْمُهَاجِرُونَ إلَى الْأَنْصَارِ مَنَائِحَهُمْ مِنْ النّخِيلِ

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا لَمّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ قُلْنَا : الْآنَ نَشْبَعُ مِنْ التّمْرِ

بَعْثُ سَرِيّةٍ إلَى الْحُرُقَاتِ

ثُمّ بَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَرِيّةً إلَى الْحُرُقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ . فَلَمّا دَنَوْا مِنْهُمْ بَعَثَ الْأَمِيرُ الطّلَائِعَ . فَلَمّا رَجَعُوا بِخَبَرِهِمْ أَقْبَلَ حَتّى دَنَا مِنْهُمْ لَيْلًا ، وَقَدْ هَدَءُوا ، ثُمّ قَامَ فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ . ثُمّ قَالَ " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنْ تُطِيعُونِي وَلَا تَعْصُونِي ، وَلَا تُخَالِفُوا أَمْرِي . فَإِنّهُ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . ثُمّ رَتّبَهُمْ . فَقَالَ يَا فُلَانُ أَنْتَ فُلَانٌ وَيَا فُلَانُ أَنْتَ وَفُلَانٌ لَا يُفَارِقُ كُلّ مِنْكُمْ صَاحِبَهُ وَزَمِيلَهُ وَإِيّاكُمْ أَنْ يَرْجِعَ أَحَدٌ مِنْكُمْ فَأَقُولُ . أَيْنَ صَاحِبُك ؟ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي . فَإِذَا كَبّرْت فَكَبّرُوا . وَجَرّدُوا السّيُوفَ . ثُمّ كَبّرُوا وَحَمَلُوا حَمْلَةً وَاحِدَةً . وَأَحَاطُوا بِالْقَوْمِ وَأَخَذَتْهُمْ سُيُوفُ اللّهِ

عُمْرَةُ الْقَضِيّةِ

فَلَمّا كَانَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ السّنَةِ السّابِعَةِ خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُعْتَمِرًا عُمْرَةَ الْقَضِيّةِ . حَتّى إذَا بَلَغَ بَأْجَجَ وَضَعَ الْأَدَاةَ كُلّهَا ، إلّا الْجُحَفَ وَالْمِجَانّ وَالنّبْلَ وَالرّمَاحَ . وَدَخَلُوا بِسِلَاحِ الرّاكِبِ - السّيُوفِ - وَبَعَثَ <128> جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ إلَى مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ يَخْطُبُهَا . فَجَعَلَتْ أَمْرَهَا إلَى الْعَبّاسِ . فَزَوّجَهُ إيّاهَا .

فَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَكْشِفُوا عَنْ الْمَنَاكِبِ وَيَسْعَوْا فِي الطّوَافِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ قُوّتَهُمْ - وَكَانَ يُكَايِدُهُمْ بِكُلّ مَا اسْتَطَاعَ - فَوَقَفَ أَهْلُ مَكّةَ - الرّجَالَ وَالنّسَاءَ وَالصّبْيَانَ - يَنْظُرُونَ إلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ

يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ . وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ آخِذٌ بِخِطَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَرْتَجِزُ يَقُولُ

خَلّوا بَنِي الْكُفّارِ عَنْ سَبِيلِهِ ... خَلّوا فَكُلّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ

قَدْ أَنَزَلَ الرّحْمَنُ فِي تَنْزِيلِهِ ... فِي صُحُفٍ تُتْلَى عَلَى رَسُولِهِ

بِأَنّ خَيْرَ الْقَتْلِ فِي سَبِيلِهِ ... يَا رَبّ إنّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ

إنّي رَأَيْت الْحَقّ فِي قَبُولِهِ ... الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ

كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ ... ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ

وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فَأَقَامَ بِمَكّةَ ثَلَاثًا . ثُمّ أَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى . فَصَاحَ حُوَيْطِبٌ نُنَاشِدُك اللّهَ وَالْعَقْدَ لَمّا خَرَجْت مِنْ أَرْضِنَا . فَقَدْ مَضَتْ الثّلَاثُ فَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَبَا رَافِعٍ فَأَذِنَ بِالرّحِيلِ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّامِنَةُ . فَكَانَتْ فِيهَا

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ

وَسَبَبُهَا : أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَ الْحَارِثَ بْنَ عُمَيْرٍ بِكِتَابٍ إلَى مَلِكِ الرّومِ - أَوْ بُصْرَى - فَعَرَضَ لَهُ شُرَحْبِيلُ بْنُ عَمْرٍو الْغَسّانِيّ . فَقَتَلَهُ - وَلَمْ يُقْتَلْ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَسُولٌ غَيْرُهُ - فَاشْتَدّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَبَعَثَ الْبُعُوثَ . وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ، وَقَالَ " إنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النّاسِ وَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ " [82] فَتَجَهّزُوا . وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ .

فَلَمّا حَضَرَ خُرُوجُهُمْ . وَدَعَ النّاسُ أُمَرَاءَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَسَلّمُوا عَلَيْهِمْ . فَبَكَى عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ . فَقَالُوا

---

[82] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 4260 و 4261) من حديثِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

مَا يُبْكِيك ؟ فَقَالَ أَمَـا وَاَللّـهِ مَـا بِـي حُـبّ الـدّنْيَا وَلَا صُـبَابَةٌ بِكُـمْ . وَلَكِنّي سَمِعْت رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ يَقْـرَأُ آيَـةً مِـنْ كِتَابِ اللّهِ يَذْكُرُ فِيهَا النّارَ (16 : 71) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبّكَ حَتْمًا مَقْضِيّا وَلَسْت <129> أَدْرِي كَيْفَ لِـي بِالصّـدُورِ بَعْدَ الْوُرُودِ ؟ فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ صَحِبَكُمْ اللّهُ وَدَفَعَ عَنْكُمْ . وَرَدّكُـمْ إلَيْنَا صَالِحِينَ . فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ

لَكِنّنِي أَسْأَلُ الرّحْمَـنَ وَضَـــرْبَةَ ذَاتِ فُـــرْعٍ
مَغْفِرَةً تَقْذِفُ الزّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَـدَيْ حَـرّانَ بِحَرْبَـةِ تَنْفُـذُ الْأَحْشَـاءَ
مُجَهّزَةً وَالْكَبِدَا
حَتّـى يُقَـالَ إذَا مَـرّوا يَا أَرْشَدَ اللّهُ مِنْ غَـازٍ .
عَلَى جَدّتِي : وَقَدْ رَشَدَا

ثُمّ مَضَوْا حَتّى نَزَلُوا مَعَانَ . فَبَلَغَهُمْ أَنّ هِرَقْـلَ بِالْبَلْقَـاءِ فِـي مِائَـةِ أَلْفٍ مِنْ الرّومِ وَانْضَمّ إلَيْهِ مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامٍ وَبَلِـيّ وَغَيْرِهِـمْ مِائَـةُ أَلْفٍ .
فَأَقَامُوا لَيْلَتَيْنِ يَنْظُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ .
وَقَالُوا : نَكْتُبُ إلَى رَسُولِ اللّهِ فَنُخْبِرُهُ . فَإِمّا أَنْ يُمِـدّنَا ، وَإِمّـا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَشَجّعَهُمْ عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَقَالَ وَاَللّـهِ إنّ الّـذِي تَكْرَهُونَ لِلّذِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ الشّهَادَةَ . وَمَا نُقَاتِلُ النّـاسَ بِقُـوّةِ وَلَا كَثْرَةٍ وَمَا نُقَاتِلُهُمْ إلّا بِهَذَا الدّينِ الّذِي أَكْرَمَنَا اللّهُ بِهِ فَـانْطَلَقُوا فَإِنّمَا هِيَ إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إمّا ظَفَرٌ . وَإِمّا شَهَادَةٌ .
فَمَضَى النّـاسُ حَتّـى إذَا كَـانُوا بِتُخُـومِ الْبَلْقَـاءِ لَقِيَتْهُـمْ الْجُمُـوعُ . فَانْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إلَى مُؤْتَةَ . ثُمّ اقْتَتَلُوا عِنْدَهَا وَالرّايَةُ فِي يَدِ زَيْدٍ . فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلْ بِهَا حَتّى شَاطَ فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ . فَأَخَـذَهَا جَعْفَـرٌ فَقَاتَلَ بِهَا . حَتّى إذَا أَرْهَقَهُ الْقِتَالُ اقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهَا . ثُـمّ قَاتَلَ حَتّى قُطِعَتْ يَمِينُهُ . فَأَخَذَ الرّايَةَ بِيَسَارِهِ فَقُطِعَـتْ يَسَـارُهُ . فَاحْتَضَنَ الرّايَةَ حَتّى قُتِلَ . وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً .
رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ . ثُمّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ . فَتَقَدّمَ بِهَا ، وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ فَجَعَلَ يَسْتَنْزِلُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ

أُقْسِمُ بِاَللّهِ لَتُنْزِلُنّهُ لَتَنْزِلَن أَوْ لَتُكْرِهَنهُ

يَـا ظَالِمًـا قَـدْ كُنْـت مُطْمَئِنّهْ إنْ أَجْلَـــبَ النّـــاسُ وَشَدّوا الرّنّةَ

مَالِي أَرَاك تَكْرَهِينَ الْجَنّةَ ؟

وَيَقُولُ أَيْضًا

يَـــا نَفْـــسُ إنْ لَـــمْ تُقْتَلِي تَمُوتِي هَـذَا حِمَـامُ الْمَـوْتِ قَدْ صَلَّيْت

وَمَـــا تَمَنّيْـــت فَقَـــدْ أُعْطِيت إنْ تَفْعَلِـــي فِعْلَهُمَـــا هُدِيت

<130> ثُمّ نَزَلَ فَأَتَاهُ فَنَادَاهُ ابْنُ عَمّ لَهُ بِعِرْقِ مِنْ لَحْـمٍ . فَقَـالَ شُدّ بِهَذَا صُلْبَك ، فَإِنّك لَقِيت فِي أَيّامِك هَـذِهِ مَـا لَقِيـت . فَأَخَـذَهَا فَانْتَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ثُمّ سَمِعَ الْخَطْمَةَ فِـي نَاحِيَـةِ النّـاسِ . فَقَـالَ وَأَنْتَ فِي الدّنْيَا ؟ فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ وَتَقَدّمَ . فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ .

ثُمّ أَخَذَ الرّايَةَ خَالِدَ بْـنَ الْوَلِيـدِ . فَـدَافَعَ الْقَـوْمُ وَخَاشَـى بِهِـمْ ثُـمّ انْحَازُوا ، وَانْصَرَفَ النّاسُ .

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَجَدْنَا مَا بَيْنَ صَدْرِ جَعْفَـرٍ وَمَنْكِبِـهِ وَمَـا أَقْبَـلَ مِنْـهُ تِسْعِينَ جِرَاحَةً .

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ كُنْت يَتِيمًا لِعَبْدِ اللّهِ بْنِ رَوَاحَةَ . فَخَرَجَ بِي فِي سَفَرِهِ ذَلِكَ مُرْدِفِي عَلَى حَقِيبَـةِ رَحْلِـهِ . فَـوَاَللّهِ إنّـهُ لَيَسِـيرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ إذْ سَمِعْته وَهُوَ يَنْشُدُ شِعْرًا :

إذَا أَدّيْتنِـي وَحَمَلْـت رَحْلِي مَسِـيرَةَ أَرْبَـعٍ بَعْـدَ الْحُسَامِ

فَشَـــأْنُك فَـــانْعُمِي ، وَخَلَاك ذَمّ وَلَا أَرْجِعُ إلَـى أَهْلِـي وَرَائِي

وَجَـــاءَ الْمُسْـــلِمُونَ وَغَادَرُونِي بِـــــأَرْضِ الشّـــــامِ مُسْتَنْهِي الثّوَاءِ

وَرَدّك كُلّ ذِي نَسَبٍ قَرِيبٍ إلَى الرّحْمَنِ مُنْقَطِعِ الْإِخَاءِ

هُنَالِكَ لَا أُبَالِي طَلْـعَ بَعْلٍ وَلَا نَخْـــلٍ أَسَـــافِلُهَا وَرَائِي

قَالَ فَبَكَيْت . فَخَفَقَنِي بِالسّوْطِ وَقَالَ مَا عَلَيْك يَا لُكَعُ أَنْ يَرْزُقَنِـي اللّهُ الشّهَادَةَ وَتَرْجِعُ بَيْنَ شُعْبَتَيْ الرّحْلِ .

غَزْوَةُ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ

وَكَانَتْ سَنَةَ ثَمَانٍ فِي رَمَضَانَ .

وَسَـبَبُهَا : أَنّ بَكْـرًا عَـدَتْ عَلَـى خُزَاعَـةَ فِـي مَـائِهِمْ " الْـوَتِيرِ " فَبَيّتُوهُمْ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ . وَكَانَ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ " أَنَّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَعَلَ وَمَنْ أَحَبّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ فَعَلَ " فَدَخَلَتْ بَنُو بَكْرٍ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ ، وَدَخَلَتْ خُزَاعَةُ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . ثُـمَّ إنّ بَنِي بَكْرٍ وَثَبُوا عَلَى خُزَاعَةَ لَيْلًا بِمَاءٍ يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ ، قَرِيبًا مِـنْ مَكّةَ . وَأَعَانَتْ قُرَيْشٌ بَنِي بَكْرٍ <131> بِالسّلَاحِ . وَقَاتَـلَ مَعَهُـمْ بَعْضُهُمْ مُسْتَخْفِيًا لَيْلًا ، حَتّى لَجَأَتْ خُزَاعَةُ إلَى الْحَرَمِ .

فَلَمّا انْتَهَوْا إلَيْهِ قَالَتْ بَنُو بَكْرٍ لِنَوْفَـلِ بْـنِ مُعَاوِيَـةَ الـدّيلِيّ - وَكَـانَ يَوْمَئِذٍ قَائِدَهُمْ - يَا نَوْفَلُ إنّا قَدْ دَخَلْنَـا الْحَـرَمَ إلَهَـك إلَهَـك . فَقَـالَ كَلِمَةً عَظِيمَةً لَا إلَهَ لَهُ الْيَوْمَ . يَا بَنِي بَكْرٍ أَصِيبُوا ثَأْرَكُمْ . فَلَعَمْـرِي إنّكُمْ لَتَسْرِقُونَ فِي الْحَرَمِ . أَفَلَا تُصِيبُونَ ثَأْرَكُمْ فِيهِ ؟

فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِـيّ ، حَتّـى قَـدِمَ عَلَـى رَسُـولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ الْمَدِينَـةَ . فَوَقَـفَ عَلَيْـهِ وَهُـوَ جَـالِسٌ فِـي الْمَسْجِدِ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ

يَـا رَبّ إنّـي نَاشِـدٌ ... حِلْـفُ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الْأَتْلَدَا
مُحَمّدًا
قَدْ كُنْتُمُوا وُلْدًا وَكُنّـا ... ثُمّـتْ أَسْـلَمْنَا وَلَـمْ نَنْزِعْ يَدًا
وَالِدًا
فَانْصُـرْ هَـدَاك اللّـهُ ... وَادْعُ عِبَادَ اللّهِ يَـأْتُوا مَدَدَا
نَصْرًا أَيّدًا
فِيهِمْ رَسُولُ اللّهِ قَدْ ... أَبْيَـضُ مِثْـلُ الْبَـدْرِ يَسْمُو صَعِدَا
تَجَرّدَا
إنْ سِـيمَ خَسْـفًا ... فِـي فَيْلَـقٍ كَـالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدًا
وَجْهُهُ تَرَبّدَا
إنّ قُرَيْشًـا أَخْلَفُـوك ... وَنَقَضُـوا مِيثَاقَـك

الْمَوْعِدَا الْمُؤَكّدَا

وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ رَصَدًا وَزَعَمُوا أَنْ لَسْت أَدْعُو أَحَدًا

وَهُمْ أَذَلّ وَأَقَلّ عَدَدًا هُمْ بَيّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجّدًا

وَقَتَلُونَا رُكّعًا وَسُجّدًا

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " نُصِرْت يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ " .

ثُمّ خَرَجَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ ، حَتّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا أُصِيبَ مِنْهُمْ وَبِمُظَاهَرَةِ قُرَيْشٍ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلنّاسِ " كَأَنّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ لِيَشُدّ الْعَقْدَ وَيَزِيدَ فِي الْمُدّةِ . بَعَثَتْهُ قُرَيْشٌ . وَقَدْ رَهّبُوا لِلّذِي صَنَعُوا " .

ثُمّ قَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ . فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ أُمّ حَبِيبَةَ . فَلَمّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَى فِرَاشِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ طَوَتْهُ عَنْهُ . فَقَالَ يَا بُنَيّةُ مَا أَدْرِي : أَرَغِبْت بِي عَنْ هَذَا الْفِرَاشِ ، أَمْ رَغِبْت بِهِ عَنّي ؟ قَالَتْ بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَنْتَ مُشْرِكٌ نَجِسٌ . فَقَالَ وَاَللّهِ لَقَدْ أَصَابَك بَعْدِي شَرّ . ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَكَلّمَهُ فَلَمْ يَرُدّ عَلَيْهِ شَيْئًا . ثُمّ ذَهَبَ إلَى أَبِي بَكْرٍ فَكَلّمَهُ فِي أَنْ يُكَلّمَ النّبِيّ < 132> صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . ثُمّ أَتَى عُمَرُ فَقَالَ أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ ؟ وَاَللّهِ لَوْ لَمْ أَجِدْ إلّا الذّرّ لَجَاهَدْتُكُمْ بِهِ .

ثُمّ دَخَلَ عَلَى عَلِيّ وَعِنْدَهُ فَاطِمَةُ - وَالْحَسَنُ غُلَامٌ يَدِبّ بَيْنَ يَدَيْهَا - فَقَالَ يَا عَلِيّ ، إنّك أَمَسّ الْقَوْمِ بِي رَحِمًا وَإِنّي جِئْت فِي حَاجَةٍ فَلَا أَرْجِعَن خَائِبًا . اشْفَعْ لِي إلَى مُحَمّدٍ . فَقَالَ قَدْ عَزَمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى أَمْرٍ مَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُكَلّمَهُ فِيهِ - فَقَالَ لِفَاطِمَةَ هَلْ لَك أَنْ تَأْمُرِي ابْنَك هَذَا ، فَيُجِيرُ بَيْنَ النّاسِ . فَيَكُونُ سَيّدَ الْعَرَبِ إلَى آخِرِ الدّهْرِ ؟ فَقَالَتْ مَا يَبْلُغُ ابْنِي ذَلِكَ . وَمَا يُجِيرُ أَحَدٌ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

فَقَالَ يَا أَبَا الْحَسَنِ إنّي رَأَيْت الْأُمُورَ قَدْ اشْتَدّتْ عَلَيّ فَانْصَحْنِي . قَالَ وَاَللّهِ مَا أَعْلَمُ شَيْئًا يُغْنِي عَنْك . وَلَكِنّك سَيّدُ بَنِي كِنَانَةَ فَقُمْ وَأَجِرْ بَيْنَ النّاسِ ثُمّ الْحَقْ بِأَرْضِك .
فَقَالَ أَوَتَرَى ذَلِكَ مُغْنِيًا عَنّي شَيْئًا ؟ قَالَ لَا ، وَاَللّهِ مَا أَظُنّهُ وَلَكِنْ مَا أَجِدُ لَك غَيْرَ ذَلِكَ .
فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ يَا أَيّهَا النّاسُ إنّي قَدْ أَجَرْت بَيْنَ النّاسِ . ثُمّ رَكِبَ بَعِيرُهُ . وَانْصَرَفَ عَائِدًا إلَى مَكّةَ . فَلَمّا قَدِمَ عَلَى قُرَيْشٍ قَالُوا : مَا وَرَاءَك ؟ قَالَ جِئْت مُحَمّدًا فَكَلّمْته ، فَوَاَللّهِ مَا رَدّ عَلَيّ شَيْئًا ، ثُمّ جِئْت ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ . فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ خَيْرًا . ثُمّ جِئْت عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ ، فَوَجَدْته أَدْنَى الْعَدُوّ - يَعْنِي : أَعْدَى الْعَدُوّ ثُمّ جِئْت عَلِيّا فَوَجَدْته أَلْيَنَ الْقَوْمِ وَقَدْ أَشَارَ عَلَيّ بِكَذَا وَكَذَا . فَفَعَلْت . قَالُوا : فَهَلْ أَجَازَ ذَلِكَ مُحَمّدًا ؟ قَالَ لَا . قَالُوا : وَيْلَك ، وَاَللّهِ إنْ زَادَ الرّجُلِ عَلَى أَنْ لَعِبَ بِك .
وَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ النّاسَ بِالْجَهَازِ وَقَالَ اللّهُمّ خُذْ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، حَتّى نَبْغَتَهَا فِي بِلَادِهَا
فَكَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إلَى قُرَيْشٍ كِتَابًا ، يُخْبِرُهُمْ فِيهِ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَدَفَعَهُ إلَى سَارَةَ - مَوْلَاةٌ لِبَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ - فَجَعَلْته فِي رَأْسِهَا . ثُمّ فَتَلَتْ عَلَيْهِ قُرُونَهَا . وَأَتَى الْخَبَرُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ السّمَاءِ . فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلِيّا وَالزّبَيْرَ إلَى الْمَرْأَةِ فَأَدْرَكَاهَا بِرَوْضَةِ خَاخٍ . فَأَنْكَرَتْ . فَفَتّشَا رَحْلَهَا . فَلَمْ يَجِدَا فِيهِ شَيْئًا فَهَدّدَاهَا . فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ قُرُونِ رَأْسِهَا . فَأَتَيَا بِهِ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَدَعَا <133> حَاطِبًا . فَقَالَ " مَا هَذَا يَا حَاطِبُ ؟ " فَقَالَ لَا تَعْجَلْ عَلَيّ يَا رَسُولَ اللّهِ . وَاَللّهِ إنّي لَمُؤْمِنٌ بِاَللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا ارْتَدَدْت وَلَا بَدّلْت ، وَلَكِنّي كُنْت امْرِئَ مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ ، لَسْت مِنْ أَنْفُسِهِمْ . وَلِي فِيهِمْ أَهْلٌ وَعَشِيرَةٌ وَوَلَدٌ . وَلَيْسَ لِي فِيهِمْ قَرَابَةٌ يَحْمُونَهُمْ . وَكَانَ مَنْ مَعَك لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَهُمْ . فَأَحْبَبْت أَنْ أَتّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا . قَدْ عَلِمْت أَنّ اللّهَ مُظْهِرٌ رَسُولَهُ وَمُتِمّ لَهُ أَمْرَهُ . فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللّهِ دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ . فَإِنّهُ قَدْ خَانَ اللّهَ وَرَسُولَهُ . وَقَدْ نَافَقَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيك يَا

عُمَرُ ؟ لَعَلّ اللّهَ اطّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ . فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ [83] .
فَذَرَفَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .
ثُمّ مَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَعَمَى اللّهُ الْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ ، لَكِنّهُمْ عَلَى وَجَلٍ . فَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ يَتَجَسّسُ هُوَ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ .
وَكَانَ الْعَبّاسُ قَدْ خَرَجَ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَهْلِهِ وَعِيَالِهِ مُسْلِمًا مُهَاجِرًا . فَلَقِيَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالْجُحْفَةِ . فَلَمّا نَزَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَرّ الظّهْرَانِ نَزَلَ عِشَاءً فَأَمَرَ الْجَيْشَ فَأَوْقَدُوا النّيرَانَ . فَأَوْقَدَ أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ نَارٍ .
فَرَكِبَ الْعَبّاسُ بَغْلَةَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَخَرَجَ يَلْتَمِسُ لَعَلّهُ يَجِدُ بَعْضَ الْحَطّابَةِ أَوْ أَحَدًا يُخْبِرُ قُرَيْشًا . لِيَخْرُجُوا يَسْتَأْمِنُونَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا عَنْوَةً .
قَالَ فَوَاَللّهِ إنّي لَأَسِيرُ عَلَيْهَا ، إذْ سَمِعْت كَلَامَ أَبِي سُفْيَانَ وَبُدَيْلٍ يَتَرَاجَعَانِ يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ مَا رَأَيْت كَاللّيْلَةِ نِيرَانًا قَطّ وَلَا عَسْكَرًا .
قَالَ يَقُولُ بُدَيْلٌ هَذِهِ وَاَللّهِ خُزَاعَةُ حَمَشَتْهَا الْحَرْبُ .
قَالَ يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ خُزَاعَةُ أَقَلّ وَأَذَلّ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِيرَانُهَا .
فَقُلْت : أَبَا حَنْظَلَةَ ؟ فَعَرَفَ صَوْتِي ، فَقَالَ أَبَا الْفَضْلِ ؟ قُلْت : نَعَمْ قَالَ مَا لَك ، فِدَاك أَبِي وَأُمّي ؟ قَالَ قُلْت : هَذَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي النّاسِ وَاصَبَاحَ قُرَيْشٍ وَاَللّهِ قَالَ فَمَا الْحِيلَةُ ؟
قُلْت : وَاَللّهِ لَئِنْ ظَفَرَ بِك لَيَضْرِبَن عُنُقَك . فَارْكَبْ فِي عَجُزِ هَذِهِ الْبَغْلَةِ حَتّى آتِيهِ بِك ، فَأَسْتَأْمِنُهُ لَك . فَرَكِبَ خَلْفِي . وَرَجَعَ صَاحِبَاهُ فَجِئْت بِهِ . فَكُلّمَا مَرَرْت <134> بِنَارٍ مِنْ نِيرَانِ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا : مَنْ هَذَا ؟ فَإِذَا رَأَوْنَا قَالُوا : عَمّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى بَغْلَتِهِ . حَتّى مَرَرْت بِنَارِ عُمَرَ فَقَالَ

---

[83] () أَخرَجَهُ : البُخاري (بِرَقْمِ : 3007) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 2494) من حديثِ عليٍّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

مَنْ هَذَا ؟ وَقَامَ إلَيّ . فَلَمّا رَأَى أَبَا سُفْيَانَ قَالَ عَدُوّ اللّهِ ؟ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَمْكَنَ اللّهُ مِنْك بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ .
ثُمّ خَرَجَ يَشْتَدّ نَحْوَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَرَكَضَتْ الْبَغْلَةُ فَسَبَقَتْهُ وَاقْتَحَمَتْ عَنْهَا . فَدَخَلْت عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ هَذَا أَبُو سُفْيَانَ . قَدْ أَمْكَنَ اللّهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ فَدَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ . فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللّهِ إنّي قَدْ أَجَرْته .
فَلَمّا أَكْثَرَ عُمَرُ قُلْت : مَهْلًا يَا عُمَرُ . فَوَاَللّهِ لَوْ كَانَ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ مَا قُلْت هَذَا . قَالَ مَهْلًا يَا عَبّاسُ . فَوَاَللّهِ لَإِسْلَامُك كَانَ أَحَبّ إلَيّ مِنْ إسْلَامِ الْخَطّابِ لَوْ أَسْلَمَ . وَمَا بِي إلّا أَنّي عَرَفْت أَنّ إسْلَامَك كَانَ أَحَبّ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ إسْلَامِ الْخَطّابِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اذْهَبْ بِهِ يَا عَبّاسُ إلَى رَحْلِك . فَإِذَا أَصْبَحْت فَأْتِنِي بِهِ . فَفَعَلْت . ثُمّ غَدَوْت بِهِ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ وَيْحَك يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تَعْلَمَ أَنّ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ ؟ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَك وَأَوْصَلَك وَاَللّهِ لَقَدْ ظَنَنْت أَنْ لَوْ كَانَ مَعَ اللّهِ غَيْرُهُ لَقَدْ أَغْنَى عَنّي شَيْئًا بَعْدُ . قَالَ وَيْحَك يَا أَبَا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَك أَنْ تَعْلَمَ أَنّي رَسُولُ اللّهِ ؟ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَك وَأَوْصَلَك ، أَمّا هَذِهِ فَفِي النّفْسِ حَتّى الْآنَ مِنْهَا شَيْءٌ .
فَقَالَ لَهُ الْعَبّاسُ وَيْحَك . وَأَسْلِمْ قَبْلَ أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَك . قَالَ فَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقّ فَأَسْلَمَ .
فَقَالَ الْعَبّاسُ إنّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبّ الْفَخْرَ فَاجْعَلْ لَهُ شَيْئًا ، قَالَ نَعَمْ مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .
فَلَمّا ذَهَبَ لِيَنْصَرِفَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَا عَبّاسُ احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ خَطْمِ الْجَبَلِ حَتّى تَمُرّ بِهِ جُنُودُ اللّهِ فَيَرَاهَا فَخَرَجْت حَتّى حَبَسْته . وَمَرّتْ الْقَبَائِلُ عَلَى رَايَاتِهَا . حَتّى مَرّ بِهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي كَتِيبَتِهِ الْخَضْرَاءِ - لِكَثْرَةِ <135> الْحَدِيدِ وَظُهُورِهِ فِيهَا - فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، لَا يُرَى مِنْهُمْ إلّا الْحَدَقُ . فَقَالَ سُبْحَانَ اللّهِ يَا عَبّاسُ .

مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قُلْت : هَذَا رَسُولُ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - قَالَ مَا لِأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ طَاقَةٌ .
وَكَانَتْ رَايَةُ الْأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ . فَلَمّا مَرّ بِأَبِي سُفْيَانَ قَالَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ . الْيَوْمَ تُسْتَحَلّ الْحُرْمَةُ . الْيَوْمَ أَذَلّ اللّهُ قُرَيْشًا فَذَكَرَهُ أَبُو سُفْيَانَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ كَذَبَ سَعْدٌ . وَلَكِنّ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ تُعَظّمُ فِيهِ الْكَعْبَةُ الْيَوْمَ أَعَزّ اللّهُ قُرَيْشًا ثُمّ نَزَعَ اللّوَاءَ مِنْ سَعْدٍ . وَدَفَعَهُ إلَى قَيْسِ ابْنِهِ . وَمَضَى أَبُو سُفْيَانَ . فَلَمّا جَاءَ قُرَيْشًا صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ . هَذَا مُحَمّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ بِمَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ فَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ . قَالُوا : قَاتَلَك اللّهُ وَمَا تُغْنِي عَنّا دَارُك " ؟ قَالَ وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ . وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ فَتَفَرّقَ النّاسُ إلَى دُورِهِمْ وَإِلَى الْمَسْجِدِ .
وَسَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى دَخَلَ مَكّةَ مِنْ أَعْلَاهَا ، وَأَمَرَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَدَخَلَهَا مِنْ أَسْفَلِهَا ، وَقَالَ إنْ عَرَضَ لَكُمْ أَحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَاحْصُدُوهُمْ حَصْدًا ، حَتّى تُوَافُونِي عَلَى الصّفَا . فَمَا عَرَضَ لَهُمْ أَحَدٌ إلّا أَنَامُوهُ .
وَتَجَمّعَ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ ، وَسَهْلُ بْنُ عَمْرٍو ، بِالْخَنْدَمَةِ لِيُقَاتِلُوا . وَكَانَ حَمَاسُ بْنُ قَيْسٍ يُعِدّ سِلَاحًا قَبْلَ مَجِيءِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ وَاَللّهِ مَا يَقُومُ لِمُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ شَيْءٌ . فَقَالَ وَاَللّهِ إنّي لَأَرْجُو أَنْ أَخْدُمَك بَعْضَهُمْ ثُمّ قَالَ

إنْ يَقْبَلُوا الْيَوْمَ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ ... فَمَالِي عِلّةٌ وَإِلّهْ

وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ الْقِتْلَة

ثُمّ شَهِدَ الْخَنْدَمَةَ . فَلَمّا لَقِيَهُمْ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَصْحَابِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ : نَاوَشُوهُمْ شَيْئًا مِنْ قِتَالٍ فَأُصِيبَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اثْنَيْ عَشَرَ ثُمّ انْهَزَمُوا فَدَخَلَ حَمَاسٌ عَلَى امْرَأَتِهِ . فَقَالَ ؟ أَغْلِقِي عَلَيّ بَابِي . فَقَالَتْ أَيْنَ مَا كُنْت تَقُولُ ؟ فَقَالَ <136>

إنّك لَوْ شَهِدْت يَوْمَ الْخَنْدَمَهْ ... إذْ فَرّ صَفْوَانُ وَفَرّ عِكْرِمَهْ

وَأَبُــو يَزِيــدُ قَــائِمٌ كَالْمُؤْتِمَهْ وَاسْتَقْبَلْنَا بِالسّـيُوفِ الْمُسْلِمَهْ
يَقْطُــنُ كُــلّ سَــاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ضَــرْبًا فَلَا يُسْــمَعُ إلّا غَمْغَمَهْ
لَهُــمْ نَهِيــت خَلْفَنَــا وَهَمْهَمَهْ لَـمْ تَنْطِقِـي بِـاللّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ

وَقَالَ أَبُـو هُرَيْـرَةَ : أَقْبَـلَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . فَدَخَلَ مَكّةَ .

فَبَعَثَ الزّبَيْرَ عَلَى إحْدَى الْمُجَنّبَتَيْنِ . وَبَعَـثَ خَالِـدًا عَلَـى الْمُجَنّبَـةِ الْأُخْرَى . وَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرّاحِ عَلَى الْحُسّرِ . فَأَخَـذُوا بَطْـنَ الْوَادِي ، وَرَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فِـي كَتِيبَتِـهِ وَقَـدْ وَبِشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشَهَا ، وَقَـالُوا : نُقَـدّمُ هَـؤُلَاءِ . فَـإِذَا كَـانَ لَهُـمْ شَيْءٌ كُنّا مَعَهُمْ وَإِنْ أُصِيبُوا أَعْطَيْنَاهُ الّذِي سَـأَلْنَا . فَقَـالَ رَسُـولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ " يَـا أَبَـا هُرَيْـرَةَ " فَقُلْـت : لَبّيْـكَ يَـا رَسُـولَ اللّـهِ . قَـالَ اهْتِـفْ لِـي بِالْأَنْصَـارِ . وَلَا يَـأْتِينِي إلّا أَنْصَـارِيّ فَهَتَفْت بِهِمْ فَجَاءُوا ، فَأَطَافُوا بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ . فَقَالَ أَتَرَوْنَ إلَـى أَوْبَـاشِ قُرَيْـشٍ وَأَتْبَـاعِهِمْ ؟ - ثُـمّ قَـالَ بِيَـدَيْهِ إحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى - أَحْصُـدُوهُمْ حَصْـدًا ، حَتّـى تُوَافُـونِي عَلَـى الصّفَا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَانْطَلَقْنَـا . فَمَـا يَشَـاءُ أَحَـدٌ مِنّـا أَنْ يَقْتُـلَ مِنْهُمْ مَا شَاءَ إلّا قُتِلَ [84] .

وَرَكَزَتْ رَايَةُ رَسُولِ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بِـالْحَجُونِ عِنْـدَ مَسْجِدِ الْفَتْحِ . ثُمّ نَهَضَ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَـارُ بَيْـنَ يَـدَيْهِ وَخَلْفَـهُ وَحَوْلَهُ حَتّى دَخَلَ الْمَسْجِدُ فَأَقْبَلَ إلَى الْحَجَرِ فَاسْتَلَمَهُ . ثُمّ طَافَ بِالْبَيْتِ . وَفِي يَـدِهِ قَـوْسٌ وَحَـوْلَ الْبَيْـتِ وَعَلَيْـهِ ثَلَاثُمِائَـةٍ وَسِـتّونَ صَنَمًا . فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِالْقَوْسِ وَيَقُولُ جَـاءَ الْحَـقّ وَزَهَـقَ الْبَاطِـلُ إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًـا جَـاءَ الْحَـقّ وَمَـا يُبْـدِئُ الْبَاطِـلُ وَمَـا يُعِيـدُ وَالْأَصْنَامُ تَتَسَاقَطُ عَلَى وُجُوهِهَا .

وَكَانَ طَوَافُهُ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ مُحْرِمًـا يَوْمَئِـذٍ فَاقْتَصَـرَ عَلَـى الطّوَافِ .

---

[84] () أَخرَجَهُ : مُسلِم (بِرَقْمِ : 1780) .

فَلَمّا أَكْمَلَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ . فَأَمَرَ بِهَا فَفُتِحَتْ فَدَخَلَهَا . فَرَأَى فِيهَا الصّوَرَ وَرَأَى صُورَةَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يَسْتَقْسِمَانِ بِالْأَزْلَامِ فَقَالَ قَاتَلَهُمْ اللّهُ وَاَللّهِ إنْ اسْتَقْسَمَا بِهَا قَط [85] وَأَمَرَ بِالصّوَرِ فَمُحِيَتْ . ثُمّ أُغْلِقَ عَلَيْهِ الْبَابُ هُوَ وَأُسَامَةُ وَبِلَالٌ فَاسْتَقْبَلَ الْجِدَارَ الّذِي يُقَابِلُ الْبَابَ . حَتّى إذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ قَدْرُ ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ وَقَفَ وَصَلّى هُنَاكَ . ثُمّ دَارَ فِي الْبَيْتِ وَكَبّرَ فِي نَوَاحِيهِ وَوَحّدَ اللّهَ . ثُمّ فَتَحَ الْبَابَ وَقُرَيْشٌ قَدْ مَلَأَتْ الْمَسْجِدَ صُفُوفًا ، يَنْظُرُونَ مَاذَا يَصْنَعُ بِهِمْ ؟ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ الْبَابِ وَهُمْ تَحْتَهُ . فَقَالَ لا إلَهَ إلّا اللّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَأَعَزّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ أَلَا كُلّ مَأْثَرَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ دَمٍ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيّ هَاتَيْنِ إلّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ <137> الْحَاجّ أَلَا وَقَتْلَ الْخَطَإِ شِبْهِ الْعَمْدِ - السّوْطُ وَالْعَصَا - فَفِيهِ الدّيَةُ مُغَلّظَةٌ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ أَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إنّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَظّمَهَا بِالْآبَاءِ . النّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ " ثُمّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (49 : 13) يَا أَيّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ثُمّ قَالَ " يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ بِكُمْ ، قَالُوا : خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ . قَالَ فَإِنّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطّلَقَاءُ [86]

ثُمّ جَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامَ إلَيْهِ عَلِيّ - وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ - فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السّقَايَةِ - صَلّى اللّهُ عَلَيْك . فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ؟ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ هَاكَ مِفْتَاحَك يَا عُثْمَانُ ، الْيَوْمَ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ

وَأَمَرَ بَلَالًا أَنْ يَصْعَدَ عَلَى الْكَعْبَةِ فَيُؤَذّنَ - وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَعَتّابُ بْنُ أَسَيْدٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَأُشْرَافُ قُرَيْشٍ جُلُوسٌ بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ - فَقَالَ عَتّابٌ لَقَدْ أَكْرَمَ اللّهُ أَسَيْدًا أَنْ لَا يَكُونَ سَمِعَ هَذَا فَقَالَ الْحَارِثُ أَمَا وَاَللّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنّهُ مُحِقّ لَاتّبَعْته . فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لَا أَقُولُ شَيْئًا ، لَوْ تَكَلّمْت لَأَخْبَرَتْ عَنّي هَذِهِ الْحَصْبَاءُ .

---

[85] () البُخاري (بِرَقْمِ : 3352) .

[86] () أبو داودَ (بِرَقْمِ : 4547 و4548) والنَّسائي 40/8-42 وابن ماجة (بِرَقْمِ : 2627 و2628) وأحمد 2/164 و166 .

فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . فَقَـالَ " قَـدْ عَلِمْـت الّذِي قُلْتُمْ " ثُمّ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمْ . فَقَالَ الْحَارِثُ وَعَتّابٌ نَشْـهَدُ أَنّـك رَسُولُ اللّهِ . وَاَللّهِ مَا اطّلَـعَ عَلَـى هَـذَا أَحَـدٌ كَـانَ مَعَنَـا . فَنَقُـولُ أَخْبَرَك .

ثُمّ دَخَلَ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ دَارَ أُمّ هَـانِئٍ فَاغْتَسَـلَ . وَصَـلّى ثَمَانَ رَكَعَاتٍ صَلَاةَ الْفَتْحِ وَكَانَ أَمَرَاءُ الْإِسْلَامِ إذَا فَتَحُوا بَلَدًا صَلّوْا هَذِهِ الصّلَاةَ .

وَلَمّا اسْتَقَرّ الْفَتْحُ أَمّنَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ النّـاسَ كُلّهُـمْ إلّا تِسْـعَةَ نَفَـرٍ فَـإِنّهُ أَمَـرَ بِقَتْلِهِـمْ وَإِنْ وُجِـدُوا تَحْـتَ أَسْـتَارِ الْكَعْبَةِ : عَبْدُ اللّهِ بْنُ أَبِي سَرْحٍ ، وَعِكْرِمَةُ بْـنُ أَبِـي جَهْـلٍ ، وَعَبْـدُ الْعُزّى بْنُ خَطَلٍ وَالْحَارِثُ بْنُ نُقَيْلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ ، وَهَبّارُ بْـنُ الْأَسْوَدِ ، وَقَيْنَتَانِ لِابْنِ خَطَلٍ وَسَارَةُ مَوْلَاةٌ لِبَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ .

فَأَمّا ابْنُ أَبِي سَرْحٍ فَجَاءَ فَارّا إلَى عُثْمَـانَ . فَاسْـتَأْمَنَ لَـهُ رَسُـولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - فَقَبِلَ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ أَمْسَـكَ عَنْـهُ رَجَـاءَ أَنْ يَقُومَ إلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَيَقْتُلَهُ .

<138> وَأَمّـا عِكْرِمَـةُ . فَاسْـتَأْمَنَتْ لَـهُ امْرَأَتُـهُ بَعْـدَ أَنْ هَـرَبَ وَعَادَتْ بِهِ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إسْلَامُهُ .

وَأَمّا ابْنُ خَطَلٍ ، وَمَقِيسٌ وَالْحَارِثُ وَإِحْدَى الْقَيْنَتَيْنِ فَقُتِلُوا .

وَأَمّـا هَبّـارٌ فَفَـرّ ثُـمّ جَـاءَ فَأَسْـلَمَ . وَحَسُـنَ إسْـلَامُهُ . وَاسْـتُؤْمِنَ رَسُولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لِسَـارَةَ وَلِإِحْـدَى الْقَيْنَتَيْـنِ . فَأَسْلَمَتَا .

فَلَمّا كَانَ الْغَدُ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ قَـامَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ فِي النّاسِ خَطِيبًا . فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْـهِ . ثُـمّ قَـال أَيّهَـا النّاسُ إنّ اللّهَ حَرّمَ مَكّةَ يَوْمَ خَلَقَ السّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . فَلَا يَحِـلّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، أَوْ يُعَضّـدَ بِهَـا شَجَرَةً . فَإِنْ أَحَـدٌ تَرَخّـصَ بِقِتَـالِ رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ فَقُولُوا لَـهُ إنّ اللّـهَ أَذِنَ لِرَسُـولِهِ . وَلَـمْ يَـأْذَنْ لَـك . وَإِنّمَـا أَحِلّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ [87]

وَهَمّ فَضَالَةُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ الْمُلَوّحِ اللّيْثِيّ أَنْ يَقْتُلَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ يَطُـوفُ . فَلَمّـا دَنَـا مِنْـهُ قَـالَ " أَفَضَـالَةُ ؟ " قَالَ نَعَمْ فَضَالَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ مَاذَا تُحَدّثُ بِهِ نَفْسَك ؟ قَـالَ لَا

---

[87]() البُخاري (بِرَقْمِ : 2434) ومُسلِم (بِرَقْمِ : 1355) .

شَيْءَ . كُنْت أَذْكُرُ اللّهَ فَضَجِكَ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . ثُـمّ قَـالَ اسْتَغْفِرْ اللّهَ ثُمّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَسَكَنَ قَلْبُـهُ وَكَـانَ فَضَـالَةُ يَقُولُ وَاَللّهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتّى مَا مِنْ خَلْـقِ اللّـهِ شَـيْءٌ أَحَبّ إلَيّ مِنْهُ قَالَ فَضَالَةُ فَرَجَعْـت إلَـى أَهْلِـي . فَمَـرَرْت بِـامْرَأَةٍ كُنْت أَتَحَدّثُ إلَيْهَا ، فَقَالَتْ هَلُمّ إلَى الْحَـدِيثِ . فَقَـالَ لَا . وَانْبَعَـثَ فَضَالَةُ يَقُولُ

قَالَتْ هَلُمّ إلَى الْحَدِيثِ . يَـأْبَى الْإِلَـهُ عَلَيْـك وَالْإِسْلَامُ
فَقُلْت : لَا
لَـوْ قَـدْ رَأَيْـت مُحَمّـدًا بِالْفَتْـحِ يَـوْمَ تُكْسَـرُ الْأَصْنَامُ
وَقَبِيلَهُ
لَرَأَيْت دِينَ اللّـهِ أَضْـحَى بَيّنًا وَالشّـرْكَ يَغْشَـى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَفَرّ يَوْمَئِذٍ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْـنُ أَبِـي جَهْـلٍ . فَاسْـتَأْمَنَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ رَسُولَ اللّهِ لِصَفْوَانَ فَلَحِقَهُ . وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَرْكَـبَ الْبَحْرَ فَرَدّهُ . وَاسْتَأْمَنَتْ أُمّ حَكِيمٍ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ لِزَوْجِهَا عِكْرِمَةَ ، فَلَحِقَتْ بِهِ بِالْيَمَنِ فَرَدّتْهُ .

ثُـمّ أَمَـرَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ عَتّـابَ بْـنَ أُسَـيْدٍ الْخُزَاعِيّ فَجَدّدَ أَنْصَابَ الْحَرَمِ .

<139> وَبَثّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَـرَايَاهُ إلَـى الْأَوْثَـانِ الّتِـي حَوْلَ مَكّةَ . فَكُسِرَتْ كُلّهَا ، مِنْهَا اللّاتِ ، وَالْعُزّى ، وَمَنَاةَ . وَنَـادَى مُنَادِيهِ بِمَكّةَ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ فَلَا يَـدَعُ فِـي بَيْتِـهِ صَنَمًا إلّا كَسَرَهُ

هَدْمُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ صَنَمَ سُوَاعٍ

وَبَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إلَى سُوَاعٍ - وَهُوَ لِهُذَيْلٍ - قَالَ فَأَتَيْته وَعِنْدَهُ السّادِنُ فَقَالَ مَا تُرِيدُ ؟ قُلْت : أَهْدِمَهُ قَـالَ لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ قُلْت : لِمَ ؟ قَالَ تُمْنَعُ . قُلْت : حَتّى الْآنَ أَنْتَ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ وَيْحَك . وَهَلْ يَسْمَعُ أَوْ يُبْصِرُ ؟ فَـدَنَوْت مِنْـهُ فَكَسَـرْته . وَأَمَرْت أَصْحَابِي فَهَدَمُوا بَيْتَ خِزَانَتِهِ . فَلَمْ نَجِدْ فِيهِ شَيْئًا . فَقُلْت لِلسّادِنِ كَيْفَ رَأَيْت ؟ قَالَ أَسْلَمْت لِلّهِ .

بَعْثُ سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ لِهَدْمِ مَنَاةَ

ثُمّ بَعَثَ سَعْدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَبْدِ بْنِ كَعْبِ بْـنِ عَبْـدِ الْأَشْـهَلِ الْأَشْهَلِيّ الْأَنْصَارِيّ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إلَى مَنَاةَ . وَكَانَتْ عِنْدَ قُدَيْدٍ بِالْمُشَلَّلِ لِلْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَغَسّانَ وَغَيْرِهِمْ .
فَخَرَجَ فِي عِشْرِينَ فَارِسًا ، حَتّى انْتَهَـى إلَيْهَـا . وَعِنْـدَهَا سَـادِنُهَا ، فَقَالَ مَا تُرِيدُ ؟ قَالَ هَدْمَهَا . قَالَ أَنْتَ وَذَاكَ . فَأَقْبَلَ سَعْدٌ يَمْشِي إلَيْهَا ، وَتَخْرُجُ إلَيْهِ امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ سَوْدَاءُ ثَائِرَةُ الرّأْسِ تَدْعُو بِالْوَيْلِ وَتَضْرِبُ صَدْرَهَا . فَقَالَ لَهَا السّادِنُ مَنَاةُ دُونَك بَعْضُ عُصَاتِك .
فَضَرَبَهَا سَعْدٌ فَقَتَلَهَا ، وَأَقْبَلَ إلَى الصّنَمِ فَهَدَمَهُ . وَلَمْ يَجِدُوا فِـي خِزَانَتِهَا شَيْئًا .

غَزْوَةُ حُنَيْنٍ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : لَمّـا سَـمِعَتْ هَـوَازِنُ بِالْفَتْـحِ جَمَعَهَـا مَالِـكُ بْـنُ عَوْفٍ النّصْرِيّ مَعَ هَوَازِنَ ثَقِيفٍ كُلّهَا .
فَلَمّا أَجْمَعَ مَالِكٌ السّيْرَ إلَى رَسُولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ سَاقَ مَعَ النّاسِ أَمْوَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيّهُمْ . فَلَمّا نَزَلَ بِأَوْطَاسَ اجْتَمَعُوا إلَيْهِ . وَفِيهِمْ دُرَيْـدُ بْـنُ الصّـمّةَ الْجُشَـمِيّ <140> وَهُـوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِيهِ إلّا رَأْيُهُ وَكَانَ شُجَاعًا مُجَرّبًا .
فَقَالَ بِأَيّ وَادٍ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : بِأَوْطَاسَ . قَـالَ نِعْـمَ مَجَـالُ الْخَيـلِ لَا حَزْنٌ ضَرْسٌ وَلَا سَهْلٌ دَهْسٌ . مَا لِـي أَسْـمَعُ رُغَـاءَ الْبَعِيـرِ وَنُهَـاقَ الْحَمِيرِ وَبُكَاءَ الصّـغِيرِ . وَيُعَـارَ الشّـاءِ ؟ قَـالُوا : سَـاقَ مَالِـكٌ مَـعَ النّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ .
قَالَ أَيْنَ مَالِكٌ ؟ فَدُعِيَ لَهُ فَقَالَ إنّك أَصْبَحْت رَئِيسَ قَوْمِـك . وَإنّ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنْ الْأَيّامِ . فَلِمَ فَعَلْـت هَـذَا ؟ قَـالَ أَرَدْت أَنْ أَجْعَلَ خَلْفَ كُلّ رَجُلٍ أَهْلَهُ وَمَالَهُ لِيُقَاتِلَ عَنْهُمْ . قَالَ رَاعِـي ضَـأْنٍ وَاَللّهِ وَهَلْ يَرُدّ الْمُنْهَزِمَ شَيْءٌ ؟ إنّهَا إنْ كَانَتْ لَك : لَـمْ يَنْفَعْـك إلّا رَجُلٌ بِسَيْفِهِ وَرُمْحِهِ . وَإنْ كَانَتْ عَلَيْك : فُضِحْت فِي أَهْلِك وَمَالِك . ثُمّ قَالَ مَا فَعَلَتْ كَعْبٌ وَكِلَابٌ ؟ قَالُوا : لَمْ يَشْهَدْهَا مِنْهُـمْ أَحَـدٌ . قَـالَ غَـابَ الْجَـدّ وَالْجَـدّ ، لَـوْ كَـانَ يَـوْمُ عِلَاءٍ وَرِفْعَـةٍ لَـمْ يَغِيبُـوا . وَلَوَدِدْت أَنّكُمْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلَتْ كَعْبٌ وَكِلَابٌ . فَمَنْ شَهِدَهَا ؟ قَالُوا عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ ، وَعَوْفُ بْنُ عَامِرٍ . قَالَ ذَانِكَ الْجِذْعَانُ مِنْ عَـامِرٍ لَا يَنْفَعَانِ وَلَا يَضُرّانِ . يَـا مَالِـكُ إنّـك لَـمْ تَصْـنَعْ بِتَقْـدِيمِ الْبَيْضَـةِ - بَيْضَةِ هَوَازِنَ - إلَى نُحُورِ الْخَيْلِ شَيْئًا . ارْفَعْهُمْ إلَى مُمْتَنَعِ بِلَادِهِـمْ وَعَلْيَاءِ قَوْمِهِمْ . ثُمّ أَلْقِ الصّبَا عَلَى مُتُونِ الْخِيلِ . فَإِنْ كَانَتْ لَك :

لَحِقَ بِك مَنْ وَرَاءَك . وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْك : أَلْقَاك ذَاكَ وَقَدْ أَحْرَزْت أَهْلَك وَمَالَك .
قَالَ وَاَللّهِ لَا أَفْعَلُ إنّك قَدْ كَبِرْت وَكَبُرَ عَقْلُك ، وَاَللّهِ لِتُطِيعَنّي يَا مَعْشَرَ هَوَازِنَ ، أَوْ لَأَتّكِئَن عَلَى هَذَا السّيْفِ حَتّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي ، وَكَرِهَ أَنْ يَكُونَ لِدُرَيْدٍ فِيهَا ذِكْرٌ أَوْ رَأْيٌ .
قَالُوا : أَطَعْنَاك . فَقَالَ دُرَيْدٌ هَذَا يَوْمٌ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ يَفُتْنِي .

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ أَخُبّ فِيهَا وَأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاءَ الزّمَعْ كَأَنّهَا شَاةُ صَدَعْ

ثُمّ قَالَ مَالِكٌ إذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَاكْسِرُوا جُفُونَ سُيُوفِكُمْ ثُمّ شُدّوا شَدّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ .
<141> ثُمّ بَعَثَ عُيُونًا مِنْ رِجَالِهِ فَأَتَوْهُ وَقَدْ تَفَرّقَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ الرّعْبِ وَالْهَلَعِ . فَقَالَ لَهُمْ وَيْلَكُمْ مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا : رَأَيْنَا رِجَالًا بِيضًا عَلَى خَيْلٍ بُلْقٍ . وَاَللّهِ مَا تَمَاسَكْنَا أَنْ أَصَابَنَا مَا تَرَى . فَوَاَللّهِ مَا رَدّهُ ذَلِكَ عَنْ وَجْهِهِ أَنْ مَضَى عَلَى مَا يُرِيدُ .
وَلَمّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَ إلَيْهِمْ عَبْدَ اللّهِ بْنَ حَدْرَدٍ الْأَسْلَمِيّ . وَأَمَرَهُ أَنْ يُدَاخِلَهُمْ حَتّى يَعْلَمَ عِلْمَهُمْ . فَانْطَلَقَ . فَدَاخَلَهُمْ حَتّى عَلِمَ مَا هُمْ عَلَيْهِ . فَأَتَى رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ .
فَلَمّا أَرَادَ الْمَسِيرَ ذَكَرَ لَهُ أَنّ عِنْدَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيّةَ أَدْرَاعًا وَسِلَاحًا - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ - فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا أُمَيّةَ أَعِرْنَا سِلَاحَك هَذَا ، نَلْقَ فِيهِ عَدُوّنَا غَدًا " فَقَالَ أَغَصْبًا يَا مُحَمّدُ ؟ قَالَ " بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ ، حَتّى نُؤَدّيهَا إلَيْك فَأَعْطَاهُ مِائَةَ دِرْعٍ بِمَا يَكْفِيهَا السّلَاحُ . فَخَرَجَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَمَعَهُ أَلْفَانِ مِنْ أَهْلِ مَكّةَ ، وَعَشَرَةُ آلَافٍ مِنْ أَصْحَابِهِ الّذِينَ فَتَحَ اللّهُ بِهِمْ مَكّةَ . فَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَاسْتَعْمَلَ عَتّابَ بْنَ أَسَيْدٍ عَلَى مَكّةَ .
فَلَمّا اسْتَقْبَلُوا وَادِي حُنَيْنٍ ، انْحَدَرُوا فِي وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ تِهَامَةَ أَجْوَفَ فِي عِمَايَةِ الصّبْحِ . قَالَ جَابِرٌ وَكَانُوا قَدْ سَبَقُونَا إلَيْهِ فَكَمَنُوا فِي شِعَابِهِ وَمَضَايِقِهِ . قَدْ تَهَيّئُوا . فَوَاَللّهِ مَا رَاعَنَا إلّا الْكَتَائِبُ قَدْ شَدّوا عَلَيْنَا شَدّةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَانْشَمَرَ النّاسُ رَاجِعِينَ لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ . وَانْحَازَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

ذَاتَ الْيَمِينِ ثُمّ قَالَ يَا أَيّهَا النّاسُ هَلُمّوا إلَـيّ أَنَـا رَسُـولُ اللّـهِ أَنَـا مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ
وَبَقِيَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ فَاجْتَلَدَ النّـاسُ . فَـوَاَللّهِ مَا رَجَعَتْ النّاسُ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ حَتّى وَجَدُوا الْأَسْـرَى عِنْـدَ رَسُـولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .
وَكَانُوا حِينَ رَأَوْا كَثْرَتَهُمْ قَالُوا " لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَـنْ قِلّـةٍ " فَوَقَـعَ بِهِمْ مَا وَقَعَ ابْتِلَاءٌ مِنْ اللّهِ لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ .
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَلَمّا وَقَعَتْ الْهَزِيمَةُ تَكَلّمَ رِجَالٌ مِنْ جُفَاةِ أَهْـلِ مَكّةَ بِمَـا فِـي أَنْفُسِـهِمْ مِـنْ الضّـغَنِ فَقَـالَ أَبُـو سُـفْيَانَ لَا تَنْتَهِـي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ ، وَصَـرَخَ حَبَلَـةُ بْـنُ الْحَنْبَـلِ أَلَا بَطَـلَ السّـحَرُ الْيَوْمَ . فَقَالَ لَـهُ أَخُـوهُ صَـفْوَانُ بْـنُ أُمَيّـةَ - وَكَـانَ بَعْـدُ مُشْـرِكًا - اُسْكُتْ فَضّ اللّهُ فَاك . فَوَاَللّهِ لَأَنْ يُرِبْنِي رَجُلٌ مِـنْ قُرَيْـشٍ أَحَـبّ إلَيّ مِنْ أَنْ يُرِبْنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ
<142> وَذَكَرَ ابْنُ إسْحَاقَ عَنْ شَيْبَةَ بْنِ عُثْمَانَ الْحُجَبِيّ . قَـالَ " لَمّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قُلْت : أَسِـيرُ مَـعَ قُرَيْـشٍ إلَـى هَـوَازِنَ ، لَعَلّـي أُصِيبُ مِنْ مُحَمّدٍ غُرّةً . فَأَكُونُ أَنَا الّذِي قُمْت بِثَأْرِ قُرَيْشٍ وَأَقُـولُ لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ أَحَدٌ إلّا تَبِعَهُ مَا اتّبَعْته أَبَدًا .
فَلَمّا اخْتَلَطَ النّاسُ اقْتَحَمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ عَـنْ بَغْلَتِهِ وَأَصْلَتَ السّيْفَ فَدَنَوْت أُرِيدُ مَا أُرِيـدُ وَرَفَعْـت سَـيْفِي حَتّـى كِدْت أَسَوّرُهُ . فَرَفَعَ لِي شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ كَالْبَرْقِ كَادَ أَنْ يُمَحّشْنِي . فَوَضَعْت يَدِي عَلَى بَصَرِي خَوْفًا عَلَيْهِ . فَالْتَفَتَ إلَـيّ رَسُـولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَنَادَانِي يَا شَيْبُ ، اُدْنُ " فَدَنَوْت ، فَمَسَحَ صَدْرِي . قَالَ " اللّهُمّ أَعِذْهُ مِنْ الشّيْطَانِ فَوَاَللّهِ لَهُوَ كَانَ سَاعَتَئِذٍ أَحَـبّ إلَـيّ مِـنْ سَـمْعِي وَبَصَـرِي وَنَفْسِـي . ثُـمّ قَـالَ اُدْنُ فَقَاتِـلْ فَتَقَدّمْت أَمَامَهُ أَضْـرِبُ بِسَـيْفِي . اللّـهُ يَعْلَـمُ أَنّـي أَحِـبّ أَنْ أَقِيَـهُ بِنَفْسِي . لَوْ لَقِيت تِلْكَ السّاعَةَ أَبِي لَأَوْقَعْت بِهِ السّيْفَ . فَجَعَلْـت أَلْزَمُهُ فِيمَنْ لَزِمَهُ حَتّى تَرَاجَـعَ النّـاسُ وَكَـرّوا كَـرّةَ رَجُـلٍ وَاحِـدٍ . وَقُرّبَتْ بَغْلَةُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَاسْتَوَى عَلَيْهَـا . وَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي أَثَرِهِمْ حَتّـى تَفَرّقُـوا فِي كُلّ وَجْـهٍ . وَرَجَـعَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ إلَـى مُعَسْكَرِهِ فَدَخَلَ خِبَاءَهُ . فَدَخَلْت عَلَيْهِ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ غَيْـرِي ، حُبّـا لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ وَسُرُورًا بِهِ فَقَالَ يَا شَيْبُ ، الّذِي أَرَادَ اللّـهُ لَـك ، مِـنْ

الّذِي أَرَدْت لِنَفْسِك " . قَالَ الْعَبّاسُ إنّي لَمَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكُنْت امْرِئَ حَسِيمًا شَدِيدَ الصّوْتِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ رَأَى مِنْ النّاسِ إلَيّ أَيّهَا النّاسُ أَنَا النّبِيّ لَا كَذِبْ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبْ فَلَمْ أَرَ النّاسَ يَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ . فَقَالَ " أَيْ عَبّاسُ اهْتِفْ بِأَصْحَابِ السّمُرَةِ " فَنَادَيْت : يَا أَصْحَابَ السّمُرَةِ يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . فَكَانَ الرّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَرُدّ بَعِيرَهُ فَلَا يَقْدِرُ . فَيَأْخُذُ سِلَاحَهُ وَيَقْتَحِمُ عَنْ بَعِيرِهِ وَيُخَلّي سَبِيلَهُ وَيَؤُمّ الصّوْتَ فَأَتَوْا مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ لَبّيْكَ لَبّيْكَ . حَتّى إذَا اجْتَمَعَ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْهُمْ مِائَةٌ اسْتَقْبَلُوا النّاسَ فَاقْتَتَلُوا . فَكَانَتْ الدّعْوَةُ أَوّلًا " يَا لَلْأَنْصَارِ يَا لَلْأَنْصَارِ " ثُمّ خَلَصَتْ الدّعْوَةُ " يَا لَبَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ " وَكَانُوا صُبُرًا عِنْدَ الْحَرْبِ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ثُمّ أَخَذَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَصَيَاتٍ . فَرَمَى بِهَا وُجُوهَ الْقَوْمِ ثُمّ قَالَ انْهَزِمُوا ، وَرَبّ مُحَمّدٍ . فَمَا هُوَ إلّا أَنْ رَمَاهُمْ فَمَا زِلْت أَرَى حَدّهُمْ كَلِيلًا ، وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا <143>

وَلَمّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ أَتَوْا الطّائِفَ ، وَمِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ . وَعَسْكَرَ بَعْضُهُمْ بِأَوْطَاسَ . وَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي أَثَرِ مَنْ تَوَجّهَ نَحْوَ أَوْطَاسٍ أَبَا عَامِرٍ الْأَشْعَرِيّ فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ فَنَاوَشُوهُ الْقِتَالَ فَهَزَمَهُمْ اللّهُ تَعَالَى . وَقُتِلَ أَبُو عَامِرٍ . فَأَخَذَ الرّايَةَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيّ . فَلَمّا بَلَغَ الْخَبَرُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ ا للّهُمّ اغْفِرْ لِأَبِي عَامِرٍ . وَاجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِك

وَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالسّبْيِ وَالْغَنَائِمِ أَنْ يُجْمَعَ . وَكَانَ السّبْيُ سِتّةَ آلَافِ رَأْسٍ وَالْإِبِلُ أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، وَالْغَنَمُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَاةٍ وَأَرْبَعَةُ آلَافِ أُوقِيّةٍ فِضّةً .

فَاسْتَأْنَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنْ يَقْدَمُوا مُوَالِينَ مُسْلِمِينَ بِضْعَةَ عَشَرَ لَيْلَةً . ثُمّ بَدَأَ بِالْأَمْوَالِ فَقَسَمَهَا : وَأَعْطَى الْمُؤَلّفَةَ قُلُوبُهُمْ أَوّلَ النّاسِ . فَأَعْطَى أَبَا سُفْيَانَ مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ . وَأَرْبَعِينَ أُوقِيّةً . وَأَعْطَى ابْنَهُ يَزِيدَ مِثْلَ ذَلِكَ . وَأَعْطَى ابْنَهُ مُعَاوِيَةَ مِثْلَ ذَلِكَ . وَأَعْطَى حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ مِائَةً مِنْ الْإِبِلِ . ثُمّ سَأَلَهُ مِائَةً أُخْرَى فَأَعْطَاهُ .

وَذَكَرَ ابْنُ إسْحَاقَ أَصْحَابَ الْمِائَةِ وَأَصْحَابَ الْخَمْسِينَ .
ثُمّ أَمَرَ يَزِيدَ ثَابِتٌ بِإِحْصَاءِ الْغَنَائِمِ وَالنّاسِ ثُمّ فَصّهَا عَلَى النّاسِ .
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : حَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ عَنْ مَحْمُودِ لَبِيدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ <144> لَمّا أَعْطَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ . وَجَدَتْ الْأَنْصَارُ فِي أَنْفُسِهِمْ . حَتّى كَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ حَتّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ وَاَللّهِ رَسُولُ اللّهِ قَوْمَهُ . فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ . فَقَالَ " فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أَنَا إلّا مِنْ قَوْمِي ، قَالَ " فَاجْمَعْ لِي قَوْمَك فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ " فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ . فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا . وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدّهُمْ . فَلَمّا اجْتَمَعُوا ، أَتَاهُ سَعْدٌ . فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ . ثُمّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ : مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجَدّةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلّالًا . فَهَدَاكُمْ اللّهُ بِي ؟ وَعَالّةٌ فَأَغْنَاكُمْ اللّهُ بِي ؟ وَأَعْدَاءٌ . فَأَلّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ بِي ؟ " . قَالُوا : اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنّ وَأَفْضَلُ . ثُمّ قَالَ أَلَا تُجِيبُونِي ، يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؟ . قَالُوا : بِمَاذَا نُجِيبُك يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ وَلِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنّ وَالْفَضْلُ . قَالَ " أَمَا وَاَللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدّقْتُمْ أَتَيْتنَا مُكَذّبًا فَصَدّقْنَاك وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاك ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاك ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاك . أَوَجَدْتُمْ عَلَيّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ لُعَاعَةً مِنْ الدّنْيَا ، تَأَلّفْت بِهَا قَوْمًا لِيُسَلّمُوا ، وَوَكّلْتُكُمْ إلَى إسْلَامِكُمْ ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، أَنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ أَنْتُمْ بِرَسُولِ اللّهِ إلَى رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْت امْرِئَ مِنْ الْأَنْصَارِ . وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا وَوَادِيًا ، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا وَوَادِيًا ، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ وَوَادِيَهَا ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنّاسُ دِثَارٌ اللّهُمّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ " .
قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللّهِ قَسْمًا وَحَظّا . ثُمّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَتَفَرّقُوا
وَقَدِمَتْ الشّيْمَاءُ بِنْتُ الْحَارِثِ - أُخْتُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الرّضَاعَةِ - فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللّهِ . أَنَا أُخْتُك ، فَبَسَطَ

لَهَا رِدَاءَهُ . وَأَجْلَسَهَا عَلَيْهِ وَقَالَ " إنْ أَحْبَبْت فَعِنْدِي مَكْرُمَةٌ وَإِنْ أَحْبَبْت أَنْ أُمَتِّعَك وَتَرْجِعِي إلَى قَوْمِك " فَقَالَتْ بَلْ تُمَتِّعُنِي ، وَتَرُدّنِي إلَى قَوْمِي . فَفَعَلَ وَأَسْلَمَتْ . فَأَعْطَاهَا ثَلَاثَةَ أَعْبُدٍ وَجَارِيَةً وَنَعْمَاءَ وَشَاءً

الْمَنّ عَلَى سَبْيِ هَوَازِنَ

وَقَدِمَ وَفْدُ هَوَازِنَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَسَأَلُوهُ أَنْ يَمُنّ عَلَيْهِمْ السّبْيَ وَالْأَمْوَالَ فَقَالَ إنّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ ، وَإِنّ أَحَبّ الْحَدِيثِ إلَيّ أَصْدَقُهُ . فَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ أَحَبّ إلَيْكُمْ أَمْ أَمْوَالُكُمْ ؟ فَقَالُوا : مَا كُنّا نَعْدِلُ بِالْأَحْسَابِ شَيْئًا . فَقَالَ " إذَا صَلّيْت الْغَدَاةَ فَقُومُوا ، فَقُولُوا إنّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَبِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ أَنْ يَرُدّ إلَيْنَا سَبْيَنَا " . فَلَمّا صَلّى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْغَدَاةَ قَامُوا ، فَقَالُوا ذَلِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَمَا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطّلِبِ : فَهُوَ لَكُمْ وَسَأَسْأَلُ لَكُمْ النّاسَ . فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ : مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو تَمِيمٍ فَلَا . وَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو فَزَارَةَ فَلَا . وَقَالَ عَبّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ أَمّا أَنَا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا . فَقَالَتْ بَنُو سُلَيْمٍ مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَالَ الْعَبّاسُ وَهَنْتُمُونِي . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ " إنّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ جَاءُوا مُسْلِمِينَ . وَقَدْ اسْتَأَنَيْت بِسَبَيِهِمْ وَقَدْ خَيّرْتهمْ فَلَمْ يَعْدِلُوا بِالْأَبْنَاءِ وَالنّسَاءِ شَيْئًا : فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَرُدّهُ فَسَبِيلُ ذَلِكَ . وَمَنْ أَحَبّ أَنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقّهِ فَلْيَرُدّهُ عَلَيْهِمْ . وَلَهُ بِكُلّ فَرِيضَةٍ سِتّ فَرَائِضَ مِنْ أَوّلِ مَا يَفِيءُ اللّهُ عَلَيْنَا " فَقَالَ النّاسُ قَدْ طَيّبْنَا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ " إنّا لَا نَعْرِفُ مَنْ رَضِيَ مِنْكُمْ مِمّنْ لَمْ يَرْضَ فَارْجِعُوا حَتّى يَرْفَعُ إلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ . فَرُدّوا عَلَيْهِمْ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكَسَا النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ السّبْيَ قِبْطِيّةً قِبْطِيّةً <145>

فَصْلٌ [الحكم المستفاد من غزوة حنين]

لَمّا تَمّ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَتْحُ مَكّةَ : اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللّهِ أَنْ أَمْسِكَ قُلُوبَ هَوَازِنَ عَنْ الْإِسْلَامِ

لِتَكُونَ غَنَائِمُهُمْ شُكْرَانًا لِأَهْلِ الْفَتْحِ وَلِيُظْهِرَ حِزْبَـهُ عَلَـى الشّـوْكَةِ الّتِي لَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ مِثْلَهَا . فَلَا يُقَاوِمُهُمْ أَحَدٌ بَعْدُ مِنْ الْعَرَبِ . وَأَذَاقَ الْمُسْلِمِينَ أَوّلًا مَرَارَةَ الْكِسْرَةِ مَعَ قُـوّةِ شَـوْكَتِهِمْ لِيُطَمْئِـنَ رُءُوسًا رُفِعَتْ بِالْفَتْحِ وَلَمْ تَدْخُلْ حَرَمَـهُ كَمَـا دَخَلَـهُ رَسُـولُهُ صَـلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَاضِعًا رَأْسَهُ مُنْحَنِيًا عَلَـى فَرَسِـهِ حَتّـى إنّ ذَقْنَـهُ لَيَكَادُ يَمَسّ قُرْبُوسَ سُرُجِهِ تَوَاضُعًا لِرَبّهِ . وَلِيُبَيّنَ سُـبْحَانَهُ - لِمَـنْ قَالَ " لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ عَنْ قِلّةٍ " - إنّ النّصْـرَ إنّمَـا هُـوَ مِـنْ عِنْـدِهِ سُبْحَانَهُ وَأَنّ مَنْ يُخَذّلْهُ فَلَا نَاصِرَ لَـهُ غَيْـرُهُ . وَأَنّـهُ سُـبْحَانَهُ الّـذِي تَوَلّى نَصْرَ دِينِهِ لَا كَثْرَتُكُمْ . فَلَمّـا انْكَسَـرَتْ قُلُـوبُهُمْ أَرْسَـلَ إلَيْهَـا خَلْعَ الْجَبْرِ مَعَ بَرِيدِ النّصْرِ (9 : 26) ثُمّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْـزَلَ جُنُـودًا لَـمْ تَرَوْهَـا <146> وَقَـدْ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ خِلَعَ النّصْرِ إنّمَا تُفِيـضُ عَلَـى أَهْـلِ الِانْكِسَـارِ (28 ـ 6) ـ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُـنّ عَلَـى الّـذِينَ اسْتُضْـعِفُوا فِـي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

غَزْوَةُ الطّائِفِ

وَلَمّا أَرَادَ الْمَسِيرَ إلَى الطّائِفِ - وَكَانَتْ فِـي شَـوّالٍ سَـنَةَ ثَمَـانٍ - بَعَثَ الطّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو إلَى ذِي الْكَفّيْنِ - صَنَمِ عَمْـرِو بْـنِ حُمَمَـةَ الدّوْسِـيّ - يَهْـدِمَهُ وَأَمَـرَهُ أَنْ يَسْـتَمِدّ قَـوْمَهُ يُـوَافِيهِ بِالطّـائِفِ . فَخَرَجَ سَرِيعًا . فَهَدَمَهُ وَجَعَلَ يَحْثُو النّارَ فِي وَجْهِهِ وَيَقُولُ

يَـا ذَا الْكَفّيْـنِ لَسْـت مِنْ عُبّادِكَا ... مِيلَادُنَـا أَكْبَـرُ مِـنْ مِيلَادِكَا

إنّي حَشَوْت النّارَ فِي فُؤَادِكَا

وَانْحَدَرَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ سِرَاعًا . فَوَافَوْا النّبِيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ بِالطّـائِفِ بَعْـدَ مَقْـدِمِهِ بِأَرْبَعَـةِ أَيّـامٍ - وَقَـدِمَ بِدَبّابَـةِ وَمَنْجَنِيقٍ .

قَالَ ابْنُ سَعْدٍ : لَمّا انْهَزَمُوا مِنْ أَوْطَـاسٍ دَخَلُـوا حِصْـنَهُمْ وَتَهَيّئُـوا لِلْقِتَالِ . وَسَارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . فَنَـزَلَ قَرِيبًـا مِنْ حِصْنِ الطّـائِفِ . وَعَسْـكَرَ هُنَـالِكَ . فَرَمَـوْا الْمُسْـلِمِينَ بِالنّبْـلِ رَمْيًا شَدِيدًا ، كَأَنّهُ رَجُلٌ جَرَادٌ حَتّـى أُصِـيبَ نَـاسٌ مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ بِجِرَاحَةِ . وَقُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا . فَـارْتَفَعَ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ

وَسَلّمَ إلَى مَوْضِعِ مَسْجِدِ الطّائِفِ الْيَوْمَ . فَحَاصَرَهُمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا . وَنَصَبَ عَلَيْهِمْ الْمَنْجَنِيقَ - وَهُوَ أَوّلُ مَنْ رَمَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ - وَأَمَرَ بِقَطْعِ أَعْنَابِ ثَقِيفٍ . فَوَقَعَ النّاسُ فِيهَا يَقْطَعُونَ فَسَأَلُوهُ أَنْ يَدَعَهَا لِلّهِ وَلِلرّحِمِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَإِنّي أَدَعُهَا لِلّهِ وَلِلرّحِمِ
وَنَادَى مُنَادِيهِ " أَيّمَا عَبْدٍ نَزَلَ مِنْ الْحِصْنِ وَخَرَجَ إلَيْنَا : فَهُوَ حُرّ " فَخَرَجَ مِنْهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرَةَ بْنُ مَسْرُوحٍ ، فَأَعْتَقَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَدَفَعَ كُلّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إلَى رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَمُونُهُ .
وَلَمْ يَأْذَنْ فِي فَتْحِ الطّائِفِ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فَأَذِنَ بِالرّحِيلِ فَضَجّ النّاسُ مِنْ ذَلِكَ وَقَالُوا : نَرْحَلُ وَلَمْ يُفْتَحْ عَلَيْنَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَاغْدُوَا عَلَى الْقِتَالِ فَغَدَوَا ، فَأَصَابَهُمْ جِرَاحَاتٌ . فَقَالَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّا قَافِلُونَ إنْ شَاءَ اللّهُ " فَسُرّوا بِذَلِكَ وَجَعَلُوا يَرْحَلُونَ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَضْحَكُ
<147> فَلَمّا ارْتَحَلُوا وَاسْتَقَلّوا قَالَ قُولُوا : آيِبُونَ تَائِبُونَ ، عَابِدُونَ لِرَبّنَا حَامِدُونَ وَقِيلَ يَا رَسُولَ اللّهِ اُدْعُ اللّهَ عَلَى ثَقِيفٍ ، فَقَالَ اللّهُمّ اهْدِ ثَقِيفًا وَأْتِ بِهِمْ
ثُمّ خَرَجَ إلَى الْجِعِرّانَةِ . فَدَخَلَ مِنْهَا إلَى مَكّةَ مُحْرِمًا بِعُمْرَةٍ فَقَضَاهَا . ثُمّ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ .
فَصْلٌ
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَقَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمَدِينَةَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ . وَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الشّهْرِ وَفْدُ ثَقِيفٍ .
وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِمْ " أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا انْصَرَفَ عَنْهُمْ اتّبَعَ أَثَرَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ . فَأَسْلَمَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى قَوْمِهِ بِالْإِسْلَامِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّ فِيهِمْ نَخْوَةَ الِامْتِنَاعِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ أَنَا أَحَبّ إلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ . وَكَانَ فِيهِمْ كَذَلِكَ مُحَبّبًا مُطَاعًا .

فَخَرَجَ يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءَ أَنْ لَا يُخَالِفُوهُ لِمَنْزِلَتِهِ فِيهِمْ . فَلَمّا أَشْرَفَ لَهُمْ عَلَى عَلِيّةٍ - وَقَدْ دَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ - رَمَوْهُ بِالنّبْلِ مِنْ كُلّ وَجْهٍ . فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ فَقِيلَ لَهُ مَا تَرَى فِي دَمِك ؟ فَقَالَ كَرَامَةٌ أَكْرَمَنِي اللّهُ بِهَا ، وَشَهَادَةٌ سَاقَهَا اللّهُ إلَيّ . فَلَيْسَ فِيّ إلّا مَا فِي الشّهَدَاءِ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَحِلَ عَنْكُمْ . فَادْفِنُونِي مَعَهُمْ فَدَفَنُوهُ مَعَهُمْ . فَزَعَمُوا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ إنّ مَثَلَهُ فِي قَوْمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يس فِي قَوْمِهِ

ثُمّ أَقَامَتْ ثَقِيفٌ بَعْدَ مَقْتَلِ عُرْوَةَ شَهْرًا . ثُمّ ائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ . وَرَأَوْا أَنّهُمْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ ، وَقَدْ أَسْلَمُوا وَبَايَعُوا . فَأَجْمَعُوا أَنْ يُرْسِلُوا إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَجُلًا ، كَمَا أَرْسَلُوا عُرْوَةَ .

فَكَلّمُوا عَبْدَ يَالَيْلَ بْنَ عَمْرٍو ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ . فَأَبَى ، وَخَشِيَ أَنْ يُصْنَعَ بِهِ كَمَا صُنِعَ بِعُرْوَةَ فَقَالَ لَسْت فَاعِلًا حَتّى تُرْسِلُوا مَعِي رِجَالًا . فَأَجْمَعُوا أَنْ يُرْسِلُوا مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنْ الْأَحْلَافِ وَثَلَاثَةً مِنْ بَنِي مَالِكٍ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ . فَلَمّا دَنَوْا مِنْ الْمَدِينَةِ وَنَزَلُوا قَنَاةً ، أَلْفَوْا بِهَا الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، فَاشْتَدّ لِيُبَشّرَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِقُدُومِهِمْ . فَلَقِيَهُ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ أَقْسَمْت عَلَيْك بِاَللّهِ لَا تَسْبِقْنِي <148> إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَتّى أَكُونَ أَنَا أُحَدّثُهُ فَفَعَلَ . ثُمّ خَرَجَ الْمُغِيرَةُ إلَى أَصْحَابِهِ . فَرَوّحَ الظّهْرَ مَعَهُمْ . وَعَلّمَهُمْ كَيْفَ يُحَيّونَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَلَمْ يَفْعَلُوا إلّا بِتَحِيّةِ الْجَاهِلِيّةِ . فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ قُبّةً فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ .

وَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ أَنْ يَدَعَ لَهُمْ اللّاتِ لَا يَهْدِمَهَا ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ فَأَبَى . فَمَا بَرِحُوا يَسْأَلُونَهُ سَنَةً فَيَأْبَى حَتّى سَأَلُوهُ شَهْرًا وَاحِدًا . فَأَبَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَدَعَهَا شَيْئًا مُسَمّى . وَإِنّمَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ - فِيمَا يَظْهَرُونَ - أَنْ يَسْلَمُوا بِتَرْكِهَا مِنْ سُفَهَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَبَكْرَهُونَ أَنْ يُرَوّعُوهُمْ بِهَدْمِهَا ، حَتّى يَدْخُلَهُمْ الْإِسْلَامُ . فَأَبَى إلّا أَنْ يَبْعَثَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَهْدِمَانِهَا .

فَلَمّا أَسْلَمُوا أَمّرَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ - وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنّا - وَذَلِكَ أَنّهُ كَانَ مِنْ أَحْرِصْهُمْ عَلَى التّفَقّهِ فِي الدّينِ وَتَعَلّمِ الْقُرْآنِ .

فَلَمّا تَوَجّهُوا رَاجِعِينَ بَعَثَ مَعَهُمْ أَبَا سُفْيَانَ وَالْمُغِيرَةَ بْـنَ شُـعْبَةَ ، حَتّى إذَا قَدِمُوا الطّائِفَ أَرَادَ الْمُغِيرَةُ أَنْ يَقْدَمَ أَبَا سُـفْيَانَ فَـأَبَى ، وَقَالَ اُدْخُلْ أَنْتَ عَلَى قَوْمِك . وَأَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بِمَالِهِ بِذِي الْهَدْمِ . فَلَمّا دَخَـلَ الْمُغِيـرَةُ عَلَاهَـا يَضْـرِبُهَا بِـالْمِعْوَلِ . وَقَـامَ دُونَـهُ بَنُـو مُغِيثٍ خَشْـيَةَ أَنْ يُرْمَـى ، كَمَـا فَعَـلَ بِعُـرْوَةِ وَخَـرَجَ نِسَـاءُ ثَقِيـفٍ حُسّرًا يَبْكِينَ عَلَيْهَا . فَلَمّا هَدَمَهَا أَخَذَ مَالَهَا وَحُلِيّهَا وَأَرْسَلَ بِهِ إلَـى أَبِي سُفْيَانَ .

مَافِي غَزْوَةِ الطّائِفِ مِنْ الْفِقْهِ

فِيهَا مِنْ الْفِقْهِ جَوَازُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْـهُرِ الْحُـرُمِ . وَنَسْـخُ تَحْرِيـمِ ذَلِكَ .

وَفِيهَا : أَنّهُ لَا يَجُوزُ إبْقَاءُ مَوَاضِعِ الطّوَاغِيتِ وَالشّرْكِ بَعْـدَ الْقُـدْرَةِ عَلَيْهَا يَوْمًا وَاحِدًا . فَإِنّهَا شَـعَائِرُ الْكُفْـرِ . وَهِـيَ أَعْظَـمُ الْمُنْكَـرَاتِ وَهَكَذَا حُكْمُ الْمَشَاهِدِ الّتِي بُنِيَتْ عَلَى الْقُبُورِ الّتِـي اُتّخِـذَتْ أَوْثَانًـا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَكَذَلِكَ الْأَحْجَارُ وَالْأَشْجَارُ الّتِي تُقْصَدُ لِلتّعْظِيمِ وَالتّبَرّكِ وَالنّذْرِ لَهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ اللّاتِ وَالْعُـزّى ، أَوْ أَعْظَـمَ شِرْكًا عِنْدَهَا ، وَبِهَا .

وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَرْبَابِ هَذِهِ الطّوَاغِيتِ يَعْتَقِدُ أَنّهَا تُخْلِفُ وَتَـرْزُقُ وَتُمِيتُ وَتُحْيِي . وَإِنّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ عِنْدَهَا مَا يَفْعَلُهُ إخْـوَانُهُمْ مِـنْ الْمُشْرِكِينَ الْيَوْمَ عِنْدَ طَوَاغِيتِهِمْ فَاتّبَعَ هَؤُلَاءِ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُـمْ . وَغَلَبَ الشّرْكُ عَلَى أَكْثَرِ النّفُوسِ لِظُهُورِ الْجَهْـلِ وَخَفَـاءِ الْعِلْـمِ وَغَلَبَـةُ التّقَالِيـدِ . وَصَـارَ الْمَعْـرُوفُ مُنْكَـرًا ، وَالْمُنْكَـرُ <149> مَعْرُوفًا ، وَالسّـنّةُ بِدْعَـةٌ وَالْبِدْعَـةُ سُـنّةٌ وَنَشَـأَ فِـي ذَلِـكَ الصّـغِيرِ وَهَرِمَ عَلَيْهِ الْكَبِيرُ . وَطُمِسَتْ الْأَعْلَامُ . وَاشْتَدّتْ غُرْبَةُ الْإِسْلَامِ .

وَلَكِنْ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ الْعِصَابَةِ الْمُحَمّدِيّةِ بِالْحَقّ قَائِمِينَ وَلِأَهْـلِ الشّرْكِ وَالْبِدَعِ مُجَاهَدِينَ إلَى أَنْ يَرِثَ اللّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ . وَفِيهَا : صَرَفَ الْإِمَامُ الْأَمْوَالَ الّتِي تَصِيرُ إلَى هَـذِهِ الْمَشَاهِدِ مِنْ عَابِدِيهَا . فَيَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَصْرِفَهَا فِي الْجِهَـادِ وَمَصَـالِحِ الْمُسْـلِمِينَ وَكَـذَلِكَ أَوْقَافُهَـا تُصْـرَفُ فِـي مَصَـالِحِ الْمُسْلِمِينَ .

فَصْلٌ حَوَادِثُ سَنَةِ تِسْعٍ

وَلَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ الْمَدِينَـة ، وَدَخَلَـتْ سَنَةُ تِسْعٍ بَعَثَ الْمُصَدّقِينَ يَأْخُذُونَ الصّدَقَاتِ مِنْ الْأَعْرَابِ .

وَفِيهَا : بَعَثَ عَلِيّا رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى صَنَمِ طَيّئٍ لِيَهْدِمَهُ . فَشَنّوا الْغَارّةَ عَلَى مَحَلّةِ آلِ حَاتِمٍ مَعَ الْفَجْرِ . فَهَدَمُوهُ وَمَلَئُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْ السّبْيِ وَالنّعَمِ وَالشّاءِ . وَفِي السّبْيِ سُفَانَةُ أُخْتُ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ ، وَهَرَبَ عَدِيّ إلَى الشّامِ . وَوَجَدَ فِي خِزَانَتِهِ ثَلَاثَةَ أَسْيَافٍ وَثَلَاثَةَ أَدْرُعٍ . وَقَسَمَ عَلَيّ الْغَنَائِمَ فِي الطّرِيقِ وَلَمْ يُقْسِمْ السّبْيَ مِنْ آلِ حَاتِمٍ حَتّى قَدِمَ بِهِمْ الْمَدِينَةَ .

قَالَ عَدِيّ : مَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ الْعَرَبِ أَشَدّ كَرَاهَةً لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنّي ، حِينَ سَمِعْت بِهِ . وَكُنْت رَجُلًا شَرِيفًا نَصْرَانِيّا . وَكُنْت أَسِيرُ فِي قَوْمِي بِالْمِرْبَاعِ . وَكُنْت فِي نَفْسِي عَلَى دِينٍ . فَقُلْت لِغُلَامٍ لِي رَاعٍ لِإِبِلِي : اُعْدُدْ لِي مِنْ إبِلِي أَجْمَالًا ذُلُلًا سِمَانًا . فَإِذَا سَمِعْت بِجَيْشِ مُحَمّدٍ قَدْ وَطِئَ هَذِهِ الْبِلَادَ فَآذِنّي . فَأَتَانِي ذَاتَ غَدَاةٍ فَقَالَ مَا كُنْت صَانِعًا إذَا غَشِيَتْك خَيْلُ مُحَمّدٍ فَاصْنَعْ الْآنَ . فَإِنّي قَدْ رَأَيْت رَايَاتٍ فَسَأَلْت عَنْهَا ؟ فَقَالُوا : هَذِهِ جُيُوشُ مُحَمّدٍ . قُلْت : قَرّبْ لِي أَجْمَالِي . فَاحْتَمَلْت بِأَهْلِي وَوَلَدِي ، ثُمّ قُلْت : أَلْحَقُ بِأَهْلِ دِينِي مِنْ النّصَارَى بِالشّامِ وَخَلّفْت بِنْتًا لِحَاتِمٍ فِي الْحَاضِرَةِ . فَلَمّا قَدِمْت الشّامَ أَقَمْت بِهَا ، وَتُخَالِفُنِي خَيْلُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَتُصِيبُ ابْنَةَ حَاتِمٍ فَقَدِمَ بِهَا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي سَبَايَا مِنْ طَيّئٍ .

<150> وَقَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَرَبِي إلَى الشّامِ . فَمَرّ بِهَا . فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللّهِ غَابَ الْوَافِدُ . وَانْقَطَعَ الْوَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ . مَا بِي مِنْ خِدْمَةٍ فَمُنّ عَلَيّ مَنّ اللّهُ عَلَيْك . فَقَالَ مَنْ وَافِدُك ؟ قَالَتْ عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ ، قَالَ الّذِي فَرّ مِنْ اللّهِ وَرَسُولِهِ ؟ - وَكَرّرْت عَلَيْهِ الْقَوْلَ ثَلَاثَةَ أَيّامٍ - قَالَتْ فَمَنّ عَلَيّ وَسَأَلْته الْحُمْلَانَ فَأَمَرَ لَهَا بِهِ وَكَسَاهَا وَحَمَلَهَا وَأَعْطَاهَا نَفَقَةً .

فَأَتَتْنِي . فَقَالَتْ لَقَدْ فَعَلَ فَعْلَةً مَا كَانَ أَبُوك يَفْعَلُهَا . ائْتِهِ رَاكِبًا أَوْ رَاهِبًا ، فَقَدْ أَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ وَأَتَاهُ فُلَانٌ فَأَصَابَ مِنْهُ . قَالَ فَأَتَيْته ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ . فَقَالَ الْقَوْمُ هَذَا عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ - وَجِئْت بِغَيْرِ أَمَانٍ وَلَا كِتَابٍ - فَأَخَذَ بِيَدَيّ - وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَالَ إنّي لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللّهُ يَدَهُ فِي يَدَيّ - فَقَامَ إلَيّ فَلَقِيت امْرَأَةً وَمَعَهَا صَبِيّ . فَقَالَا : إنّ لَنَا إلَيْك حَاجَةً . فَقَامَ مَعَهُمَا حَتّى قَضَى حَاجَتَهُمَا . ثُمّ أَخَذَ بِيَدَيّ حَتّى أَتَى دَارَهُ . فَأَلْقَتْ لَهُ الْوَلِيدَةَ

وِسَادَةً . فَجَلَسَ عَلَيْهَا ، وَجَلَسَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمّ قَالَ مَا يُفِرّك ؟ أَيُفِرّك أَنْ يُقَالَ لَا إلَهَ إلّا اللّهُ ؟ فَهَلْ تَعْلَمُ مِنْ إلَهٍ سِوَى اللّهِ ؟ فَقُلْت : لَا . فَتَكَلّمَ سَاعَةً . ثُمّ قَالَ أَيُفِرّك أَنْ يُقَالَ اللّهُ أَكْبَرُ ؟ وَهَلْ تَعْلَمُ شَيْئًا أَكْبَرُ مِنْ اللّهِ ؟ قُلْت : لَا ، قَالَ فَإِنّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ . وَالنّصَارَى ضَالّونَ فَقُلْت : فَإِنّي حَنِيفٌ مُسْلِمٌ . فَرَأَيْت وَجْهَهُ يَنْبَسِطُ فَرَحًا .

ثُمّ أَمَرَ بِي فَأُنْزِلْت عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ . وَجَعَلْت آتِيهِ طَرَفَيْ النّهَارِ . فَبَيْنَا أَنَا عِنْدَهُ إذْ جَاءَهُ قَوْمٌ فِي ثِيَابٍ مِنْ صُوفٍ مِنْ هَذِهِ النّمَارِ فَصَلّى ثُمّ قَامَ . فَحَثّ بِالصّدَقَةِ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَيّهَا النّاسُ ارْضَخُوا مِنْ الْفَضْلِ وَلَوْ بِصَاعٍ وَلَوْ بِنِصْفِ صَاعٍ وَلَوْ بِقَبْضَةٍ وَلَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ يَقِي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرّ جَهَنّمَ - أَوْ النّارَ - وَلَوْ بِتَمْرَةٍ وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيّبَةٍ . فَإِنّ أَحَدَكُمْ لَاقٍ اللّهَ فَقَائِلٌ لَهُ أَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ أَجْعَلْ لَك مَالًا وَوَلَدًا ؟ فَيَقُولُ بَلَى ، فَيَقُولُ أَيْنَ مَا قَدّمْت لِنَفْسِك ؟ فَيَنْظُرُ قُدّامَهُ وَخَلْفَهُ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ . فَلَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرّ جَهَنّمَ لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النّارَ وَلَوْ بِشِقّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَكَلِمَةٌ طَيّبَةٌ . فَإِنّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الْفَاقَةَ . فَإِنّ اللّهَ نَاصِرُكُمْ وَمُعْطِيكُمْ حَتّى تَسِيرَ الظّعِينَةُ مَا بَيْنَ يَثْرِبَ وَالْحِيرَةِ ، مَا تَخَافُ عَلَى مَطِيّتِهَا السّرّقُ . <151> فَجَعَلْتُ أَقُولُ فَأَيْنَ لُصُوصُ طَيّئٍ ؟ .

قِصّةُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : لَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الطّائِفِ كَتَبَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ إلَى أَخِيهِ كَعْبٍ يُخْبِرُهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ قَتَلَ رِجَالًا بِمَكّةَ مِمّنْ كَانَ يَهْجُوهُ وَيُؤْذِيهِ وَأَنّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعَرَاءِ قُرَيْشٍ - ابْنُ الزّبَعْرَى ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ - قَدْ هَرَبُوا فِي كُلّ وَجْهٍ . فَإِنْ كَانَ لَك فِي نَفْسِك حَاجَةٌ فَطِرْ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَإِنّهُ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا جَاءَهُ تَائِبًا ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَانْجُ إلَى نَجَائِك . وَكَانَ قَدْ قَالَ -

أَلَا بَلّغَا عَنّي بُجَيْرًا فَهَلْ لَك فِيمَا قُلْت ؟ وَيْحَك هَلْ لَكَا ؟ . رِسَالَةً

فَبَيّنْ لَنَا ، إنْ كُنْت عَلَى أَيّ شَيْءٍ غَيْرَ ذَلِكَ دَلّكَا ؟ لَسْت بِفَاعِلِ

عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْـفِ أُمّـا عَلَيْهِ . وَلَـمْ تَلْـقَ عَلَيْـهِ أَخًـا وَلَا أَبًا لَكَا

فَـإِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَفْعَـلْ . وَلَا قَائِلٍ إمّا عَثَرْت : لَعَالَكَا فَلَسْت بِآسِفِ

سَـقَاك بِهَـا الْمَـأْمُونُ وَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلّكَا كَأْسًا رَوِيَّةً

فَلَمّا أَتَتْ بُجَيْرًا كَرِهَ أَنْ يَكْتُمَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ سَـقَاك بِهَـا الْمَـأْمُونُ ، صَدَقَ وَاَللّهِ . وَإِنّهُ لَكَذُوبٌ أَنَا الْمَأْمُونُ وَلَمّا سَمِعَ عَلَـى خُلُـقٍ لَـمْ تُلْفِ أُمّا وَلَا أَبًا عَلَيْهِ قَالَ أَجَلْ لَمْ يُلْفِ عَلَيْهِ أَبَاهُ وَلَا أُمّهُ .

ثُمّ قَالَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ : -

مَنْ مُبْلِـغٌ كَعْبًـا ، فَهَـلْ لَـك تَلُــومُ عَلَيْهَــا بَــاطِلًا ، فِي الّتِي وَهِيَ أَحْزَمُ ؟

إلَــى اللّــهِ - لَا الْعُــزّى وَلَا فَتَنْجُو إذَا كَانَ النّجَــاءُ اللّاتِ - وَحْدَهُ وَتَسْلَمُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُــو ، وَلَيْـسَ مِنْ النّـاسِ إلّا طَـاهِرُ بِمُفْلَتِ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

فَدِينُ زُهَيْرٍ - وَهُوَ لَا شَـيْءَ وَدِيــنٌ أَبِــي سُــلْمَى - دِينُهُ عَلَيّ مُحَرّمُ

فَلَمّا بَلَغَ كَعْبًا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ . وَأَشْفَقَ عَلَى نَفْسِـهِ فَلَمّـا لَـمْ يَجِدْ مِنْ شَيْءٍ بَدّا ، قَالَ قَصِيدَتَهُ الّتِي مَدَحَ فِيهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ خَرَجَ حَتّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ .

فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُعْرِفَةٌ . فَغَدَا بِهِ إلَى رَسُولِ اللّــهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ فَـذَكَرَ لِـي أَنّـهُ قَـامَ فَجَلَـسَ إلَيْـهِ - وَكَـانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّــهِ إنّ كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَك تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِـلٌ مِنْهُ إنْ أَنَا جِئْتُك بِهِ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنَا كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ

فَحَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَمْـرٍو : أَنّـهُ وَثَـبَ عَلَيْـهِ رَجُـلٌ مِـنْ الْأَنْصَـارِ . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ دَعْنِي وَعَدُوّ اللّهِ أَضْـرِبُ عُنُقَـهُ . فَقَـالَ دَعْـهُ عَنْك ، فَقَدْ جَاءَ تَائِبًا نَازِعًا عَمّا كَانَ عَلَيْهِ فَغَضِبَ كَعْـبٌ عَلَـى هَـذَا

الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنّهُ لَمْ يَتَكَلّمْ فِيهِ رَجُـلٌ مِـنْ الْمُهَـاجِرِينَ إلّا بُجَيْرٌ . فَقَالَ قَصِيدَتُهُ الّتِي أَوّلُهَا : -

بَـانَتْ سُـعَادُ فَقَلْبِـي مُتَيّمٌ إثْرَهَـا لَـمْ يُفْـدَ
الْيَوْمَ مَتْبُولُ مَكْبُول

وَمِنْهَا : -

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ إلّا الْعِتَـاقُ النّجِيبَـاتُ
لَا يُبَلّغُهَا الْمَرَاسِيلُ

إلَى أَنْ قَالَ

تَسْعَى الْعُوَاةُ جَنَابَيْهَـا ، إنّـك يَـا ابْـنَ أَبِـي
وَقَوْلُهُمُو : سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وَقَالَ كُلّ صَـدِيقٍ كُنْـت لَا أُلْهِيَنك . إنّي عَنْك
آمُلُهُ مَشْغُولُ

فَقُلْت : خَلّـوا سَـبِيلِي . فَكُـلّ مَـا قَـدّرَ
لَا أَبَا لَكُمُو الرّحْمَنُ مَفْعُولُ

نُبّئْـت أَنّ رَسُـولَ اللّـهِ وَالْعَفْوُ عِنْـدَ رَسُـولِ
أَوْعَدَنِي اللّهِ مَأْمُولُ

مَهْلًا ، هَـدَاك الّـذِي قُرْآنِ فِيهَا مَـوَاعِيظُ
أَعْطَاك نَافِلَةَ الْ وَتَفْصِيلُ

لَا تَأْخُـذْنِي بِـأَقْوَالِ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيّ
الْوُشَاةِ . وَلَمْ الْأَقَاوِيلُ

إلَى أَنْ قَالَ

إنّ الرّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ وَصَـارِمٌ مِـنْ سُـيُوفِ
بِهِ اللّهِ مَسْلُولُ

فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَـالَ بِبَطْـنِ مَكّـةَ - لَمّـا
قَائِلُهُمْ أَسْلَمُوا - زُولُوا

زَالُـوا . فَمَـا زَالَ أَنْكَـاسٌ عِنْـدَ اللّقَـاءِ وَلَا مِيـلٌ
وَلَا كُشُفٌ مَعَازِيلُ

يَمْشُـونَ مَشْـيَ الْجِمَـالَ ضَرْبٌ إذَا عَـرّدَ السّـودُ

الزّهْرِ يَعْصِمُهُمْ التّنَابِيلُ

شَـمّ الْعَرَانِيـنُ أَبْطَـالٌ مِـنْ نَسْـجِ دَاوُد فِـي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ
لَبُوسُهُمُو

لَيْسُـوا مَفَارِيـحَ إنْ نَـالَتْ قَوْمًا ، وَلَيْسُوا مَجَازِيعَا إذَا نِيلُوا
رِمَاحُهُمُو

لَا يَقَـعُ الطّعْـنُ إلّا فِـي وَمَـا لَهُـمْ عَـنْ حِيَـاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ
نُحُورِهُمُو

<153> قَـالَ عَاصِـمُ بْـنُ عَمْـرٍو : فَلَمّـا قَـالَ إذَا عَـرّدَ السّـودُ التّنَابِيلَ وَإِنّمَا عَنَانَا مَعْشَـرَ الْأَنْصَـارَ ، فَقَـالَ بَعْـدَ أَنْ أَسْـلَمَ يَمْـدَحُ الْأَنْصَارَ : -

مَـنْ سَـرّهُ كَـرْمُ فِـي مِقْنَـبٍ مِـنْ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ صَالِحِ الْأَنْصَارِ

وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَـابِرًا إنّ الْخِيَارَ هُمُو بَنِي عَنْ كَابِرٍ الْأَخْيَارِ

الدّائِذِينَ النّاسَ عَـنْ بِالْمَشْرَفِيّ وَبِالْقَنَـا أَدْيَانِهِمْ الْخِطَارِ

وَالْبَـائِعِينَ نَفُوسَـهُمْ يَـوْمَ الْهِيَـاجِ وَفِتْنَـةِ لِنَبِيّهِمْ الْكُفّارِ

وَالنّـاظِرِينَ بِـأَعْيُنٍ كَالْجَمْرِ غَيْـرُ كَلِيْلَـةِ مُحْمَرّةٍ الْإِبْصَارِ

وَالْبَـاذِلِينَ نَفُوسَـهُمْ لِلْمَوْتِ يَـوْمَ تَعَـانُقٍ لِنَبِيّهِمْ وكِرَارِ

يَتَطَهّـرُونَ يَرَوْنَـهُ بِـدِمَاءِ مَـنْ عَلَقُـوا نُسُكًا لَهُمْ مِنْ الْكُفّارِ

قِصّةُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : لَمّا قَدِمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الطّائِفِ كَتَبَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ إلَى أَخِيهِ كَعْبٍ يُخْبِرُهُ أَنّ رَسُولَ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ قَـدْ قَتَـلَ رِجَـالًا بِمَكّـةَ مِمّـنْ كَـانَ يَهْجُـوهُ وَيُؤْذِيهِ وَأَنّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعَرَاءِ قُرَيْشٍ - ابْنُ الزّبَعْـرَى ، وَهُبَيْـرَةُ

بْنُ أَبِي وَهْبٍ - قَدْ هَرَبُوا فِي كُلّ وَجْهٍ . فَإِنْ كَانَ لَـك فِـي نَفْسِـك حَاجَةٌ فَطِرْ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَـإِنّهُ لَا يَقْتُـلُ أَحَدًا جَاءَهُ تَائِبًا ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَانْجُ إلَى نَجَائِـك . وَكَـانَ قَـدْ قَالَ -

أَلَا بَلّغَــا عَنّــي بُجَيْــرًا فَهَلْ لَك فِيمَا قُلْت ؟ وَيْحَـك رِسَالَةً . هَلْ لَكَا ؟

فَبَيّــنْ لَنَــا ، إنْ كُنْــت عَلَـى أَيّ شَـيْءٍ غَيْـرَ ذَلِـكَ لَسْت بِفَاعِلِ دَلّكَا ؟

عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلْـفِ أُمّـا عَلَيْهِ . وَلَـمْ تَلْـقَ عَلَيْـهِ أَخًـا وَلَا أَبًا لَكَا

فَـإِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَفْعَـلْ . وَلَا قَائِلٍ إمّا عَثَرْت : لَعَالَكَا فَلَسْت بِآسِفِ

سَــقَاك بِهَــا الْمَــأْمُونُ وَأَنْهَلَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلّكَا كَأْسًا رَوِيّةً

فَلَمّا أَتَتْ بُجَيْرًا كَرِهَ أَنْ يَكْتُمَهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ سَـقَاك بِهَـا الْمَـأْمُونُ ، صَدَقَ وَاَللّهِ . وَإِنّهُ لَكَذُوبٌ أَنَا الْمَأْمُونُ وَلَمّا سَمِعَ عَلَـى خُلُـقٍ لَـمْ تُلْفِ أُمّا وَلَا أَبًا عَلَيْهِ قَالَ أَجَلْ لَمْ يُلْفِ عَلَيْهِ أَبَاهُ وَلَا أُمّهُ .

ثُمّ قَالَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ : -

مَنْ مُبْلِـغٌ كَعْبًـا ، فَهَـلْ لَـك تَلُــومُ عَلَيْهَــا بَــاطِلًا ، فِي الّتِي وَهِيَ أَحْزَمُ ؟

إلَــى اللّــهِ - لَا الْعُــزّى وَلَا فَتَنْجُو إذَا كَانَ النّجَــاءُ اللّاتِ - وَحْدَهُ وَتَسْلَمُ

لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُــو ، وَلَيْـسَ مِنْ النّـاسِ إلّا طَـاهِرُ بِمُفْلَتِ الْقَلْبِ مُسْلِمُ

فَدِينُ زُهَيْرٍ - وَهُوَ لَا شَـيْءَ وَدِيــنٌ أَبِــي سُــلْمَى - دِينُهُ عَلَيّ مُحَرّمُ

فَلَمّا بَلَغَ كَعْبًا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ . وَأَشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمّا لَمْ يَجِدْ مِنْ شَيْءٍ بَدَا ، قَالَ قَصِيدَتَهُ الّتِي مَدَحَ فِيهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثُمّ خَرَجَ حَتّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ .

فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مُعْرِفَةٌ . فَغَدَا بِهِ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَذَكَرَ لِي أَنّهُ قَامَ فَجَلَسَ إلَيْهِ - وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ كَعْبَ بْنَ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَك تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ إنْ أَنَا جِئْتُك بِهِ ؟ قَالَ نَعَمْ قَالَ أَنَا كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ

فَحَدّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو : أَنّهُ وَثَبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ . فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ دَعْنِي وَعَدُوّ اللّهِ أَضْرِبُ عُنُقَهُ . فَقَالَ دَعْهُ عَنْك ، فَقَدْ جَاءَ تَائِبًا نَازِعًا عَمّا كَانَ عَلَيْهِ فَغَضِبَ كَعْبٌ عَلَى هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنّهُ لَمْ يَتَكَلّمْ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ إلّا بُجَيْرٌ . فَقَالَ قَصِيدَتُهُ الّتِي أَوّلُهَا : -

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُول

وَمِنْهَا : -

أَمْسَتْ سُعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبَلّغُهَا ... إلّا الْعِتَاقُ النّجِيبَاتُ الْمَرَاسِيلُ

إلَى أَنْ قَالَ

تَسْعَى الْغُوَاةُ جَنَابَيْهَا ، وَقَوْلُهُمُو : ... إنّك يَا ابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ

وَقَالَ كُلّ صَدِيقٍ كُنْت آمُلُهُ ... لَا أُلْهِيَنك . إنّي عَنْك مَشْغُولُ

فَقُلْت : خَلّوا سَبِيلِي . لَا أَبَا لَكُمُو ... فَكُلّ مَا قَدّرَ الرّحْمَنُ مَفْعُولُ

يُبَّئْت أَنّ رَسُولَ اللّهِ أَوْعَدَنِي ... وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ مَأْمُولُ

مَهْلًا ، هَدَاك الّذِي أَعْطَاك نَافِلَةَ الْ ... قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظُ وَتَفْصِيلُ

لَا تَأْخُـــذْنِي بِـــأَقْوَالِ الْوُشَاةِ . وَلَمْ أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِيّ الْأَقَاوِيلُ

إِلَى أَنْ قَالَ

إِنّ الرّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَصَـارِمٌ مِـنْ سُـيُوفِ اللّهِ مَسْلُولُ

فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَـالَ بِبَطْـنِ مَكّـةَ - لَمّـا قَائِلُهُمْ أَسْلَمُوا - زُولُوا

زَالُـوا . فَمَـا زَالَ أَنْكَـاسٌ عِنْـدَ اللّقَـاءِ وَلَا مِيـلٌ وَلَا كُشُفٌ مَعَازِيلُ

يَمْشُـونَ مَشْـيَ الْجِمَـالَ ضَرْبٌ إِذَا عَـرّدَ السّـودُ الزّهْرِ يَعْصِمُهُمْ التّنَابِيلُ

شَـمّ الْعَرَانِيـنُ أَبْطَـالٌ مِـنْ نَسْـجِ دَاوُد فِـي لَبُوسُهُمُو الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

لَيْسُـوا مَفَارِيـحَ إِنْ نَـالَتْ قَوْمًا ، وَلَيْسُوا مَجَازِيعَا رِمَاحُهُمُو إِذَا نِيلُوا

لَا يَقَـعُ الطّعْـنُ إِلّا فِـي وَمَـا لَهُـمْ عَـنْ حِيَـاضِ نُحُورِهُمُو الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

<153> قَـالَ عَاصِـمُ بْـنُ عُمَـرَ : فَلَمّـا قَـالَ إِذَا عَـرّدَ السّـودُ التّنَابِيلَ وَإِنّمَا عَنَانَا مَعْشَـرَ الْأَنْصَـارَ ، فَقَـالَ بَعْـدَ أَنْ أَسْـلَمَ يَمْـدَحُ الْأَنْصَارَ : -

مَـــنْ سَـــرّهُ كَـــرْمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ فِـــي مِقْنَـــبٍ مِـــنْ صَالِحِ الْأَنْصَارِ

وَرِثُوا الْمَكَارِمَ كَـابِرًا عَنْ كَابِرٍ إِنّ الْخِيَارَ هُمُو بَنِي الْأَخْيَارِ

الدّائِذِينَ النّاسَ عَـنْ أَدْيَانِهِمْ بِالْمَشْرَفِيّ وَبِالْقَنَـا الْخِطَارِ

وَالْبَـائِعِينَ نَفُوسَـهُمْ لِنَبِيّهِمْ يَـوْمَ الْهِيَـاجِ وَفِتْنَـةِ الْكُفّارِ

وَالنّــاظِرِينَ بِــأَعْيُنِ كَالْجَمْرِ غَيْـرُ كَلَيْلَـةِ مُحْمَرّةٍ الْإِبْصَارِ

وَالْبَـاذِلِينَ نَفُوسَـهُمْ لِلْمَوْتِ يَـوْمَ تَعَـانُقٍ لِنَبِيّهِمْ وكِرَارِ

يَتَطَهّــرُونَ يَرَوْنَــهُ بِـدِمَاءِ مَـنْ عَلَقُـوا نُسُكًا لَهُمْ مِنْ الْكُفّارِ

قَــــوْمٌ إذَا خَــــوَتْ لِلطّارِقِينَ النّـازِلِينَ النّجُومُ فَإِنّهُمْ مَقَارِي

فَصْلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : كَانَتْ فِي زَمَانِ عُسْرَةٍ مِنْ النّاسِ وَجَـدْبٍ مِـنْ الْبِلَادِ حِينَ طَابَتْ الثّمَـارُ - فَالنّـاسُ يُحِبّـونَ الْمَقَـامَ فِـي ثِمَـارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ وَكَانَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ قَلّمَـا يَخْـرُجُ فِـي غَـزْوَةٍ إلّا وَرّى بِغَيْرِهَا ، إلّا مَا كَـانَ مِنْهَـا ، فَـإِنّهُ جَلّاهَـا لِلنّـاسِ لِبُعْـدِ الشّـقّةِ وَشِدّةِ الزّمَانِ .

فَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ - وَهُوَ فِي جَهَازِهِ - لِلْجَـدّ بْـنِ قَيْـسٍ هَـلْ لَـك فِـي جَلّادِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؟ " فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ أَوَتَأْذَنُ لِـي وَلَا تَفْتِنّـي ؟ فَقَدْ عَرَفَ قَوْمِي أَنّهُ مَا مِنْ رَجُلٍ أَشَدّ عَجَبًا بِالنّسَاءِ مِنّي ، وَإِنّـي أَخْشَى إنْ رَأَيْت نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ فَقَـالَ " قَـدْ أَذِنْـت لَك فَفِيهِ نَزَلَتْ (9 : 49) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنّي - الْآيَةَ .

وَقَالَ قَوْمٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحُـرّ فَنَـزَلَ (9 ـ 81) وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرّ قُلْ نَارُ جَهَنّمَ أَشَدّ حَـرّا - الْآيَةَ .

ثُمّ إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَـضّ أَهْـلَ الْغِنَـى عَلَـى النّفَقَـةِ . فَحَمَـلَ رِجَـالٌ مِـنْ أَهْـلِ <154> الْغِنَـى وَاحْتَسَـبُوا . وَأَنْفَقَ عُثْمَانُ ثَلَاثَمِائَةِ بَعِيـرٍ بِأَحْلَاسِـهَا ، وَأَقْتَابِهَـا وَعُـدّتِهَا ، وَأَلْـفِ دِينَارٍ عَيْنًا

وَجَاءَ الْبَكّاءُونَ - وَهُمْ سَبْعَةٌ - يَسْتَحْمِلُونَ رَسُولَ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلّوْا وَأَعْيُنُهُـمْ تَفِيـضُ مِنَ الدّمْعِ حَزَنًا أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ

وَقَامَ عُلْبَةُ بْنُ يَزِيدَ فَصَلّى مِنْ اللّيْلِ وَبَكَى . ثُـمّ قَـالَ اللّهُـمّ إنّـك أَمَرْت بِالْجِهَادِ وَرَغّبَتْ فِيهِ ثُمّ لَمْ تَجْعَلْ عِنْـدِي مَـا أَتَقَـوّى بِـهِ مَـعَ رَسُولِك ، وَلَمْ تَجْعَلْ فِي يَدِ رَسُولِك مَا يَحْمِلُنِي عَلَيْهِ وَإِنّي أَتَصَدّقُ عَلَى كُلّ مُسْلِمٍ بِكُلّ مَظْلِمَةٍ أَصَابَنِي فِيهَا : مِنْ مَـالٍ أَوْ جَسَـدٍ أَوْ عِرْضٍ ثُمّ أَصْبَحَ مَعَ النّاسِ . فَقَالَ النّبِـيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ أَيْنَ الْمُتَصَـدّقُ فِـي هَـذِهِ اللّيْلَـةِ ؟ فَلَـمْ يَقُـمْ أَحَـدٌ ، ثُـمّ قَـالَ أَيْـنَ الْمُتَصَدّقُ ؟ فَلَمْ يَقُمْ . فَقَامَ إلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ فَقَـالَ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ " أَبَشَرٌ فَوَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَـدِهِ لَقَـدْ كُتِبَـتْ فِـي الزّكَـاةِ الْمُتَقَبّلَةِ
وَجَاءَ الْمُعَذّرُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ فَلَمْ يَعْذُرْهُمْ .
وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيّ . فَلَمّـا سَـارَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ تَخَلّفَ عَبْدُ اللّـهِ بْـنُ أُبَـيّ وَمَـنْ كَانَ مَعَهُ وَتَخَلّفَ نَفَـرٌ مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ مِـنْ غَيْـرِ شَـكّ وَلَا ارْتِيَـابٍ مِنْهُمْ الثّلَاثَةُ - كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : وَهِلَالُ بْنُ أُمَيّةَ . وَمُرَارَةُ بْنُ الرّبِيعِ - وَأَبُو خَيْثَمَةَ السّالِمِيّ ، وَأَبُـو ذَرّ . ثُـمّ لَحِقَـاهُ . وَشَـهِدَهَا رَسُـولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ فِـي ثَلَاثِيـنَ أَلْفًـا مِـنْ النّـاسِ وَالْخَيْـلُ عَشَرَةُ آلَافِ فَرَسٍ . وَأَقَامَ بِهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً يَقْصُرُ الصّلَاةَ وَهِرَقْلُ يَوْمَئِذٍ بِحِمْصٍ .
قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَلَمّا خَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـه عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ خَلّفَ عَلِيّا عَلَى أَهْلِهِ . فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ مَـا خَلّفَـهُ إلّا اسْـتِثْقَالًا لَـهُ وَتَخَفّفًا مِنْهُ . فَأَخَذَ سِلَاحَهُ وَلَحِقَ بِهِ بِـالْجُرُفِ فَقَـالَ يَـا نَبِـيّ اللّـهِ زَعَمَ الْمُنَافِقُونَ أَنّك مَا خَلّفْتنِي إلّا اسْتِثْقَالًا ، فَقَالَ كَذَبُوا ، وَلَكِنّي خَلّفْتُك لِمَا تَرَكْت وَرَائِي ، فَارْجِعْ فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِك . أَوَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِـنْ مُوسَـى ؟ إلّا أَنّـهُ لَا نَبِـيّ بَعْدِي فَرَجَعَ .
وَدَخَلَ أَبُو خَيْثَمَةَ إلَى أَهْلِهِ فِي يَوْمٍ حَارّ بَعْدَ مَا سَـارَ رَسُـولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَيّامًا ، فَوَجَدَ امْرَأَتَيْنِ لَهُ فِي عَرِيشَيْنِ لَهُمَـا فِي حَائِطٍ قَدْ رَشّتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَرِيشَـهَا ، وَبَـرّدَتْ لَـهُ مَـاءً وَهَيّأَتْ لَهُ طَعَامًا . فَلَمّا دَخَلَ قَامَ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ فَنَظَرَ إلَى <
155> امْرَأَتَيْهِ وَمَا صَنَعَتَا . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ فِـي الضّـحّ وَالرّيـحِ وَالْحَرّ وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي ظِلّ بَارِدٍ وَطَعَامٍ مُهَيّأٍ وَامْرَأَةٍ حَسْنَاءَ ؟ مَـا هَذَا بِالنّصْفِ ثُمّ قَالَ وَاَللّـهِ لَا أَدْخُـلُ عَرِيـشَ وَاحِـدَةٍ مِنْكُمَـا حَتّـى

أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَهَيّئَا لِي زَادًا ، فَفَعَلَتَا . ثُمّ قَدّمَ نَاضِحَهُ فَارْتَحَلَهُ ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَدْرَكَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ نَزَلَ تَبُوكَ .

وَقَدْ كَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ الجُمَحِيّ أَدْرَكَ أَبَا خَيْثَمَةَ فِي الطّرِيقِ فَتَرَافَقَا ، حَتّى إذَا دَنَوْا مِنْ تَبُوكَ ، قَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ لَهُ إنّ لِي ذَنْبًا . فَلَا عَلَيْك أَنْ تَتَخَلّفَ عَنّي حَتّى آتِي رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَفَعَلَ . حَتّى إذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللّهِ قَالَ النّاسُ رَاكِبٌ عَلَى الطّرِيقِ مُقْبِلٌ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللّهِ هُوَ وَاَللّهِ أَبُو خَيْثَمَةَ . فَلَمّا أَنَاخَ أَقْبَلَ فَسَلّمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَ لَهُ " أَوْلَى لَك يَا أَبَا خَيْثَمَةَ " فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا مَرّ بِالْحَجَرِ - مِنْ دِيَارِ ثَمُودَ - قَالَ لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذّبِينَ إلّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ لَا يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَهُمْ وَقَالَ لَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَتَوَضّئُوا مِنْهُ لِلصّلَاةِ وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوهُ فَاعْلِفُوهُ الْإِبِلَ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُهْرِيقُوا الْمَاءَ وَأَنْ يَسْتَقُوا مِنْ الْبِئْرِ الّتِي كَانَتْ تَرُدّهَا النّاقَةَ

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السّاعِدِيّ قَالَ " انْطَلَقْنَا حَتّى قَدِمْنَا تَبُوكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَتَهُبّ عَلَيْكُمْ اللّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ . فَلَا يَقُمْ أَحَدٌ مِنْكُمْ . فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدّ عِقَالَهُ . فَهَبّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ . فَحَمَلَتْهُ الرّيحُ حَتّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيّئٍ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَأَصْبَحَ النّاسُ وَلَا مَاءَ مَعَهُمْ . فَشَكَوْا ذَلِكَ إلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَدَعَا اللّهَ . فَأَرْسَلَ اللّهُ سَحَابَةً . فَأَمْطَرَتْ حَتّى ارْتَوَى النّاسُ وَاحْتَمَلُوا حَاجَتَهُمْ مِنْ الْمَاءِ .

ثُمّ سَارَ حَتّى إذَا كَانَ بِبَعْضِ الطّرِيقِ جَعَلُوا يَقُولُونَ تَخَلّفَ فُلَانٌ فَيَقُولُ دَعُوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فَسَيُلْحِقُهُ اللّهُ بِكُمْ ، وَإِنْ يَكُ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمْ اللّهُ مِنْهُ <156> وَتَلَوّمَ عَلَى أَبِي ذَرّ بَعِيرَهُ . فَلَمّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ أَخَذَ مَتَاعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمّ خَرَجَ يَتّبِعُ أَثَرَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَاشِيًا .

وَنَزَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي بَعْضِ مَنَازِلِهِ فَنَظَرَ نَاظِرٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ هَذَا الرّجُلُ يَمْشِي عَلَى الطّرِيقِ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كُنْ أَبَا ذَرّ فَلَمّا تَأَمّلُوهُ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللّهِ هُوَ وَاَللّهِ أَبُو ذَرّ . فَقَالَ رَحِمَ اللّهَ أَبَا ذَرّ . يَمْشِي وَحْدَهُ وَيَمُوتُ وَحْدَهُ وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ

وَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبّانَ عَنْ أُمّ ذَرّ قَالَتْ " لَمّا حَضَرَتْ أَبَا ذَرّ الْوَفَاةُ بَكَيْت ، فَقَالَ مَا يُبْكِيك ؟ فَقُلْت : وَمَا لِي لَا أَبْكِي ، وَأَنْتَ تَمُوتُ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ وَلَيْسَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسَعُك كَفَنًا ; وَلَا يَدَانِ لِي فِي تَغْيِيبِك ؟ فَقَالَ أَبْشِرِي وَلَا تَبْكِي ، فَإِنّي سَمِعْت رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ لِنَفَرِ - وَأَنَا فِيهِمْ لَيَمُوتَن رَجُلٌ مِنْكُمْ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ يَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وَلَيْسَ مِنْ أُولَئِكَ النّفَرِ أَحَدٌ إلّا وَقَدْ مَاتَ فِي قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ فَأَنَا ذَلِكَ الرّجُلُ فَوَاَللّهِ مَا كَذَبْت وَلَا كُذّبْت - فَأَبْصِرِي الطّرِيقَ . فَكُنْت أَشْتَدّ إلَى الْكَثِيبِ أَتَبَصّرُ ثُمّ أَرْجِعُ فَأُمَرّضُهُ فَبَيْنَا أَنَا وَهُوَ كَذَلِكَ إذَا أَنَا بِرِجَالٍ عَلَى رِحَالِهِمْ كَأَنّهُمْ الرّخَمُ تَخُدّ بِهِمْ رَوَاحِلُهُمْ قَالَتْ فَأَشَرْت إلَيْهِمْ . فَأَسْرَعُوا إلَيّ حَتّى وَقَعُوا عَلَيّ . فَقَالُوا : يَا أُمّةَ اللّهِ مَا لَك قُلْت : امْرِئٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَمُوتُ تُكَفّنُونَهُ قَالُوا : مَنْ هُوَ ؟ قُلْت : أَبُو ذَرّ قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ قُلْت : نَعَمْ فَفَدَوْهُ بِآبَائِهِمْ وَأُمّهَاتِهِمْ وَأَسْرَعُوا إلَيْهِ حَتّى دَخَلُوا عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُمْ أَبْشِرُوا ، فَإِنّي سَمِعْت رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - وَذَكَرَ الْحَدِيثَ - ثُمّ قَالَ وَإِنّهُ لَوْ كَانَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسَعُنِي كَفَنًا لِي وَلِامْرَأَتِي لَمْ أُكَفّنْ إلّا فِي ثَوْبٍ هُوَ لِي ، أَوْ لَهَا . فَإِنّي أَنْشُدُكُمْ اللّهَ أَنْ لَا يُكَفّنَنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا ، أَوْ بَرِيدًا أَوْ نَقِيبًا . وَلَيْسَ مِنْ أُولَئِكَ النّفَرِ أَحَدٌ إلّا وَقَدْ قَارَفَ بَعْضَ مَا قَالَ إلّا فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ . قَالَ يَا عَمّ أَنَا أُكَفّنُك فِي رِدَائِي هَذَا . وَفِي ثَوْبَيْنِ فِي عَيْبَتِي مِنْ غَزْلِ أُمّي ، قَالَ فَأَنْتَ تُكَفّنُنِي ، فَكَفّنَهُ الْأَنْصَارِيّ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ وَدَفَنُوهُ فِي نَفَرٍ كُلّهِمْ يَمَانٌ

وَلَمّا انْتَهَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى تَبُوكَ ، أَتَاهُ صَاحِبُ أَيْلَةَ ، فَصَالَحَهُ وَأَعْطَاهُ الْجِزْيَةَ وَأَتَاهُ أَهْلُ جَرْبَا وَأَذْرُحَ ، فَأَعْطَوْهُ الْجِزْيَةَ وَكَتَبَ لَهُمْ كِتَابًا . فَهُوَ عِنْدَهُمْ .

ثُمّ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إلَى أُكَيْدِرَ دَوْمَةَ ، وَقَالَ لِخَالِدٍ " إنّك تَجِدُهُ يَصِيدُ <157> الْبَقَرَ " فَخَرَجَ خَالِدٌ حَتّى إذَا كَانَ مِنْ حِصْنِهِ بِمَنْظَرِ الْعَيْنِ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ - وَهُوَ عَلَى سَطْحٍ لَهُ - فَبَانَتْ الْبَقَرُ

تَحُكّ بِقُرُونِهَا بَابَ الْقَصْرِ . فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ هَلْ رَأَيْت مِثْلَ هَذَا قَطّ ؟ قَالَ لَا وَاَللّهِ . قَالَتْ فَمَنْ يَتْرُكُ مِثْلَ هَذِهِ ؟ قَالَ لَا أَحَدَ . ثُمّ نَزَلَ فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ لَهُ وَرَكِبَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ . فَلَمّا خَرَجُوا ، تَلَقّتْهُمْ خَيْلُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَخَذَتْهُ وَقَتَلُوا أَخَاهُ . وَقَدِمَ بِهِ خَالِدٌ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَحَقَنَ لَهُ دَمَهُ . وَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ ثُمّ خَلّى سَبِيلَهُ . فَرَجَعَ إلَى قَرْيَتِهِ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : فَأَقَامَ رَسُولُ اللّهِ بِتَبُوكَ بِضْعَةَ عَشَرَ لَيْلَةً . ثُمّ انْصَرَفَ إلَى الْمَدِينَةِ .

قَالَ وَحَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ التّمِيمِيّ : أَنّ ابْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يُحَدّثُ قَالَ " قُمْت مِنْ جَوْفِ اللّيْلِ وَأَنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَرَأَيْت شُعْلَةً مِنْ نَارٍ فِي نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ فَاتّبَعْتهَا أَنْظُرُ إلَيْهَا . فَإِذَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ . وَإِذَا عَبْدُ اللّهِ ذُو الْبِجَادَيْنِ - وَالْبِجَادُ الْكِسَاءُ الْأَسْوَدُ - الْمُزَنِيّ قَدْ مَاتَ وَإِذَا هُمْ قَدْ حَفَرُوا لَهُ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي حُفْرَتِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يُدْلِيَانِهِ إلَيْهِ . وَهُوَ يَقُولُ أَدْلِيَا إلَيّ أَخَاكُمَا . فَأَدْلَيَاهُ إلَيْهِ . فَلَمّا هَيّأَهُ لِشِقّهِ قَالَ اللّهُمّ إنّي قَدْ أَمْسَيْت رَاضِيًا عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ " قَالَ يَقُولُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : " يَا لَيْتَنِي كُنْت صَاحِبَ الْحُفْرَةِ

وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ تَبُوكَ ، حَتّى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ سَاعَةٌ . وَكَانَ أَصْحَابُ مَسْجِدِ الضّرَارِ أَتَوْهُ - وَهُوَ يَتَجَهّزُ إلَى تَبُوكَ - فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللّهِ إنّا بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ . وَإِنّا نُحِبّ أَنْ تُصَلّيَ فِيهِ . فَقَالَ إنّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ ، وَلَوْ قَدِمْنَا إنْ شَاءَ اللّهُ لَأَتَيْنَاكُمْ

فَلَمّا نَزَلَ بِذِي أَوَانٍ ، جَاءَهُ خَبَرُ الْمَسْجِدِ مِنْ السّمَاءِ . فَدَعَا مَالِكُ بْنُ الدّخْشُمِ وَمَعْنُ بْنُ عَدِيّ . فَقَالَ انْطَلِقَا إلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الظّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرّقَاهُ " فَخَرَجَا مُسْرِعِينَ حَتّى أَتَيَا بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ - وَهُمْ رَهْطُ مَالِكِ بْنِ الدّخْشُمِ - فَقَالَ لِمَعْنٍ أَنْظِرْنِي حَتّى أَخْرُجَ إلَيْك بِنَارٍ مِنْ أَهْلِي . فَدَخَلَ إلَى أَهْلِهِ فَأَخَذَ سَعَفًا مِنْ النّخْلِ . فَأَشْعَلَ فِيهِ نَارًا . ثُمّ خَرَجَا يَشْتَدّانِ حَتّى دَخَلَاهُ وَفِيهِ أَهْلُهُ فَحَرّقَاهُ وَهَدَمَاهُ وَأَنْزَلَ اللّهُ سُبْحَانَهُ (9 : 107

ـ 110) ـ وَالَّـذِينَ اتَّخَـذُوا مَسْـجِدًا ضِـرَارًا وَكُفْـرًا وَتَفْرِيقًـا بَيْـنَ الْمُؤْمِنِينَ - إلَى قَوْلِهِ - وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ فِي الْآيَةِ هُمْ أُنَـاسٌ مِـنْ الْأَنْصَـارِ ابْتَنَـوْا مَسْـجِدًا ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو <158> عَامِرٍ الْفَاسِقُ ابْنُوا مَسْـجِدَكُمْ وَاسْـتَعِدّوا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ . فَإِنّي ذَاهِـبٌ إلَى قَيْصَـرَ مَلِـكِ الرّومِ ، فَآتِ بِجُنْدٍ مِنْ الـرّومِ ، فَـأَخْرَجَ مُحَمّـدًا وَأَصْـحَابَهُ . فَلَمّـا فَرَغُوا مِنْ بِنَائِهِ أَتَوْا النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَالُوا : إنّا قَـدْ فَرَغْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا . وَنُحِبّ أَنْ تُصَـلّيَ فِيـهِ وَتَـدْعُو بِالْبَرَكَـةِ . فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ (9 : 108) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا - إلَى قَوْلِهِ - لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ يَعْنِي الشّـكّ إلّا أَنْ تَقَطّـعَ قُلُوبُهُمْ يَعْنِي بِالْمَوْتِ .
وَلَمّا دَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ مِـنْ الْمَدِينَـةِ ، خَـرَجَ النّاسُ لَتَلَقّيه ، وَالنّسَاءُ وَالصّبْيَانُ وَالْوَلَائِدُ يَقُلْنَ

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلّهِ دَاعٍ

وَكَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ آخِرَ غَزْوَةٍ غَزَاهَا رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ بِنَفْسِهِ . وَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا سُورَةَ بَرَاءَةٌ .
وَكَانَتْ تُسَمّى فِي زَمَانِ النّبِيّ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَبَعْـدَهُ " الْمُبَعْثَرَةَ " لِمَا كَشَفَتْ مِنْ سَرَائِرِ الْمُنَافِقِينَ وَخَبَايَا قُلُوبِهِمْ .
وَفِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : كَانَتْ قِصّةُ تَخَلّفِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، وَمُرَارَةَ بْـنِ الرّبِيعِ وَهِلَالِ بْنِ أُمَيّةَ الْوَاقِفِيّ . مِمّنْ شَهِدُوا بَدْرًا . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمَّ عُذْرٌ فِي التّخَلّفِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ . فَلَمّـا عَـادَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ إلَـى الْمَدِينَـةِ ، جَـاءَ الْمُعَـذّرُونَ مِـنْ الْأَعْـرَابِ مِـنْ الْمُنَـافِقِينَ يَحْلِفُـونَ أَنّهُـمْ كَـانُوا مَعْذُورِينَ . فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ وَأَرْجَـأَ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَصَاحِبَيْهِ حَتّى أَنْزَلَ اللّهُ فِي شَأْنِهِمْ وَفِي تَـوْبَتِهِمْ - وَكَانُوا مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ - (9 : 117 - 119) لَقَدْ تَابَ اللّهُ عَلَى النّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُـمْ ثُـمّ تَـابَ عَلَيْهِـمْ إنّـهُ بِهِـمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثّلَاثَةِ الّذِينَ خُلّفُوا الْآيَتَيْنِ خَلّفَهُمْ اللّـهُ وَأَخّـرَ

تَوْبَتَهُمْ لِيُمَحّصَهُمْ وَيُطَهّرَهُمْ مِنْ ذَنْبِ تَـأَخّرِهِمْ . لِأَنّهُـمْ كَـانُوا مِـنْ الصّادِقِينَ .

وُفُودُ الْعَرَبِ إلَى رَسُولِ اللّهِ

وَلَمّا فَرَغَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ تَبُوكَ ، وَأَسْـلَمَتْ ثَقِيفٌ ضَرَبَتْ إلَيْهِ أَكْبَادَ <159> الْإِبِلِ تَحْمِلُ وُفُـودَ الْعَـرَبِ مِـنْ كُلّ وَجْهٍ فِي سَنَةِ تِسْعٍ . وَكَانَتْ تُسَمّى : سَنَةَ الْوُفُودِ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَإِنّمَا كَانَتْ الْعَـرَبُ تَرَبّـصُ بِالْإِسْـلَامِ أَمْـرَ هَـذَا الْحَيّ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَمْرَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

وَذَلِكَ أَنّ قُرَيْشًا كَانُوا إمَامَ النّاسِ وَهُدَاتَهُمْ وَأَهْلَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ ، وَصَرِيحَ وَلَدِ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السّلَامُ وَقَادَةُ الْعَرَبِ لَا يُنْكِرُونَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ قُرَيْشٌ هِيَ الّتِي نَصَبَتْ لِحَرْبِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَلَمّا افْتُتِحَتْ مَكّةُ ، وَدَانَتْ لَهُ قُرَيْشُ عَرَفَتْ الْعَرَبُ أَنْ لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِحَرْبِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ . وَلَا عَـدَاوَتِهِ فَدَخَلُوا فِي دِينِ اللّهِ أَفْوَاجًا . كَمَا قَـالَ تَعَـالَى إذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللّـهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللّـهِ أَفْوَاجًـا فَسَـبّحْ بِحَمْـدِ رَبّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إنّهُ كَانَ تَوّابًا

وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ

فَقَدِمَ عَلَيْهِ عُطَارِدُ بْنُ حَـاجِبٍ التّمِيمِـيّ ، فِـي أَشْـرَافِ مِـنْ بَنِـي تَمِيمٍ جَاءُوا فِي أَسْرَى بَنِي تَمِيمٍ الّذِينَ أَخَذَتْهُمْ سَـرِيّةُ عُيَيْنَـةَ بْـنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيّ فِي الْمُحَرّمِ مِنْ هَذِهِ السّنَةِ . وَكَانَ عُيَيْنَةُ قَدْ أَخَذَ أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا ، وَإِحْدَى وَعِشْرِينَ امْرَأَةً وَثَلَاثِينَ صَبِيّا . وَسَـاقَهُمْ إلَى الْمَدِينَةِ . فَقَدِمَ رُؤَسَاءُ بَنِي تَمِيمٍ فِيهِمْ . فَلَمّا دَخَلُوا الْمَسْجِدَ نَادَوْا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ - وَهُـوَ فِي بَيْتِهِ - أَنْ اُخْرُجْ إلَيْنَا . فَآذَى ذَلِكَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ . فَأَنْزَلَ اللّهُ فِيهِمْ (49 : 3 ، 4) إنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُـونَ وَلَـوْ أَنّهُـمْ صَـبَرُوا حَتّـى تَخْـرُجَ إلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاَللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

فَلَمّا خَرَجَ إلَيْهِمْ قَالُوا : جِئْنَا لِنُفَاخِرَك ، فَأْذَنْ لِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَـا . قَالَ " أَذِنْت لِخَطِيبِكُمْ " فَقَامَ عُطَـارِدٌ . فَخَطَـبَ . فَقَـالَ رَسُـولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لِثَـابِتِ بْـنِ قَيْـسِ بْـنِ شَـمّاسٍ " قُـمْ فَأَجِبْ الرّجُلَ " فَقَامَ ثَابِتٌ فَخَطَبَ وَأَجَابَهُ وَقَامَ الزّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ فَقَالَ

نَحْـنُ الْكِـرَامُ فَلَا حَـيّ يُعَادِلُنَا ... مِنّـا الْمُلُـوكُ . وَفِينَـا تُنْصَبُ الْبِيَعُ

وَكَـمْ قَسَـرْنَا مِـنْ الْأَجْيَادِ كُلُّهُمُو ... عِنْـدَ النّهَـابِ وَفَضْـلُ الْعِزّ يُتّبَعُ

وَنَحْـنُ يُطْعِـمُ عِنْـدَ الْقَحْطِ مُطْعِمُنَا ... مِـنْ الشّـوَاءِ إذَا لَـمْ يُؤْنَسْ الْقَزَعُ

<160> إلَى أَنْ قَالَ -

إنّا أَبَيْنَا ، وَلَمْ يَأْبَ لَنَا أَحَدٌ ... إنّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْـرِ نَرْتَفِعُ

فِي أَبْيَاتٍ ذَكَرَهَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لِحَسّـانَ " قُـمْ فَـأَجِبْ الرّجُلَ " فَقَامَ فَقَالَ

إنّ الـذّوَائِبَ مِـنْ فِهْـرٍ قَـدْ بَيّنُـوا سُـنَنًا لِلنّـاسِ وَإِخْوَتِهِمْ ... تُتّبَعُ

يَرْضَـى بِهَـا كُـلّ مَـنْ تَقْوَى الْإِلَـهَ وَكُـلّ الْخَيْـرِ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... يَصْطَنِعُ

قَـوْمٌ إذَا حَـارَبُوا ضَـرّوا أَعِزّتَهُمْ أَوْ حَـاوَلُوا النّفْـعَ فِـي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا ... عَدُوّهُمُو

سَجِيّةً تِلْـكَ مِنْهُـمْ غَيْـرُ إنّ الْخَلَائِـقَ - فَـاعْلَمْ - شَرّهَا الْبِدَعُ ... مُحْدَثَةٍ

إنْ كَـانَ فِـي النّـاسِ سَبّاقُونَ بَعْدَهُمُو ... فَكُـلّ سِـبْقٍ لِأَدْنَـى سِبْقِهِمْ تَبَعُ

إلَى أَنْ قَالَ -

لَا يَبْخَلُـونَ عَلَـى جَـارٍ بِفَضْلِهِمُو ... وَلَا يَمَسّـهُمُو مِـنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ

لَا يَفْخَـرُونَ إذَا نَـالُوا عَدُوّهُمْ ... وَإِنْ أُصِـيبُوا فَلَا خُـورٌ وَلَا هُلَعُ

نَسْـمُو إذَا الْحَـرْبُ إذَا الزّعَـانِفُ مِـنْ

نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا أَظْفَارِهَا خَشَعُوا

إِلَى أَنْ قَالَ -

أَكْـرِمْ بِقَـوْمِ رَسُـولِ اللّهِ شِيعَتُهُمْ إِذَا تَفَرّقَـتْ الْأَهْـوَاءُ وَالشّيَعُ

أُهْـدِي لَهُـمْ مِـدْحَتِي فِيمَـا أَحَـبّ لِسَـانٌ قَلْبٌ وَوَازَرَهُ حَائِكٌ صُنِعَ

وَقَالَ الزّبْرِقَانُ أَيْضًا : -

أَتَيْنَـاك كَيْمَـا يَعْلَـمُ النّاسُ فَضْلَنَا إِذَا احْتَفَلُوا عِنْدَ احْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ

فَإِنّـا مُلُـوكُ النّـاسِ فِي كُلّ مَوْطِنٍ وَأَنْ لَيْـسَ فِـي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ

وَإِنّا نَـذُودُ الْمُعْلَمِيـنَ إِذَا انْتَخَوْا وَنَضْـرِبُ رَأْسَ الْأَغْيَـدِ الْمُتَفَاخِمِ

وَأَنْ لَنَا الْمِرْبَـاعُ فِـي كُلّ غَارَةٍ تُغِيـرُ بِنَجْـدِ أَوْ بِـأَرْضِ الْأَعَاجِمِ

فَأَجَابَهُ حَسّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ <161>

هَـلْ الْمَجْـدُ إِلّا السّـؤْدُدُ وجَاهَ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعُودُ وَالنّدَى الْعَظَائِمِ ؟

نُصِـرْنَا وَآوَيْنَـا النّبِـيّ عَلَـى أَنْـفِ رَاضٍ مِـنْ مُحَمّدًا مَعَدّ وَرَاغِمِ

إِلَى أَنْ قَالَ -

وَنَحْـنُ ضَـرَبْنَا النّـاسَ عَلَى دِينِـهِ بِالْمُرْهِفَـاتِ حَتّى تَتَابَعُوا الصّوَارِمِ

وَنَحْـنُ وَلَـدْنَا مِـنْ وَلَدْنَا نَبِيّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا هَاشِمِ

بَنِـي دَارِمٍ لَا تَفْخَـرُوا . يَعُـودُ وَبَـالًا عِنْـدَ ذِكْـرِ إِنّ فَخْرَكُمْ الْمَكَارِمِ

هُبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ ؟ لَنَا خَوَلٌ . مَا بَيْنَ ظِئْـرٍ وَأُنْثُمْ وَخَادِمٍ
فَإِنْ كُنْتُمُو جِئْتُمْ لِحَقْنِ وَأَمْـوَالِكُمْ أَنْ تَقْسِـمُوا دِمَائِكُمْ فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُـوا لِلّـهِ نِـدّا . وَلَا تَلَبّسُـوا زِيّـا كَـزِيّ وَأَسْلَمُوا الْأَعَاجِمِ

فَلَمّا فَرَغَ حَسّانُ قَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَـابِسٍ إنّ هَـذَا الرّجُـلَ لَمُـؤْتَى . لَخَطِيبُـهُ أَخْطَـبُ مِـنْ خَطِيبِنَـا ، وَلَشَـاعِرُهُ أَشْـعَرُ مِـنْ شَـاعِرِنَا ، وَلَأَصْـوَاتُهُمْ أَحْلَـى مِـنْ أَصْـوَاتِنَا . فَلَمّـا فَـرَغَ الْقَـوْمُ أَسْـلَمُوا ، وَجَوّزَهُمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَأَحْسَنَ جَوَائِزَهُمْ .

وَفْدُ طَيّئٍ

وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَفْدُ طَيّئٍ فِيهِمْ زَيْدُ الْخَيْلِ - وَهُوَ سَيّدُهُمْ - فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمُوا وَحَسُنَ إسْلَامُهُمْ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ - كَمَـا حَدّثَنِي مَنْ لَا أَتّهِمُ مِنْ رِجَالِ طَيّئٍ - مَا ذَكَرَ لِي رَجُلٌ مِـنْ الْعَـرَبِ بِفَضْلٍ ثُمّ جَاءَنِي ، إلّا رَأَيْته دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ إلّا زَيْدُ الْخَيْلِ . فَـإِنّهُ لَمْ يُبَلّغْ كُلّ مَا فِيهِ

ثُـمّ سَـمّاهُ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ " زَيْـدَ الْخَيْـرِ " وَأَقْطَعَهُ " فَيْدًا " وَأَرَضِينَ مَعَهُ وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًـا . فَخَـرَجَ مِـنْ عِنْدِهِ رَاجِعًا إلَى قَوْمِهِ فَلَمّا انْتَهَى إلَى مَاءٍ مِنْ مِيَاهِ نَجْدٍ - يُقَالُ لَهُ " فَرْدَةُ " - أَصَابَتْهُ الْحُمّى بِهَا فَمَاتَ . فَعَمَدَتْ امْرَأَتُهُ إلَى مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ الْكُتُبِ الّتِي أَقْطَعَ لَـهُ بِهَـا رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ فَحَرَقَتْهَا بِالنّارِ .

وَفْدُ عَبْدِ الْقَيْسِ

وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْجَارُودُ الْعَبْدِيّ فِي وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ وَكَانَ نَصْرَانِيّا . فَقَالَ يَـا رَسُـولَ اللّـهِ إنّـي عَلَـى دِينِي ، وَإِنّي تَارِكٌ دِينِي لِدِينِك . فَتَضْمَنُ <162> لِي بِمَـا فِيـهِ ؟ قَالَ نَعَمْ . أَنَا ضَامِنٌ لِذَلِكَ إنّ الّـذِي أَدْعُـوك إلَيْـهِ خَيْـرٌ مِـنْ الّـذِي كُنْت عَلَيْهِ " فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَ أَصْحَابُهُ . فَكَانَ حَسَنَ الْإِسْـلَامِ صُـلْبًا فِي دِينِهِ حَتّى هَلَكَ وَقَدْ أَدْرَكَ الرّدّةَ . وَكَانَ فِي الْوَفْـدِ " الْأَشَـجّ "

الّذِي قَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّ فِيك لِخَصْلَتَيْنِ يُحِبّهُمَا اللّهُ الْحُلْمَ وَالْأَنَاة

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ - قَبْلَ فَتْحِ مَكّةَ - إلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيّ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إسْلَامُهُ . ثُمّ هَلَكَ بَعْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَفِي رِدّةِ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ . وَالْعَلَاءُ عِنْدَهُ أَمِيرُ الرّسُولِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى الْبَحْرَيْنِ .

وَفْدُ بَنِي حَنِيفَةَ فِيهِمْ مُسَيْلِمَةُ

وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَفْدُ بَنِي حَنِيفَة فِيهِمْ مُسَيْلِمَةُ الْكَذّابُ . فَأَتَوْهُ وَخَلّفُوا مُسَيْلِمَةَ فِي رِحَالِهِمْ فَلَمّا أَسْلَمُوا ذَكَرُوا مَكَانَهُ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللّهِ إنّا قَدْ خَلّفْنَا صَاحِبًا لَنَا فِي رِحَالِنَا يَحْفَظُهَا لَنَا . فَأَمَرَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ بِهِ لِلْقَوْمِ وَقَالَ أَمَا إنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَانًا يَعْنِي لِحِفْظِهِ ضَيْعَةَ أَصْحَابِهِ . ثُمّ انْصَرَفُوا فَلَمّا انْتَهَوْا إلَى الْيَمَامَةِ ، ارْتَدّ عَدُوّ اللّهِ وَتَنَبّأَ وَقَالَ إنّي أَشْرَكْت فِي الْأَمْرِ مَعَهُ . وَقَالَ لِلْوَفْدِ أَلَمْ يَقُلْ لَكُمْ " أَمَا إنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَانًا ؟ " مَا ذَاكَ إلّا لَمّا كَانَ يَعْلَمُ أَنّي أَشْرَكْت فِي الْأَمْرِ مَعَهُ . ثُمّ جَعَلَ يَسْجَعُ لَهُمْ السّجَعَاتِ مُضَاهَاةً لِلْقُرْآنِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَشْهَدُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالنّبُوّةِ .

وَكَتَبَ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللّهِ إلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ ، أَمّا بَعْدُ . فَإِنّي أَشْرَكْت فِي الْأَمْرِ مَعَك . وَإِنّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَهَا ، وَلَكِنْ قُرَيْشًا قَوْمٌ لَا يَعْدِلُونَ .

فَكَتَبَ إلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ ، إلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ ، السّلَامُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى . أَمّا بَعْدُ فَإِنّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ " . وَقَالَ لِلرّجُلَيْنِ اللّذَيْنِ أَتَيَا بِكِتَابِهِ مَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا ؟ فَقَالَا : نَقُولُ كَمَا قَالَ . فَقَالَ " أَمَا وَاَللّهِ لَوْلَا أَنّ الرّسُلَ لَا تُقْتَلُ ، لَضَرَبْت رِقَابَكُمَا وَذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ .

حَجّةُ أَبِي بَكْرٍ بِالنّاسِ

<163> ثُمّ أَقَامَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ تَبُوكَ - بَقِيّةَ رَمَضَانَ وَشَوّالٍ وَذَا الْقَعْدَةِ - ثُمّ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ

رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَمِيرًا عَلَى الْحَجّ لِيُقِيمَ النّاسُ حَجّهُمْ وَأَهْلُ الشّرْكِ عَلَى دِينِهِمْ وَمَنَازِلُهُمْ مِنْ حَجّهِمْ .
فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ الْمَدِينَةِ . وَبَعَثَ مَعَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِعِشْرِينَ بَدَنَةً . قَلّدَهَا وَأَشْعَرَهَا بِيَدِهِ . ثُمّ نَزَلَتْ سُورَةُ بَرَاءَةٌ فِي نَقْضِ مَا بَيْنَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَهْدِ الّذِي كَانُوا عَلَيْهِ . فَأَرْسَلَ بِهَا عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى نَاقَتِهِ الْعَضْبَاءِ لِيَقْرَأَ بَرَاءَةٌ عَلَى النّاسِ . وَيَنْبِذَ إلَى كُلّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ . فَلَمّا لَقِيَ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لَهُ أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ ؟ فَقَالَ عَلِيّ : بَلْ مَأْمُورٌ " فَلَمّا كَانَ يَوْمُ النّحْرِ قَامَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . فَقَالَ " يَا أَيّهَا النّاسُ لَا يَدْخُلُ الْجَنّةَ كَافِرٌ وَلَا يَحُجّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانُ وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَهُوَ إلَى مُدّتِهِ
حَجّةُ الْوَدَاعِ
فَلَمّا دَخَلَ ذُو الْقَعْدَةِ تَجَهّزَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لِلْحَجّ وَأَمَرَ النّاسَ بِالْجَهَازِ لَهُ . وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَلْقَوْهُ . فَخَرَجَ مَعَهُ مَنْ كَانَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَقَرِيبًا مِنْهَا . وَخَرَجَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ الْقَبَائِلِ الْقَرِيبَةِ وَالْبَعِيدَةِ حَتّى لَقَوْهُ فِي الطّرِيقِ وَفِي مَكّةَ ، وَفِي مِنًى وَعَرَفَاتٍ . وَجَاءَ عَلِيّ مِنْ الْيَمَنِ مَعَ أَهْلِ الْيَمَنِ . وَهِيَ حَجّةُ الْوَدَاعِ .
فَخَرَجَ لَهَا لِخَمْسٍ بَقَيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ . فَمَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ . فَأَرَى النّاسَ مَنَاسِكَهُمْ وَعَلّمَهُمْ سُنَنَ حَجّهِمْ . وَهُوَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ لَهُمْ وَيُكَرّرُ عَلَيْهِمْ أَيّهَا النّاسُ خُذُوا عَنّي مَنَاسِكَكُمْ . فَلَعَلّكُمْ لَا تَلْقَوْنِي بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا .
<164> وَلَمّا كَانَ بِمِنًى خَطَبَ النّاسَ خُطْبَتَهُ الّتِي بَيّنَ فِيهَا مَا بَيّنَ " فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمّ قَالَ أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي . فَإِنّي لَا أَدْرِي ، لَعَلّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا . أَيّهَا النّاسُ إنّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبّكُمْ . وَكُلّ رِبًا مَوْضُوعٌ . وَأَوّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَا الْعَبّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ . فَإِنّهُ مَوْضُوعٌ كُلّهُ . وَإِنّ كُلّ دَمٍ فِي الْجَاهِلِيّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ . وَإِنّي تَرَكْت فِيكُمْ مَا إنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلّوا - كِتَابَ اللّهِ - وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنّي .

فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُوا : نَشْهَدُ أَنّك قَدْ بَلّغْت ، وَأَدّيْت ، وَنَصَحْت . فَجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إلَى السّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إلَيْهِمْ وَيَقُولُ اللّهُمّ اشْهَدْ - ثَلَاثَ مَرّاتٍ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَجّةُ تُسَمّى " حَجّةَ الْوَدَاعِ " لِأَنّهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمْ يَحُجّ بَعْدَهَا .
فَلَمّا انْقَضَى حَجّهُ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ . فَأَقَامَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَقِيّةَ ذِي الْحَجّةِ وَالْمُحَرّمِ وَصَفَرٍ .
ثُمّ ابْتَدَأَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَجَعُهُ الّذِي مَاتَ فِيهِ فِي آخِرِ صَفَرٍ .
بَعْثُ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ إلَى الْبَلْقَاءِ
وَلَمّا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ لِأَرْبَعٍ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ صَفَرٍ سَنَةَ إحْدَى عَشْرَةَ . <165> أَمَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ النّاسَ بِالتّهَيّؤِ لِغَزْوِ الرّومِ . فَلَمّا كَانَ مِنْ الْغَدِ دَعَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ إلَى مَوْضِعِ مَقْتَلِ أَبِيهِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَأَنْ يُوطِئَ الْخَيْلَ تُخُومَ الْبَلْقَاءِ وَالدّوَارِمِ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ . فَتَجَهّزَ النّاسُ وَأَوْعَبَ مَعَ أُسَامَةَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ .
ثُمّ اسْتَبْطَأَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ النّاسَ فِي بَعْثِ أُسَامَةَ - وَهُوَ فِي وَجَعِهِ - فَخَرَجَ عَاصِبًا رَأْسَهُ حَتّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ - وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ قَدْ قَالُوا فِي إمَارَةِ أُسَامَةَ أَمّرَ غُلَامًا حَدَثًا عَلَى جُلّةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . فَغَضِبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ غَضَبًا شَدِيدًا . وَخَرَجَ عَاصِبًا رَأْسَهُ - وَكَانَ قَدْ بَدَأَ بِهِ الْوَجَعُ - فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ " فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمّ قَالَ أَيّهَا النّاسُ أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ فَلَئِنْ طَعَنْتُمْ فِي إمَارَتِهِ فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إمَارَةِ أَبِيهِ . وَايْمُ اللّهِ إنْ كَانَ خَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ . وَإِنّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخَلِيقٌ لِلْإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ أَبُوهُ لَمِنْ أَحَبّ النّاسِ إلَيّ وَإِنّ هَذَا لَمِنْ أَحَبّ النّاسِ إلَيّ مِنْ بَعْدِهِ ثُمّ نَزَلَ .
وَانْكَمَشَ النّاسُ فِي جَهَازِهِمْ . فَاشْتَدّ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَجَعه . وَخَرَجَ أُسَامَةُ بِجَيْشِهِ فَعَسْكَرَ بِالْجَرْفِ وَتَتَامّ إلَيْهِ النّاسُ . فَأَقَامُوا لِيَنْظُرُوا مَا اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَاضٍ فِي رَسُولِهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .
مَرَضُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : حُدّثْت عَنْ أُسَامَةَ قَالَ لَمّا ثَقُلَ بِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَبَطْت وَهَبَطَ النّاسُ مَعِي إلَى الْمَدِينَةِ . فَدَخَلْت عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَدْ أُصْمِتَ فَلَا يَتَكَلّمُ . وَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَهُ إلَى السّمَاءِ ثُمّ يَضَعُهَا عَلَيّ . أَعْرِفُ أَنّهُ يَدْعُو لِي .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : حُدّثْت عَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ جَوْفِ اللّيْلِ . فَقَالَ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ قَدْ أُمِرْت أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ هَذَا الْبَقِيعِ . فَانْطَلِقْ مَعِي . فَانْطَلَقْت مَعَهُ . فَلَمّا وَقَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ السّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ لِيَهْنَ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمّا أَصْبَحَ النّاسُ فِيهِ . أَقْبَلَتْ الْفِتَنُ مِثْلَ قِطَعِ اللّيْلِ الْمُظْلِمِ يَتْبَعُ أُخْرَاهَا أُولَاهَا ، الْآخِرَةُ شَرّ مِنْ الْأُولَى . ثُمّ أَقْبَلَ عَلَيّ فَقَالَ إنّي قَدْ أُعْطِيت مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا . فَخُيّرْت فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبّي وَالْجَنّةِ . فَقُلْت : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، فَخُذْ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدّنْيَا وَتَخَلّدْ فِيهَا ، ثُمّ الْجَنّةَ . قَالَ لَا وَاَللّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ . قَدْ اخْتَرْت لِقَاءَ رَبّي وَالْجَنّةَ . ثُمّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ ، ثُمّ انْصَرَفَ .

فَبَدَأَ بِهِ وَجَعُهُ . فَلَمّا اسْتَعَرّ بِهِ دَعَا نِسَاءَهُ فَاسْتَأْذَنَهُنّ أَنْ يُمَرّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا ، فَأَذِنّ لَهُ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ <166> خَطَبَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ إنّ اللّهَ خَيّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللّهِ . فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ فَتَعَجّبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَنْ عَبْدٍ خُيّرَ فَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ هُوَ الْمُخَيّرَ . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إنّ مِنْ أَمَنّ النّاسِ عَلَيّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ . وَلَوْ كُنْت مُتّخِذًا خَلِيلًا - غَيْرَ رَبّي - لَاتّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . وَلَكِنْ أُخُوّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدّتُهُ . لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إلّا سُدّ إلّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ .

وَفِي الصّحِيحِ أَنّ ابْنَ عَبّاسٍ وَأَبَا بَكْرٍ مَرّا بِمَجْلِسِ لِلْأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ فَقَالَا : مَا يُبْكِيكُمْ ؟ قَالُوا : ذَكَرْنَا مَجْلِسَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنّا فَدَخَلَ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ . فَخَرَجَ وَقَدْ عَصّبَ عَلَى رَأْسِهِ بِحَاشِيَةِ بُرْدٍ . فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ - وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ - فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمّ قَالَ أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا . فَإِنّهُمْ كِرْشِي وَعَيْبَتِي . وَقَدْ قَضَوْا الّذِي عَلَيْهِمْ . وَبَقِيَ الّذِي لَهُمْ . فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ . وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ .

وَفِي الصّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ قَالَ اشْتَدّ مَرَضُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلّ بِالنّاسِ . قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللّهِ إنّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ إذَا قَامَ مَقَامَك لَا يُسْمِعُ النّاسَ فَلَوْ أَمَرْت عُمَرَ ؟ قَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلِيُصَلّ بِالنّاسِ ، فَعَادَتْ . فَقَالَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلِيُصَلّ بِالنّاسِ ، فَإِنّكُنّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ . فَأَتَاهُ الرّسُولُ . فَصَلّى بِالنّاسِ فِي حَيَاةِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَتْ وَوَاَللّهِ مَا أَقُولُ إلّا أَنّي أُحِبّ أَنْ يُصْرَفَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَرَفْت أَنّ النّاسَ لَا يُحِبّونَ رَجُلًا قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا ، وَأَنّ النّاسَ سَيَتَشَاءَمُونَ بِهِ فِي كُلّ حَدَثٍ كَانَ . فَكُنْت أُحِبّ أَنْ يُصْرَفَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ .

مَوْتُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ

قَالَ الزّهْرِيّ : حَدّثَنِي أَنَسٌ قَالَ كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ الّذِي قُبِضَ فِيهِ رَسُولُ اللّهِ خَرَجَ إلَى النّاسِ وَهُمْ يُصَلّونَ الصّبْحَ فَرَفَعَ السّتْرَ وَفَتَحَ الْبَابَ . فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَامَ عَلَى بَابِ عَائِشَةَ . فَكَادَ الْمُسْلِمُونَ يُفْتَنُونَ فِي صَلَاتِهِمْ - فَرَحًا بِهِ حِينَ رَأَوْهُ وَتَفَرّجُوا عَنْهُ - فَأَشَارَ إلَيْهِمْ أَنْ اُثْبُتُوا عَلَى صَلَاتِكُمْ قَالَ وَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سُرُورًا ، وَلَمّا رَأَى مِنْ هَيْئَتِهِمْ فِي صَلَاتِهِمْ . وَمَا رُئِيَ أَحْسَنَ مِنْهُ تِلْكَ السّاعَةَ . قَالَ ثُمّ رَجَعَ وَانْصَرَفَ النّاسُ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنّهُ قَدْ أَفْرَقَ مِنْ وَجَعِهِ . وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ إلَى أَهْلِهِ بِالسّنْحِ . فَتُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ حِينَ اشْتَدّ الضّحَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : قَالَ الزُّهْرِيّ حَدّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيّبِ عَـنْ <
167> أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمّا تُوُفّيَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ قَـامَ عُمَـرُ . فَقَـالَ إنّ رِجَـالًا مِـنْ الْمُنَـافِقِينَ يَزْعُمُـونَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ تُوُفّيَ وَإِنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَاَللّهِ مَا مَاتَ وَلَكِنّهُ قَدْ ذَهَبَ إلَى رَبّهِ كَمَـا ذَهَـبَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ . فَقَدْ غَابَ عَـنْ قَـوْمِهِ أَرْبَعِيـنَ لَيْلَـةً ثُـمّ رَجَـعَ إلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ قِيلَ مَاتَ . وَوَاَللّهِ لَيَرْجِعَن رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعْدَ حِينٍ كَمَا رَجَـعَ مُوسَـى ، فَلَيُقَطّعَـن أَيْـدِي رِجَـالٍ وَأَرْجُلِهِمْ زَعَمُوا أَنّهُ قَدْ مَاتَ . قَالَ وَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتّى نَزَلَ عَلَـى بَابِ الْمَسْجِدِ . حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ - وَعُمَرُ يُكَلّمُ النّاسَ - فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَى شَيْءٍ حَتّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِـي بَيْتِ عَائِشَةَ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُسَجّى فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ عَلَيْهِ بُرْدِ حِبَرَةٍ . فَأَقْبَلَ حَتّى كَشَفَ عَـنْ وَجْهِـهِ . ثُـمّ أَقْبَـلَ عَلَيْهِ فَقَبّلَهُ . ثُمّ قَالَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي ، أَمَا الْمَوْتَةُ الّتِي كَتَبَهَـا اللّـهُ عَلَيْك : فَقَدْ ذُقْتهَا ، ثُمّ لَنْ تُصِيبَك بَعْدَهَا مَوْتَةٌ أَبَـدًا . ثُـمّ رَدّ الْبُـرْدَ عَلَى وَجْهِهِ . وَخَرَجَ - وَعُمَرُ يُكَلّمُ النّاسَ - فَقَـالَ عَلَـى رِسْـلِك يَـا عُمَرُ أَنْصِتْ . فَأَبَى إلّا أَنْ يَتَكَلّمَ . فَلَمّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ لَا يَنْصِتُ أَقْبَـلَ عَلَى النّاسِ . فَلَمّا سَمِعَ النّاسُ كَلَامَ أَبِي بَكْرٍ أَقْبَلُوا عَلَيْـهِ وَتَرَكُـوا عُمَرَ فَحَمِدَ اللّهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمّ قَالَ أَيّهَا النّاس ، إنّـهُ مَـنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمّدًا . فَإِنّ مُحَمّـدًا قَـدْ مَـاتَ . وَمَـنْ كَـانَ يَعْبُـدُ اللّـهَ تَعَالَى ، فَإِنّ اللّهَ حَيّ لَا يَمُوتُ . قَالَ ثُمّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (3 : 144) وَمَا مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِـلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشّاكِرِينَ

قَالَ فَوَاَللّهِ لِكَأَنّ النّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ حَتّـى تَلَاهَـا أَبُو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ قَالَ وَأَخَذَهَا النّـاسُ عَـنْ أَبِـي بَكْـرٍ فَإِنّمَـا هِـيَ فِـي أَفْوَاهِهِمْ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ عُمَرُ فَوَاَللّهِ مَا هُوَ إلّا أَنْ سَـمِعْت أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا . فَعَثَرْت حَتّى وَقَعْت إلَى الْأَرْضِ . مَا تَحْمِلُنِي رِجْلَايَ فَاحْتَمَلَنِي رَجُلَانِ وَعَرَفْت أَنّ رَسُولَ اللّهِ قَدْ مَاتَ

حَدِيثُ السّقِيفَةِ

فَلَمّا قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ انْحَازَ هَذَا الْحَيّ مِـنْ الْأَنْصَارِ إلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِـي سَـقِيفَةِ بَنِـي سَـاعِدَةَ . وَاعْتَـزَلَ

عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَالزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللّهِ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ . وَانْحَازَ الْمُهَاجِرُونَ إلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَمَعَهُمْ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ . فَأَتَى آتٍ إلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ إنّ هَذَا الْحَيّ مِنْ الْأَنْصَارِ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ قَدْ انْحَازُوا إلَيْهِ . فَإِنْ كَانَ <168> لَكُمْ بِأَمْرِ النّاسِ مِنْ حَاجَةٍ فَأَدْرَكُوا النّاسَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي بَيْتِهِ لَمْ يُفْرَغْ مِنْ أَمْرِهِ قَدْ أَغْلَقَ دُونَهُ الْبَابَ أَهْلُهُ . فَقَالَ عُمَرُ لِأَبِي بَكْرٍ . انْطَلِقْ بِنَا إلَى إخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنْ الْأَنْصَارِ ، حَتّى نَنْظُرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ .

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ : وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ السّقِيفَةِ أَنّ عَبْدَ اللّهِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ حَدّثَنِي عَنْ مُحَمّدِ بْنِ شِهَابٍ الزّهْرِيّ عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكُنْت فِي مَنْزِلِهِ بِمِنَى أَنْتَظِرُهُ وَهُوَ عِنْدَ عُمَرَ فِي آخِرِ حَجّةٍ حَجّهَا عُمَرُ - قَالَ فَرَجَعَ عَبْدُ الرّحْمَنِ مِنْ عِنْدِ عُمَرَ فَوَجَدَنِي فِي مَنْزِلِهِ بِمِنَى أَنْتَظِرُهُ وَكُنْت أُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ . فَقَالَ لِي : لَوْ رَأَيْت رَجُلًا أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ هَلْ لَك فِي فُلَانٍ ؟ يَقُولُ وَاَللّهِ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ لَقَدْ بَايَعْت فُلَانًا وَاَللّهِ مَا كَانَتْ بَيْعَةُ أَبِي بَكْرٍ إلّا فَلْتَةٌ فَتَمّتْ . فَغَضِبَ عُمَرُ وَقَالَ إنّي - إنْ شَاءَ اللّهُ - لَقَائِمٌ الْعَشِيّةَ فِي النّاسِ فَمُحَذّرُهُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْصِبُوهُمْ أَمْرَهُمْ . قَالَ عَبْدُ الرّحْمَنِ فَقُلْت لَا تَفْعَلْ فَإِنّ الْمَوْسِمَ يَجْمَعُ رَعَاعَ النّاسِ وَغَوْغَاءَهُمْ وَإِنّهُمْ الّذِينَ يَغْلِبُونَ عَلَى قُرْبِك حِينَ تَقُومُ فِي النّاسِ . وَإِنّي أَخْشَى أَنْ تَقُومَ فَتَقُولَ مَقَالَةً يُطَيّرُهَا أُولَئِكَ عَنْك كُلّ مُطِيرٍ وَلَا يَعُوهَا وَلَا يَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا ، فَأَمْهِلْ حَتّى تَقْدَمَ الْمَدِينَةَ . فَإِنّهَا دَارُ السّنّةِ وَتَخَلّصْ بِأَهْلِ الْفِقْهِ وَأَشْرَافِ النّاسِ فَتَقُولَ مَا قُلْت بِالْمَدِينَةِ مُتَمَكّنًا ، فَيَعِي أَهْلُ الْفِقْهِ مَقَالَتَك ، وَيَضَعُوهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا . فَقَالَ عُمَرُ أَمَا وَاَللّهِ - إنْ شَاءَ اللّهُ - لَأَقُومَن بِذَلِكَ أَوّلَ مَقَامٍ أَقُومُهُ بِالْمَدِينَةِ . قَالَ ابْنُ عَبّاسٍ : فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فِي عَقِبِ ذِي الْحَجّةِ . فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ عَجّلْت الرّوَاحَ حِينَ زَالَتْ الشّمْسُ فَأَجِدُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ جَالِسًا إلَى رُكْنِ الْمِنْبَرِ فَجَلَسْت حَذْوَهُ تَمَسّ رُكْبَتَاهُ رُكْبَتَيْهِ . فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ خَرَجَ عُمَرُ .

فَقُلْت لِسَعِيدٍ لَيَقُولَن السّاعَةَ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ مَقَالَةً لَمْ يَقُلْهَا مُنْذُ اُسْتُخْلِفَ . فَأَنْكَرَ عَلَيّ ذَلِكَ . وَقَالَ مَا عَسَى أَنْ يَقُولَ مِمّا لَمْ يَقُلْ قَبْلَهُ ؟ فَجَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ .

فَلَمّا سَكَتَ الْمُؤَذّنُ قَامَ . فَأَثْنَى عَلَى اللّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمّ قَالَ أَمَا بَعْدُ فَإِنّي قَائِلٌ لَكُمْ مَقَالَةً قَدْ قُدّرَ لِي أَنْ أَقُولَهَا . وَلَا أَدْرِي : لَعَلّهَا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِي ؟ فَمَنْ عَقَلَهَا وَوَعَاهَا فَلْيُحَدّثْ بِهَا حَيْثُ انْتَهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ . وَمَنْ خَشِيَ أَنْ لَا يَعِيَهَا ، فَلَا <169> أُحِلّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْذِبَ عَلِيّ . إنّ اللّهَ بَعَثَ مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِالْحَقّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ . فَكَانَ مِمّا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةَ الرّجْمِ فَقَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا . وَعَقَلْنَاهَا . وَرَجَمَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ . فَأَخْشَى - إنْ طَالَ بِالنّاسِ زَمَانٌ - أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ وَاَللّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرّجْمِ فِي كِتَابِ اللّهِ فَيَضِلّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ قَدْ أَنْزَلَهَا اللّهُ . وَإِنّ الرّجْمَ فِي كِتَابِ اللّهِ حَقّ عَلَى مَنْ زَنَى ، إذَا أُحْصِنَ مِنْ الرّجَالِ وَالنّسَاءِ إذَا قَامَتْ الْبَيّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ . ثُمّ إنّا قَدْ كُنّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ الْكِتَابِ " لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنّهُ كُفْرٌ بِكُمْ - أَوْ كُفْرٌ لَكُمْ - أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ " إلّا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لَا تُطْرُونِي كَمَا أُطْرِيَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . فَإِنّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللّهِ وَرَسُولُهُ ثُمّ إنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنّ فُلَانًا قَالَ لَوْ قَدْ مَاتَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ لَقَدْ بَايَعْت فُلَانًا . فَلَا يَغْتَرّن امْرِئٌ يَقُولُ إنّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ كَانَتْ فَلْتَةً فَتَمّتْ . أَلَا وَإِنّهَا وَاَللّهِ قَدْ كَانَتْ كَذَلِكَ إلّا أَنّ اللّهَ وَقَى شَرّهَا . وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تَنْقَطِعُ الْأَعْنَاقُ إلَيْهِ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ . فَمَنْ بَايَعَ رَجُلًا عَنْ غَيْرِ مَشُورَةِ الْمُسْلِمِينَ . فَإِنّهُ لَا بَيْعَةَ لَهُ هُوَ وَلَا الّذِي بَايَعَهُ تَغِرّةَ أَنْ يُقْتَلَا . إنّهُ كَانَ مِنْ خَبَرِنَا حِينَ تَوَفّى اللّهُ نَبِيّهُ مُحَمّدًا صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - أَنّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا ، فَاجْتَمَعُوا بِأَشْرَافِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ . وَتَخَلّفَ عَنّا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ وَمَنْ مَعَهُمَا . وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إلَى أَبِي بَكْرٍ . فَقُلْت لِأَبِي بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إلَى إخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنْ الْأَنْصَارِ . فَانْطَلَقْنَا نَؤُمّهُمْ حَتّى لَقِينَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ . فَذَكَرَا لَنَا مَا تَمَلّأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ . وَقَالَا لَنَا : أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعَاشِرَ الْمُهَاجِرِينَ ؟ قُلْنَا : نُرِيدُ إخْوَانَنَا هَؤُلَاءِ مِنْ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَا : لَا عَلَيْكُمْ أَلَا تَقْرَبُوهُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ اقْصُوا أَمْرَكُمْ . قَالَ قُلْت : وَاَللَّهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ .

فَانْطَلَقْنَا ، حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ . فَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ رَجُلٌ مُزَمَّلٌ فَقُلْت : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ . قُلْت : مَا لَهُ ؟ قَالُوا : وَجَعٌ . فَلَمَّا جَلَسْنَا نَشْهَدُ خَطِيبَهُمْ . فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَنَحْنُ <170> أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ . وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ مِنَّا . وَقَدْ دَفَتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ . قَالَ وَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْتَازُونَا مِنْ أَصْلِنَا ، وَيَغْتَصِبُونَا الْأَمْرَ .

فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْت أَنْ أَتَكَلَّمَ - وَقَدْ زَوَّرْت فِي نَفْسِي مَقَالَةً قَدْ أَعْجَبَتْنِي ، أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ . وَكُنْت أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الْحَدِّ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رِسْلِك يَا عُمَرُ فَكَرِهْت أَنْ أَعْصِيَهُ . فَتَكَلَّمَ - وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ مِنِّي وَأَحْكَمَ وَأَحْلَمَ وَأَوْقَرَ - فَوَاَللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي مِنْ تَزْوِيرِي إلَّا قَالَهَا فِي بَدِيهَتِهِ أَوْ أَفْضَلَ . حَتَّى سَكَتَ .

فَقَالَ أَمَّا بَعْدُ فَمَاذَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ . وَلَنْ تَعْرِفَ الْعَرَبُ هَذَا الْأَمْرَ إلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ . هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا . وَقَدْ رَضِيت لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ . فَبَايِعُوا الْآنَ أَيَّهمَا شِئْتُمْ . فَأَخَذَ بِيَدِي ، وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ عَامِرِ بْنِ الْجَرَّاحِ - وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَنَا - فَلَمْ أَكْرَهْ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا ، كَانَ وَاَللَّهِ أَنْ أُقْدَمَ فَتَضْرِبَ عُنُقِي لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ إلَى إثْمٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ .

قَالَ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ : جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ .

قَالَ فَكَثُرَ اللّغَطُ وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ حَتّى خَشِينَا اِلاخْتِلَافُ .

فَقُلْت : اُبْسُطْ يَـدَك يَـا أَبَـا بَكْـرٍ . فَبَسَـطَهَا ، فَبَـايَعْته . ثُـمّ بَـايَعَهُ الْمُهَاجِرُونَ . ثُمّ بَايَعَهُ الْأَنْصَارُ . وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ .

فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ . قَـالَ فَقُلْـت : قَتَـلَ اللّـهُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ
بَيْعَةُ الْعَامّةِ لِأَبِي بَكْرٍ
<171> وَلَمّا بُويِعَ أَبُو بَكْرٍ فِي السّقِيفَةِ وَكَـانَ الْغَـدُ جَلَـسَ أَبُـو بَكْرٍ عَلَى الْمِنْبَرِ . فَقَـامَ عُمَـرُ قَبْـلَ أَبِـي بَكْـرٍ فَتَكَلّـمَ فَحَمِـدَ اللّـهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ . ثُمّ قَالَ أَيّهَا النّاسُ .

إنّي قَدْ قُلْت لَكُمْ بِالْأَمْسِ مَقَالَةً مَا كَانَتْ وَمَـا وَجَـدْتهَا فِـي كِتَـابِ اللّهِ . وَلَا كَانَتْ عَهْدًا عَهِدَهُ إلَيّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَلَكِنّي قَـدْ كُنْـت أَرَى أَنّ رَسُـولَ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ سَيُدَبّرُ أَمْرَنَا - يَقُولُ يَكُونُ آخِرَنَا - وَإِنّ اللّهَ قَدْ أَبْقَى فِيكُـمْ كِتَـابَهُ الّذِي بِهِ هَدَى رَسُولَهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ . فَـإِنْ اعْتَصَـمْتُمْ بِـهِ هَدَاكُمْ اللّهُ لَمّا كَانَ هَدَى لَهُ رَسُـولَهُ . إنّ اللّـهَ قَـدْ جَمَعَكُـمْ عَلَـى خَيْرِكُمْ - صَاحِبِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الْغَـارِ - فَقُومُـوا فَبَـايِعُوهُ . فَبَـايَعَ النّـاسُ أَبَـا بَكْـرٍ الْبَيْعَـةَ الْعَامّةَ بَعْدَ بَيْعَةِ السّقِيفَةِ .

ثُمّ تَكَلّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فَحَمِدَ اللّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالّذِي هُوَ أَهْلُهُ . ثُمّ قَالَ أَمَا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ فَإِنّي قَدْ وُلّيت عَلَيْكُمْ . وَلَسْـت بِخَيْرِكُمْ فَإِنْ أَحْسَنْت فَأَعِينُونِي . وَإِنْ أَسَأْت فَقَوّمُـونِي . الصّـدْقُ أَمَانَةٌ وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ . وَالضّعِيفُ فِيكُـمْ قَـوِيّ عِنْـدِي ، حَتّـى أُرِيـحَ عَلَيْهِ حَقّهُ إنْ شَاءَ اللّهُ . وَالْقَوِيّ فِيكُـمْ ضَـعِيفٌ حَتّـى آخُـذَ الْحَـقّ مِنْهُ إنْ شَاءَ اللّهُ . لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِـي سَـبِيلِ اللّـهِ إلّا ضَـرَبَهُمْ اللّهُ بِالذّلّ . وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطّ إلّا عَمّهُمْ اللّهُ بِالْبَلَاءِ . أَطِيعُونِي مَا أَطَعْت اللّهَ وَرَسُولَهُ . فَإِذَا عَصَيْت اللّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ
فَضِيلَةُ أَبِي بَكْرٍ الصّدّيقِ وَخِلَافَتُهُ الرّاشِدَةُ

وَعَنْ رَبِيعَةَ - أَحَدِ الصّحَابَةِ - رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ قَالَ قُلْت لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ مَا حَمَلَك عَلَى أَنْ تَلِيَ أَمْرَ النّاسِ وَقَدْ نَهَيْتنِي أَنْ أَتَأَمّرَ عَلَى اثْنَيْنِ ؟ قَالَ لَمْ أَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدّا ، خَشِيت عَلَى أُمّةِ مُحَمّدٍ الْفُرْقَةَ وَفِي رِوَايَةٍ تَخَوّفْت أَنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ تَكُونُ بَعْدَهَا رِدّةٌ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ لَمّا تُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اشْرَأَبّ النّفَاقُ وَارْتَدّتْ الْعَرَبُ ، وَانْحَازَتْ الْأَنْصَارُ . فَلَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ الرّاسِيَاتِ مَا نَزَلَ بِأَبِي لِهَاضُهَا . فَمَا اخْتَلَفُوا فِي نُقْطَةٍ إلّا طَارَ أَبِي بِفَصْلِهَا .

وَعَنْ <172> أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنّهُ قَالَ وَالّذِي لَا إلَهَ إلّا هُوَ لَوْلَا أَنّ أَبَا بَكْرٍ اُسْتُخْلِفَ مَا عُبِدَ اللّهُ - ثُمّ قَالَ الثّانِيَةَ ثُمّ قَالَ الثّالِثَةَ - فَقِيلَ لَهُ مَهْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ . فَقَالَ إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَجّهَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فِي سَبْعِمِائَةٍ إلَى الشّامِ . فَلَمّا نَزَلَ بِذِي خُشُبٍ قُبِضَ رَسُولُ اللّهِ وَارْتَدّتْ الْعَرَبُ . وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ الصّحَابَةُ . فَقَالُوا : رُدّ هَؤُلَاءِ تَوَجّهَ هَؤُلَاءِ إلَى الرّومِ ، وَقَدْ ارْتَدّتْ الْعَرَبُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ؟ فَقَالَ وَالّذِي لَا إلَهَ إلّا هُوَ لَوْ جَرّتْ الْكِلَابُ بِأَرْجُلِ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا رَدَدْت جَيْشًا وَجّهَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَلَا حَلَلْت لِوَاءً عَقَدَهُ . فَوَجّهَ أُسَامَةَ . فَجَعَلَ لَا يَمُرّ بِقَبَائِلَ يُرِيدُونَ الِارْتِدَادَ إلّا قَالُوا : لَوْلَا أَنّ لِهَؤُلَاءِ قُوّةً مَا خَرَجَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ مِنْ عِنْدِهِمْ . وَلَكِنْ نَدَعُهُمْ حَتّى يَلْقَوْا الرّومَ . فَلَقُوا الرّومَ . فَهَزَمُوهُمْ . وَرَجَعُوا سَالِمِينَ . فَثَبَتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ - وَلِلّهِ الْحَمْدُ

قِصّةُ الرّدّةِ أَعَاذَنَا اللّهُ مِنْهَا

قَدْ تَقَدّمَ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إخْبَارَهُ بِالْفِتَنِ الْكَائِنَةِ بَعْدَهُ وَإِنْذَارُهُ عَنْهَا ، وَإِخْبَارُهُ خَاصّةً عَنْ الرّدّةِ .

مِنْ ذَلِكَ مَا فِي الصّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْت فِي يَدَيّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ . فَكَرِهْتهمَا . فَنَفَخْتهمَا . فَطَارَا . فَأَوّلْتهمَا كَذّابَيْنِ يَخْرُجَانِ .

وَعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْـهُ قَـالَ قَـالَ رَسُـولُ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ثَلَاثٌ مَنْ نَجَا مِنْهُنّ فَقَدْ نَجَا : مِـنْ مَـوْتِي ، وَمَنْ قَتْلِ خَلِيفَةٍ مُصْطَبِرٍ بِالْحَقّ مُعْطِيهِ وَمِنْ الدّجّالِ

وَفِي الصّحِيحِ عَنْ أَبِـي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْـهُ قَـالَ لَمّـا تُـوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَكَانَ أَبُو بَكْـرٍ وَكَفَـرَ مَـنْ كَفَـرَ مِنْ الْعَرَبِ ، قَالَ عُمَـرُ لِأَبِـي بَكْـرٍ كَيْـفَ تُقَاتِـلُ النّـاسَ وَقَـدْ قَـالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أُمِـرْت أَنْ أُقَاتِـلَ النّـاسَ حَتّـى يَقُولُـوا : لَا إلَـهَ إلّا اللّـهُ . فَـإِذَا قَالُوهَـا عَصَـمُوا مِنّـي دِمَـاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلّا بِحَقّهَا ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَإِنّ الزّكَاةَ مِـنْ حَقّهَـا . وَاَللّـهِ لَأُقَاتِلَن مَنْ فَرّقَ بَيْنَ الصّلَاةِ وَالزّكَاةِ وَاَللّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدّونَهَا إلَى رَسُولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ لَقَـاتَلْتهمْ عَلَـى مَنْعِهَا . قَالَ عُمَرُ فَمَا هُوَ إلّا أَنْ رَأَيْت اللّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْـرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْت أَنّهُ الْحَقّ . قَالَ عُمَرُ وَاَللّهِ لَرَجَحَ إيمَـانُ أَبِـي بَكْـرٍ بِإِيمَانِ هَذِهِ الْأُمّةِ جَمِيعًا فِي قِتَالِ أَهْلِ الرّدّةِ

وَذَكَرَ يَعْقُوبُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَمُحَمّدُ بْـنُ مُسْـلِمِ بْـنِ شِـهَابٍ الزّهْرِيّ عَنْ جَمَاعَةٍ قَالُوا كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَمِيرَ الشّاكِرِينَ الّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى دِينِهِمْ وَأَمِيرَ الصّابِرِينَ الّـذِينَ صَـبَرُوا عَلَـى جِهَـادِ عَـدُوّهِمْ - وَهُمْ أَهْلُ الرّدّةِ - وَذَلِكَ أَنّ الْعَرَبَ <173> افْتَرَقَتْ فِي رِدّتِهَـا . فَقَالَتْ فِرْقَةٌ لَوْ كَانَ نَبِيّا مَا مَاتَ . وَقَـالَتْ فِرْقَـةٌ انْقَضَـتْ النّبُـوّةُ بِمَوْتِهِ . فَلَا نُطِيعُ أَحَدًا بَعْدَهُ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ

أَطَعْنَا رَسُولَ اللّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا

فَيَا لَعِبَادَ اللّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ ؟

أَيُوَرّثُهَا بَكْرًا إذَا مَاتَ بَعْدَهُ

فَتِلْكَ لَعَمْرُ اللّهِ قَاصِمَةُ الظّهْرِ

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ نُؤْمِنُ بِاَللّٰهِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ نُؤْمِنُ بِاَللّٰهِ وَنَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ اللّٰهِ وَلَكِنْ لَا نُعْطِيكُمْ أَمْوَالَنَا .

فَجَادَلَ الصّحَابَةُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَقَالُوا : احْبِسْ جَيْشَ أُسَامَةَ فَيَكُونُ أَمَانًا بِالْمَدِينَةِ . وَارْفُقْ بِالْعَرَبِ حَتّى يَتَفَرّجَ هَذَا الْأَمْرُ . فَلَوْ أَنّ طَائِفَةً ارْتَدّتْ قُلْنَا : قَاتِلْ بِمَنْ مَعَك مَنْ ارْتَدّ . وَقَدْ أَصْفَقَتْ الْعَرَبُ عَلَى الِارْتِدَادِ . وَقَدِمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فِي رِجَالٍ مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ . فَدَخَلُوا عَلَى رِجَالٍ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ . فَقَالُوا : إنّهُ قَدْ ارْتَدّ عَامّةُ مَنْ وَرَاءَنَا عَنْ الْإِسْلَامِ . وَلَيْسَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يُؤَدّوا إلَيْكُمْ مَا كَانُوا يُؤَدّونَهُ إلَى رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَإِنْ تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا كَفَيْنَاكُمْ . فَدَخَلَ الصّحَابَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فَعَرَضُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ . وَقَالُوا : نَرَى أَنْ تُطْعِمَ الْأَقْرَعَ وَعُيَيْنَةَ طُعْمَةً يَرْضَيَانِ بِهَا ، وَيَكْفِيَانِك مَنْ وَرَاءَهَا ، حَتّى يَرْجِعَ إلَيْنَا أُسَامَةُ وَجَيْشُهُ وَيَشْتَدّ أَمْرُك . فَإِنّا الْيَوْمَ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فَهَلْ تَرَوْنَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : لَا .

قَالَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنّ مِنْ عَهْدِ نَبِيّكُمْ إلَيْكُمْ الْمَشُورَةُ فِيمَا لَمْ يَمْضِ فِيهِ أَمْرٌ مِنْ نَبِيّكُمْ وَلَا نَزَلَ بِهِ الْكِتَابُ عَلَيْكُمْ . وَأَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ تَنْظُرُونَ فِيمَا أُشِيرُ بِهِ عَلَيْكُمْ . وَإِنّ اللّٰهَ لَنْ يَجْمَعَكُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ . فَتَجْتَمِعُونَ عَلَى الرّشْدِ فِي ذَلِكَ .

فَأَمّا أَنَا : فَأَرَى أَنْ نَنْبِذَ إلَى عَدُوّنَا . فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . وَأَلّا تَرُشّونَ عَلَى الْإِسْلَامِ فَنُجَاهِدَ عَدُوّهُ كَمَا جَاهَدَهُمْ . وَاَللّٰهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا ، لَرَأَيْت أَنْ أُجَاهِدَهُمْ عَلَيْهِ حَتّى آخُذَهُ . وَأَمّا قُدُومُ عُيَيْنَةَ وَأَصْحَابِهِ إلَيْكُمْ فَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَغِبْ عَنْهُ عُيَيْنَةُ هُوَ رَاضِيهِ ثُمّ جَاءَ لَهُ . وَلَوْ رَأَوْا ذُبَابَ السّيْفِ لَعَادُوا إلَى مَا خَرَجُوا مِنْهُ أَوْ أَفْنَاهُمْ السّيْفُ فَإِلَى النّارِ . فَتَلْنَاهُمْ عَلَى حَقّ مَنَعُوهُ وَكُفْرٍ اتّبَعُوهُ . فَبَانَ لِلنّاسِ أَمْرُهُمْ . <174> فَقَالُوا لَهُ أَنْتَ أَفْضَلُنَا رَأْيًا ، وَرَأْيُنَا لِرَأْيِك تَبَعٌ .

فَأَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ النّاسَ بِالتّجْهِيزِ وَأَجْمَعَ عَلَى الْمَسِيرِ بِنَفْسِهِ .

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - لَمّا صَدَرَ مِنْ الْحَجّ سَنَةَ عَشْرٍ - وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ : أَقَامَ حَتّى رَأَى هِلَالَ الْمُحَرّمِ سَنَةَ إحْدَى عَشْرَةَ . فَبَعَثَ الْمُصَدّقِينَ فِي الْعَرَبِ .

نَفْعُ اللّهِ طَيّئًا بِعَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ

فَلَمّا بَلَغَهُمْ وَفَاةُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اخْتَلَفُوا . فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَدّى إلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْهُمْ عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ ، كَانَتْ عِنْدَهُ إبِلٌ عَظِيمَةٌ مِنْ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ . فَلَمّا ارْتَدّ مَنْ ارْتَدّ وَارْتَدّتْ بَنُو أَسَدٍ - وَهُمْ جِيرَانُهُمْ - اجْتَمَعَتْ طَيّئٌ إلَى عَدِيّ . فَقَالُوا : إنّ هَذَا الرّجُلَ قَدْ مَاتَ وَقَدْ انْتَقَضَ النّاسُ بَعْدَهُ وَقَبَضَ كُلّ قَوْمٍ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ فَنَحْنُ أَحَقّ بِأَمْوَالِنَا مِنْ شُذّاذِ النّاسِ . فَقَالَ أَلَمْ تُعْطُوا الْعَهْدَ طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ ؟ .

قَالُوا : بَلَى ، وَلَكِنْ حَدَثَ مَا تَرَى ، وَقَدْ تَرَى مَا صَنَعَ النّاسُ . فَقَالَ وَالّذِي نَفْسُ عَدِيّ بِيَدِهِ لَا أَخِيسُ بِهَا أَبَدًا . فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَوَاَللّهِ لَأُقَاتِلَنكُمْ . فَلَيَكُونَن أَوّلَ قَتِيلٍ يُقْتَلُ عَلَى وَفَاءِ ذِمّتِهِ عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ ، أَوْ يُسَلّمُهَا . فَلَا تَطْمَعُوا أَنْ يُسَبّ حَاتِمٌ فِي قَبْرِهِ وَعَدِيّ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ . فَلَا يَدْعُونَكُمْ غَدْرُ غَادِرٍ إلَى أَنْ تَغْدِرُوا . فَإِنّ لِلشّيْطَانِ قَادَةً عِنْدَ مَوْتِ كُلّ نَبِيّ يَسْتَخِفّ بِهَا أَهْلَ الْجَهْلِ حَتّى يَحْمِلَهُمْ عَلَى قَلَائِصِ الْفِتْنَةِ . وَإِنّمَا هِيَ عَجَاجَةٌ لَا ثَبَاتَ لَهَا ، وَلَا ثَبَاتَ فِيهَا . إنّ لِرَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَلِيفَةً مِنْ بَعْدِهِ يَلِي هَذَا الْأَمْرَ . وَإِنّ لِدِينِ اللّهِ أَقْوَامًا سَيَنْهَضُونَ بِهِ وَيَقُومُونَ بَعْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَذُؤَابَتَيْهِ فِي السّمَاءِ . لَئِنْ فَعَلْتُمْ لَيُقَارِعَنكُمْ عَنْ أَمْوَالِكُمْ وَنِسَائِكُمْ بَعْدَ قَتْلِ عَدِيّ وَغَدْرِكُمْ فَأَيّ قَوْمٍ أَنْتُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ . فَلَمّا رَأَوْا مِنْهُ الْجَدّ كَفّوا عَنْهُ . وَأَسْلَمُوا لَهُ .

فَلَمّا كَانَ زَمَنُ عُمَرَ رَأَى مِنْ عُمَرَ جَفْوَةً . فَقَالَ لَهُ عَدِيّ : مَا أَرَاك تَعْرِفُنِي ؟ قَالَ عُمَرُ بَلَى وَاَللّهِ . وَاَللّهُ يَعْرِفُك فِي السّمَاءِ .

أَعْرِفُك وَاَللّهِ أَسْلَمْت إذْ كَفَـرُوا ، وَوَفَيْـت إذْ غَـدَرُوا ، وَأَقْبَلْـت إذَا أَدْبَرُوا . وَاَيْمُ اللّهِ أَعْرِفُك

قِتَالُ أَهْلِ الرّدّةِ

<175> وَلَمّا كَـانَ مِـنْ الْعَـرَبِ مَـا كَـانَ وَمَنَـعَ مَـنْ مَنَـعَ مِنْهُـمْ الصّدَقَةَ . جَدّ بِأَبِي بَكْرٍ الْجَدّ فِي قِتَالِهِمْ . وَأَرَاهُ اللّهُ رُشْدَهُ فِيهِـمْ . وَعَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ بِنَفْسِهِ . فَخَـرَجَ فِـي مِائَـةٍ مِـنْ الْمُهَـاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَخَالِدٌ يَحْمِلُ اللّوَاءَ حَتّى نَزَلَ بَقْعَـاءَ ، يُرِيـدُ أَنْ يَتَلَاحَـقَ النّاسُ وَيَكُونَ أَسْرَعَ لِخُرُوجِهِمْ . وَوَكَلَ بِالنّاسِ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ يَسْتَحِثّهُمْ . وَأَقَامَ بِبَقْعَاءَ أَيّامًا يَنْتَظِرُ النّاسَ . وَلَـمْ يَبْـقَ أَحَـدٌ مِـنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إلّا خَرَجَ .

فَقَالَ عُمَرُ ارْجِعْ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللّهِ تَكُنْ لِلْمُسْـلِمِينَ فِئَـةٌ فَإِنّـك إنْ تُقْتَلْ يَرْتَدّ النّاسُ وَيَعْلُو الْبَاطِلُ الْحَقّ . فَدَعَا زَيْدَ بْنَ الْخَطّـابِ لِيَسْتَخْلِفَهُ فَقَالَ قَدْ كُنْت أَرْجُو أَنْ أُرْزَقَ الشّهَادَةَ مَعَ رَسُـولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلَمْ أُرْزَقْهَا . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أُرْزَقَهَا فِـي هَـذَا الْوَجْهِ . وَإِنّ أَمِيرَ الْجَيْشِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ .

فَدَعَا أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ عُتْبَةَ فَعَرَضَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَقَـالَ مِثْلَمَـا قَـالَ زَيْـدٌ فَدَعَا سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَـةَ فَـأَبَى عَلَيْـهِ . فَـدَعَا خَالِـدًا فَـأَمّرَهُ عَلَى النّاسِ وَكَتَبَ مَعَهُ هَذَا الْكِتَابَ .

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ هَذَا مَا عَهِدَ أَبُو بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، حِينَ بَعَثَـهُ لِقِتَـالِ مَـنْ رَجَعَ عَنْ الْإِسْلَامِ إلَى ضَلَالَةِ الْجَاهِلِيّةِ وَأَمَانِيّ الشّـيْطَانِ . وَأَمَـرَهُ أَنْ يُبَيّنَ لَهُمْ الّذِي لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَالّذِي عَلَيْهِـمْ وَيَحْـرِصَ عَلَـى هُدَاهُمْ . فَمَنْ أَجَابَهُ قَبِلَ مِنْـهُ وَإِنّمَـا يُقَاتِـلُ مَـنْ كَفَـرَ بِـاَللّهِ عَلَـى الْإِيمَانِ بِاَللّهِ . فَإِذَا أَجَابَ إلَى الْإِيمَانِ وَصَدَقَ إيمَـانُهُ لَـمْ يَكُـنْ لَـهُ عَلَيْهِ سَبِيلٌ . وَكَانَ اللّهُ حَسِيبَهُ بَعْدُ فِي عَمَلِهِ . وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَـدٍ شَيْئًا أَعْطَاهُ إيّاهُ إلّا الْإِسْلَامَ وَالدّخُولَ فِيهِ وَالصّبْرَ بِـهِ وَعَلَيْـهِ . وَلَا يَدْخُلُ فِي أَصْـحَابِهِ جَشْـوًا مِـنْ النّـاسِ حَتّـى يَعْـرِفَ عَلَامَ اتّبَعُـوهُ وَقَاتَلُوا مَعَهُ ؟ فَإِنّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ مَعَكُـمْ نَـاسٌ يَتَعَـوّذُونَ بِكُـمْ لَيْسُوا مِنْكُـمْ وَلَا عَلَـى دِينِكُـمْ . فَيَكُونُـونَ عَوْنًـا عَلَيْكُـمْ . وَارْفُـقْ

بِالْمُسْلِمِينَ فِي مَسِيرِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَتَفَقُّدْهُمْ . وَلَا تُعَجِّلْ بَعْضَ النّاسِ عَنْ بَعْضٍ فِي الْمَسِيرِ وَلَا فِي الِارْتِحَالِ . وَاسْتَوْصِ بِمَنْ مَعَك مِنْ الْأَنْصَارِ خَيْرًا . فَإِنّ فِيهِمْ ضِيقًا وَمَرَارَةً وَزَعَارَةً وَلَهُمْ حَقّ وَفَضِيلَةٌ وَسَابِقَةٌ وَوَصِيّةٌ مِنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَاقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ .
<176> وَيُرْوَى أَنّ أَبَا بَكْرٍ كَتَبَ مَعَ هَذَا كِتَابًا آخَرَ وَأَمَرَ خَالِدًا أَنْ يَقْرَأَهُ فِي كُلّ مَجْمَعٍ . وَهُوَ

كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ لِأُمَرَائِه
بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلَى مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا ، مِنْ عَامّةِ النّاسِ أَوْ خَاصّتِهِمْ أَقَامَ عَلَى إسْلَامٍ أَوْ رَاجَعَ عَنْهُ . سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى ، وَلَمْ يَرْجِعْ بَعْدَ الْهُدَى إلَى الضّلَالَةِ وَالْعَمَى . فَإِنّي أَحْمَدُ إلَيْكُمْ اللّهَ الّذِي لَا إلَهَ إلّا هُوَ . وَأَشْهَدُ أَنّ لَا إلَهَ إلّا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْهَادِي غَيْرُ الْمُضِلّ . أَرْسَلَهُ بِالْحَقّ مِنْ عِنْدِهِ إلَى خَلْقِهِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ; وَدَاعِيًا إلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّا ، وَيُحِقّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ . فَهُدَى اللّهُ بِالْحَقّ مَنْ أَجَابَ إلَيْهِ وَضَرَبَ بِالْحَقّ مَنْ أَدْبَرَ عَنْهُ حَتّى صَارُوا إلَى الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا . ثُمّ أَدْرَكَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عِنْد ذَلِكَ أَجَلُهُ . وَقَدْ كَانَ اللّهُ بَيّنَ لَهُ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْكِتَابِ الّذِي أَنَزَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ (39 : 31) إنّكَ مَيّتٌ وَإِنّهُمْ مَيّتُونَ وَقَالَ (31 : 34) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ الْآيَةَ وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ (3 : 144) وَمَا مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ - الْآيَةَ فَمَنْ كَانَ إنّمَا يَعْبُدُ مُحَمّدًا ، فَإِنّ مُحَمّدًا قَدْ مَاتَ . وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَإِنّ اللّهَ لَهُ بِالْمِرْصَادِ حَيّ قَيّومٌ لَا يَمُوتُ وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ حَافِظٌ لِأَمْرِهِ مُنْتَقِمٌ مِنْ عَدُوّهِ وَمُجْزِيهِ وَإِنّي أُوصِيكُمْ أَيّهَا النّاسُ بِتَقْوَى اللّهِ . وَأَحُضّكُمْ عَلَى حَظّكُمْ وَنَصِيبِكُمْ مِنْ اللّهِ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَنْ تَهْتَدُوا بِهُدَاهُ . وَتَعْتَصِمُوا بِدِينِ اللّهِ . فَإِنّ كُلّ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ اللّهَ ضَائِعٌ وَكُلّ مَنْ لَمْ يُصَدّقْهُ كَاذِبٌ وَكُلّ مَنْ لَمْ يُسْعِدْهُ اللّهُ شَقِيّ ، وَكُلّ مَنْ لَمْ يَرْزُقْهُ مَحْرُومٌ وَكُلّ مَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ اللّهُ مَخْذُولٌ . فَاهْتَدُوا بِهُدَى

اللّهِ رَبّكُمْ . فَإِنّهُ مَنْ يُهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي . وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُرْشِدًا .

وَإِنّـهُ قَـدْ بَلَغَنِـي رُجُـوعُ مَـنْ رَجَـعَ مِنْكُـمْ عَـنْ دِينِـهِ بَعْـدَ أَنْ أَقَـرّ بِالْإِسْـلَامِ وَعَمِـلَ بِـهِ اغْتِـرَارًا بِـاَللّهِ وَجَهَالَـةً بِـأَمْرِ اللّـهِ وَطَاعَـةً لِلشّيْطَانِ . قَالَ اللّهُ تَعَالَى (35 ـ 6) إنّ الشّـيْطَانَ لَكُـمْ عَـدُوّ فَاتّخِذُوهُ عَدُوّا إنّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُـوا مِـنْ أَصْـحَابِ السّـعِيرِ < 177> وَإِنّي قَدْ بُعِثْـت إلَيْكُـمْ خَالِـدًا فِـي الْمُهَـاجِرِينَ وَالْأَنْصَـارِ ، وَالتّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ . وَأَمَرْته أَنْ لَا يُقَاتِلَ أَحَدًا حَتّى يَدْعُوهُ إلَى دَاعِيَةِ اللّهِ .

فَمَنْ دَخَلَ فِي دِينِ اللّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا قَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ وَمَنْ أَبَـى فَلَا يُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ، وَيُحَرّقُهُمْ بِالنّارِ وَيَسْبِي الذّرَارِيّ وَالنّسَاءَ .

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزّبَيْرِ قَالَ جَعَلَ أَبُـو بَكْـرٍ يُوصِـي خَالِـدًا ، وَيَقُـولُ عَلَيْك بِتَقْوَى اللّهِ وَالرّفْقِ بِمَنْ مَعَك . فَإِنّ مَعَك أَهْلَ السّابِقَةِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . فَشَاوِرْهُمْ . ثُمّ لَا تُخَالِفُهُمْ . وَقَـدّمْ أَمَامَـك الطّلَائِعَ تَرْتَدّ لَك الْمَنَازِلُ . وَسِرْ فِي أَصْحَابِك عَلَـى تَعْبِئَـةٍ جَيّـدَةٍ . فَإِنْ أَعْطَاك اللّهُ الظّفَرَ عَلَى أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، فَأَقِلْ الْبُقْيَا عَلَيْهِمْ إنْ شَاءَ اللّهُ . وَإِيّاكَ أَنْ تَلْقَانِي غَدًا بِمَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي مِنْك . اسْمَعْ عَهْدِي وَوَصِيّتِي وَلَا تُغِيرَن عَلَى دَارٍ سَمِعْت فِيهَا أَذَانًا ، حَتّى تَعْلَـمَ مَا هُمْ عَلَيْهِ .

وَاعْلَمْ أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ مِنْ سَرِيرَتِك مَا يَعْلَمُ مِنْ عَلَانِيَتِك . وَاعْلَمْ أَنّ رَعِيّتَك تَعْمَلُ بِمَـا تَـرَاك تَعْمَـلُ . تَعَاهَـدْ جَيْشَـك ، وَانْهَهُـمْ عَمّـا لَا يَصْلُحُ لَهُمْ . فَإِنّمَا تُقَاتِلُونَ مَـنْ تُقَـاتِلُونَ بِأَعْمَـالِكُمْ . وَبِهَـذَا نَرْجُـو لَكُمْ النّصْرَ عَلَى أَعْدَائِكُمْ . سِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ تَعَالَى

ذِكْرُ مَسِيرِ خَالِدٍ إلَى بُزَاخَةَ وَغَيْرِهَا

لَمّا سَارَ خَالِدٌ إلَى بُزَاخَةَ كَانَ عَدِيّ بْـنُ حَـاتِمٍ مَعَـهُ . وَقَـدْ انْضَـمّ إلَيْهِ مِنْ طَيّئٌ أَلْـفٌ فَنَزَلُـوا بُزَاخَـةَ . وَكَـانَتْ جَدِيلَـةُ مُعْرِضَـةً عَـنْ الْإِسْلَامِ - وَهِيَ بَطْنٌ مِنْ طَيّئٌ - وَكَانَ عَدِيّ بْنُ حَاتِمٍ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْهُ مِنْ الْغَوْثِ . وَقَدْ هَمّتْ جَدِيلَـةُ أَنْ تَرْتَـدّ فَجَـاءَهُمْ مَكْنَـفُ بْـنُ

زَيْدِ الْخَيْلِ . فَقَالَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا سُبّةً عَلَى قَوْمِكُمْ ؟ وَلَمْ يَرْجِعْ رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنْ طَيّئٍ وَهَذَا عَدِيّ مَعَهُ أَلْفُ رَجُلٍ مِنْ طَيّئٍ فَكَسَرَهُمْ .

فَلَمّا نَزَلَ خَالِدٌ بُزَاخَةَ قَالَ لِعَدِيّ أَلَا نَسِيرُ إلَى جَدِيلَةَ ؟ قَالَ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ أُقَاتِلُ مَعَك بِيَدَيْنِ أَحَبّ إلَيْك ، أَمْ بِيَدٍ وَاحِدَةٍ ؟ فَقَالَ بَلْ بِيَدَيْنِ . قَالَ فَإِنّ جَدِيلَةَ إحْدَى يَدَيّ فَكُفّ عَنْهُمْ . فَكَفّ عَنْهُمْ .

فَجَاءَهُمْ عَدِيّ . فَدَعَاهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا . فَحَمِدَ اللّهَ . وَسَارَ بِهِمْ إلَى <178> خَالِدٌ . فَلَمّا رَآهُمْ صَاحَ فِي أَصْحَابِهِ السّلَاحَ . فَلَمّا جَاءُوا حَلّوا نَاحِيَة ، فَجَاءَهُمْ خَالِدٌ وَرَحّبَ بِهِمْ . فَاعْتَذَرُوا إلَيْهِ . وَقَالُوا : نَحْنُ لَك حَيْثُ شِئْت . فَجَزَاهُمْ خَيْرًا . فَلَمْ يَرْتَدّ مِنْ طَيّئٍ رَجُلٌ وَاحِدٌ .

فَسَارَ خَالِدٌ عَلَى تَعْبِئَتِهِ وَطَلَبَ إلَيْهِ عَدِيّ أَنْ يَجْعَلَ قَوْمَهُ مُقَدّمَةَ أَصْحَابِهِ . فَقَالَ أَخَافُ أَنْ أُقْدِمَهُمْ فَإِذَا الْجَمَهُمْ الْقِتَالُ انْكَشَفُوا ، فَانْكَشَفَ مَنْ مَعَنَا . وَلَكِنْ دَعْنِي أُقْدِمَ قَوْمًا صُبُرًا ، لَهُمْ سَوَابِقُ .

فَقَالَ عَدِيّ : الرّأْيُ مَا رَأَيْت . فَقَدِمَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ .

وَلَمْ يَزَلْ يَقْدَمُ الطّلَائِعَ مُنْذُ خَرَجَ مِنْ بَقْعَاءَ حَتّى قَدِمَ الْيَمَامَةَ .

وَأَمَرَ عُيُونَهُ أَنْ يَخْتَبِرُوا كُلّ مَنْ مَرّوا بِهِمْ عِنْدَ مَوَاقِيتِ الصّلَاةِ بِالْأَذَانِ لَهَا ، فَيَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إسْلَامِهِمْ .

فَلَمّا انْتَهَوْا إلَى طُلَيْحَةَ الْأَسَدِيّ وَجَدُوهُ وَقَدْ ضُرِبَتْ لَهُ قُبّةٌ وَأَصْحَابُهُ حَوْلَهُ . فَضَرَبَ خَالِدٌ خِيَامَ عَسْكَرِهِ عَلَى مِيلٍ أَوْ نَحْوِهِ وَخَرَجَ يَسِيرُ عَلَى فَرَسٍ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ الصّحَابَةِ . فَوَقَفَ قَرِيبًا مِنْ الْعَسْكَرِ . وَدَعَا بِطُلَيْحَةَ فَخَرَجَ إلَيْهِ . فَقَالَ إنّ مِنْ عَهْدِ خَلِيفَتِنَا إلَيْنَا : أَنْ نَدْعُوك إلَى اللّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنْ تَعُودَ إلَى مَا خَرَجْت مِنْهُ فَأَبَى طُلَيْحَةُ .

وَكَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ قَدْ قَالَ لَـهُ لَا أَبَـا لَـكَ . هَـلْ أَنْـتَ مُرِينَـا ؟ - يَعْنِي نُبُوّتَك - فَقَدْ رَأَيْت وَرَأَيْنَا مَـا كَـانَ يَـأْتِي مُحَمّـدًا . قَـالَ نَعَـمْ فَبَعَثَ عُيُونًا لَهُ لَمّا أَقْبَلَ خَالِدٌ إلَيْهِمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ النّاسُ بِإِقْبَـالِهِ . فَقَالَ إنْ بَعَثْتُمْ فَارِسَيْنِ عَلَى فَرَسَيْنِ أَغَرّيْنِ مُحَجّلَيْـنِ مِـنْ بَنِـي نَصْرِ بْنِ قِعين ، أَتَوْا مِنْ الْقَـوْمِ بِعَيْـنِ . فَبُعِثُـوا كَـذَلِكَ فَلَقِيَـا عَيْنًـا لِخَالِدِ . فَأَتَوْا بِهِ . فَزَادَهُمْ فِتْنَةً .

فَلَمّا أَبَى طُلَيْحَةُ أَنْ يُجِيبَ خَالِدًا ، انْصَرَفَ خَالِـدٌ إلَـى مُعَسْـكَرِهِ . فَاسْتَعْمَلَ تِلْكَ اللّيْلَةَ عَلَى حَرَسِهِ مَكْنَفَ بْنَ زَيْـدِ الْخَيْـلِ ، وَعَـدِيّ بْنَ حَاتِمٍ . فَلَمّا كَانَ مِنْ السّحَرِ نَهَضَ خَالِدٌ . فَعَبّأَ أَصْحَابَهُ وَوَضَـعَ أَلْوِيَتَهُ مَوَاضِعَهَا . وَدَفَـعَ اللّـوَاءَ الْأَعْظَـمَ إلَـى زَيْـدِ بْـنِ الْخَطّـابِ . فَتَقَدّمَ بِهِ . وَتَقَـدّمَ ثَـابِتُ بْـنُ قَيْـسِ بْـنِ شَـمّاسٍ بِلِـوَاءِ الْأَنْصَـارِ ، وَطَلَبَتْ طَيّئٌ لِوَاءً . فَعَقَدَ لَهُمْ خَالِدٌ لِوَاءً وَدَفَعَهُ إلَى عَدِيّ .

<179> فَلَمّـا سَـمِعَ طُلَيْحَـةُ الْحَرَكَـةَ عَبّـأَ أَصْـحَابَهُ . حَتّـى إذَا اسْتَوَتْ الصّفُوفُ زَحَفَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتّى مَنْ دَنَـا طُلَيْحَـةَ . فَـأَخْرَجَ طُلَيْحَةُ أَرْبَعِينَ غُلَامًا جَلْدًا ، فَأَقَامَهُمْ فِي الْمَيْمَنَةِ . وَقَـالَ اضْـرِبُوا حَتّى تَـأْتُوا الْمَيْسَـرَةَ . فَتَضَعْضَـعَ النّـاسُ . وَلَـمْ يُقْتَـلْ أَحَـدٌ حَتّـى أَقَامَهُمْ فِي الْمَيْسَرَةِ فَفَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ وَانْهَزَمَ الْمُسْلِمُونَ .

فَقَالَ خَالِدٌ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اللّهَ اللّهَ . وَاقْتَحَـمَ وَسَـطَ الْقَـوْمِ وَكَرّ مَعَهُ أَصْحَابُهُ . فَاخْتَلَطَتْ الصّـفُوفُ وَنَـادَى يَوْمَئِـذٍ مُنَـادٍ مِـنْ طَيّئٍ عِنْدَمَا حَمَلَ أُولَئِكَ الْأَرْبَعُونَ يَا خَالِدُ عَلَيْك - بِسَـلْمَى وَأَجَـإٍ - جَبَلَيْ طَيّئٍ - فَقَالَ بَلْ إلَى اللّهِ الْمُلْتَجَأُ ثُمّ حَمَلَ فَمَـا رَجَـعَ حَتّـى لَمْ يَبْـقَ مِـنْ الْأَرْبَعِيـنَ رَجُـلٌ وَاحِـدٌ . وَتَـرَادّ النّـاسُ بَعْـدَ الْهَزِيمَـةِ وَاشْتَدّ الْقِتَالُ . وَأَسِرَ حَبّالُ بْنُ أَبِي حَبّالٍ فَأَرَادُوا أَنْ يَبْعَثُوا بِهِ إلَى أَبِـي بَكْـرٍ . فَقَـالَ اضْـرِبُوا عُنُقِـي ، وَلَا تُرُونِـي مُحَمّـدِيكُمْ هَـذَا ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ .

وَلَمّا اشْتَدّ الْقِتَالُ تَزَمّلَ طُلَيْحَةُ بِكِسَاءِ لَهُ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَنْـزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فَلَمّا طَالَ ذَلِكَ عَلَى أَصْـحَابِهِ وَهَـدّتْهُمْ الْحَـرْبُ جَعَـلَ

عُيَيْنَةُ يُقَاتِلُ وَيُذَمّرُ النّاسَ حَتّى إذَا أَلَحّ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ السّـيْفَ أَتَى طُلَيْحَةَ ، وَهُوَ فِي كِسَائِهِ . فَقَالَ لَا أَبَا لَك ، هَـلْ أَتَـاك جِبْرِيـلُ بَعْدُ ؟ قَالَ لَا وَاَللّهِ . قَـالَ تَبّـا لَـك سَـائِرَ الْيَـوْمِ . ثُـمّ رَجَـعَ عُيَيْنَـةُ فَقَاتَلَ وَجَعَلَ يَحُضّ أَصْـحَابَهُ عَلَـى الْقِتَـالِ وَقَـدْ ضَـجّوا مِـنْ وَقْـعِ السّيُوفِ . فَلَمّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ . جَاءَ إلَى طُلَيْحَـةَ وَهُـوَ مُتَلَفّـفٌ بِكِسَائِهِ فَجَبَذَهُ جَبْذَةً شَدِيدَةً جَلَسَ مِنْهَا . وَقَالَ قَبّحَ اللّهُ هَذِهِ مِنْ نُبُوّةٍ مَا قِيلَ لَك بَعْدُ شَيْءٍ ؟ قَالَ بَلَى ، قَدْ قِيلَ لِي : إنّ لَك رَحًـى كَرَحَاهُ وَأَمْرًا لَنْ تَنْسَاهُ .

فَقَالَ عُيَيْنَةُ أَظُنّ أَنّ قَدِمَ عِلْـمُ اللّـهِ أَنّـهُ سَـيَكُونُ لَـك حَـدِيثٌ لَـنْ تَنْسَاهُ يَا بَنِي فَزَارَةَ هَكَذَا - وَأَشَارَ تَحْتَ الشّمْسِ - انْصَرِفُوا . هَذَا وَاَللّهِ كَذّابٌ . مَا بُورِكَ لَنَا وَلَا لَهُ فِيمَا يَطْلُـبُ . فَانْصَـرَفَتْ فَـزَارَةُ وَذَهَبَ عُيَيْنَةُ وَأَخُوهُ فِي آثَارِهِمَـا . فَـأَدْرَكَ عُيَيْنَـةُ فَأَسِـرَ . وَأَفْلَـتْ أَخُوهُ . وَلَمّا رَأَى طُلَيْحَةُ مَا فَعَلَ أَصْـحَابُهُ خَـرَجَ مُنْهَزِمًـا . فَجَعَـلَ أَصْحَابُهُ يَقُولُونَ مَاذَا تَأْمُرُنَا ؟ وَقَدْ كَانَ أَعَدّ فَرَسَهُ وَهَيّـأَ امْرَأَتَـهُ . فَوَثَبَ عَلَى فَرَسِهِ وَحَمَلَ امْرَأَتَـهُ وَرَاءَهُ . ثُـمّ وَلّـى هَارِبًـا . وَقَـالَ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَفْعَلَ هَكَذَا فَلْيَفْعَـلْ ثُـمّ هَـرَبَ حَتّـى قَـرُبَ مِنْ الشّامِ .

وَذُكِرَ أَنّهُ قَالَ لِأَصْـحَابِهِ لَمّـا رَأَى انْهِزَامَهُـمْ وَيْلَكُـمْ مَـا يَهْزِمُكُـمْ ؟ فَقَالَ لَهُ <180> رَجُلٌ أَنَا أُخْبِرُك ، إنّـهُ لَيْـسَ مِنّـا رَجُـلٌ إلّا وَهُـوَ يُحِبّ أَنّ صَاحِبَهُ يَمُوتُ قَبْلَهُ وَإِنّا نَلْقَى قَوْمًا كُلّهُمْ يُحِبّ أَنْ يَمُـوتَ قَبْلَ صَاحِبِهِ .

وَلَمّا وَلّى طُلَيْحَةُ هَارِبًا ، تَبِعَهُ عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ وَثَابِتُ بْنُ أَقْـرَمَ . وَكَانَ طُلَيْحَةُ قَدْ أَعْطَى اللّهَ عَهْدًا : أَنْ لَا يَسْأَلُهُ أَحَـدٌ النّـزُولَ إلّا فَعَلَ . فَلَمّا أَدْبَرَ نَادَاهُ عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ يَا طُلَيْحَةُ ، فَعَطَفَ عَلَيْهِ فَقَتَـلَ عُكّاشَـةَ ثُـمّ أَدْرَكَـهُ ثَـابِتٌ فَقَتَلَـهُ أَيْضًـا طُلَيْحَـةُ ، ثُـمّ لَحِـقَ الْمُسْـلِمُونَ أَصْـحَابَ طُلَيْحَـةَ فَقَتَلُـوا وَأَسَـرُوا . وَصَـاحَ خَالِـدٌ لَا يَطْبُخَن رَجُلٌ قِدْرًا ، وَلَا يُسَخّنَن مَاءً إلّا وَأَثْفِيّتُهُ رَأْسُ رَجُلٍ .

وَتَلَطّفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ حَتّى وَثَبَ عَلَى عَجُزِ رَاحِلَةِ خَالِدٍ فَقَالَ أَنْشُدُك اللّهَ أَنْ لَا يَكُونَ هَلَاكُ مُضَرَ عَلَى يَدِك . يَا خَالِدُ حُكْمُك فِي بَنِي أَسَدٍ .

فَنَادَى خَالِدٌ مَنْ قَامَ فَهُوَ آمِنٌ . فَقَامَ النّاسُ كُلّهُمْ .

وَسَمِعَتْ بِذَلِكَ بَنُو عَامِرٍ . فَأَعْلَنُوا الْإِسْلَامَ . وَأَمَرَ خَالِدٌ بِالْحَظَائِرِ أَنْ تُبْنَى ، ثُمّ أَوْقَدَ فِيهَا النّارَ . ثُمّ أَمَرَ بِالْأَسْرَى فَأُلْقِيَتْ فِيهَا . وَأُلْقِيَ فِيهَا يَوْمَئِذٍ حَامِيَةُ بْنُ سُبَيْعٍ الّذِي اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى صَدَقَاتِ قَوْمِهِ .

وَأُخِذَتْ أُمّ طُلَيْحَةَ ، فَعَرَضَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَوَثَبَتْ . وَأَخَذَتْ فَحْمَةً مِنْ النّارِ وَهِيَ تَقُولُ يَا مَوْتُ عِمْ صَبَاحًا ، كَافَحْته كِفَاحًا ، إذْ لَمْ أَجِدْ بَرَاحًا .

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيّ : أَنّ خَالِدًا جَمَعَ الْأَسْرَى فِي الْحَظَائِرِ . ثُمّ أَضْرَمَهَا عَلَيْهِمْ فَاحْتَرَقُوا أَحْيَاءً . وَلَمْ يُحَرّقْ أَحَدًا مِنْ فَزَارَةَ .

فَقِيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ لِمَ حَرّقَ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الرّدّةِ ؟ فَقَالَ بَلَغَتْهُ عَنْهُمْ مَقَالَةً سَيّئَةً وَثَبَتُوا عَلَى رِدّتِهِمْ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ شَهِدْت بُزَاخَةَ مَعَ خَالِدٍ . فَأَظْفَرَنَا اللّهُ عَلَى طُلَيْحَةَ . وَكُنّا كُلّمَا أَغَرْنَا عَلَى قَوْمٍ سَبَيْنَا الذّرَارِيّ وَاقْتَسَمْنَا الْأَمْوَالَ

ذِكْرُ رُجُوعِ بَنِي عَامِرٍ وَغَيْرِهِمْ إلَى الْإِسْلَامِ

وَلَمّا أَوْقَعَ اللّهُ بِبَنِي أَسَدٍ وَفَزَارَةَ مَا أَوْقَعَ بِبُزَاخَةَ بَثّ خَالِدٌ السّرَايَا ، لِيُصِيبُوا <181> مَنْ قَدَرُوا عَلَيْهِ مِمّنْ هُوَ عَلَى رِدّتِهِ . وَجَعَلَتْ الْعَرَبُ تَسِيرُ إلَى خَالِدٍ ، رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ وَخَوْفًا مِنْ السّيْفِ .

فَمِنْهُمْ مَنْ أَصَابَتْهُ السّرِيّةُ فَيَقُول : جِئْت رَاغِبًا فِي الْإِسْـلَامِ وَقَـدْ رَجَعْت إلَى مَا خَرَجْت مِنْهُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا رَجَعْنَا ، وَلَكِنْ مَنَعْنَا أَمْوَالَنَـا ، فَقَـدْ سَـلّمْنَاهَا ، فَلْيَأْخُذْ مِنْهَا حَقّهُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ مَضَى إلَى أَبِي بَكْرٍ وَلَمْ يَقْرَبْ خَالِدًا .

ثُـمّ عَمَـدَ خَالِـدٌ إلَـى جَبَلَـيْ طَيّـئٍ - أَجَـأٍ وَسَـلْمَى - فَـأَتَتْهُ عَـامِرٌ وَغَطَفَانُ يَدْخُلُونَ الْإِسْلَامَ وَيَسْأَلُونَهُ الْأَمَانَ عَلَى مِيَاهِهِمْ وَبِلَادِهِـمْ . وَأَظْهَرُوا التّوْبَةَ . وَأَقَامُوا الصّلَاةَ . وَأَقَرّوا بِالزّكَاةِ .

فَأَمّنَهُمْ خَالِدٌ . وَأَخَذَ عَلَيْهِمْ الْعُهُودَ وَالْمَوَاثِيقَ لَتُبَـايِعُنّ عَلَـى ذَلِـكَ أَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ .

وَبَعَثَ بِعُيَيْنَةَ إلَى أَبِي بَكْرٍ مَجْمُوعَةً يَدَاهُ فِي وَثَاقِهِ فَجَعَـلَ غِلْمَـانُ الْمَدِينَةَ يَنْخُسُونَهُ بِالْجَرِيـدَةِ وَيَضْـرِبُونَهُ . وَيَقُولُـونَ أَيْ عَـدُوّ اللّـهِ أَكَفَرْت بِاَللّهِ بَعْدَ إيمَانِك ؟ فَيَقُولُ وَاَللّهِ مَا كُنْت آمَنْت بِاَللّهِ قَطّ .

وَأَخَذَ خَالِدٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَغَيْرِهِمْ مِـنْ أَهْـلِ الـرّدّةِ - مِمّـنْ بَـايَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ - كُلّ مَا ظَهَـرَ مِـنْ سِـلَاحِهِمْ وَاسْـتَحْلَفَهُمْ عَلَـى مَـا غَيّبُوا مِنْهُ فَإِذَا حَلَفُوا تَرَكَهُمْ وَإِنْ أَبَوْا شَدّهُمْ أَسْرَى حَتّى أَتَـوْا بِمَـا عِنْدَهُمْ . فَأَخَذَ مِنْهُمْ سِلَاحًا كَثِيرًا . فَأَعْطَاهُ أَقْوَامًا يَحْتَـاجُونَ إلَيْـهِ فِي قِتَالِ عَدُوّهِمْ وَكَتَبَهُ عَلَيْهِمْ ثُمّ رَدّوهُ بَعْدُ .

وَحَدّثَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي شَرِيكٍ الْفَزَارِيّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَدِمْت مَعَ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَافِدًا ، حِينَ فَرَغَ خَالِـدٌ مِنْهُـمْ . فَقَـالَ أَبُـو بَكْرٍ " اخْتَارُوا بَيْنَ خَصْلَتَيْنِ حَرْبٌ مُجْلِيَةٌ أَوْ سِلْمٌ مُخْزِيَـةٌ . فَقَـالَ خَارِجَةُ بْنُ حِصْنٍ هَذِهِ الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَـا ، فَمَـا السّـلْمُ الْمُخْزِيَةُ ؟ قَالَ تَشْهَدُونَ أَنّ قَتْلَانَا فِي الْجَنّةِ وَقَتْلَاكُـمْ فِـي النّـارِ . وَأَنْ تَرُدّوا عَلَيْنَا مَا أَخَذْتُمْ مِنّا ، وَلَا نَـرُدّ عَلَيْكُـمْ مَـا أَخَـذْنَا مِنْكُـمْ .

وَأَنْ تَدُوا قَتْلَانَا ، كُلّ قَتِيلٍ مِائَةَ بَعِيرٍ مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا . وَلَا نَدِي قَتْلَاكُمْ . وَنَأْخُذُ مِنْكُمْ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ وَتَلْحَقُونَ بِأُذْنَابِ الْإِبِلِ حَتّى يَرَى اللّهُ <182> خَلِيفَةَ نَبِيّهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مَا شَاءَ فِيكُمْ أَوْ يَرَى مِنْكُمْ إقْبَالًا لِمَا خَرَجْتُمْ مِنْهُ . فَقَالَ خَارِجَةُ نَعَمْ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللّهِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : " عَلَيْكُمْ عَهْدَ اللّهِ وَمِيثَاقَهُ أَنْ تَقُومُوا بِالْقُرْآنِ آنَاءَ اللّيْلِ وَآنَاءَ النّهَارِ . وَتُعَلّمُونَ أَوْلَادَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَلَا تَمْنَعُوا فَرَائِضَ اللّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ . قَالُوا : نَعَمْ " قَالَ عُمَرُ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللّهِ كُلّ مَا قُلْت كَمَا قُلْت ، إلّا أَنْ يَدُوا مَنْ قُتِلَ مِنّا ، فَإِنّهُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ . فَتَتَابَعَ النّاسُ عَلَى قَوْلِ عُمَرَ . فَقَبَضَ أَبُو بَكْرٍ كُلّ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَلْقَةِ وَالْكُرَاعِ فَلَمّا تُوُفّيَ رَأَى عُمَرُ : أَنّ الْإِسْلَامَ قَدْ ضَرَبَ بِجِرَانِهِ . فَدَفَعَهُ إلَى أَهْلِهِ وَإِلَى وَرَثَةِ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ .

مَسِيرُ خَالِدٍ إلَى الْيَمَامَةِ

فَلَمّا فَرَغَ خَالِدٌ مِنْ بُزَاخَةَ وَبَنِيّ عَامِرٍ أَظْهَرَ أَنّ أَبَا بَكْرٍ عَهِدَ إلَيْهِ أَنْ يَسِيرَ إلَى أَرْضِ بَنِي تَمِيمٍ ، وَإِلَى الْيَمَامَةِ . فَقَالَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ - وَهُوَ عَلَى الْأَنْصَارِ ، وَخَالِدٌ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ - مَا عَهِدَ إلَيْنَا ذَلِكَ وَلَيْسَ بِنَا قُوّةٌ . وَقَدْ كَلّ الْمُسْلِمُونَ وَعَجَفَ كُرَاعُهُمْ . فَقَالَ خَالِدٌ : لَا أَسْتَكْرِهُ أَحَدًا ، وَسَارَ بِمَنْ تَبِعَهُ .

وَأَقَامَتْ الْأَنْصَارُ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمّ تَلَاوَمَتْ فِيمَا بَيْنَهَا . وَقَالَتْ وَاَللّهِ مَا صَنَعْنَا شَيْئًا . وَاَللّهِ لَئِنْ أَصِيبَ الْقَوْمُ لَيَقُولُنّ خَذَلْتُمُوهُمْ وَإِنّهَا لَمَسَبّةٌ عَارُهَا بَاقٍ إلَى آخِرِ الدّهْرِ وَلَئِنْ أَصَابُوا فَتْحًا ، إنّهُ لَخَيْرٌ مَنَعْتُمُوهُ . فَابْعَثُوا إلَى خَالِدٍ يُقِيمَ حَتّى تَلْحَقُوهُ . فَبَعَثُوا إلَيْهِ فَأَقَامَ حَتّى لَحِقُوهُ . فَاسْتَقْبَلَهُمْ فِي كَثْرَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتّى نَزَلُوا .

وَسَارُوا جَمِيعًا حَتّى انْتَهَوْا إلَى الْبِطَاحِ ، مِنْ أَرْضِ بَنِي تَمِيمٍ فَلَمْ يَجِدُوا بِهَا جَمْعًا . فَفَرّقَ خَالِدٌ السّرَايَا فِي نَوَاحِيهَا . فَأَتَتْ سَرِيّةٌ مِنْهُمْ بَنُو حَنْظَلَةَ - وَسَيّدُهُمْ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ - وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُصَدّقًا عَلَى قَوْمِهِ . فَجَمَعَ صَدَقَاتِهِمْ . فَلَمّا بَلَغَتْهُ وَفَاةُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَفَلَ إبِلَ الصّدَقَةِ - أَيْ رَدّهَا إلَى أَهْلِهَا فَلِذَلِكَ سُمّيَ <183> الْجَفُولِ - وَجَمَعَ قَوْمَهُ

فَقَالَ إنّ هَذَا الرّجُلَ قَدْ هَلَكَ فَإِنْ قَامَ قَائِمٌ بَعْدَهُ رَضِـيَ مِنْكُـمْ أَنْ تَدْخُلُوا فِي أَمْرِهِ وَلَمْ يَطْلُبْ مَا مَضَى ، وَلَمْ تَكُونُوا أَعْطَيْتُمْ النّاسَ أَمْوَالَكُمْ . فَتَسَارَعَ إلَيْهِ جُمْهُورُهُمْ .

فَقَامَ فِيهِـمْ قُعْنُـبٌ - سَـيّدُ بَنِـي يَرْبُـوعٍ - فَقَـالَ يَـا بَنِـي تَمِيـمٍ ، لَا تَرْجِعُوا فِي صَدَقَاتِكُمْ فَيَرْجِعُ اللّـهُ فِـي نِعَمِـهِ عَلَيْكُـمْ وَلَا تَتَجَـرَّدُوا لِلْبَلَاءِ وَقَدْ أَلْبَسَكُمْ اللّهُ الْعَافِيَةَ وَلَا تَسْتَشْعِرُوا خَوْفَ الْكُفْرِ وَأَنْتُـمْ فِي أَمْنِ الْإِسْلَامِ . إنّكُمْ أَعْطَيْتُـمْ قَلِيلًا مِـنْ كَثِيـرٍ . وَاَللّـهُ مُـذْهِبٌ الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ . وَمُسَلّطٌ عَلَى أَمْوَالِكُمْ غَدًا مَنْ يَأْخُذُهَا عَلَـى غَيْـرِ الرّضَا ، وَإِنْ مَنَعْتُمُوهَا قُتِلْتُمْ . فَأَطِيعُوا اللّهَ وَاعْصَوْا مَالِكًا .

فَقَامَ مَالِكٌ فَقَالَ يَا بَنِي تَمِيمٍ ، إنّمَا رَدَدْت عَلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إكْرَامًـا لَكُـمْ . وَإِنّـهُ لَا يَـزَالُ يَقُـومُ مِنْكُـمْ قَـائِمٌ يُخَطّئُنِـي . وَاَللّـهِ مَـا أَنَـا بِأَحْرَصِـكُمْ عَلَـى الْمَـالِ وَلَا بِـأَجْزَعِكُمْ مِـنْ الْمَـوْتِ وَلَا بِأَخْفَـاكُمْ شَخْصًا إنْ أَقَمْت ، وَلَا بِأَخْفَاكُمْ رِحْلَـةً إنْ هَرَبْـت . فَتُرْضُـوهُ عِنْـدَ ذَلِكَ وَأَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إلَيْهِ وَأَبَى اللّـهُ أَنْ يُتِـمّ أَمْـرَهُ فِيهِـمْ . وَقَـالَ مَالِكٌ فِي ذَلِكَ

وَقَالَ رِجَالٌ سَدّدَ الْيَوْمَ مَالِكٌ

وَقَالَ رِجَالٌ مَالِكٌ لَمْ يُسَدّدْ

فَقُلْت : دَعُونِي لَا أَبَا لِأَبِيكُمُو

فَلَمْ أَخُطّ رَأْيًا فِي الْمُعَادِ وَلَا الْبُدّ

فُدُونُكُمُوهَا . إنّهَا صَدَقَاتُكُمْ

مُصَرّرَةٌ أَخْلَافُهَا لَمْ تُجَرّدْ

سَأَجْعَلُ نَفْسِي دُونَ مَا تَحْذَرُونَهُ

فَأَرْهَنُكُمْ يَوْمًا بِمَا قَلّتْ يَدَيّ

فَإِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ الْمُجَرّدِ قَائِمٌ

أَطَعْنَا ، وَقُلْنَا : الدّينُ دِينُ مُحَمّدٍ

وَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ وَالْمُسْلِمِينَ حَنِقُوا عَلَيْهِ . وَعَاهَدَ اللّهَ خَالِدٌ لَئِنْ أَخَذَهُ لَيَجْعَلَن هَامّتَهُ أُثْفِيّةً لِلْقِدْرِ .

فَلَمّا وَصَلَتْهُمْ السّرِيّةُ - مَعَ طُلُوعِ الشّمْسِ - فَزِعُوا إلَى السّلَاحِ . وَقَالُوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ عِبَادُ اللّهِ الْمُسْلِمُونَ قَالُوا : وَنَحْنُ عِبَادُ اللّهِ الْمُسْلِمُونَ . قَالُوا : فَضَعُوا السّلَاحَ . فَفَعَلُوا . فَأَخَذُوهُمْ . وَجَاءُوا بِهِمْ إلَى خَالِدٍ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو قَتَادَةَ : - وَهُوَ مَعَ السّرِيّةِ - أَقَاتِلٌ أَنْتَ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ إنّهُمْ اتّقُونَا بِالْإِسْلَامِ أَذُنّا فَأَذِنُوا ، وَصَلّيْنَا فَصَلّوْا . وَكَانَ مِنْ عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ أَيّمَا دَارٍ غَشِيتُمُوهَا ، فَسَمِعْتُمْ الْأَذَانَ فِيهَا بِالصّلَاةِ فَأَمْسِكُوا عَنْ أَهْلِهَا حَتّى <184> تَسْأَلُوهُمْ مَاذَا نَقَمُوا ؟ وَمَاذَا يَبْغُونَ ؟ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا الْأَذَانَ فَشُنّوا عَلَيْهَا الْغَارَةَ فَاقْتُلُوا وَحَرّقُوا فَأَمَرَ بِهِمْ خَالِدٌ فَقُتِلُوا ، وَأَمَرَ بِرَأْسِ مَالِكٍ فَجُعِلَ أُثْفِيّةً لِلْقِدْرِ وَرَثَاهُ أَخُوهُ مُتَمّمٌ بِقَصَائِدَ كَثِيرَةٍ .

وَرُوِيَ أَنّ عُمَرَ قَالَ لَهُ لَوَدِدْت أَنْ رَثَيْت أَخِي زَيْدًا بِمِثْلِ مَا رَثَيْت بِهِ أَخَاك مَالِكًا " فَقَالَ مُتَمّمٌ لَوْ عَلِمْت أَنّ أَخِي صَارَ حَيْثُ صَارَ أَخُوك مَا رَثَيْته . فَقَالَ عُمَرُ " مَا عَزّانِي أَحَدٌ عَنْ أَخِي بِمِثْلِ تَعْزِيَتِه

ذِكْرُ رِدّةِ أَهْلِ الْيَمَامَةِ مَفْتُونِينَ بِمُسَيْلِمَةِ الْكَذّابِ

عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ قَدِمَتْ عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وُفُودُ الْعَرَبِ . فَلَمْ يَقْدَمْ عَلَيْنَا وَفْدٌ أَقْسَى قُلُوبًا ، وَلَا أَحْرَى أَنْ لَا

يَكُونَ الْإِسْلَامُ يُقِرّ فِي قُلُوبِهِمْ - مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مُسَيْلِمَةُ مَعَ الْوَفْدِ

فَلَمّا انْصَرَفُوا إلَى الْيَمَامَةِ ادّعَى أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَشْرَكَهُ فِي النّبُوّةِ وَكَتَبَ إلَيْهِ مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللّهِ إلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ . أَمّا بَعْدُ فَإِنّي أُشْرِكْت فِي الْأَمْرِ مَعَك ، وَإِنّا لَنَا نِصْفُ الْأَرْضِ وَلِقُرَيْشٍ نِصْفُهَا ، وَلَكِنْ قُرَيْشٌ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ . فَكَتَبَ إلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ . مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ . إلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ . أَمّا بَعْدُ فَإِنّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِين

وَجَدّ بِعَدُوّ اللّهِ ضَلَالُهُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَصْفَقَتْ مَعَهُ بَنُو حَنِيفَةَ عَلَى ذَلِكَ إلّا أَفْذَاذًا مِنْ ذَوِي عُقُولِهِمْ . وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مَا فُتِنَ بِهِ قَوْمُهُ شَهَادَةُ الرّجّالِ بْنِ عُنْفُوَةَ لَهُ بِإِشْرَاكِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إيّاهُ فِي الْأَمْرِ . وَكَانَ الرّجّالُ مِنْ الْوَفْدِ الّذِينَ قَدِمُوا عَلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَقَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلّمَ السّنَنَ . قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ الْوَفْدِ عِنْدَنَا ، فَكَانَ أَعْظَمَ فِتْنَةً عَلَى أَهْلِ الْيَمَامَةِ مِنْ غَيْرِهِ لِمَا كَانَ يُعْرَفُ بِه

قَالَ رَافِعُ بْنُ خَدِيجٍ : كَانَ بِالرّجّالِ مِنْ الْخُشُوعِ وَلُزُومِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْخَيْرِ - فِيمَا يُرَى - شَيْءٌ عَجِيبٌ " وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ الْيَشْكُرِيّ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَكَانَ صَدِيقًا <185> لِلرّجّالِ . وَكَانَ مُسْلِمًا يَكْتُمُ إسْلَامَهُ . فَقَالَ شِعْرًا . فَشَا فِي الْيَمَامَةِ حَتّى كَانَتْ الْوَلِيدَةُ وَالصّبِيّ يَنْشُدُونَهُ

يَا سُعَادَ الْفُؤَادِ بِنْتَ أَثَالٍ

طَالَ لَيْلِي بِفِتْنَةِ الرّجّالِ

إنّهَا يَا سُعَادُ مَنْ حَدَثِ الدّهْ

رِ عَلَيْكُمْ كَفِتْنَةِ الدّجّالِ

فَتَنَ الْقَوْمَ بِالشّهَادَةِ وَاللّ

هُ عَزِيزٌ ذُو قُوّةٍ وَمِحَالِ

لَا يُسَاوِي الّذِي يَقُولُ مِنْ الْأَ

مْرِ قُبَالًا وَمَا احْتَذَى مِنْ قُبَالِ

إنّ دِينِي دِينُ النّبِيّ وَفِي الْقَ

وْمِ رِجَالٌ عَلَى الْهُدَى أَمْثَالِي

أَهْلَكَ الْقَوْمَ مُحَكّمُ بْنُ طُفَيْلٍ

وَرِجَالٌ لَيْسُوا لَنَا بِرِجَالِ

بَزّ أَمْرَهُمْ مُسَيْلِمَةُ الْيَوْمَ

فَلَنْ يَرْجِعُوهُ أُخْرَى اللّيَالِي

قُلْت لِلنّفْسِ إذْ تَعَاضَمَهَا الصّ

بْرُ وَسَاءَتْ مَقَالَةُ الْأَنْذَالِ

رُبّمَا تَجْزَعُ النّفُوسُ مِنْ الْأَمْرِ

لَهُ فُرْجَةٌ كَحُلّ الْعِقَالِ

إنْ تَكُنْ مُنْيَتِي عَلَى فِطْرَةِ اللّ

هِ حَنِيفًا فَإِنّنِي لَا أُبَالِي

فَبَلَغَ ذَلِكَ مُسَيْلِمَةَ وَمُحَكّمَ وَأَشْرَافَهُمْ فَطَلَبُوهُ فَقَاتَلَهُمْ . وَلَحِقَ بِخَالِدٍ . فَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِمْ . وَدَلّهُ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ .

وَعَظُمَتْ فِتْنَةُ بَنِي حَنِيفَةَ بِكَذّابِهِمْ . إذْ كَانُوا يَدْعُو لِمَرِيضِهِمْ وَيَبْرُكُ عَلَى مَوْلُودِهِمْ . وَلَا يَنْهَاهُمْ عَنْ الِاغْتِرَارِ بِهِ مَا يُرِيهِمْ اللّهُ مَا يَحُلّ بِهِ مِنْ الْخَيْبَةِ وَالْخُسْرَانِ .

جَاءَهُ رَجُلٌ بِمَوْلُودٍ فَمَسَحَ رَأْسَهُ . فَقَرَعَ . وَقَرَعَ كُلّ مَوْلُودٍ لَهُ .

وَجَاءَهُ آخَرُ فَقَالَ إنّي ذُو مَالٍ . وَلَيْسَ لِي مَوْلُودٌ يَبْلُغُ سَنَتَيْنِ حَتّى يَمُوتَ إلّا هَذَا الْمَوْلُودُ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ . وَلِي مَوْلُودٌ وُلِدَ أَمْسِ . فَأُحِبّ أَنْ تُبَارِكَ فِيهِ وَتَدْعُو أَنْ يُطِيلَ اللّهُ عُمْرَهُ . قَالَ سَأَطْلُبُ لَك . فَرَجَعَ الرّجُلُ إلَى مَنْزِلِهِ مَسْرُورًا . فَوَجَدَ الْأَكْبَرَ قَدْ تَرَدّى فِي بِئْرٍ وَوَجَدَ الْأَصْغَرَ فِي نَزْعِ الْمَوْتِ . فَلَمْ يُمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتّى مَاتَا جَمِيعًا . وَتَقُولُ أُمّهُمَا : لَا وَاَللّهِ مَا لِأَبِي ثُمَامَةَ عِنْدَ إلَهِهِ مَنْزِلَةُ مُحَمّدٍ .

وَحَفَرَتْ بَنُو حَنِيفَةَ بِئْرًا فَاسْتَعْذَبُوهَا ، فَأَتَوْا مُسَيْلِمَةَ . وَطَلَبُوا أَنْ يُبَارِكَ فِيهَا ، فَبَصَقَ فِيهَا فَعَادَتْ مِلْحًا أُجَاجًا .

<186> وَكَانَ الصّدّيقُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَدْ عَهِدَ إلَى خَالِدٍ - إذَا فَرَغَ مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ وَالضّاحِيَةَ - أَنْ يَقْصِدَ الْيَمَامَةَ ، وَأَكّدَ عَلَيْهِ

فِي ذَلِكَ . فَلَمّا أَظْفَرَ اللّهُ خَالِدًا بِهِمْ تَسَلّلَ بَعْضُهُمْ إلَى الْمَدِينَـةِ ، يَسْأَلُونَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُبَايِعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ . فَقَالَ بَيْعَتِي لَكُمْ وَأَمَانِي لَكُمْ أَنْ تَلْحَقُوا بِخَالِدٍ . فَمَنْ كَتَبَ إلَى خَالِدٍ أَنّهُ حَضَرَ مَعَهُ الْيَمَامَةَ فَهُوَ آمِنٌ . وَلِيُبَلّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ . وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيّ .

قَـالَ ابْـنُ الْجَهْـمِ أُولَئِـكَ الّـذِينَ لَحِقُـوا بِـهِ هُـمْ الّـذِينَ انْكَسَـرُوا بِالْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ثَلَاثَ مَرّاتٍ وَكَانُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَلَاءً .

قَالَ شَرِيكٌ الْفَزَارِيّ : كُنْت مِمّنْ شَهِدَ بُزَاخَةَ مَعَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْـنٍ . ثُمّ رَزَقَنِي اللّهُ الْإِنَابَةَ فَجِئْـت أَبَـا بَكْـرٍ . فَـأَمَرَنِي بِالْمَسِـيرِ إلَـى خَالِدٍ . وَكَتَبَ مَعِي إلَيْهِ .

أَمّـا بَعْـدُ " فَقَـدْ جَـاءَنِي كِتَابُـك ، تَـذْكُرُ مَـا أَظْفَـرَك اللّـهُ بِأَسَـدِ وَغَطَفَانَ . وَأَنّك سَائِرٌ إلَى الْيَمَامَةِ . فَاتّقِ اللّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَـهُ . وَعَلَيْك بِـالرّفْقِ بِمَـنْ مَعَـك مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ كُـنْ لَهُـمْ كَالْوَالِـدِ . وَإِيّاكَ يَا ابْنَ الْوَلِيدِ وَنَخْوَةَ بَنِي الْمُغِيرَةِ . فَإِنّي عَصَـيْت فِيـك مَـنْ لَمْ أَعْصِهِ فِي شَيْءٍ قَطّ ، فَانْظُرْ بَنِي حَنِيفَةَ . فَإِنّك لَمْ تَلْـقَ قَوْمًـا يُشْبِهُونَهُمْ . كُلّهُمْ عَلَيْك . وَلَهُمْ بِلَادٌ وَاسِعَةٌ . فَإِذَا قَـدِمَتْ فَبَاشِـرْ الْأَمْرَ بِنَفْسِك . وَاسْتَشِرْ مَنْ مَعَك مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّـهِ صَـلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَاعْرِفْ لَهُمْ فَضْلَهُمْ . فَإِذَا لَقِيَتْ الْقَوْمَ . فَأَعِـدْ لِلْأُمُورِ أَقْرَانَهَا . فَإِنْ أَظْفَـرَك اللّـهُ بِهِـمْ فَإِيّـاكَ وَالْإِبْقَـاءَ عَلَيْهِـمْ . أَجْهِـزْ عَلَـى جَرِيحِهِـمْ وَاطْلُـبْ مُـدْبِرَهُمْ وَاحْمِـلْ أَسِـيرَهُمْ عَلَـى السّيْفِ . وَهَوّلْ فِيهِمْ الْقَتْلَ . وَخَوّفْهُمْ بِالنّـارِ . وَإِيّـاكَ أَنْ تُخَـالِفَ أَمْرِي . وَالسّلَامُ .
وَلَمّـا اتّصَـلَ بِأَهْـلِ الْيَمَامَـةِ مَسِـير خَالِـدٍ إلَيْهِـمْ بَعْـدَ الّـذِي صَـنَعَ بِأَمْثَالِهِمْ حَيّرَهُمْ ذَلِكَ . وَجَزَعَ لَهُ مُحَكّمُ بْنُ طُفَيْلٍ سَـيّدَهُمْ . وَهَـمّ أَنْ يَرْجِعَ إلَى الْإِسْلَامِ . ثُـمّ اسْـتَمَرّ عَلَـى ضَـلَالَتِهِ . وَكَـانَ صَـدِيقًا لِزِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيّ .

فَقَالَ لَهُ خَالِـدٌ : لَـوْ أَلْقَيْـت إلَيْـهِ شَـيْئًا تَكْسِـرُهُ بِـهِ فَـإِنّهُ سَـيّدُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ بِيَدِهِ . فَبَعَثَ إلَيْهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ <187>

يَا مُحَكّمُ بْنَ طُفَيْلٍ قَدْ أُتِيحَ لَكُمْ

لِلّهِ دَرّ أَبِيكُمْ حَيّةُ الْوَادِي

يَا مُحَكّمُ بْنُ طُفَيْلٍ إنّكُمْ نَفَرٌ

كَالشّاءِ أَسْلَمَهَا الرّاعِي لِآسَادِ

مَا فِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ مِنْ عِوَضٍ

مِنْ دَارِ قَوْمٍ وَإِخْوَانٍ وَأَوْلَادِ

فَاكْفُفْ حَنِيفَةَ عَنْهُ قَبْلَ نَائِحَةٍ

تَعْفِي فَوَارِسَ قَوْمٍ شَجْوُهَا بَادِي

لَا تَأْمَنُوا خَالِدًا بِالْبُرْدِ مُعْتَجِرًا

تَحْتَ الْعَجَاجَةِ مِثْلُ الْأَغْطَفِ الْعَادِي

وَيْلُ الْيَمَامَةِ وَيْلٌ لَا فِرَاقَ لَهُ

إنْ جَالَتْ الْخَيْلُ فِيهَا بِالْقَنَا الصّادِي

وَاَللّهِ لَا تَنْثَنِي عَنْكُمْ أَعِنّتُهَا

حَتّى تَكُونُوا كَأَهْلِ الْحِجْرِ أَوْ عَادِ

وَوَرَدَتْ عَلَى مُحَكّمٍ وَقِيلَ لَهُ هَذَا خَالِدٌ فِي الْمُسْلِمِينَ .

فَقَالَ رَضِيَ خَالِدٌ أَمْرًا ، وَرَضِينَا غَيْرَهُ . وَمَا يُنْكِرُ خَالِدٌ أَنْ يَكُونَ فِي بَنِي حَنِيفَةَ مَنْ أَشْرِكَ فِي الْأَمْرِ ؟ فَسَيَرَى - إنْ قَدِمَ عَلَيْنَا - يَلْقَ قَوْمًا لَيْسُوا كَمَنْ لَقِيَ .

ثُمّ خَطَبَهُمْ فَقَالَ إنّكُمْ تَلْقَوْنَ قَوْمًا يَبْذُلُونَ أَنْفُسَهُمْ دُونَ صَاحِبِهِمْ فَابْذُلُوا نُفُوسَكُمْ دُونَ صَاحِبِكُمْ . وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ ضَابِئٍ فِي أَصْحَابِ خَالِدٍ . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ حِجْرٍ كَانَ مِنْ أَهْلِ مَلْهَمَ . فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : تَقَدّمْ إلَى قَوْمِك فَاكْسِرْهُمْ . فَأَتَاهُمْ فَقَالَ " يَا أَهْلَ الْيَمَامَةِ ، أَظَلّكُمْ خَالِدٌ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . قَدْ تَرَكْت الْقَوْمَ وَاَللّهِ يَتَبَايَعُونَ عَلَى فَتْحِ الْيَمَامَةِ . قَدْ قَضَوْا وَطَرًا مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ ، وَأَنْتُمْ فِي أَكُفّهِمْ . وَقَوْلُهُمْ " لَا قُوّةَ إلّا بِاَللّهِ " إنّي رَأَيْت أَقْوَامًا إنْ غَلَبْتُمُوهُمْ بِالصّبْرِ غَلَبُوكُمْ بِالنّصْرِ . وَإِنْ غَلَبْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ غَلَبُوكُمْ عَلَى الْمَوْتِ . وَإِنْ غَلَبْتُمُوهُمْ بِالْعَدَدِ غَلَبُوكُمْ بِالْمَدَدِ . لَسْتُمْ وَالْقَوْمُ سَوَاءً . الْإِسْلَامُ مُقْبِلٌ وَالشّرْكُ مُدْبِرٌ . وَصَاحِبُهُمْ نَبِيّ ، وَصَاحِبُكُمْ كَذّابٌ . وَمَعَهُمْ السّرُورُ وَمَعَكُمْ الْغَرُورُ . فَالْآنَ - وَالسّيْفُ فِي غِمْدِهِ وَالنّبْلُ فِي جَفِيرِهِ - قَبْلَ أَنْ يُسَلّ السّيْفُ وَيُرْمَى بِالسّهْمِ " فَكَذّبُوهُ وَاتّهَمُوهُ .

وَقَامَ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فِيهِمْ . فَقَالَ اسْمَعُوا مِنّي . وَأَطِيعُوا أَمْرِي ، تَرْشُدُوا . إنّهُ لَا يَجْتَمِعُ نَبِيّانِ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ . إنّ مُحَمّدًا لَا نَبِيّ بَعْدَهُ وَلَا نَبِيّ يُرْسَلُ مَعَهُ . ثُمّ قَرَأَ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطّوْلِ لَا إلَهَ إلّا هُوَ إلَيْهِ الْمَصِيرُ هَذَا كَلَامُ اللّهِ عَزّ وَجَلّ . أَيْنَ هَذَا مِنْ يَا ضُفْدُعُ يَا ضُفْدُعِينَ . نِقّي كَمْ تَنِقّينَ ؟ < 188> نِصْفُك فِي الْمَاءِ وَنِصْفُك فِي الطّينِ . لَا الشّرَابُ تَمْنَعِينَ وَلَا الْمَاءُ تُكَدّرِينَ وَلَا الطّينُ تُفَارِقِينَ . لَنَا نِصْفُ الْأَرْضِ وَلِقُرَيْشٍ نِصْفُهَا . وَلَكِنّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ . وَاَللّهِ إنّكُمْ لَتَرَوْنَ هَذَا مَا يَخْرُجُ مِنْ إلِ . وَقَدْ اسْتَحَقّ مُحَمّدٌ أَمْرًا أَذْكُرُهُ بِهِ خَرَجْت مُعَتّرًا ، فَأَخَذَتْنِي رِسَلُهُ فِي غَيْرِ عَهْدٍ وَلَا ذِمّةٍ . فَعَفَا عَنْ دَمِي . فَأَسْلَمْت

وَأَذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ إلَى بَيْتِ اللّـهِ . فَتُـوُفّيَ رَسُـولُ اللّـهِ صَـلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ هُـوَ أَفْقَهُهُـمْ فِـي أَنْفُسِهِمْ . لَا تَأْخُذُهُ فِي اللّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ . ثُـمّ بَعَـثَ إلَيْكُـمْ رَجُلًا ، لَا يُسَمّى بِاسْمِهِ . وَلَا بِاسْمِ أَبِيهِ يُقَالُ لَهُ " سَيْفُ اللّهِ " مَعَهُ سُيُوفُ اللّهِ كَثِيرَةٌ فَانْظُرُوا فِي أَمْرِكُـمْ " . فَـآذَاهُ الْقَـوْمُ جَمِيعًـا ، أَوْ مَـنْ آذَاهُ مِنْهُمْ . وَقَالَ ثُمَامَةُ فِي ذَلِكَ

مُسَيْلِمَةُ ارْجِعْ . وَلَا تَمْحِك

فَإِنّك فِي الْأَمْرِ لَمْ تُشْرَكْ

كَذَبَتْ عَلَى اللّهِ فِي وَحْيِهِ

وَكَانَ هَوَاك هَوَى الْأَنْوَكِ

وَمَنّاك قَوْمُك أَنْ يَمْنَعُوك

وَإِنْ يَأْتِهِمْ خَالِدٌ تُتْرَكْ

فَمَا لَك مِنْ مُصْعَدٍ فِي السّمَاءِ

وَمَا لَك فِي الْأَرْضِ مِنْ مَسْلَكِ
ذِكْرُ تَقْدِيمِ خَالِدٍ الطّلَائِعَ مِنْ الْبِطَاحِ
لَمّا سَارَ خَالِدٌ مِنْ الْبِطَاحِ ، وَجَـاءَ أَرْضَ بَنِـي تَمِيـمٍ : قَـدِمَ مِـائَتَيْ فَارِسٍ ، عَلَيْهِمْ مَعْنُ بْنُ عَدِيّ . وَقَدّمَ عَيْنَيْنِ لَهُ أَمَامَهُ .

وَذَكَرَ الْوَاقِدِيّ : أَنّ خَالِدًا لَمّا قَدِمَ الْعَـرْضَ قَـدّمَ مِـائَتَيْ فَـارِسٍ ، وَقَالَ مَنْ أَصَبْتُمْ مِنْ النّاسِ فَخُذُوهُ .

فَانْطَلَقُوا . فَأَخَذُوا مَجَاعَةَ بْنَ مُرَارَةَ فِي ثَلَاثَةٍ وَعِشْرِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِهِ خَرَجُوا فِي طَلَبِ رَجُلٍ أَصَابَ فِيهِمْ دَمًا ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِإِقْبَالِ خَالِدٍ . فَسَأَلُوهُمْ مِمَّنْ أَنْتُمْ ؟ فَقَالُوا : مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ . فَقَالُوا : مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبِكُمْ ؟ فَشَهِدُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ . فَقَالُوا لِمَجَاعَةَ مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ فَقَالَ مَا كُنْت أَقْرَبَ مُسَيْلِمَةَ . وَقَدْ قَدِمْت عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمْت . وَمَا غَيَّرْت وَلَا بَدَّلْت . فَضَرَبَ خَالِدٌ أَعْنَاقَهُمْ . حَتَّى إذَا بَقِيَ سَارِيَةُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ يَا خَالِدُ إنْ كُنْت <189> تُرِيدُ بِأَهْلِ الْيَمَامَةِ خَيْرًا أَوْ شَرّا ، فَاسْتَبْقِ مَجَاعَةَ . وَكَانَ مَجَاعَةُ شَرِيفًا ، فَلَمْ يَقْتُلْهُ . وَتَرَكَ أَيْضًا سَارِيَةَ . وَأَمَرَ بِهِمَا فَأُوثِقَا فِي جَوَامِعَ مِنْ حَدِيدٍ .

وَكَانَ يَدْعُو مَجَاعَةَ - وَهُوَ كَذَلِكَ - فَيَتَحَدّثُ مَعَهُ وَهُوَ يَظُنّ أَنّ خَالِدًا يَقْتُلُهُ . فَقَالَ يَا ابْنَ الْمُغِيرَةِ إنّ لِي إسْلَامًا ، وَاَللَّهِ مَا كَفَرْت . وَأَعَادَ كَلَامَهُ الْأَوّلَ . فَقَالَ خَالِدٌ إنّ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالشّرْكِ مَنْزِلَةً وَهِيَ الْحَبْسُ حَتّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي حَرْبِنَا مَا هُوَ قَاضٍ . وَدَفَعَهُ إلَى أُمّ مُتَمّمٍ زَوْجَتَهُ . وَأَمَرَهَا أَنْ تُحْسِنَ إسَارَهُ . فَظَنّ مَجَاعَةُ أَنّ خَالِدًا يُرِيدُ حَبْسَهُ لِأَجْلِ أَنْ يُخْبِرَهُ عَنْ عَدُوّهِ وَيُشِيرَ عَلَيْهِ .

فَقَالَ يَا خَالِدُ . لَقَدْ عَلِمْت أَنّي قَدِمْت عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَبَايَعْته عَلَى الْإِسْلَامِ . وَأَنَا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْت عَلَيْهِ أَمْسِ . فَإِنْ يَكُنْ كَذّابٌ خَرَجَ فِينَا ، فَإِنّ اللَّهَ يَقُولُ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

فَقَالَ يَا مَجَاعَةُ تَرَكَتْ الْيَوْمَ مَا كُنْت عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ . وَكَانَ رِضَاك بِأَمْرِ هَذَا الْكَذّابِ وَسُكُوتُك عَنْهُ - وَأَنْتَ أَعَزّ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، وَقَدْ بَلَغَك مَسِيرِي - إقْرَارًا لَهُ وَرِضًا بِمَا جَاءَ بِهِ فَهَلّا أَبْدَيْت عُذْرًا ، فَتَكَلّمْت فِيمَنْ تَكَلّمَ ؟ فَقَدْ تَكَلّمَ ثُمَامَةُ . فَرَدّ وَأَنْكَرَ وَتَكَلّمَ الْيَشْكُرِيّ . فَإِنْ قُلْت : أَخَافُ قَوْمِي ، فَهَلّا عَمَدْت إلَيّ أَوْ بَعَثْت إلَيّ رَسُولًا ؟ .

فَقَالَ إنّ رَأَيْت يَا ابْنَ الْمُغِيرَةِ أَنْ تَعْفُوَ عَنْ هَذَا كُلّهِ ؟ .

فَقَالَ قَدْ عَفَوْت عَنْ دَمِك ، وَلَكِنْ فِي نَفْسِي مِنْ تَرْكِك حَرْجٌ . فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَخْبِرْنِي عَنْ صَاحِبِك ، مَا الَّذِي يُقْرِئُكُمْ ؟ هَلْ تَحْفَظُ مِنْهُ شَيْئًا ؟ قَالَ نَعَمْ فَذَكَرَ لَهُ شَيْئًا مِنْ رَجَزِهِ فَضَرَبَ خَالِدٌ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ، وَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ اسْمَعُوا إلَى عَدُوّ اللّهِ كَيْفَ يُعَارِضُ الْقُرْآنَ ؟ .

فَقَالَ وَيْحَك ، يَا مَجَاعَةُ أَرَاك سَيِّدًا عَاقِلًا ، تَسْمَعُ إلَى كِتَابِ اللّهِ . ثُمّ اُنْظُرْ كَيْفَ عَارَضَهُ عَدُوّ اللّهِ ؟ فَقَرَأَ عَلَيْهِ خَالِدٌ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ سَبّحِ اسْمَ رَبّكَ الْأَعْلَى الّذِي خَلَقَ فَسَوّى

<190> ثُمّ قَالَ خَالِدٌ أَفَمَا كَانَ فِي هَذَا لَكُمْ نَاهٍ وَلَا زَاجِرٌ ؟ ثُمّ قَالَ هَاتِ مِنْ كَذِبِ الْخَبِيثِ . فَذَكَرَ لَهُ بَعْضَ رَجَزِهِ .

فَقَالَ خَالِدٌ وَقَدْ كَانَ عِنْدَكُمْ حَقّا ، وَكُنْتُمْ تُصَدّقُونَهُ ؟ .

فَقَالَ لَوْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا حَقّا ، لَمّا لَقِيَك غَدًا أَكْثَرُ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ سَيْفٍ يُضَارِبُونَك حَتّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ .

فَقَالَ خَالِدٌ إذًا يَكْفِينَاهُمْ اللّهُ وَيُقِرّ دِينَهُ فَإِيّاهُ يَعْبُدُونَ . وَدِينُهُ يُؤَيّدُونَ .

قَالَ عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ عَبْدِ اللّهِ لَمّا انْصَرَفَ خَالِدٌ وَأَجْمَعَ أَنْ يَنْزِلَ عَقْرَبَاءَ وَدَفَعَ الطّلَائِعَ أَمَامَهُ . فَرَجَعُوا إلَيْهِ . فَأَخْبَرُوهُ أَنّ مُسَيْلِمَةَ وَمَنْ مَعَهُ قَدْ نَزَلُوا عَقْرَبَاءَ فَشَاوَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَمْضِيَ إلَى الْيَمَامَةِ ، أَوْ يَنْتَهِيَ إلَى عَقْرَبَاءَ . فَأَجْمَعُوا أَنْ يَنْتَهِيَ إلَى عَقْرَبَاءَ . فَزَحَفَ خَالِدٌ بِالْمُسْلِمِينَ إلَيْهَا . وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسْأَلُونَ عَنْ الرّجّالِ بْنِ عُنْفُوَةَ فَإِذَا الرّجّالُ عَلَى مُقَدّمَةِ مُسَيْلِمَةَ فَلَعَنُوهُ وَشَتَمُوهُ .
فَلَمّا فَرَغَ خَالِدٌ مِنْ ضَرْبِ عَسْكَرِهِ - وَبَنُو حَنِيفَةَ تُسَوّي صُفُوفَهَا - نَهَضَ خَالِدٌ إلَى صُفُوفِهِ فَصَفّهَا . وَقَدّمَ رَايَتَهُ مَعَ زَيْدِ بْنِ الْخَطّابِ ، وَدَفَعَ رَايَةَ الْأَنْصَارِ إلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمّاسٍ . فَتَقَدّمَ بِهَا .

وَجَعَلَ عَلَى مَيْمَنَتِهِ أَبَا حُذَيْفَةَ بْنَ عُتْبَةَ وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ شُجَاعُ بْنُ وَهْبٍ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْخَيْلِ الْبَرَاءَ بْنَ مَالِكٍ ، ثُمّ عَزَلَهُ . وَاسْتَعْمَلَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ .

فَأَقْبَلَ بَنُو حَنِيفَةَ ، وَقَدْ سَلّوا السّيُوفَ . فَقَالَ خَالِدٌ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَبْشِرُوا فَقَدْ كَفَاكُمْ اللّهُ أَمْرَ عَدُوّكُمْ مَا سُلُوّ السّيُوفِ مِنْ بَعْدُ إلّا لِيَرْهَبُوا .

فَقَالَ مَجَاعَةُ كَلّا يَا أَبَا سُلَيْمَانَ وَلَكِنّهَا الْهُنْدُوَانِيّة ، خَشَوْا تَحَطّمَهَا ، وَهِيَ غَدَاةٌ بَارِدَةٌ فَأَبْرَزُوهَا لِلشّمْسِ لِتُسَخّنَ مُتُونَهَا . فَلَمّا دَنَوْا مِنْ الْمُسْلِمِينَ نَادَوْا : إنّا نَعْتَذِرُ إلَيْكُمْ مِنْ سَلّنَا سُيُوفَنَا . وَاَللّهِ مَا سَلَلْنَاهَا تَرْهِيبًا ، وَلَكِنْ غَدَاةَ بَارِدَةٍ فَخَشِينَا تَحَطّمَهَا ، فَأَرَدْنَا أَنْ تُسَخّنَ مُتُونَهَا إلَى أَنْ نَلْقَاكُمْ فَسَتَرَوْنَ .

فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا . وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ صَبْرًا طَوِيلًا . حَتّى كَثُرَ الْقَتْلُ وَالْجِرَاحُ فِي الْفَرِيقَيْنِ . وَاسْتَحَرّ الْقَتْلُ فِي الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلَةِ الْقُرْآنِ حَتّى فَنَوْا إلّا قَلِيلًا . وَهُزِمَ كُلّ مِنْ <191> الْفَرِيقَيْنِ حَتّى دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكُونَ عَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ مِرَارًا . وَجَعَلَ زَيْدُ بْنُ الْخَطّابِ - وَمَعَهُ الرّايَةَ - يَقُولُ اللّهُمّ إنّي أَبْرَأُ إلَيْك مِمّا جَاءَ بِهِ مُسَيْلِمَةُ . وَأَعْتَذِرُ إلَيْك مِنْ فِرَارِ أَصْحَابِي . وَجَعَلَ يَشْتَدّ بِالرّايَةِ فِي نُحُورِ الْعَدُوّ . ثُمّ ضَارَبَ بِسَيْفِهِ حَتَى قُتِلَ . رَحِمَهُ اللّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ .

فَأَخَذَ الرّايَةَ سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ إنّا نَخَافُ أَنْ نُؤْتَى مِنْ قَبْلِك . فَقَالَ بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا ، إذَا أُتِيتُمْ مِنْ قِبَلِي .

وَنَادَتْ الْأَنْصَارُ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ - وَمَعَهُ رَايَتُهُمْ - الْزَمْهَا . فَإِنّهَا مَلَاك الْقَوْمِ فَتَقَدّمَ سَالِمٌ فَحَفَرَ لِرِجْلَيْهِ حَتّى بَلَغَ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ وَحَفَرَ ثَابِتٌ لِرِجْلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمّ لَزَمَا رَايَتَهُمَا .

وَلَقَدْ كَانَ النّاسُ يَتَفَرّقُونَ فِي كُلّ وَجْهٍ وَإِنّ سَالِمًا وَثَابِتًا لَقَائِمَانِ حَتّى قُتِلَ سَالِمٌ وَقُتِلَ أَبُو حُذَيْفَةَ مَوْلَاهُ . قَالَ وَحْشِيّ بْنُ حَرْبٍ اقْتَتَلْنَا قِتَالًا شَدِيدًا ، حَتّى رَأَيْت شُهُبَ النّارِ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ السّيُوفِ حَتّى سَمِعْت لَهَا صَوْتًا كَالْأَجْرَاسِ .

وَقَالَ ضَمْرَةُ بْنُ سَعِيدٍ الْمَازِنِيّ - وَذَكَرَ رِدّةَ بَنِي حَنِيفَةَ - لَمْ يَلْقَ الْمُسْلِمُونَ عَدُوّا أَشَدّ نِكَايَةً مِنْهُمْ لَقُوهُمْ بِالْمَوْتِ النّاقِعِ وَالسّيُوفِ قَدْ أَصْلَتُوهَا قَبْلَ النّبْلِ وَقَبْلَ الرّمَاحِ . فَكَانَ الْمِعْوَلُ يَوْمَئِذٍ عَلَى أَهْلِ السّوَابِقِ .

وَقَالَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يَوْمَئِذٍ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، اللّهَ اللّهَ فِي دِينِكُمْ عَلّمْنَا هَؤُلَاءِ أَمْرًا مَا كُنّا نَحْسِبُهُ . ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَقُلْ أُفّ لَكُمْ وَلِمَا تَصْنَعُونَ .

ثُمّ قَالَ خَلّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَخْلِصُونَا . فَأَخْلَصَتْ الْأَنْصَارُ . فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ نَاهِيَةٌ حَتّى انْتَهَوْا إلَى مُحَكّم بْنِ طُفَيْلٍ فَقَتَلُوهُ . ثُمّ انْتَهَوْا إلَى الْحَدِيقَةِ فَدَخَلُوهَا ، فَقَاتَلُوا أَشَدّ الْقِتَالِ حَتّى اخْتَلَطُوا فِيهَا ، ثُمّ صَاحَ ثَابِتٌ صَيْحَةً يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

وَأَوْفَى عَبّادُ بْنُ بِشْرٍ عَلَى نَشَزٍ . فَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ أَنَا عَبّادُ بْنُ بِشْرٍ يَا لَلْأَنْصَارِ . أَنَا عَبّادٌ إلَيّ إلَيّ . فَأَجَابُوا لَبّيْكَ لَبّيْكَ حَتّى تَوَافَوْا عِنْدَهُ . فَقَالَ فِدَاكُمْ أَبِي وَأُمّي ، حَطّمُوا جُفُونَ السّيُوفِ . ثُمّ حَطّمَ جَفْنَ سَيْفِهِ فَأَلْقَاهُ . وَحَطّمَتْ <192> الْأَنْصَارُ جُفُونَ سُيُوفِهَا . ثُمّ قَالَ حَمْلَةٌ صَادِقَةٌ اتّبَعُونِي . فَخَرَجَ أَمَامَهُمْ حَتّى سَاقُوا بَنِي حَنِيفَةَ مُنْهَزِمِينَ حَتّى انْتَهَوْا إلَى الْحَدِيقَةِ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِمْ . ثُمّ إنّ اللّهَ فَتَحَ الْحَدِيقَةَ فَاقْتَحَمَ عَلَيْهِمْ الْمُسْلِمُونَ .
وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا الْحَدِيقَةَ حِينَ جَاءَ وَقْتُ الظّهْرِ وَاسْتَحَرّ الْقَتْلُ فَأَمَرَ خَالِدٌ الْمُؤَذّنَ فَأَذّنَ عَلَى جِدَارِ الْحَدِيقَةِ بِالظّهْرِ . وَالْقَوْمُ مُقْبِلُونَ عَلَى الْقَتْلِ حَتّى انْقَطَعَتْ الْحَرْبُ بَعْدَ الْعَصْرِ . فَصَلّى بِنَا خَالِدٌ الظّهْرَ وَالْعَصْرَ

ثُمّ بَعَثَ السّقَاةَ يَطُوفُونَ عَلَى الْقَتْلَى . فَطُفْت مَعَهُمْ . فَمَرَرْت بِعَامِرِ بْنِ ثَابِتٍ وَإِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ بِهِ جَـرّاحٍ فَسَـقَيْت عَامِرًا . فَقَالَ الْحَنَفِيّ : اسْقِنِي فَدَى لَك أَبِي وَأُمّي . فَقُلْـت : لَا ، وَلَا كَرَامَةَ وَلَكِنْ أُجْهِـزُ عَلَيْـك . قَـالَ أَحْسَـنْت ، أَسْـأَلُك مَسْـأَلَةً لَا شَيْءَ عَلَيْك فِيهَا . قُلْت : مَا هِيَ ؟ قَالَ أَبُو ثُمَامَةَ مَا فَعَلَ ؟ قُلْـت ، وَاَللّهِ قُتِلَ قَالَ نَبِيّ ضَيّعَهُ قَوْمُهُ

وَلَمّا قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَكَانَتْ لَهُمْ أَيْضًـا فِـي الْمُسْـلِمِينَ مَقْتَلَـةً عَظِيمَةً قَدْ أَبِيحَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ . وَقِيلَ لَا تُغْمِدُوا السّيُوفَ وَفِينَا وَفِيهِمْ عَيْنٌ تَطْـرِفُ . وَكَـانَ فِيمَـنْ بَقِيَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ جِرَاحَاتٌ كَثِيرَةٌ .

فَلَمّا أَمْسَى مَجَاعَـةُ أَرْسَـلَ إلَـى قَـوْمِهِ لَيْلًا : أَنْ الْبَسُـوا السّـلَاحَ وَالدّرّيّةَ ثُمّ إذَا أَصْبَحْتُمْ فَقُومُوا مُسْتَقْبِلِي الشّمْسِ عَلَى حُصُونِكُمْ حَتّـى يَـأْتِيَكُمْ أَمْـرِي . وَبَـاتَ الْمُسْـلِمُونَ يَـدْفِنُونَ قَتْلَاهُـمْ . فَلَمّـا فَرَغُوا ، جَعَلُوا يَتَكَمّدُونَ بِالنّارِ مِنْ الْجِرَاحِ .

فَلَمّا أَصْبَحُوا مَرّ خَالِدٌ فَسِيقَ مَجَاعَةُ فِي الْحَدِيدِ يَعْرِفُهُـمْ الْقَتْلَـى فَمَرّ بِرَجُلٍ وَسِيمٍ فَقَالَ يَا مَجَاعَةُ أَهُوَ هَذَا ؟ قَـالَ هَـذَا أَكْـرَمُ مِنْـهُ هَذَا مُحَكّمُ بْنُ الطّفَيْلِ . إنّ الّذِي تَبْتَغُونَ لَرَجُلٌ أَصَـيْفِرُ أَخَيْنِـسٌ . فَوَجَدُوهُ فَوَقَفَ عَلَيْهِ خَالِدٌ . فَحَمِدَ اللّـهُ كَثِيـرًا ، وَأَمِـرَ بِـهِ فَـأُلْقِيَ فِي الْبِئْرِ الّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا .

وَكَانَ خَالِدٌ يَرَى أَنّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إلّا مَنْ لَا عَتَادَ عِنْدَهُ . فَقَـالَ يَا مَجَاعَةُ هَذَا صَاحِبُكُمْ الّذِي فَعَلَ بِكُمْ الْأَفَاعِيلَ . مَا رَأَيْـت عُقُـولًا أَضْعَفَ مِنْ عُقُولِ أَصْحَابِك ، مِثْلُ هَذَا فَعَلَ بِكُمْ مَا فَعَلَ ؟ .

فَقَالَ مَجَاعَةُ قَدْ كَانَ ذَلِكَ وَلَا تَظُنّ أَنّ الْحَرْبَ انْقَطَعَتْ وَإِنْ قَتَلْته . إنّ <193> جَمَاعَةً مِنْ النّاسِ وَأَهْـلَ الْبُيُوتَـاتِ لَفِـي الْحُصُـونِ فَانْظُرْ . فَرَفَعَ خَالِـدٌ رَأْسَـهُ . فَـإِذَا السّـلَاحُ وَالْخَلْـقُ الْكَثِيـرُ عَلَـى الْحُصُونِ فَرَأَى أَمْرًا غَمّهُ ثُمّ اسْتَنَدَ سَاعَةً . ثُمّ أَدْرَكَتْـهُ الرّجُولَـةُ . فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ يَا خَيْلَ اللّهِ ارْكَبِي . يَا صَاحِبَ الرّايَةِ قَدّمْهَا .

فَقَالَ مَجَاعَـةُ إنّـي لَـك نَاصِـحٌ . وَإِنّ السّـيْفَ قَـدْ أَفْنَـاك . فَتَعَـالَ أُصَالِحُك عَنْ قَوْمِي . وَقَدْ أَحَلّ بِخَالِدٍ مُصَابُ أَهْلِ السّـابِقَةِ وَمَـنْ كَانَ يُعْرَفُ عِنْـدَهُ الْغِنَـاءُ . فَقَـدْ رَقّ وَأَحَـبّ الْمُوَادَعَـةَ مَـعَ عَجَـفِ الْكُرَاعِ .

فَاصْـطَلَحُوا عَلَـى الصّـفْرَاءِ وَالْبَيْضَـاءِ وَالْحَلْقَـةِ وَالْكُـرَاعِ وَنِصْـفِ السّبْيِ .

ثُمّ قَالَ مَجَاعَةُ إنّي آتِ الْقَـوْمَ فَعَـارِضٌ عَلَيْهِـمْ مَـا صَـنَعْت . قَـالَ فَانْطَلَقَ . فَذَهَبَ ثُمّ رَجَعَ . فَأَخْبَرَهُ أَنّهُمْ أَجَازُوهُ .

فَلَمّا بَانَ لِخَالِدٍ أَنّمَا هُمْ النّسَـاءُ وَالصّـبْيَانُ قَـالَ وَيْلَـك يَـا مَجَاعَـةُ خَدَعْتنِي . قَالَ قَوْمِي ، فَمَا أَصْنَعُ ؟ وَمَا وَجَدْت مِنْ ذَلِكَ بُدّا .

وَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَغَيْـرُهُ لِخَالِـدِ اتّـقِ اللّـهَ وَلَا تَقْبَـلْ الصّـلْحَ . فَقَالَ إنّهُ قَدْ أَفْنَاكُمْ السّـيْفُ . قَـالُوا : وَأَفْنَـى غَيْرَنَـا أَيْضًـا . قَـالَ وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ جَرِيحٌ . قَالُوا : وَمَنْ بَقِيَ مِـنْ الْقَـوْمِ حَرْحَـى ، لَا نَدْخُلُ فِي الصّلْحِ أَبَدًا . اُغْدُ بِنَا عَلَيْهِـمْ حَتّـى يُظْفِرَنَـا اللّـهُ بِهِـمْ أَوْ نَبِيدَ عَنْ آخِرِنَا . احْمِلْنَا عَلَى كِتَابِ أَبِي بَكْرٍ إنْ أَظْفَرَك اللّـهُ بِهِـمْ فَلَا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إذْ جَاءَ كِتَابُ أَبِي بَكْـرٍ يَقْطُـرُ الـدّمَ وَفِيـهِ إنْ أَظْفَرَك اللّهُ بِهِمْ فَلَا تَسْتَبِقْ رَجُلًا مَرّتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى

فَتَكَلّمَتْ الْأَنْصَارُ فِي ذَلِكَ وَقَالُوا : أَمْرُ أَبِي بَكْرٍ فَوْقَ أَمْرِك .

فَقَالَ إنّي وَاَللّهِ مَا ابْتَغَيْت فِي ذَلِكَ إلّا الّذِي هُوَ خَيْرٌ . رَأَيْـت أَهْـلَ السّابِقَةِ وَأَهْلَ الْقُرْآنِ قَدْ قُتِلُوا . وَلَمْ يَبْقَ مَعِي إلّا مَنْ لَا بَقَـاءَ لَـهُ عَلَى السّيْفِ لَوْ لَجّ عَلَيْهِـمْ فَقَبِلْـت الصّـلْحَ مَـعَ أَنّهُـمْ قَـدْ أَظْهَـرُوا الْإِسْلَامَ وَاتّقُوا بِالرّاحِ .

وَتَمّ الصّلْحُ . وَكَتَبَ إلَى أَبِي بَكْرٍ يَعْتَذِرُ إلَيْهِ .

فَتَكَلّمَ عُمَرُ فِي شَأْنِ خَالِدٍ بِكَلَامٍ غَلِيظٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ دَعْ عَنْك هَذَا . فَقَالَ سَمْعًا وَطَاعَةً . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَيْتَهُ حَمَلَهُمْ عَلَى السّيْفِ . فَلَنْ يَزَالُوا مِنْ كُذّابِهِمْ فِي <194> بِلَيّةٍ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إلّا أَنْ يَعْصِمَهُمْ اللّهُ .

وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْيَمَامَةِ فِي رَبِيعٍ الْأَوّلِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ .

وَذَكَرَ عُمَرُ يَوْمًا وَقْعَةَ الْيَمَامَةِ ، وَمَنْ قُتِلَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ السّابِقَةِ . فَقَالَ أَلَحّتْ السّيُوفُ عَلَى أَهْلِ السّوَابِقِ وَلَمْ يَكُنْ الْمِعْوَلُ يَوْمَئِذٍ إلّا عَلَيْهِمْ . خَافُوا عَلَى الْإِسْلَامِ أَنْ يُكْسَرَ بَابُهُ فَيَدْخُلُ مِنْهُ إنْ ظَهَرَ مُسَيْلِمَةُ . فَمَنَعَ اللّهُ الْإِسْلَامَ بِهِمْ حَتّى قَتَلَ عَدُوّهُ . وَأَظْهَرَ كَلِمَتَهُ وَقَدِمُوا - رَحِمَهُمْ اللّهُ - عَلَى مَا يُسَرّونَ بِهِ مِنْ ثَوَابِ جِهَادِهِمْ مِنْ كَذِبٍ عَلَى اللّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ . فَاسْتَحَرّ بِهِمْ الْقَتْلَ . فَرَحِمَ اللّهُ تِلْكَ الْوُجُوهَ

وَقَالَ يَعْقُوبُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَالزّهْرِيّ : قُتِلَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ أَكْثَرُ مِنْ سَبْعَةِ آلَافٍ وَكَانَ دَاؤُهُمْ خَبِيثًا ، وَالطّارِي مِنْهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ عَظِيمًا . فَاسْتَأْصَلَ اللّهُ شَأْفَتَهُمْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ .

ذِكْرُ رِدّةِ بَنِي سُلَيْمٍ

ذِكْرُ الْوَاقِدِيّ - مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي الْعَرْجَاءِ السّلَيْمِيّ . وَكَانَ عَالِمًا بِرَدّةِ قَوْمِهِ - قَالَ أَهْدَى مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ غَسّانَ إلَى النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَطِيمَةً فِيهَا مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ وَخَيْلٌ . فَخَرَجَتْ بِهَا الرّسُلُ حَتّى إذَا كَانَتْ بِأَرْضِ بَنِي سُلَيْمٍ بَلَغَتْهُمْ وَفَاةُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . فَتَشَجّعَ بَعْضُ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى أَخْذِهَا وَالرّدّةِ وَأَبَى بَعْضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إنْ كَانَ مُحَمّدٌ قَدْ مَاتَ فَإِنّ اللّهَ حَيّ لَا يَمُوتُ . فَانْتَهَبَ الّذِينَ ارْتَدّوا مِنْهُمْ اللّطِيمَةَ .

فَلَمّا وَلِـيَ أَبُـو بَكْـرٍ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْـهُ كَتَـبَ إلَـى مَعْـنِ بْـنِ حَـاجِرٍ فَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ . وَكَانَ قَدْ قَامَ فِي ذَلِكَ قِيَامًا حَسَنًا ، ذِكْرُ وَفَاةِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ وَذَكّـرَ النّاسَ مَا قَالَ اللّهُ لِنَبِيّـهِ (39 ـ 30) إنّـكَ مَيّـتٌ وَإِنّهُـمْ مَيّتُـونَ وَقَالَ (3 ـ 144) وَمَـا مُحَمّـدٌ إلّا رَسُـولٌ قَـدْ خَلَـتْ مِـنْ قَبْلِـهِ الرّسُلُ مَعَ آيٍ مِنْ كِتَابِ اللّهِ . فَاجْتَمَعَ إلَيْهِ بِشْرٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ . وَانْحَازَ أَهْلُ الرِّدّةِ مِنْهُمْ فَجَعَلُوا يُغِيرُونَ عَلَى النّاسِ .

قَتْلُ الْفُجَاءَةِ وَتَحْرِيقُهُ

<195> فَلَمّا بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ أَنْ يُوَجّهَ خَالِـدًا ، كَتَـبَ إلَـى مَعْـنٍ أَنْ يَلْحَقَ بِخَالِدٍ ، وَيَسْتَعْمِلُ عَلَى عَمَلِهِ أَخَاهُ طُرَيْفَةَ بْنَ حَاجِرٍ فَفَعَلَ . وَأَقَامَ طُرَيْفَةُ يُكَالِبُ مَنْ ارْتَدّ بِمَـنْ مَعَـهُ مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ إذْ قَـدِمَ الْفُجَاءَةَ - وَاسْمُهُ إيَاسُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عَبْدِ يَالَيْلَ - عَلَى أَبِي بَكْرٍ . فَقَالَ إنّي مُسْلِمٌ وَقَدْ أَرَدْت جِهَادَ مَنْ ارْتَدّ فَاحْمِلْنِي ، فَلَـوْ كَـانَ عِنْدِي قُوّةٌ لَمْ أَقْدَمْ عَلَيْك .

فَسُرّ أَبُو بَكْرٍ بِمَقْدِمِهِ وَحَمَلَهُ عَلَى ثَلَاثِينَ بَعِيرًا . وَأَعْطَاهُ سِـلَاحًا . فَخَـرَجَ يَسْـتَعْرِضُ الْمُسْـلِمَ وَالْكَـافِرَ يَقْتُلُهُـمْ وَيَأْخُـذُ أَمْـوَالَهُمْ . وَيُصِيبُ مَنْ امْتَنَعَ مِنْهُمْ . وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الشّـرِيدِ . يُقَـالُ لَـهُ نُجْبَةُ بْنُ أَبِي الْمَيْثَاءِ مَعَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الـرّدّةِ . فَلَمّـا بَلَـغَ أَبَـا بَكْـرٍ خَبَرُهُ كَتَبَ إلَى طُرَيْفَةَ بْنِ حَاجِرٍ .

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ . مِـنْ أَبِـي بَكْـرٍ إلَـى طُرَيْفَـةَ سَـلَامٌ عَلَيْكَ . أَمّا بَعْدُ فَإِنّ عَدُوّ اللّهِ الْفُجَاءَةَ أَتَـانِي . فَزَعَـمَ أَنّـهُ مُسْـلِمٌ وَسَأَلَنِي : أَنْ أُقَوّيَهُ عَلَى قِتَالِ مَـنْ ارْتَـدّ عَـنْ الْإِسْـلَامِ . فَحَمَلْتُـهُ وَسَـلّحْتُهُ وَقَـدْ انْتَهَـى إلَـيّ مِـنْ يَقِيـنِ الْخَبَـرِ أَنّ عَـدُوّ اللّـهِ قَـدْ اسْتَعْرَضَ النّـاسَ الْمُسْـلِمُ وَالْمُرْتَـدّ ، يَأْخُـذُ أَمْـوَالَهُمْ وَيَقْتُـلُ مَـنْ خَالَفَهُ مِنْهُمْ . فَسِرْ إلَيْهِ بِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْـلِمِينَ حَتّـى تَقْتُلَـهُ أَوْ تَأْخُذَهُ . فَتَأْتِيَنِي بِهِ

فَقَرَأَ طُرَيْفَةُ الْكِتَابَ عَلَى قَوْمِهِ . فَحَشَدُوا إلَى الْفُجَـاءَةِ . فَقَـدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ الْمُثَنّى ، فَقُتِلَ نُجْبَةُ وَهَرَبَ مِنْهُ إلَى الْفُجَاءَةِ . ثُمّ زَحَـفَ طُرَيْفَةُ إلَـى الْفُجَـاءَةِ فَتَصَـادَمَا . فَلَمّـا رَأَى الْفُجَـاءَةُ الْخَلَـلَ فِـي

أَصْحَابِهِ قَالَ يَا طُرَيْفَةُ وَاَللّهِ مَا كَفَرْت . وَإِنّي لَمُسْلِمٌ . وَمَـا أَنْـتَ بِأَوْلَى بِأَبِي بَكْرٍ مِنّي ، أَنْتَ أَمِيرُهُ وَأَنَـا أَمِيـرُهُ . قَـالَ طُرَيْفَـةُ هَـذَا كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ إلَيّ . فَقَالَ الْفُجَاءَةُ سَمْعًا وَطَاعَةً . فَبَعَثَ بِـهِ فِـي جَامِعَتِهِ مَعَ عَشَرَةٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ . فَأَرْسَلَ بِهِ أَبُـو بَكْـرٍ إلَـى بَنِـي جُشَمٍ فَحَرَقَتْهُ بِالنّارِ .

وَقَـدِمَ عَلَـى أَبِـي بَكْـرٍ - رَضِـيَ اللّـهُ عَنْـهُ - قَبِيصَـةُ - أَحَـدُ بَنِـي الظّرْبَانِ - فَذَكَرَ أَنّهُ مُسْلِمٌ . وَلَمْ يَرْتَدّ فَأَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ بِمَنْ مَعَـهُ مَنْ ارْتَدَّ فَرَجَعَ قَبِيصَةُ . فَاجْتَمَعَ إلَيْهِ نَاسٌ كَثِيرٌ . فَخَرَجَ يَتّبِـعُ بِهِـمْ أَهْلَ الـرّدّةِ ، يَقْتُلُهُـمْ حَيْـثُ وَجَـدَهُمْ حَتّـى مَـرّ بِبَيْـتِ حَمِيضَـةَ بْـنِ الْحَكَمِ الشّرِيدِيّ . فَوَجَدَهُ غَائِبًا يَجْمَعُ أَهْلَ الرّدّةِ . وَوَجَدَ جَارًا لَـهُ مُرْتَدّا . فَقَتَلَهُ وَاسْتَاقَ مَالَهُ .

<196> فَلَمّا أَتَى حَمِيضَةَ أَخْبَرَهُ أَهْلُهُ بِخَبَـرِ جَـارِهِ . فَخَـرَجَ فِـي طَلَبِهِمْ . فَأَدْرَكَهُمْ . فَقَالَ قَبِيصَةُ : قَتَلْت جَارِي ؟ فَقَالَ إنّ جَـارَك ارْتَدّ عَنْ الْإِسْلَامِ .

فَقَالَ أَمِنْ بَيْنِ مَنْ كَفَرَ تَعْدُو عَلَى جَارٍ لَجَأَ إلَيّ لِأَمْنَعَهُ ؟ .

فَقَالَ قَبِيصَةُ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ . فَطَعَنَهُ حَمِيضَةُ بِالرّمْحِ . فَوَقَـعَ عَـنْ بَعِيرِهِ ثُمّ قَتَلَهُ . وَكَـانَ قَبِيصَـةُ قَـدْ فَـرّقَ أَصْـحَابَهُ قَبْـلَ أَنْ يَلْحَقَـهُ حَمِيضَةُ . وَكَتَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى خَالِدٍ إنْ أَظْفَرَك اللّهُ بِبَنِـي حَنِيفَـةَ فَأَقِـلّ اللّبْـثَ فِيهِـمْ حَتّـى تَنْحَـدِرَ إلَـى بَنِـي سُـلَيْمٍ ، فَتَطَأَهُمْ وَطْأَةً يَعْرِفُونَ بِهَا مَا مَنَعُوا . فَإِنّهُ لَيْسَ بَطْنٌ مِنْ الْعَـرَبِ أَنَا أَغْيَظُ عَلَيْهِ مِنّي عَلَيْهِمْ فَإِنْ أَظْفَرَك اللّهُ بِهِمْ فَلَا أَلُوك فِيهِمْ أَنْ تُحَرّقَهُمْ بِالنّارِ وَهَوّلْ فِيهِمْ الْقَتْلَ حَتّى يَكُونَ نَكَالًا لَهُمْ

وَسَـمِعْت بَنُـو سُـلَيْمٍ بِإِقْبَـالِ خَالِـدٍ . فَـاجْتَمَعَ مِنْهُـمْ بَشَـرٌ كَثِيـرٌ . وَاسْتَجْلَبُوا مَنْ بَقِيَ مِنْ الْعَرَبِ ، مُرْتَـدّا وَكَـانَ الّـذِي جَمَعَهُـمْ أَبُـو شَجَرَةَ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى . فَـانْتَهَى خَالِـدٌ إلَـى جَمْعِهِـمْ مَـعَ الصّـبْحِ . فَصَاحَ خَالِدٌ فِـي أَصْـحَابِهِ وَأَمَرَهُـمْ بِلُبْـسِ السّـلَاحِ . ثُـمّ صَـفّهُمْ . وَصَفّتْ بَنُو سُلَيْمٍ . وَقَدْ كَلّ الْمُسْلِمُونَ وَعَجَفَ كُرَاعُهُمْ وَخُفّهُمْ .

وَجَعَلَ خَالِدٌ يَلِي الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ حَتّى أَثْخَنَ فِيهِمْ الْقَتْلَ . ثُـمّ حَمَـلَ عَلَيْهِمْ حَمَلَةً وَاحِدَةً فَانْهَزَمُوا . وَأُسِرَ مِنْهُمْ بَشَرٌ كَثِيرٌ . ثُـمّ حَظّـرَ لَهُمْ الْحَظَائِرَ وَحَرّقَهُمْ فِيهَا .

وَجُرِحَ أَبُو شَجَرَةَ يَوْمَئِذٍ فِي الْمُسْـلِمِينَ جِرَاحَـاتٍ كَثِيـرَةً . وَقَـالَ فِي ذَلِكَ أَبْيَاتًا ، مِنْهَا .

فَرَوَيْت رُمْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ

وَإِنّي لَأَرْجُو بَعْدَهَا أَنّ أَعْمَرَا

ثُمّ أَسْلَمَ . وَجَعَلَ يَعْتَذِرُ . وَيَجْحَدُ أَنْ يَكُونَ قَـالَ الْبَيْـتَ الْمُتَقَـدّمَ . فَلَمّا كَانَ زَمَنُ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ قَـدِمَ الْمَدِينَـةَ ، وَأَنَـاخَ رَاحِلَتَـهُ بِصَعِيدِ بَنِي قُرَيْظَةَ ثُمّ أَتَى عُمَرَ - وَهُوَ يُقَسّمُ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ - فَقَـالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْطِنِي . فَإِنّي ذُو حَاجَةٍ . فَقَالَ مَنْ أَنْتَ ؟ قَـالَ أَنَا أَبُو شَجَرَةَ . قَالَ يَا عَدُوّ اللّهِ أَلَسْت الّذِي تَقُولُ فَرَوَيْت رُمْحِـي - الْبَيْتَ ؟ عُمْرُ سُوءٍ. وَاَللّهِ مَـا عِشْـت لَـك يَـا خَبِيـثُ . ثُـمّ جَعَـلَ يَعْلُوهُ بِالدّرّةِ عَلَى رَأْسِهِ حَتّى سَبَقَهُ عَدْوًا ، وَعُمَرُ فِي طَلَبِهِ حَتّـى أَتَى رَاحِلَتَهُ فَارْتَحَلَهَا . ثُمّ اشْتَدّ بِهَا فِي حَرّةِ شُوزَانَ فَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْرَبَ عُمَرَ حَتّى تُـوُفّيَ <197> وَكَـانَ إسْـلَامُهُ لَا بَـأْسَ بِـهِ . وَكَانَ إذَا ذَكَرَ عُمَرَ تَرَحّمَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ مَـا رَأَيْـت أَحَـدًا أَهْيَـبَ مِـنْ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

ذِكْرُ رِدّةِ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ

قَالَ عِيسَى بْنُ طَلْحَةَ : لَمّا ارْتَدّتْ الْعَرَبُ - بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللّـهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ - قَالَ كِسْرَى : مَنْ يَكْفِينِـي أَمْـرَ الْعَـرَبِ ؟ فَقَدْ مَاتَ صَاحِبُهُمْ وَهُمْ الْآنَ يَخْتَلِفُونَ بَيْنَهُمْ إلّا أَنْ يُرِيدَ اللّهُ بَقَـاءَ مُلْكِهِمْ فَيَجْتَمِعُونَ عَلَى أَفْضَلِهِمْ .

قَالُوا : نَدُلّك عَلَى أَكْمَلِ الرّجَالِ مُخَـارِقِ بْـنِ النّعْمَـانِ لَيْـسَ فِـي النّـاسِ مِثْلَـهُ . وَهُـوَ مِـنْ أَهْـلِ بَيْـتٍ دَانَـتْ لَهُـمْ الْعَـرَبُ ، وَهَـؤُلَاءِ جِيرَانُك ، بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ .

فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ . وَأَخَذَ مِنْهُمْ سِتّمِائَةٍ الْأَشْرَفَ فَالْأَشْرَفَ .

وَارْتَدّ أَهْلُ هَجْرٍ عَـنْ الْإِسْـلَامِ . فَقَـامَ الْجَـارُودُ بْـنُ الْمُعَلّـى فِـي قَوْمِهِ فَقَالَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا كُنْت عَلَيْهِ مِنْ النّصْرَانِيّةِ ؟ وَإِنّي لَمْ آتِكُمْ قَطّ إلّا بِخَيْرٍ وَإِنّ اللّهَ تَعَالَى بَعَثَ نَبِيّهُ وَنَعَى لَهُ نَفْسَـهُ فَقَـالَ إنّكَ مَيّتٌ وَإِنّهُمْ مَيّتُونَ وَقَالَ وَمَا مُحَمّدٌ إلّا رَسُولٌ قَدْ خَلَـتْ مِـنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ - الْآيَةَ .

وَفِي لَفْظٍ أَنّهُ قَالَ مَا شَهَادَتُكُمْ عَلَى مُوسَى ؟ قَـالُوا : نَشْـهَدُ أَنّـهُ رَسُولُ اللّهِ . قَالَ فَمَا شَهَادَتُكُمْ عَلَى عِيسَى ؟ قَالُوا : نَشْـهَدُ أَنّـهُ رَسُولُ اللّهِ قَالَ وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَـهَ إلّا اللّـهُ ، وَأَنّ مُحَمّـدًا عَبْـدُهُ وَرَسُولُهُ . عَاشَ كَمَا عَاشُوا ، وَمَاتَ كَمَا مَـاتُوا . وَأَتَحَمّـلُ شَـهَادَةَ مَنْ أَبَى أَنْ يَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ مِنْكُـمْ . فَلَـمْ يَرْتَـدّ مِـنْ عَبْـدِ الْقَيْـسِ أَحَدٌ .

وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ قَـدْ اسْـتَعْمَلَ أَبَـانَ بْـنَ سَـعِيدٍ عَلَى الْبَحْرَيْـنِ . وَعَـزَلَ الْعَلَاءَ ابْـنَ الْحَضْـرَمِيّ . فَقَـالَ أَبْلِغُونِي مَأْمَنِي فَأَشْهَدُ أَمْرَ رَسُولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فَأَحْيَا بِحَيَاتِهِمْ وَأَمُوتُ بِمَوْتِهِمْ .

فَقَالُوا : لَا تَفْعَلْ فَأَنْتَ أَعَزّ النّاسِ عَلَيْنَا ، وَهَذَا عَلَيْنَـا وَعَلَيْـك فِيـهِ مَقَالَةٌ يُقَالُ فَرّ مِنْ الْقِتَـالِ . فَـأَبَى . وَانْطَلَـقَ فِـي ثَلَاثِمِائَـةِ رَجُـلٍ يُبَلّغُونَهُ الْمَدِينَةَ . فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَلَا ثَبَتّ مَعَ قَوْمٍ لَمْ يُبَدّلُوا وَلَمْ يَرْتَدّوا ؟ .

فَقَالَ مَا كُنْت لِأَعْمَلَ لِأَحَدٍ بَعْدَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَـلّمَ .

<198> فَدَعَا أَبُو بَكْرٍ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ . فَبَعَثَهُ إِلَى الْبَحْرَيْـنِ فِي سِتّةَ عَشَرَ رَاكِبًا ، وَقَالَ امْضِ فَإِنّ أَمَامَك عَبْدُ الْقَيْسِ فَسَارَ . وَمَرّ بِثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ فَأَمَدّهُ بِرِجَالِ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي سُحَيْمٍ ثُمّ لَحِــقَ بِهِ .

فَنَزَلَ الْعَلَاءُ بِحِصْنِ يُقَالُ لَهُ جُوَاثَى ، وَكَانَ مُخَارِقٌ قَـدْ نَـزَلَ بِمَـنْ مَعَهُ مِنْ بَكْرِ ابْنِ وَائِلٍ حِصْنُ الْمُشَقّرِ - حِصْنٌ عَظِيمٌ لِعَبْدِ الْقَيْسِ - فَسَارَ إلَيْهِمْ الْعَلَاءُ فَبِمَـنْ اجْتَمَـعَ إلَيْـهِ . فَقَـاتَلَهُمْ قِتَـالًا شَـدِيدًا ، حَتّى كَثُرَ الْقَتْلَى فِي الْفَرِيقَيْنِ وَالْجَارُودُ بْنُ الْمُعَلّى بِالْخَطّ يَبْعَــثُ الْبُعُوثَ إلَى الْعَلَاءِ .

وَبَعَثَ مُخَارِقٌ الْحَطَـمَ بْـنَ شُـرَيْحٍ - أَحَـدَ بَنِـي قَيْـسِ بْـنِ ثَعْلَبَـةَ - مَرْزُبَانُ الْخَـطّ يَسْـتَمِدّهُ فَأَمَـدّهُ بِالْأَسَـاوِرَةِ . فَنَـزَلَ الْحَطَـمُ رَدْمَ الْقِدَاحِ - وَكَانَ حَلَفَ أَنْ لَا يَشْرَبَ الْخَمْرَ حَتّى يَرَى هَجْـرًا - وَأَخَـذَ الْمَرْزُبَانُ الْجَارُودَ رَهِينَةً عِنْدَهُ .

وَسَارَ الْحَطَمُ وَأَبْجَرُ الْعِجْلِيّ حَتّى حَصَـرُوا الْعَلَاءَ بِجُـوَاثَى . فَقَـالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ حذف ، وَكَانَ مِنْ صَالِحِي الْمُسْلِمِينَ

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولًا

وَسُكّانُ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا

فَهَلْ لَكُمُو إلَى نَفَرٍ يَسِيرٍ

قُعُودٍ فِي جُوَاثَى مُحْصَرِينَا

كَأَنّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلّ فَجّ

شُعَاعَ الشّمْسِ يَغْشَى النّاظِرِينَا

تَوَكّلْنَا عَلَى الرّحْمَنِ إنّا

وَجَدْنَا النّصْرَ للمتوكلينا

فَمَكَثُوا عَلَى ذَلِكَ مَحْصُورِينَ .

فَسَمِعَ الْعَلَاءُ وَأَصْحَابُهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ لَغَطًا فِي الْعَسْكَرِ فَقَالُوا : لَوْ عَلِمْنَا أَمْرَهُمْ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ حذف : أَنَا أَعْلَمُ لَكُمْ عِلْمَهُمْ فَدَلّوهُ بِحَبْلٍ . فَأَقْبَلَ حَتّى يَدْخُلَ عَلَى أَبْجَرَ الْعِجْلِيّ - وَأُمّهُ مِنْهُمْ - قَالَ مَا جَاءَ بِك ؟ لَا أَنْعَمَ اللّهُ بِك عَيْنًا .

قَالَ جَاءَ بِي الضّرّ وَالْجُوعُ وَأَرَدْت اللّحَاقَ بِأَهْلِي ، فَزَوّدَنِي . فَقَالَ أَفْعَلُ عَلَى أَنّي أَظُنّك وَاَللّهِ غَيْرَ ذَلِكَ . بِئْسَ ابْنُ الْأُخْتِ أَنْتَ سَائِرُ اللّيْلَةَ . فَزَوّدَهُ وَأَعْطَاهُ نَعْلَيْنِ . وَأَخْرَجَهُ مِنْ الْعَسْكَرِ وَخَرَجَ حَتّى بَرَزَ . فَمَضَى كَأَنّهُ لَا يُرِيدُ الْحِصْنَ حَتّى أَبْعَدَ . ثُمّ عَطَفَ . فَأَخَذَ بِالْحَبْلِ فَصَعِدَ .

<199> فَقَالُوا : مَا وَرَاءَك ؟ قَالَ تَرَكْتهمْ سُكَارَى ، وَقَدْ نَزَلَ بِهِمْ تُجّارٌ مَعَهُمْ خَمْرٌ فَاشْتَرَوْا مِنْهُمْ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ بِهِمْ حَاجَةٌ فَاللّيْلَةَ .

فَنَزَلُوا إلَيْهِمْ . فَبَيّتُوهُمْ فَقَتَلُوهُمْ . فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَوَثَبَ الْحَطَمُ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرّكَابَاتِ وَجَعَلَ يَقُولُ مَنْ يَحْمِلُنِي ؟ فَسَمِعَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ حذف . فَأَقْبَلَ يَقُولُ أَبَا ضُبَيْعَةَ ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَ أَنَا أَحْمِلُك ، فَلَمّا دَنَا مِنْهُ قَتَلَهُ . وَقُطِعَتْ رِجْلُ أَبْجَرَ الْعِجْلِيّ . فَمَاتَ مِنْهَا .

وَانْهَزَمَ فَلّهُمْ فَاعْتَصَمُوا بِمَفْرُوقِ الشّيْبَانِيّ .

ثُمّ سَارَ الْعَلَاءُ إِلَـى مَدِينَـةِ دَارِيـنَ فَقَـاتَلَهُمْ قِتَـالًا شَـدِيدًا ، وَضَـيّقَ عَلَيْهِمْ . فَلَمّا رَأَى ذَلِـكَ مُخَـارِقٌ وَمَـنْ مَعَـهُ قَـالُوا : إنْ خَلَـوْا عَنّـا رَجَعْنَا مِنْ حَيْثُ جِئْنَا .

فَشَــاوَرَ الْعَلَاءُ أَصْـحَابَهُ فَأَشَــارُوا بِتَخْلِيَتِهِـمْ . فَخَرَجُــوا فَلَحِقُــوا بِبِلَادِهِمْ . وَطَلَبَ أَهْلُ دَارِينَ الصّلْحَ . فَصَـالَحَهُمْ الْعَلَاءُ عَلَـى ثُلُـثِ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَمَا كَانَ خَارِجًا مِنْهَا فَهُوَ لَهُ .

وَطَفِقَتْ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ تُنَادِي : يَا عَبْدَ الْقَيْـسِ أَتَـاكُمْ مَفْـرُوقٌ فِـي جَمَاعَةِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ . فَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ حذف :

لَا تُوعِدُونَا بِمَفْرُوقِ وَأُسْرَتِهِ

إنْ يَأْتِنَا يَلْقَ مِنّا الْحَطَمَ

فَالنّخْلُ ظَاهِرُهَا خَيْلٌ . وَبَاطِنُهَا

خَيْلٌ تَكَدّسَ بِالْفُرْسَانِ فِي النّعَمِ

وَإِنّ ذَا الْحَيّ مِنْ بَكْرٍ وَإِنْ كَثُرُوا

لَأُمّةٌ دَاخِلُونَ النّارَ فِي أُمَمِ

ثُمّ سَارَ الْعَلَاءُ إلَى الْخَطّ ، حَتّى نَزَلَ إلَى السّاحِلِ فَجَاءَهُ نَصْرَانِيّ ، فَقَالَ مَا لِي إنْ دَلَلْتُك عَلَـى مَخَاضَـةٍ تَخُـوضُ مِنْهَـا الْخَيْـلُ إلَـى دَارِينَ ؟ قَالَ وَمَا تَسْأَلُنِي ؟ قَالَ أَهْلَ بَيْتٍ بِدَارِينَ قَالَ . هُـمْ لَـك . فَخَاضَ بِهِ . فَظَفَرَ بِهِمْ عَنْوَةً وَسَبَى أَهْلَهَا .

وَقِيلَ حَبَسَ لَهُمْ الْبَحْرَ خَاضُوهُ وَكَانَتْ تَجْرِي فِيهِ السّفُنُ قَبْلُ . ثُمّ جَرَتْ بَعْدُ . <200> وَيُرْوَى : أَنّ الْعَلَاءَ وَأَصْحَابَهُ جَأَرُوا إلَى اللّهِ وَتَضَرّعُوا إلَيْهِ فِي حَبْسِ الْبَحْرِ فَأَجَابَ اللّهُ دُعَاءَهُمْ . وَكَانَ دُعَاؤُهُمْ " يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ . يَا كَرِيمُ يَا حَلِيمُ يَا أَحَدُ ، يَا صَمَدُ يَا حَيّ ، يَا مُحْيِي الْمَوْتَى ، يَا حَيّ يَا قَيّومُ لَا إلَهَ إلّا أَنْتَ يَا رَبّنَا " فَأَجَازُوا ذَلِكَ الْخَلِيجَ بِإِذْنِ اللّهِ جَمِيعًا يَمْشُونَ عَلَى مِثْلِ رَمْلَةٍ . فَقَالَ عَفِيفُ بْنُ الْمُنْذِرِ فِي ذَلِكَ

أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ ذَلّلَ بَحْرَهُ

وَأَنْزَلَ بِالْكُفّارِ إحْدَى الْجَلَائِلِ ؟

دَعُونَا الّذِي شَقّ الْبِحَارَ . فَجَاءَنَا

بِأَعْظَمَ مِنْ فَلَقِ الْبِحَارِ الْأَوَائِلِ

وَلَمّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ الرّدّةِ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ ، صَالَحُوا عَلَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ أَهْلُ هَجْرٍ .

وَلَمّا ظَهَرَ الْعَلَاءُ عَلَى أَهْلِ الرّدّةِ وَالْمَجُوسِ : بَعَثَ رِجَالًا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ إلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فَنَزَلُوا عَلَى طَلْحَةَ وَالزّبَيْرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا . وَأَخْبَرُوهُمَا بِقِيَامِهِمْ فِي أَهْلِ الرّدّةِ . ثُمّ دَخَلُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَحَضَرَ طَلْحَةُ وَالزّبَيْرُ . فَقَالُوا : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللّهِ إنّا قَوْمٌ أَهْلُ إسْلَامٍ . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبّ إلَيْنَا مِنْ رِضَاك وَنَحْنُ نُحِبّ أَنْ تُعْطِيَنَا أَرْضًا مِنْ الْبَحْرِ وَطَوَاحِينَ . وَكَلّمَهُ فِي ذَلِكَ طَلْحَةُ وَالزّبَيْرُ فَأَجَابَ .

وَقَالُوا : اُكْتُبْ لَنَا كِتَابًا ، فَكَتَبَ . فَانْطَلَقُوا بِالْكِتَابِ إلَى عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فَلَمّا قَرَأَهُ تَفَلَ فِي الْكِتَابِ وَمَحَاهُ . وَدَخَلَ طَلْحَةُ وَالزّبَيْرُ فَقَالَا : وَاَللّهِ مَا نَدْرِي ، أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ ؟ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَمَا ذَاكَ ؟ فَأَخْبَرُوهُ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لَئِنْ كَانَ عُمَرُ كَرِهَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَإِنّي لَا أَفْعَلُهُ .

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذْ جَاءَ عُمَرُ . فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ مَا كَرِهْت مِنْ هَذَا ؟ قَالَ كَرِهْت أَنْ تُعْطِيَ الْخَاصّةَ دُونَ الْعَامّةِ . وَأَنْتَ تُقْسِمُ عَلَى النّاسِ فَتَأَبَى أَنْ تَفْضُلَ أَهْلَ السّابِقَةِ وَتُعْطِي هَؤُلَاءِ قِيمَةَ عِشْرِينَ أَلْفًا دُونَ النّاسِ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَفَّقَك اللّهُ وَجَزَاك خَيْرًا . هَذَا هُوَ الْحَقّ .
ذِكْرُ رِدّةِ أَهْلِ دَبَا وَأَزْدِ عُمَانَ
<201> وَذَلِك : أَنّهُمْ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُسْلِمِينَ . فَبَعَثَ إلَيْهِمْ مُصْدِقًا يُقَالُ لَهُ حُذَيْفَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْبَارِقِيّ ، ثُمّ الْأَزْدِيّ . مِنْ أَهْلِ دَبَا . وَأَمَرَهُ " أَنْ يَأْخُذَ الصّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ . وَيَرُدّهَا عَلَى فُقَرَائِهِمْ " فَفَعَلَ ذَلِك حُذَيْفَةُ .

فَلَمّا تُوُفّيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنَعُوا الصّدَقَةَ وَارْتَدّوا . فَدَعَاهُمْ حُذَيْفَةُ إلَى التّوْبَةِ . فَأَبَوْا . وَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ

لَقَدْ أَتَانَا خَبَرٌ رَدِيّ

أَمْسَتْ قُرَيْشٌ كُلّهَا نَبِيّ

ظُلْمٌ لَعَمْرِ اللّهِ عَبْقَرِيّ

فَكَتَبَ حُذَيْفَةُ إلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَمْرِهِمْ . فَاغْتَاظَ غَيْظًا شَدِيدًا ، وَقَالَ " مَنْ لِهَؤُلَاءِ ؟ وَيْلٌ لَهُمْ " .

ثُمّ بَعَثَ إلَيْهِمْ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ - وَكَانَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ اسْتَعْمَلَهُ عَلَى سُفْلِي بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ مُصْدِقًا - فَلَمّا بَلَغَتْهُ وَفَاةُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ انْحَازَ إلَى تُبَالَةَ فِي

أُنَاسٍ مِنْ الْعَرَبِ ، ثَبَتُوا عَلَى الْإِسْـلَامِ . وَكَـانَ مُقِيمًـا بِتُبَالَـةَ فِـي أَرْضِ كَعْبِ بْنِ رَبِيعَةَ .

فَجَاءَهُ كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ " سِرْ فِيمَنْ قِبَلَك مِنْ الْمُسْلِمِينَ إلَـى أَهْـلِ دَبَا " .

فَسَارَ عِكْرِمَةُ فِي نَحْوِ أَلْفَيْـنِ مِـنْ الْمُسْـلِمِينَ . وَكَـانَ رَأْسُ أَهْـلِ الرِّدّةِ : لَقِيطَ بْنَ مَالِكٍ الْأَزْدِيّ فَلَمّـا بَلَغَـهُ مَسِـيرُ عِكْرِمَـةَ ، بَعَـثَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ الْأَزْدِ يَلْقَوْنَهُ . وَبَلَغَ عِكْرِمَـةُ : أَنَّهُـمْ جُمُـوعٌ كَثِيـرَةٌ . فَبَعَثَ طَلِيعَةً . وَكَانَ لِلْعَـدُوّ أَيْضًـا طَلِيعَـةٌ . فَـالْتَقَتْ الطَّلِيعَتَـانِ . فَتَنَاوَشُوا سَاعَةً ثُمّ انْكَشَفَ أَصْحَابُ لَقِيطٍ . وَقُتِلَ مِنْهُمْ نَحْوُ مِائَةُ رَجُلٍ . وَبَعَثَ أَصْـحَابُ عِكْرِمَـةَ فَارِسًـا يُخْبِـرُهُ . فَأَسْـرَعَ عِكْرِمَـةُ حَتّى لَحِقَ طَلِيعَتَهُ . ثُـمّ زَحَفُـوا جَمِيعًـا . وَسَـارَ عَلَـى تَعْبِئَـةٍ حَتّـى أَدْرَكَ الْقَوْمَ . فَاقْتَتَلُوا سَاعَةً . ثُمّ هَزَمَهُـمْ عِكْرِمَـةُ ، وَأَكْثَـرَ فِيهِـمْ الْقَتْلَ . وَرَجَـعَ فَلّهُـمْ إلَـى لَقِيـطِ بْـنِ مَالِـكٍ فَـأَخْبَرُوهُ أَنّ عِكْرِمَـةَ مُقْبِلٌ .

<202> فَقَوِيَ جَانِبُ حُذَيْفَةَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَنَاهَضَهُمْ . وَجَاءَ عِكْرِمَةُ . فَقَاتَلَ مَعَهُمْ . فَانْهَزَمَ الْعَدُوّ حَتّـى دَخَلُـوا مَدِينَـةَ دَبَا . فَحَصَرَهُمْ الْمُسْلِمُونَ شَـهْرًا . وَشَـقّ عَلَيْهِـمْ الْحِصَـارُ إذْ لَـمْ يَكُونُوا قَدْ أَخَذُوا لَهُ أُهْبَةً .

فَأَرْسَلُوا إلَى حُذَيْفَةَ . يَسْأَلُونَهُ الصّـلْحَ . فَقَـالَ لَا ، إلّا بَيْـنَ حَـرْبٍ مُجْلِيَةٍ أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ . قَالُوا : أَمّا الْحَرْبُ الْمُجْلِيَةُ فَقَدْ عَرَفْنَاهَـا ، فَمَا السّلْمُ الْمُخْزِيَةُ ؟ قَالَ تَشْهَدُونَ أَنّ قَتَلَانَا فِي الْجَنّةِ وَقَتَلَاكُمْ فِي النّارِ وَأَنّ كُلّ مَا أَخَذْنَاهُ مِنْكُمْ فَهُوَ لَنَا ، وَمَا أَخَـذْتُمُوهُ فَهُـوَ رَدّ لَنَا . وَأَنّا عَلَى حَقّ وَأَنْتُمْ عَلَى بَاطِلٍ وَكُفْرٍ وَنَحْكُمُ فِيكُمْ بِمَا رَأَيْنَا . فَأَقَرّوا بِذَلِكَ .

فَقَالَ اُخْرُجُوا عُزْلًا ، لَا سِلَاحَ مَعَكُمْ فَفَعَلُـوا . فَـدَخَلَ الْمُسْـلِمُونَ حِصْنَهُمْ . فَقَالَ حُذَيْفَةُ إنّي قَدْ حَكَمْت فِيكُـمْ أَنْ أَقْتُـلَ أَشْـرَافَكُمْ

وَأَسْبِيَ ذَرَارِيّكُمْ . فَقَتَلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ مِائَةَ رَجُلٍ وَسَبَى ذَرَارِيّهُمْ .

وَقَدِمَ حُذَيْفَةُ بِسَبْيِهِمْ الْمَدِينَةَ . وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ مِنْ الْمُقَاتِلَةِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ مِنْ الذّرّيّةِ وَالنّسَاءِ .

وَأَقَامَ عِكْرِمَةُ بِدَبَا عَامِلًا عَلَيْهَا لِأَبِي بَكْرٍ .

فَلَمّا قَدِمَ حُذَيْفَةُ بِسَبْيِهِمْ أَنْزَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ دَارَ رَمْلَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ بَقِيَ مِنْ الْمُقَاتِلَةِ . وَالْقَوْمُ يَقُولُونَ وَاَللّهِ مَا رَجَعْنَا عَنْ الْإِسْلَامِ وَلَكِنْ شَحَحْنَا عَلَى أَمْوَالِنَا ، فَيَأْبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدَعَهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ . وَكَلّمَهُ فِيهِمْ عُمَرُ . وَكَانَ الرّأْيُ أَنْ لَا يُسْبَوْا .

فَلَمْ يَزَالُوا مَوْقُوفِينَ فِي دَارِ رَمْلَةَ حَتّى مَاتَ أَبُو بَكْرٍ . فَدَعَاهُمْ عُمَرُ فَقَالَ انْطَلِقُوا إلَى أَيّ بِلَادٍ شِئْتُمْ . فَأَنْتُمْ قَوْمٌ أَحْرَارٌ .

فَخَرَجُوا حَتّى نَزَلُوا الْبَصْرَةَ . وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو صُفْرَةَ - وَالِدُ الْمُلَهّبِ - وَهُوَ غُلَامٌ يَوْمَئِذٍ .

وَلَمّا قَدِمَ غَزْوُ أَهْلِ دَبَا أَعْطَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ خَمْسَةَ دَنَانِيرَ .

ننن

السّنَةُ الثّانِيَةُ عَشْرَةَ

مَسِيرُ خَالِدٍ إلَى الْعِرَاقِ

<203> وَلَمّا دَخَلَتْ السّنَةُ الثّانِيَةُ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَهِيَ سَنَةُ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْ الْهِجْرَةِ كَتَبَ إلَى خَالِدٍ إذَا فَرَغْت مِنْ الْيَمَامَةِ ، فَسِرْ إلَى الْعِرَاقِ ، فَقَدْ وَلّيْتُك حَرْبَ فَارِسَ

فَسَارَ إلَيْهِ فِي بِضْعَةٍ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا . فَصَالَحَ أَهْلَ السّوَادِ . ثُمّ سَارَ إلَى الْأُبُلّةِ . وَخَرَجَ كِسْرَى فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا . فَالْتَقَى مَعَ خَالِدٍ فَهَزَمَ اللّهُ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْفُرْسِ . وَكَتَبَ خَالِدٌ إلَى كِسْرَى

" أَمّا بَعْدُ فَأَسْلِمُوا تَسْلَمُوا ، وَإِلّا فَأَدّوا الْجِزْيَةَ وَإِلّا فَقَدْ جِئْتُكُمْ بِقَوْمٍ يُحِبّونَ الْمَوْتَ كَمَا تُحِبّونَ الْحَيَاةَ " فَصَالَحُوهُ . وَفِيهَا حَجّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بِالنّاسِ ثُمّ رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ

حَوَادِثُ السّنَةِ الثّالِثَةَ عَشْرَةَ

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ . فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ الْجُنُودَ إلَى الشّامِ . وَأَمّرَ عَلَيْهِمْ يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا عُبَيْدَةَ عَامِرَ بْنَ الْجَرّاحِ وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسِنَةَ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ . وَنَزَلَتْ الرّومُ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا .

فَكَتَبُوا إلَى أَبِي بَكْرٍ يُخْبِرُونَهُ وَيَسْتَعْدُونَهُ . فَأَمَرَ خَالِدًا - وَهُوَ بِالْحِيرَةِ - أَنْ يَمُدّ أَهْلَ الشّامِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُوّةِ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى ضَعَفَةِ النّاسِ رَجُلًا مِنْهُمْ .

فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ الْقُوّةِ وَرَدّ الضّعَفَةَ إلَى الْمَدِينَةِ .

وَاسْتَخْلَفَ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ الْمُثَنّى بْنَ حَارِثَةَ .

وَسَارَ حَتّى وَصَلَ إلَى الشّامِ ، فَفَتَحُوا بُصْرَى . وَهِيَ أَوّلُ مَدِينَةٍ فُتِحَتْ . ثُمّ اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ الرّومِ ، فَانْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إلَى أَجْنَادِينَ ، فَكَانَتْ الْوَقْعَةَ الْمَشْهُورَةَ وَكَانَ النّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ .

مَوْتُ الصّدّيقِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ

وَفِي هَذِهِ السّنَةِ مَاتَ الصّدّيقُ ، لَيْلَةَ الثّلَاثَاءِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ .

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ سَنَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ .

وَاسْتَخْلَفَ عَلَى النّاسِ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ . وَقَالَ اللّهُمّ إنّي وَلّيْتهمْ خَيْرَهُمْ وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إلّا إصْلَاحَهُمْ وَلَمْ أُرِدْ مُحَابَاةَ عُمَرَ . فَاخْلُفْنِي فِيهِمْ . فَهُمْ عِبَادُك ، وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِك ، أَصْلِحْ لَهُمْ وَالِيَهُمْ وَاجْعَلْهُ مِنْ خُلَفَائِك الرّاشِدِينَ يَتْبَعُ هُدَى نَبِيّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَأَصْلِحْ لَهُ رَعِيّتَهُ

ثُمّ دَعَاهُ . فَقَالَ يَا عُمَرُ إنّ لِلّهِ حَقّا فِي اللّيْلِ لَا يَقْبَلُهُ فِي النّهَارِ وَحَقّا فِي النّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ فِي اللّيْلِ . وَإِنّهَا لَا تُقْبَلُ نَافِلَةٌ حَتّى تُؤَدّى فَرِيضَةٌ . وَإِنّمَا ثَقُلَتْ مَوَازِينُ مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بِاتّبَاعِهِمْ الْحَقّ وَثِقَلِهِ عَلَيْهِمْ . وَحُقّ لِمِيزَانٍ لَا يُوضَعُ فِيهِ غَيْرُ الْحَقّ غَدًا أَنْ يَكُونَ

ثَقِيلًا . فَإِذَا حَفِظْت وَصِيّتِي ، لَمْ يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبّ إلَيْك مِنْ الْمَوْتِ . وَهُوَ نَازِلٌ بِك . وَإِنْ ضَيّعْتهَا ، فَلَا غَائِبَ أَكْرَهَ إلَيْك مِنْهُ وَلَسْت تَعْجِزُهُ وَوَرِثَ مِنْهُ أَبُوهُ أَبُو قُحَافَةَ السّدُسَ .

وَلَمّا وَرَدَ كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ بِاسْتِخْلَافِ عُمَرَ بَايَعُوهُ . ثُمّ سَارُوا إلَى " فَحْلٍ " بِنَاحِيَةِ الْأُرْدُنّ . وَقَدْ اجْتَمَعَ بِهَا الرّومُ . فَكَانَتْ وَقْعَةَ " فَحْلٍ " الْمَشْهُورَةَ وَنَصَرَ اللّهُ الْمُسْلِمِينَ . وَانْحَازَ الْمُشْرِكُونَ إلَى دِمَشْقَ .

حَوَادِثُ السّنَةِ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ وَفِيهَا : سَارُوا إلَى دِمَشْقَ وَعَلَيْهِمْ خَالِدٌ . فَأَتَى كِتَابُ عُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بِعَزْلِ خَالِدٍ وَتَأْمِيرِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرّاحِ .

وَفِيهَا : أَمَرَ عُمَرُ بِصَلَاةِ التّرَاوِيحِ جَمَاعَةً وَقَدِمَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ فِي رَكْبٍ <205> مِنْ بَجِيلَةَ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ بِالْخُرُوجِ إلَى الْعِرَاقِ ، فَسَارَ بِهِمْ جَرِيرٌ إلَى الْعِرَاقِ . فَلَمّا قَرُبَ مِنْ الْمُثَنّى بْنِ حَارِثَةَ كَتَبَ إلَيْهِ " أَقْبِلْ فَإِنّمَا أَنْت مَدَدٌ لِي " . فَقَالَ جَرِيرٌ أَنْت أَمِيرٌ وَأَنَا أَمِيرٌ . ثُمّ اجْتَمَعَا . فَكَانَتْ وَقْعَةَ الْبُوَيْبِ الْمَشْهُورَةَ .

ثُمّ إنّ عُمَرَ أَمّرَ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَلَى الْعِرَاقِ ، وَكَتَبَ لَهُ وَأَوْصَاهُ فَقَالَ " يَا سَعْدَ بْنَ وُهَيْبٍ لَا يَغُرّنك مِنْ اللّهِ أَنْ قِيلَ خَالُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَصَاحِبُهُ . فَإِنّ اللّهَ لَا يَمْحُو السّيّئَ بِالسّيّئِ . وَلَكِنْ يَمْحُو السّيّئَ بِالْحَسَنِ . وَإِنّ اللّهَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إلّا بِطَاعَتِهِ . فَالنّاسُ شَرِيفُهُمْ وَوَضِيعُهُمْ فِي ذَاتِ اللّهِ سَوَاءٌ . اللّهُ رَبّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ . يَتَفَاضَلُونَ بِالْعَافِيَةِ . وَيُدْرِكُونَ مَا عِنْدَ اللّهِ بِالطّاعَةِ . فَانْظُرْ الْأَمْرَ الّذِي رَأَيْت عَلَيْهِ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُنْذُ بُعِثَ إلَى أَنْ فَارَقَنَا عَلَيْهِ . فَالْزَمْهُ . فَإِنّهُ الْأَمْرُ " وَكَتَبَ إلَى الْمُثَنّى وَجَرِيرٍ أَنْ يَجْتَمِعَا إلَيْهِ فَسَارَ سَعْدٌ بِمَنْ مَعَهُ . فَنَزَلَ بِشَرَافٍ وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ النّاسُ .

حَوَادِثُ السّنَةِ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ .

فَتْحُ الْقَادِسِيّةِ

فَلَمّا انْحَسَرَ الشّتَاءُ سَارَ سَعْدٌ إلَى الْقَادِسِيّةِ ، وَكَتَبَ إلَى عُمَرَ يَسْتَمِدّهُ . فَبَعَثَ إلَيْهِ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، فِي جَيْشٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَكَتَبَ إلَى أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ يَمُدّهُ بِأَلْفٍ .

وَسَمِعَ بِذَلِكَ رُسْتُمُ بْنُ الفرخذان . فَخَرَجَ بِنَفْسِهِ فِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا ، سِوَى التَّبَعِ وَالرِّقِيقِ حَتَّى نَزَلَ الْقَادِسِيَّةَ . وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ جِسْرُ الْقَادِسِيَّةِ ، وَقِيلَ كَانُوا ثَلَاثَمِائَةِ أَلْفٍ وَمَعَهُمْ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُونَ فِيلًا . وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى صَارُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا . فَكَانَتْ وَقْعَةَ الْقَادِسِيَّةِ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي نَصَرَ اللَّهُ فِيهَا الْمُسْلِمِينَ . وَهَزَمَ الْمُشْرِكِينَ .

فَلَمَّا هَزَمَ اللَّهُ الْفُرْسَ ، كَتَبَ عُمَرُ إلَى سَعْدٍ " أَنْ أَعِدَّ لِلْمُسْلِمِينَ دَارَ هِجْرَةٍ . <206> وَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِلْعَرَبِ إلَّا حَيْثُ يَصْلُحُ لِلْبَعِيرِ وَالشَّاءِ وَفِي مَنَابِتِ الْعُشْبِ . فَانْظُرْ فَلَاةً إلَى جَانِبِ بَحْرٍ " .

فَبَعَثَ سَعْدٌ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ فَارْتَادَ لَهُمْ مَوْضِعَ الْكُوفَةِ الْيَوْمَ فَنَزَلَهَا سَعْدٌ بِالنَّاسِ . ثُمَّ كَتَبَ عُمَرُ إلَى سَعْدٍ " أَنْ ابْعَثْ إلَى أَرْضِ الْهِنْدِ - يُرِيدُ الْبَصْرَةَ - جُنْدًا فَلْيَنْزِلُوهَا " . فَبَعَثَ إلَيْهَا عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ فِي ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ حَتَّى نَزَلُوهَا . وَهُوَ الَّذِي بَصَّرَ الْبَصْرَةَ .

وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ كَانَتْ وَقْعَةُ الْيَرْمُوكِ الْمَشْهُورَةُ بِالشَّامِ .

وَخَرَجَ عُمَرُ إلَى الشَّامِ ، وَنَزَلَ الْجَابِيَةَ . فَصَالَحَ نَصَارَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ - وَكَانُوا قَدْ أَبَوْا أَنْ يُجِيبُوا إلَى الصُّلْحِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ حَتَّى يَكُونَ عُمَرُ يَعْقِدُونَ الصُّلْحَ مَعَهُ - فَصَالَحَهُمْ . وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ إجْلَاءَ الرُّومِ إلَى ثَلَاثٍ . وَاجْتَمَعَ إلَيْهِ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ .

فَلَمَّا رَجَعَ إلَى الْمَدِينَةِ وَضَعَ الدِّيوَانَ . فَأَعْطَى الْعَطَايَا عَلَى مِقْدَارِ السَّابِقَةِ . فَبَدَأَ بِالْعَبَّاسِ حُرْمَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . ثُمَّ بِالْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ .

حَوَادِثُ السَّنَةِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ

ثُمَّ دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ . فِيهَا : كَتَبَ عُمَرُ التَّارِيخَ . وَاسْتَشَارَ الصَّحَابَةَ فِي مَبْدَئِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ نَبْدَأُ مِنْ بَدْءِ النُّبُوَّةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ مِنْ الْوَفَاةِ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ مِنْ الْهِجْرَةِ . فَجَعَلَهُ مِنْ الْهِجْرَةِ .

حَوَادِثُ السَّنَةِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ

ثُمَّ دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ فَكَانَ فِيهَا فُتُوحٌ كَثِيرَةٌ شَرْقًا وَغَرْبًا .

وَفِيهَا فُتِحَتْ تُسْتَرُ الَّتِي وُجِدَ فِيهَا جَسَدُ دَانْيَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَسْقُونَ بِهِ .

<207> وَفِيهَا : تَزَوّجَ عُمَرُ أُمّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيّ بْـنِ أَبِـي طَـالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ طَلَبًا لِصِهْرِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ .

حَوَادِثُ السّنَةَ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ

ثُـمّ دَخَلَـتْ السّـنَةُ الثّامِنَـةَ عَشْـرَةَ فِيهَـا : أَصَـابَ النّـاسَ مَجَاعَـةٌ شَدِيدَةٌ . وَتَسَمّى عَامُ الرّمَادَةِ لِكَثْـرَةِ مَـا هَلَـكَ فِيهَـا مِـنْ النّـاسِ وَالْبَهَائِمِ جَوْعًـا . فَاسْتَسْـقَى عُمَـرُ بِالنّـاسِ . وَسَـأَلَ الْعَبّـاسَ أَنْ يَدْعُوَ اللّهَ وَيُؤَمّنَ عُمَرُ وَالنّاسُ عَلَى دُعَائِهِ . فَأَزَال اللّـهُ الْقَحْـطَ . وَفِيهَـا وَقَـعَ طَـاعُونُ عِمَـوَاسٍ بِالشّـامِ وَقَـدْ هَلَـكَ فِيـهِ خَمْسَـةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا . وَمَاتَ فِيهِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ عَامِرٍ الْجَرّاحُ ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

فَلَمّا بَلَغَ عُمَرَ مَوْتُهُمْ أَمّرَ عَلَى الشّامِ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ .

حَوَادِثُ السّنَةِ التّاسِعَةَ عَشْرَةَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ التّاسِـعَةَ عَشْـرَةَ فُتِـحَ فِيهَـا فُتُـوحٌ كَثِيـرَةٌ شَـرْقًا وَغَرْبًا .

حَوَادِثُ السّنَةِ الْعِشْرُونَ

ثُمّ دَخَلَـتْ السّـنَةُ الْعِشْـرُونَ وَفِيهَـا فُتِحَـتْ مِصْـرُ والإسـكندرية . وَفِيهَا : أَجْلَى عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ الْيَهُودَ مِنْ الْحِجَازِ إلَى أَذْرِعَاتٍ وَغَيْرِهَا .

حَوَادِثُ السّنَةِ الْحَادِيَةِ وَالْعِشْرِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ

وَفِيهَا كَانَ فَتْحُ نَهَاوَنْدَ وَأَمِيرُهَا النّعْمَانُ بْنُ مُقَرّنٍ ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ .

وَفِيهَا : مَاتَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بِحِمْصٍ .

<208> وَفِيهَا : مَاتَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ ، وَطُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْأَسَدِيّ - الّذِي كَانَ تَنَبّأَ . ثُمّ أَسْـلَمَ وَحَسُـنَ إسْـلَامُهُ وَأَبْلَـى فِـي قِتَالِ الْفُرْسِ بَلَاءً حَسَنًا - قُتِلَا مَعَ النّعْمَانِ بْنِ مُقَرّنٍ بِنَهَاوَنْدَ .

حَوَادِثُ السّنَةِ الثّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ

وَفِيهَا ، دَخَلَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْـسٍ خُرَاسَـانَ ، وَحَـارَبَ يَزْدَجْـرِدْ آخِـرَ مُلُوكِ الْفُرْسِ . فَهَزَمَهُ اللّهُ فِيهَا .

وَفِيهَا : اعْتَمَرَ عُمَرُ . فَتَلَقّاهُ نَافِعُ بْنُ الْحَارِثِ - وَكَانَ عَـامِلَهُ عَلَـى مَكّةَ - فَقَالَ لَهُ عُمَرُ مَنْ خَلَفْت ؟ قَالَ ابْنَ أَبْزَى ، قَالَ عُمَرُ وَمَـنْ

ابْنُ أَبْزَى ؟ قَالَ مَوْلًى لَنَا . قَالَ وَمَوْلًى أَيْضًا ؟ قَالَ إِنّهُ قَارِئٌ لِلْقُرْآنِ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ . فَقَالَ عُمَرُ سَمِعْت رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ إنّ اللّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْقُرْآنِ أَقْوَامًا ، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ

حَوَادِثُ السّنَةِ الثّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ

وَفِيهَا : قُتِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . فِي صَلَاةِ الصّبْحِ مِنْ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ لِأَرْبَعِ لَيَالٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْحَجّةِ . وَدُفِنَ يَوْمَ الْأَحَدِ هِلَالَ الْمُحَرّمِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ . وَلَمّا رَجَعَ مِنْ الْحَجّ فِي آخِرِهَا قَامَ خَطِيبًا . فَقَالَ إنّي رَأَيْت كَأَنّ دِيكًا أَحْمَرَ نَقَرَنِي نَقْرَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، وَلَا أَرَى ذَلِك إلّا حُضُورُ أَجَلِي .

ثُمّ خَرَجَ إلَى السّوقِ فَلَقِيَهُ أَبُو لُؤْلُؤَةَ الْمَجُوسِيّ ، غُلَامُ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ . وَكَانَ صَانِعًا يَعْمَلُ الْأَرْحَاءَ . فَقَالَ لَهُ أَلَا تُكَلّمُ مَوْلَايَ يَضَعُ عَنّي مِنْ خَرَاجِي ؟ قَالَ وَكَمْ خَرَاجُك ؟ قَالَ دِينَارٌ . قَالَ إنّك لَعَامِلٌ مُحْسِنٌ فَقَالَ وَسِعَ النّاسَ عَدْلُك وَضَاقَ بِي ، وَأَضْمَرَ قَتْلَ عُمَرَ فَاصْطَنَعَ لَهُ خَنْجَرًا ذَا حَدّيْنِ وَشَحَذَهُ وَسَمّهُ . ثُمّ أَتَى بِهِ الْهُرْمُزَانَ . فَقَالَ كَيْفَ تَرَى هَذَا ؟ قَالَ أَرَى أَنّك لَا تَضْرِبُ بِهِ أَحَدًا إلّا قَتَلَهُ .

<209> فَلَمّا كَبّرَ عُمَرُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ فِي صَلَاةِ الصّبْحِ طَعَنَهُ ثَلَاثَ طَعَنَاتٍ . وَقِصّةُ مَقْتَلِهِ فِي الصّحِيحَيْنِ .

وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ عَشْرَ سِنِينَ وَسِتّةَ أَشْهُرٍ وَأَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسٍ . وَبِمَوْتِهِ انْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ إلَى الْيَوْمِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَلّامٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا : إنّي أَرَى فِي التّوْرَاةِ : أَنّك بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ جَهَنّمَ قَالَ فَسّرْ لِي قَالَ أَنْتَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِهَا مُغْلَقًا ، لِئَلّا يَقْتَحِمَهَا النّاسُ ؟ فَإِذَا مُتّ انْفَتَحَ

وَفَتَحَ اللّهُ عَلَى يَدَيْهِ كُلّ بِلَادِ الْكُفّارِ أَلْفًا وَسِتّةً وَثَلَاثِينَ مَدِينَةً . وَخَرّبَ أَرْبَعَةَ آلَافِ بِيعَةٍ وَكَنِيسَةٍ . وَبَنَى أَرْبَعَةَ آلَافِ مَسْجِدٍ . وَدَوّنَ الدّوَاوِينَ وَمَصّرَ الْأَمْصَارَ وَوَضَعَ الْخَرَاجَ وَأَرّخَ التّارِيخَ . وَلَهُ الْفَضَائِلُ الْمَشْهُورَةُ وَالسّوَابِقُ الْمَأْثُورَةُ . رَحِمَهُ اللّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ .

حَوَادِثُ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الرّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ

فَاسْتَخْلَفَ فِيهَا عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . لِغُرّةِ هِلَالِ الْمُحَرّمِ - أَوْ لِثَلَاثِ الْمُحَرّمِ - بَعْدَ دَفْنِ عُمَرَ بِثَلَاثَةِ أَيّامٍ .
أَسْلَمَ قَدِيمًا . وَكَانَ مِنْ ذَوِي السّابِقَةِ وَمِنْ ذَوِي الشّرَفِ وَالْعِلْمِ . هَاجَرَ <210> الْهِجْرَتَيْنِ . وَصَلّى الْقِبْلَتَيْنِ . وَزَوّجَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ابْنَتَيْنِ . وَلَمْ يَنْكِحْ ابْنَتَيْ نَبِيّ مِنْ آدَمَ إلَى قِيَامِ السّاعَةِ غَيْرُهُ . وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يُقَدّمُهُ وَيَسْتَحْيِي مِنْهُ وَيَقُولُ مَا لِي لَا أَسْتَحِي مِمّنْ تَسْتَحِي مِنْهُ مَلَائِكَةُ السّمَاءِ ؟
وَفِي هَذِهِ السّنَةِ تُوُفّيَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ وَأُمّ الْفَضْلِ زَوْجَةُ الْعَبّاسِ وَأُمّ أَيْمَنَ بَرَكَةُ مَوْلَاةُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ . وَرَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .
حَوَادِثُ سَنَةِ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ
ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ .
فَتُوُفّيَ فِيهَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ أُمّ مَكْتُومٍ الْمُؤَذّنُ وَعُمَيْرُ بْنُ وَهْبِ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيّ ، الّذِي حَزَرَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ . ثُمّ تَعَاهَدَ هُوَ وَصَفْوَانُ بْنُ خَلَفٍ الْجُمَحِيّ عَلَى اغْتِيَالِ رَسُولِ اللّهِ . فَذَهَبَ إلَى الْمَدِينَةِ بِدَعْوَى افْتِدَاءِ ابْنِهِ وَهْبٍ الّذِي كَانَ أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ . فَلَمّا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَصّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ مَا تَعَاهَدَ هُوَ وَصَفْوَانُ عَلَيْهِ . فَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقّ وَأَسْلَمَ .
وَفِيهَا تُوُفّيَ عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ الْعَاشِقُ .
حَوَادِثُ سَنَةِ سِتّ وَعِشْرِينَ
ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ السّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ .
وَفِيهَا غَزَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ إفْرِيقِيّةَ وَمَعَهُ الْعَبَادِلَةُ - عَبْدُ اللّهِ بْنُ نَافِعِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ نَافِعِ بْنِ الْحُصَيْنِ . وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَيْرِ - فَلَقِيَ جِرْجِسَ مَلِكَ الْبَرْبَرِ فِي مِائَتَيْ أَلْفٍ . فَقُتِلَ جِرْجِسُ قَتَلَهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَيْرِ . وَفَتَحَ اللّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ .
وَفِيهَا : مَاتَ خَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيّ الّذِي تَكَلّمَ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَكَانَ مِنْ كَلَامِهِ خَلَتْ لَيْلَتَانِ . وَبَقِيَتْ أَرْبَعٌ بِئْرُ أَرِيسٍ وَمَا بِئْرُ أَرِيسٍ ؟ .

وَفِيهَا اعْتَمَرَ عُثْمَانُ فَكَلَّمَهُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُحَوِّلَ السَّاحِلَ إِلَى جُـدَّةَ . وَقَالُوا : هِيَ أَقْرَبُ إِلَى مَكَّةَ وَأَوْسَعُ . وَكَانُوا يُرْسِلُونَ قَبْلَ ذَلِـكَ فِي الشَّعَيْبَةِ . فَخَرَجَ عُثْمَانُ <211> إِلَـى جُـدَّةَ فَرَآهَـا ، وَحَـوَّلَ السَّاحِلَ إِلَيْهَا .

حَوَادِثُ سَنَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ

ثُمَّ دَخَلَتْ السَّنَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ .

وَفِيهَا - عَلَى قَوْلِ ابْنِ جَرِيرٍ - كَانَ فَتْحُ إِفْرِيقِيَّةَ وَالْأَنْدَلُسِ عَلَى يَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ .

وَفِيهَا : عَزَلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ عَـنْ مِصْـرَ ، وَوَلَّى عَلَيْهَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ .

وَفِيهَا : مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّـهُ عَنْـهُ . وَكَـانَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ .

حَوَادِثُ سَنَةِ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ

ثُمَّ دَخَلَتْ السَّنَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ .

فِيهَا غَزَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ الْبَحْرَ وَمَعَهُ عُبَادَةُ بْـنُ الصَّـامِتِ ، وَامْرَأَتُهُ أُمّ حَرَامٍ بِنْتُ مِلْحَانَ - أُخْـتُ أُمّ سُـلَيْمٍ - فَسَـقَطَتْ عَـنْ دَابَّةٍ لَهَا فَهَلَكَتْ . وَهِـيَ الَّتِـي نَـامَ رَسُـولُ اللَّـهِ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهَا وَقْتَ قَيْلُولَةٍ . فَاسْـتَيْقَظَ وَهُـوَ يَضْـحَكُ فَسَـأَلَتْهُ ؟ فَقَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ يَرْكَبُـونَ ثَبَجَ الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ - أَوْ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِـرَّةِ - فَقَـالَ اُدْعُ اللَّـهَ أَنْ يَجْعَلَنِـي مِنْهُـمْ . فَقَـالَ أَنْـتِ مِنْهُـمْ . ثُـمَّ نَـامَ . ثُـمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَسَأَلَتْهُ ؟ فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ . فَقَالَتْ اُدْعُ اللَّـهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ . فَقَالَ أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ .

وَفِيهَا : غَزَا مُعَاوِيَةُ قُبْرُصَ . فَصَالَحَهُ أَهْلُهَا .

حَوَادِثُ سَنَةِ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ

ثُمَّ دَخَلَتْ السَّنَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ .

فِيهَا : شَكَا النَّاسُ إِلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضِيقَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّـهِ صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ ، فَـأَمَرَ بِتَوْسِـعَتِهِ وَبَنَـاهُ بِالْحِجَـارَةِ الْمَنْقُوشَةِ وَالْقُصَّةِ - وَهِيَ الْجِصّ - وَفِيهَا وُسِّـعَ الْمَسْـجِدُ الْحَـرَامُ كَذَلِكَ .

<212> وَفِيهَا : مَاتَ سُلَيْمَانُ بْنُ رَبِيعَةَ الْبَاهِلِيّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْـهُ . وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ وَلّاهُ قَضَاءَ الْمَـدَائِنِ ، فَمَكَـثَ أَرْبَعِيـنَ يَوْمًا لَمْ يَخْتَصِمْ إلَيْهِ اثْنَانِ .

حَوَادِثُ سَنَةِ ثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثِينَ . وَفِيهَا وَقَعَ خَاتَمُ رَسُولِ اللّٰهِ مِنْ يَدِ عُثْمَـانَ بْنِ عَفّانَ رَضِـيَ اللّٰـهُ عَنْـهُ فِـي بِئْـرِ أَرِيـسٍ فَنُزِحَـتْ وَلَـمْ يُوجَـدْ . فَحَزِنَ لِذَلِكَ أَشَدّ الْحُزْنِ . فَوَقَعَ مِنْ الرّعِيّةِ الْخَلَـلُ عَلَـى عُثْمَـانَ بَعْدَهَا . وَفِيهَا : غَزَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ مِنْ الْكُوفَةِ خُرَاسَانَ ؟ وَمَعَهُ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، وَالْحَسَنُ ، وَالْحُسَـيْنُ ، وَعَبْـدُ اللّٰـهِ بْـنُ عُمَـرَ ، وَعَبْدُ اللّٰهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَعَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الزّبَيْـرِ رَضِـيَ اللّٰـهُ عَنْهُمْ . وَفِيهَا : كَانَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ أَبِـي ذَرّ الْغِفَـارِيّ رَضِـيَ اللّٰـهُ عَنْهُ وَشِدّةِ إنْكَارِهِ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَأَهْلِ الشّامِ فِـي الِاسْـتِمْتَاعِ بِمَـا أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَالتّوَسّعِ فِيمَا أَبَاحَ لَهُمْ وَأَفَاءَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْأَمْـوَالِ . وَأَنّهُ يَرَى : أَنْ لَا يَبِيتَ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَهُ دِرْهَمٌ وَلَا دِينَارٌ وَإِلّا كَانَ مِنْ الّذِينَ يَكْنِزُونَ الذّهَبَ وَالْفِضّةَ .

فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ فِي شَأْنِهِ إلَى عُثْمَانَ . فَكَتَبَ عُثْمَانُ بِإِشْخَاصِ أَبِي ذَرّ إلَى الْمَدِينَةِ ، وَمُحَاوَلَةِ بَعْضِ دُعَاةِ الْفِتْنَةِ الِالْتِفَـافَ حَـوْلَ أَبِـي ذَرّ . فَهَرَبَ مِنْهُمْ إلَى الرّبَذَةِ عُثْمَانُ وَفِيّ طَاعَتِهِ . وَأَقَامَ بِهَا حَتّى مَـاتَ رَضِـيَ اللّٰـهُ عَنْـهُ . وَفِيهَـا : زَادَ عُثْمَـانُ النّـدَاءَ الثّـالِثَ يَـوْمَ الْجُمُعَةِ عَلَى الزّوْرَاءِ حِينَ كَثُرَ النّاسُ . فَثَبَتَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ إلَى الْيَوْمِ . وَالزّوْرَاءُ دَارٌ كَانَتْ لَـهُ بِالْمَدِينَـةِ . وَفِيهَـا : مَـاتَ أُبَـيّ بْـنُ كَعْبٍ : سَيّدُ الْقُرّاءِ وَأَحَدُ الْقُرّاءِ الْأَرْبَعَةِ .

حَوَادِثُ سَنَةِ إحْدَى وَثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْحَادِيَـةُ وَالثّلَاثُـونَ . وَفِيهَـا : قُتِـلَ يَزْدَجْـرِدْ آخِـرُ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَهُوَ الّذِي مَزّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللّٰهِ صَلّى اللّٰهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ الّذِي دَعَاهُ فِيهِ إلَى الْإِسْـلَامِ . فَـدَعَا عَلَيْـهِ أَنْ يُمَـزّقَ اللّٰـهُ مُلْكَهُ . <213> وَفِيهَا : فَتَحَ حَبِيبُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيّ أَرْمِينِيّةَ . وَقَالَ الْوَاقِدِيّ : كَانَ فِي هَذِهِ السّنَةِ غَزْوَةُ الصّوَارِي فِـي الْبَحْـرِ . وَكَانَ فِيهَا : مُحَمّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ وَمُحَمّدُ بْنُ أَبِـي بَكْـرٍ . فَـأَظْهَرَا عَيْبَ عُثْمَانَ وَمَا غَيّرَ وَمَـا خَـالَفَ أَبَـا بَكْـرٍ وَعُمَـرَ . وَيَقُـولَانِ دَمُـهُ حَلَالٌ .

حَوَادِثُ سَنَةِ اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّانِيَةُ وَالثّلَاثُونَ . فِيهَا : غَزَا مُعَاوِيَةُ بِلَادَ الرّومِ ، حَتّى بَلَغَ مَضِيقَ القسطنطينية . وَفِيهَا : مَاتَ عَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيّ وَأَبُو ذَرّ الْغِفَارِيّ - جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ - وَالْعَبّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ . رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

حَوَادِثُ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّالِثَةُ وَالثّلَاثُونَ . وَفِيهَا : ذَكَرَ أَهْلُ الْعِرَاقِ عُثْمَانَ بِالسّوءِ وَتَكَلّمُوا فِيهِ بِكَلَامٍ خَبِيثٍ فِي مَجْلِسِ سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ فَكَتَبَ فِي أَمْرِهِمْ إلَى عُثْمَانَ . فَكَتَبَ يَأْمُرُهُ بِإِجْلَائِهِمْ إلَى الشّامِ . فَلَمّا قَدِمُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ أَكْرَمَهُمْ وَتَأَلّفَهُمْ . وَنَصَحَهُمْ . فَأَجَابَهُ مُتَكَلّمُهُمْ بِكَلَامٍ فِيهِ شَنَاعَةٌ . ثُمّ نَصَحَهُمْ فَتَمَادَوْا فِي غَيّهِمْ وَجَهَالَتِهِمْ وَشَرّهِمْ . فَنَفَاهُمْ مُعَاوِيَةُ عَنْ الشّامِ .

وَكَانُوا عَشْرَةً كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ وَالْأَشْتَرُ النّخَعِيّ - مَالِكُ بْنُ يَزِيدَ - وَعَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسٍ النّخَعِيّ ، وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ النّخَعِيّ ، وَجُنْدُبُ بْنُ زُهَيْرٍ الْعَامِرِيّ ، وَجُنْدُبُ بْنُ كَعْبٍ الْأَزْدِيّ ، وَعُرْوَةُ بْنُ الْجَعْدِ وَعَمْرُو بْنُ الْحَمَقِ الْخُزَاعِيّ ، وَصَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَأَخُوهُ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ ، وَابْنُ الْكَوّاءِ . فَأَوَوْا إلَى الْجَزِيرَةِ . وَاسْتَقَرّوا بِحِمْصٍ . حَتّى كَانَتْ الْفِتْنَةُ الّتِي قَادُوهَا لِقَتْلِ عُثْمَانَ . وَفِيهَا : مَاتَ الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

حَوَادِثُ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ

<214> ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الرّابِعَةُ وَالثّلَاثُونَ فِيهَا : تَكَاتَبَ الْمُنْحَرِفُونَ عَنْ عُثْمَانَ - وَكَانَ جُمْهُورُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ - وَتَوَاعَدُوا أَنْ يَجْتَمِعُوا لِمُنَاظَرَتِهِ فِيمَا نَقَمُوا عَلَيْهِ . فَبَعَثُوا إلَيْهِ مِنْهُمْ مَنْ يُنَاظِرُهُ فِيمَا فَعَلَ مِنْ تَوْلِيَةِ مَنْ وَلّى وَعَزْلِ مَنْ عَزَلَ . حَتّى شَقّ عَلَيْهِ ذَلِكَ جِدّا فَبَعَثَ إلَى أُمَرَاءِ الْأَجْنَادِ فَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ . وَاسْتَشَارَهُمْ . فَكُلّ أَشَارَ بِرَأْيِ ثُمّ انْتَهَى الْأَمْرُ بِأَنْ قَرّرَ عُمّالَهُ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ . وَتَأَلّفَ قُلُوبَ هَؤُلَاءِ .

وَأَمَرَ بِهِمْ أَنْ يُبْعَثُوا إلَى الْغَزْوِ وَإِلَى الثّغُورِ . فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ مِنْ التّمَادِي فِي غَيّهِمْ . وَفِيهَا : تُوُفّيَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيّ ، وَعُبَادَةُ بْنُ الصّامِتِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .

حَوَادِثُ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْخَامِسَةُ وَالثّلَاثُونَ . وَفِيهَا مَاتَ مِنْ الصّحَابَةِ عَمّارُ بْنُ رَبِيعَةَ ، أَسْلَمَ قَدِيمًا وَشَهِدَ بَدْرًا رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَفِيهَا : كَانَ خُرُوجُ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى عُثْمَانَ . وَأَصْلُ الْفِتْنَةِ وَمَنْبَعُهَا : كَانَ مِنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَبَأٍ - رَجُلٍ يَهُودِيّ مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ ، أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ لِيُخْفِيَ بِهِ حِقْدَهُ عَلَيْهِ وَكُفْرَهُ بِهِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ - وَكَانَ يَنْتَقِلُ فِي بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ أَوّلَ ضَلَالَتِهِمْ . فَبَدَأَ بِالْحِجَازِ ، ثُمّ الْبَصْرَةِ ، ثُمّ الْكُوفَةِ ثُمّ الشّامِ . فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى مَا يُرِيدُ . فَأَخْرَجُوهُ حَتّى أَتَى مِصْرَ فَغَمَزَ عَلَى عُثْمَانَ وَقَادَ الْفِتْنَةَ . وَأَشْعَلَ نَارَهَا ، مُحَادّةً لِلّهِ وَلِرَسُولِهِ حَتّى كَانَتْ الْبَلِيّةُ الْكُبْرَى بِمُحَاصَرَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَاغْتِيَالِهِ وَهُوَ يَتْلُو كِتَابَ اللّهِ تَعَالَى.

وَكَانَ بِيَدِ أُولَئِكَ الْمُجْرِمِينَ الْخَوَارِجِ فِي ذِي الْحَجّةِ مِنْ هَذِهِ السّنَةِ . رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَبِقَتْلِهِ وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ الْعَظِيمَةُ الّتِي أَخْبَرَ بِهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَالنّاسُ فِي بَقَايَا مِنْ شَرّهَا إلَى الْيَوْمِ . وَيُرْوَى : أَنّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ صَلّى فِي اللّيْلَةِ الّتِي حُوصِرَ فِيهَا وَنَامَ فَأَتَاهُ آتٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ قُمْ فَاسْأَلْ أَنْ يُعِيذَك مِنْ الْفِتْنَةِ الّتِي أَعَاذَ مِنْهَا صَالِحِي عِبَادِهِ . <215> فَقَامَ فَصَلّى ، وَدَعَاهُ . فَاشْتَكَى . فَمَا خَرَجَ إلّا جِنَازَتُهُ .

قَالَ أَهْلُ السّيَرِ لَمّا كَانَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ مَا كَانَ قَعَدَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي بَيْتِهِ فَأَتَاهُ النّاسُ وَهُمْ يَقُولُونَ عَلِيّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . فَقَالَ لَيْسَ ذَلِكَ إلَيْكُمْ إنّمَا هُوَ إلَى أَهْلِ بَدْرٍ . فَأَتَاهُ أَهْلُ بَدْرٍ . فَلَمّا رَأَى ذَلِكَ عَلِيّ خَرَجَ فَبَايَعَهُ النّاسُ . وَلَمْ يَدْخُلْ فِي طَاعَتِهِ مُعَاوِيَةُ وَأَهْلُ الشّامِ . فَهَمّ عَلِيّ بِالشّخُوصِ إلَيْهِمْ .

وَقْعَةُ الْجَمَلِ

وَبَلَغَ الْخَبَرُ عَائِشَةَ - وَهِيَ حَاجّةٌ - وَمَعَهَا طَلْحَةُ ، وَالزّبَيْرُ . فَخَرَجُوا إلَى الْبَصْرَةِ يُرِيدُونَ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ النّاسِ وَاجْتِمَاعَ الْكَلِمَةِ . وَأَرْسَلَ عَلِيّ عَمّارَ بْنَ يَاسِرٍ وَابْنَهُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيّ إلَى الْكُوفَةِ يَسْتَنْفِرُونَ النّاسَ لِيَكُونُوا مَعَ عَلِيّ فَاسْتَنْفَرُوهُمْ . فَنَفَرُوا .

وَخَرَجَ عَلِيّ مِنْ الْمَدِينَةِ فِي سِتّمِائَةِ رَجُلٍ . فَالْتَقَى - هُوَ وَالْحَسَنُ - بِذِي قَارٍ ثُمّ الْتَقَوْا - وَهُوَ وَطَلْحَةُ وَالزّبَيْرُ - قُرْبَ الْبَصْرَةِ وَكَانَ فِي الْعَسْكَرَيْنِ نَاسٌ مِنْ الْخَوَارِجِ . فَخَافُوا مِنْ تَمَالُؤِ الْعَسْكَرَيْنِ عَلَيْهِمْ . فَتَحَيّلُوا حَتّى أَثَارُوا الْحَرْبَ بَيْنَهُمَا مِنْ غَيْرِ رَأْيٍ . فَكَانَتْ

وَقْعَةَ الْجَمَلِ الْمَشْهُورَةَ لِأَنّ عَائِشَةَ كَانَتْ فِي هَوْدَجٍ . عَلَى جَمَلٍ . وَعُقِرَ الْجَمَلُ ذَلِكَ الْيَوْمِ . فَأَمَرَ عَلِيّ بِحَمْلِ الْهَوْدَجِ فَحَمَلَهُ مُحَمّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَعَمّارُ بْنُ يَاسِرٍ . فَأَدْخَلَ مُحَمّدٌ يَدَهُ فِي الْهَوْدَجِ فَقَالَتْ مَنْ ذَا الّذِي يَتَعَرّضُ لِحَرَمِ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ ؟ أَحْرَقَهُ اللّهُ بِالنّارِ . قَالَ يَا أُخْتَاهُ قُولِي بِنَارِ الدّنْيَا . فَقَالَتْ بِنَارِ الدّنْيَا ، فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ

وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْجَمَلِ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ سِتّ وَثَلَاثِينَ . ثُمّ الْتَقَى عَلِيّ وَعَائِشَةُ . فَاعْتَذَرَ كُلّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ . ثُمّ جَهّزَهَا إلَى الْمَدِينَةِ . وَأَمَرَ لَهَا بِكُلّ شَيْءٍ يَنْبَغِي لَهَا . وَأَرْسَلَ مَعَهَا أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الْمَعْرُوفَاتِ . <216> وَفِي هَذِهِ السّنَةِ مَاتَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ، وَأَبُو رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَقُدَامَةُ بْنُ مَظْعُونٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

حَوَادِثُ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ

ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ السّابِعَةُ وَالثّلَاثُونَ . فَسَارَ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَالْتَقَى هُوَ وَأَهْلُ الشّامِ بِصِفّينَ لِسَبْعِ بَقِينَ مِنْ الْمُحَرّمِ - وَصِفّينُ اسْمُ مَوْضِعٍ بَيْنَ الشّامِ وَالْعِرَاقِ - فَكَانَتْ بِهِ الْوَقْعَةُ الْمَشْهُورَةُ . فَلَمّا اشْتَدّ الْبَلَاءُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ وَطَالَ أَيّامًا ، وَكَثُرَ الْقَتْلَى بَيْنَهُمْ رَفَعَ أَهْلُ الشّامِ الْمَصَاحِفَ عَلَى رُءُوسِ الرّمَاحِ وَنَادَوْا " نَدْعُوكُمْ إلَى كِتَابِ اللّهِ " فَسُرّ النّاسُ وَأَنَابُوا إلَى الْحُكُومَةِ . فَحَكّمَ أَهْلُ الشّامِ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ . وَحَكّمَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا . وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ الْعُهُودَ بِالرّضَى بِمَا يَحْكُمُ بِهِ الْحَكَمَانِ .

فَلَمّا حَلّ الْمَوْعِدُ فِي رَمَضَانَ تَوَافَوْا بِأَذْرَحَ ، بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ . فَلَمْ يَتّفِقْ الْحَكَمَانِ عَلَى شَيْءٍ . وَانْصَرَفَ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى الْعِرَاقِ ، وَمُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ إلَى الشّامِ . فَلَمّا وَصَلَ عَلِيّ الْكُوفَةَ خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ ; وَكَفّرُوهُ حَيْثُ رَضِيَ بِالتّحْكِيمِ . وَقَالُوا : لَا حُكْمَ إلّا لِلّهِ ، وَاجْتَمَعُوا بِحَرُورَاءَ - اسْمُ مَوْضِعٍ بِالْعِرَاقِ - فَسُمّوا الْحَرُورِيّةَ فَأَرْسَلَ عَلِيّ إلَيْهِمْ عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَبّاسٍ فَأَتَاهُمْ . قَالَ فَلَمْ أَرَ قَوْمًا أَشَدّ اجْتِهَادًا مِنْهُمْ وَلَا أَكْثَرَ عِبَادَةً " فَقَالَ مَا تَنْقِمُونَ ؟ قَالُوا : ثَلَاثٌ . إحْدَاهُنّ أَنّهُ حَكّمَ الرّجَالَ فِي أَمْرِ اللّهِ وَقَدْ قَالَ اللّهُ تَعَالَى (12 : 40) إنِ الْحُكْمُ إلّا لِلّهِ وَالثّانِيَةُ أَنّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ . فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ

فَمَا حَلّ لَنَا قِتَالُهُمْ وَإِنْ كَانُوا كَافِرِينَ . فَقَدْ حَلّتْ لَنَا أَمْوَالُهُمْ وَسَبْيُهُمْ .
وَالثّالِثَةُ أَنّهُ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ . فَقَالَ لَهُمْ . أَرَأَيْتُمْ إنْ قَرَأْت عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللّهِ الْحُكْمَ وَحَدّثْتُكُمْ مِنْ سُنّةِ نَبِيّكُمْ مَا لَا تُنْكِرُونَ أَتَرْجِعُونَ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . <217> فَقُلْت : أَمّا قَوْلُكُمْ إنّهُ حَكّمَ الرّجَالَ فِي دِينِ اللّهِ فَإِنّ اللّهَ تَعَالَى يَقُولُ (5 : 95) يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ - إلَى قَوْلِهِ - يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ وَقَالَ تَعَالَى (4 : 35) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا أَنْشُدُكُمْ اللّهَ أَفَتَحْكِيمُ الرّجَالِ فِي إصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَحَقْنِ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أَحَقّ أَمْ فِي أَرْنَبٍ ثَمَنُهَا رُبُعُ دِرْهَمٍ أَوْ بُضْعِ امْرَأَةٍ ؟ فَقَالُوا : اللّهُمّ بَلَى ، فِي حَقْنِ دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ . فَقُلْت : أَخَرَجْت مِنْ هَذِهِ ؟ فَقَالُوا : اللّهُمّ نَعَمْ . وَأَمّا قَوْلُكُمْ إنّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ أَفَتَسْبُونَ أُمّكُمْ وَتَسْتَحِلّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلّونَهُ مِنْ غَيْرِهَا ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ نَعَمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ . وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنّهَا لَيْسَتْ لَكُمْ بِأُمّ فَقَدْ كَفَرْتُمْ لِأَنّ اللّهَ يَقُولُ (33 : 6) وَأَزْوَاجُهُ أُمّهَاتُهُمْ فَإِنْ كُنْتُمْ تَتَرَدّدُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ فَاخْتَارُوا أَيّتَهمَا شِئْتُمْ . أَخَرَجْت مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : اللّهُمّ نَعَمْ . قَالَ وَأَمّا قَوْلُكُمْ إنّهُ مَحَا نَفْسَهُ مِنْ " أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ " فَإِنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ - أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ فِي الصّلْحِ . فَقَالَ لِعَلِيّ " اُكْتُبْ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ . فَقَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ أَنّك رَسُولُ اللّهِ مَا صَدَدْنَاك عَنْ الْبَيْتِ ، وَلَا قَاتَلْنَاك ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ . فَقَالَ اُمْحُ يَا عَلِيّ . وَاكْتُبْ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ . فَقَالَ وَاَللّهِ لَا أَمْحُوك أَبَدًا . قَالَ فَأَرِنِي مَوْضِعَهُ فَأَرَاهُ ذَلِكَ . فَمَحَاهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِيَدِهِ " فَوَاَللّهِ لَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيّ . أَخَرَجْت مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : اللّهُمّ نَعَمْ فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ .
وَخَرَجَ عَلَيْهِ بَاقِيهِمْ . فَقَاتَلُوهُ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً . وَأَمَرَ بِالْتِمَاسِ الْمُخَدّجِ ذِي الثّدَيّةِ . فَلَمّا وَجَدَهُ سَجَدَ لِلّهِ شُكْرًا . وَفِي هَذِهِ السّنَةِ مَاتَ خَبّابُ بْنُ الْأَرَتّ ، وَخُزَيْمَةُ ذُو الشّهَادَتَيْنِ وَسُفَيْنَةُ مَوْلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ سَعْدِ أَبِي السّرْحِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ

حَوَادِثُ سَنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ
ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الثّامِنَةُ وَالثّلَاثُونَ . فِيهَا : قُتِلَ مُحَمّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَأُحْرِقَ . وَفِيهَا : مَاتَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ، وَصُهَيْبٌ الرّومِيّ . <218> ثُمّ دَخَلَتْ السّنَةُ الْأَرْبَعُونَ . وَفِيهَا : كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إلَى عَلِيّ " أَمّا إذَا شِئْت فَلَك الْعِرَاقُ . وَلِي الشّامُ . وَنَكُفّ السّيْفَ عَنْ هَذِهِ الْأُمّةِ . وَلَا نُهْرِيقُ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ " فَقَبِلَ . وَتَرَاضَيَا رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا عَلَى ذَلِكَ .
وَفِيهَا : قُتِلَ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . قَتَلَهُ ابْنُ مُلْجِمٍ - رَجُلٌ مِنْ الْخَوَارِجِ - لَمّا خَرَجَ لِصَلَاةِ الصّبْحِ لِثَلَاثَةَ عَشْرَ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ رَمَضَانَ . فَبَايَعَ النّاسُ ابْنَهُ الْحَسَنَ . فَبَقِيَ خَلِيفَةً نَحْوَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ . ثُمّ سَارَ إلَى مُعَاوِيَةَ . فَلَمّا الْتَقَى الْجَمْعَانِ عَلِمَ الْحَسَنُ أَنْ لَنْ تُغْلَبَ إحْدَى الْفِئَتَيْنِ حَتّى يَذْهَبَ أَكْبَرُ الْأُخْرَى . فَصَالَحَ مُعَاوِيَةَ . وَتَرَكَ الْأَمْرَ لَهُ وَبَايَعَهُ عَلَى أَشْيَاءَ اشْتَرَطَهَا . فَأَعْطَاهُ مُعَاوِيَةُ إيّاهَا وَأَضْعَافَهَا .
وَجَرَى مِصْدَاقُ مَا صَحّ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ فِي الْحَسَنِ إنّ ابْنِي هَذَا سَيّدٌ . وَلَعَلّ اللّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وَصَحّ عَنْهُ أَنّهُ قَالَ فِي الْخَوَارِجِ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ بَيْنَ النّاسِ تَقْتُلُهُمْ أَقْرَبُ الطّائِفَتَيْنِ إلَى الْحَقّ
وَصَحّ عَنْهُ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ أَنّهُ نَهَى عَنْ الْقِتَالِ فِي الْفِتْنَةِ . وَأَخْبَرَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بِوُقُوعِهَا . وَحَذّرَ مِنْهَا . فَحَصَلَ بِمَجْمُوعِ مَا ذَكَرْنَا : أَنّ الصّوَابَ مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقّاصٍ ، وَابْنِ عُمَرَ ، وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، وَأَكْثَرِ الصّحَابَةِ الّذِينَ قَعَدُوا وَاعْتَزَلُوا الطّائِفَتَيْنِ . وَأَنّ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ أَقْرَبُ إلَى الْحَقّ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ . وَأَنّ الْفَرِيقَيْنِ كُلّهُمْ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ الْإِيمَانِ . وَأَنّ الّذِينَ خَرَجُوا مِنْ الْإِيمَانِ إنّمَا هُمْ أَهْل النّهْرَوَانِ . وَأَنّ مَا فَعَلَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا : أَحَبّ إلَى اللّهِ مِمّا فَعَلَ أَبُوهُ عَلِيّ ; لِأَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَا يَمْدَحُهُ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ مُسْتَحَبّ . <219>
وَأَجْمَعَ أَهْلُ السّنّةِ عَلَى السّكُوتِ عَمّا شَجَرَ بَيْنَ الصّحَابَةِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ . وَلَا يُقَالُ فِيهِمْ إلّا الْحُسْنَى . فَمَنْ تَكَلّمَ فِي مُعَاوِيَةَ أَوْ

غَيْرِهِ مِنْ الصّحَابَةِ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ الْإِجْمَاعِ . وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .
وَكَانَ هَذَا الْعَامُ يُسَمّى عَامَ الْجَمَاعَةِ لِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ عَلَى إمَامٍ وَاحِدٍ بَعْدَ الْفُرْقَةِ . وَهُوَ عَامُ إحْدَى وَأَرْبَعِينَ فِي رَبِيعٍ الْأَوّلِ . فَاجْتَمَعُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَدُعِيَ مِنْ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . وَرَجَعَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا إلَى الْمَدِينَةِ .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
فِيهَا مَاتَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ بِمِصْرِ ، وَهُوَ وَالِيهَا .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ
فِيهَا مَاتَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ سَلّامٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ
فَمَاتَتْ فِيهَا أُمّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ ، أُمّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
فَمَاتَتْ فِيهَا حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتّ وَأَرْبَعِينَ
فَمَاتَ فِيهَا مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ، رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ
فَمَاتَ فِيهَا قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .
حَوَادِثُ سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ . وَفِيهَا : كَانَتْ غَزْوَةُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ الرّومَ ، حَتّى بَلَغَ <220> قُسْطَنْطِينِيّةَ . وَمَعَهُ ابْنُ عَبّاسٍ ، وَابْنُ عُمَرَ ، وَابْنُ الزّبَيْرِ . وَأَبُو أَيّوبَ الْأَنْصَارِيّ . وَفِيهَا : مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ ، وَجُوَيْرِيّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ وَصَفِيّةُ بِنْتُ حُيَيّ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ ، وَحَسّانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَدِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيّ ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَعَمْرُو بْنُ أُمَيّةَ الضّمْرِيّ ، وَعَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَعُتْبَانُ بْنُ مَالِكٍ ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ . رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ .
ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ إحْدَى وَخَمْسِينَ

فَمَاتَ فِيهَا سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ ، وَجَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللّـهِ الْبَجَلِيّ . رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ . ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ فَمَاتَ فِيهَا أَبُو أَيّوبَ زَيْدُ بْـنُ خَالِـدٍ الْأَنْصَـارِيّ غَازِيًـا ، وَدُفِـنَ عِنْـدَ سُـوَرِ القسطنطينية . وَكَانَ النّصَارَى يَسْتَسْقُونَ بِقَبْرِهِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَبَرّأَهُ اللّهُ مِنْ عَقَائِدِ النّصَارَى . وَمَاتَ بِهَا أَبُو مُوسَى الْأَشْـعَرِيّ ، وَعِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا .

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ

فَمَاتَ فِيهَا صَعْصَعَةُ بْـنُ نَاجِيَـةَ الصّـحَابِيّ ، الّـذِي يُقَـالُ إنّـهُ أَحْيَـا أَرْبَعَمِائَةِ مَوْءُودَةٍ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَزِيَادُ بْنُ سُمَيّةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ

فَمَاتَتْ فِيهَا سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبُو قَتَادَةَ الْأَنْصَـارِيّ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ

فَمَاتَ فِيهَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَالْأَرْقَمُ بْـنُ أَبِـي الْأَرْقَـمِ - الّـذِي كَـانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَدْعُو إلَى الْإِسْـلَامِ مُخْتَبِئًـا فِـي دَارِهِ - وَسُحْبَانُ وَائِلٍ الْبَلِيغُ الّذِي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْفَصَـاحَةِ . <221>

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتّ وَخَمْسِينَ

فَدَعَا فِيهَا مُعَاوِيَةُ النّاسَ إلَـى بَيْعَـةِ ابْنِـهِ يَزِيـدَ . ثُـمّ دَخَلَـتْ سَـنَةُ سَبْعَةٍ وَخَمْسِينَ فَمَاتَ فِيهَا عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ .

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ

فَمَـاتَ فِيهَـا سَـعِيدُ بْـنُ الْعَـاصِ - أَحَـدُ الْأَجْـوَادِ السّـبْعَةِ - وَعَبْـدُ الرّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ عَبّاسٍ - أَحَدُ الْأَجْوَادِ السّـبْعَةِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ .

حَوَادِثُ سَنَةِ سِتّينَ

ثُمّ دَخَلَتْ سَنَةُ سِتّينَ فَمَاتَ فِيهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِـي سُـفْيَانَ . وَصَـحّ أَنّ أَبَا هُرَيْرَةَ مَاتَ قَبْلَهَا بِسَنَةٍ وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ اللّهُمّ إنّي أَعُوذُ بِـك مِنْ رَأْسِ السّتّينَ وَإِمَارَةِ الصّبْيَانِ . وَاسْتَخْلَفَ مُعَاوِيَـةُ ابْنَـهُ يَزِيـدَ فَجَرَتْ الْفِتْنَةُ الثّانِيَةُ . وَلَمْ تَزَلْ الْفِتْنَةُ قَائِمَـةً سِـنِينَ حَتّـى اجْتَمَـعَ النّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .

فَأَوّلُ مَا جَرَى فِي أَيّامِ يَزِيدَ مَقْتَلُ الْحُسَيْنِ بْـنِ عَلِـيّ رَضِـيَ اللّـهُ عَنْهُمَا وَأَهْلِ بَيْتِهِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتّينَ . ثُمّ بَعْدَهَا : جَرَتْ وَقْعَةُ الْحَرّةِ الْعَظِيمَةِ بِالْمَدِينَةِ قَتَلُوا أَهْلَهَا . وَأَبَاحُوهَا ثَلَاثَةَ أَيّامٍ . ثُمّ بَعْدَ ذَلِكَ تَوَجّهُوا إلَـى مَكّـةَ لِقِتَـالِ عَبْـدِ اللّـهِ بْـنِ الزّبَيْـرِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا . فَحَاصَرُوهَا . فَلَمْ يَزَالُوا مُحَاصِرِيهَا حَتّى بَلَغَهُمْ مَوْتُ يَزِيدَ . فَلَمّا مَاتَ يَزِيدُ افْتَرَقَ النّاسُ افْتِرَاقًا كَثِيرًا . كَمَا قِيلَ

وَتَشَعّبُوا شِـعْبًا بِكُـلّ فِيهَا أَمِيرُ الْمُـؤْمِنِينَ
جَزِيرَةٍ وَمِنْبَرُ

وَثَبَتَ مَرْوَانُ بِالشّامِ وَخَرَجَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثّقَفِـيّ الْمُبِيـدُ الْمُفْسِدُ بِالْعِرَاقِ وَنَجْدَةُ بْنُ عُوَيْمِرٍ بِالْيَمَامَةِ <222> وَالْمَشْـهُورُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السّنِينَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ الزّبَيْرِ بِمَكّةَ . وَبَـايَعَ لَهُ أَكْثَرُ النّاسِ . فَلَمّا مَاتَ مَرْوَانُ تَوَلّى بَعْدَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتّينَ . وَلَمّا تَوَلّى تَصَدّى لِحَـرْبِ عَبْـدِ اللّـهِ بْـنِ الزّبَيْـرِ . فَجَرَى بَيْنَهُمَا مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ وَآخِرُهُ أَنّـهُ وَجّـهَ لِقِتَـالِ ابْـنِ الزّبَيْـرِ جَيْشًا عَلَيْهِمْ الْحَجّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثّقَفِيّ ، فَحَصَرَهُ بِمَكّةَ ثُـمّ قَتَلَـهُ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَسَـبْعِينَ . فَـاجْتَمَعَ النّـاسُ بَعْـدَهُ عَلَـى عَبْدِ الْمَلِكِ بْـنِ مَـرْوَانَ . فَلَـمْ يَـزَلْ وَالِيًـا كَـذَلِكَ إلَـى سَـنَةِ سِـتّ وَثَمَانِينَ .

فَمَاتَ وَاسْتَخْلَفَ وَلَدَهُ الْوَلِيـدَ . فَبَقِـيَ فِـي الْخِلَافَـةِ سَـبْعَ سِـنِينَ وَأَشْهُرًا . وَفِي أَيّامِهِ مَاتَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ وَالْحَجّاجُ بْنُ يُوسُفَ . ثُمّ وَلِيَ بَعْدَهُ أَخُوهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْـدِ الْمَلِـكِ . فَبَقِـيَ سَنَتَيْنِ وَأَشْهُرًا .

وَاسْتَخْلَفَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ . فَبَايَعَهُ النّاسُ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ فِي صَفَرٍ . فَسَارَ رَحِمَـهُ اللّـهُ سِـيرَةَ الْخُلَفَـاءِ الرّاشِـدِينَ . وَأَحْيَـا السّنَنَ وَأَمَاتَ الْبِدَعَ . وَبَقِـيَ فِـي الْخِلَافَـةِ رَشِـيدًا مَهْـدِيّا سَـنَتَيْنِ وَأَشْهُرًا ، وَمَاتَ فِي رَجَبٍ سَنَةَ إحْـدَى وَمِائَـةٍ . وَمَـاتَ فِـي أَيّـامِهِ ابْنُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ . وَكَانَ يُشْبِهُ أَبَاهُ رَحِمَهُمَا اللّهُ .

ثُمّ تَوَلّى بَعْدَهُ يَزِيدُ بْـنُ عَبْـدِ الْمَلِـكِ . فَبَقِـيَ أَرْبَـعَ سِـنِينَ وَشَـهْرًا وَاحِدًا . وَتُوُفّيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَمِائَةٍ . ثُمّ تَوَلّى بَعْدَهُ أَخُوهُ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ . فَبَقِيَ تِسْعَةَ عَشَرَ سَنَةً وَأَشْهُرًا .

وَفِي خِلَافَتِهِ ظَهَرَ الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ أَوّلُ مَـنْ قَـالَ بِخَلْـقِ الْقُـرْآنِ . وَأَظْهَرَهُ فِي دِمَشْقَ . فَطَلَبَهُ بَنُو أُمَيّةَ . فَهَرَبَ مِنْهُمْ إلَى الْكُوفَةِ .

فَلَمّا أَظْهَرَ قَوْلَهُ هُنَاكَ أَخَذَهُ خَالِدُ بْـنُ عَبْـدِ اللّـهِ الْقَسْـرِيّ . قَتَلَـهُ يَوْمَ عِيدِ الْأَضْحَى مِنْ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَـةٍ . خَطَـبَ النّـاسَ فَقَالَ أَيّهَا النّاسُ ضَحّوا . تَقَبّلَ اللّهُ ضَحَايَاكُمْ . فَإِنّي مُضَحّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ . إنّهُ زَعَمَ أَنّ اللّهَ لَـمْ يَتّخِـذْ إبْرَاهِيـمَ خَلِيلًا . وَلَـمْ يُكَلّـمْ مُوسَى تَكْلِيمًا . تَعَالَى اللّهُ عَمّا قَالَ الْجَعْدُ عُلُوّا كَبِيرًا

ثُمّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ فِي أَصْلِ الْمِنْبَرِ . وَتُـوُفّيَ هِشَـامُ بْـنُ عَبْـدِ الْمَلِـكِ سَنَةَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ . <223> ثُمّ تَوَلّى بَعْـدَهُ ابْـنُ أَخِيـهِ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . فَبَقِـيَ سَـنَةً أَوْ أَقَـلّ أَوْ أَكْثَـرَ . ثُـمّ قُتِلَ سَنَةَ سِتّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ . ثُمّ تَوَلّى بَعْدَهُ ابْنُ عَمّهِ يَزِيدُ بْـنُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ . فَبَقِيَ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَتُوُفّيَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ - أَوْ فِي أَوّلِ ذِي الْحِجّةِ - مِنْ سَنَةِ سِتّ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ . وَبَعْـدَهُ انْقَضَتْ الْخِلَافَةُ النّامّةُ . وَلَمْ تَجْتَمِعْ الْأُمّةُ بَعْدَهُ عَلَـى إمَـامٍ وَاحِـدٍ إلَى الْيَوْمِ .

وَهُوَ آخِرُ الْخُلَفَاءِ الِاثْنَيْ عَشَرَ الّذِينَ ذَكَرَهُمْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلّمَ فِـي الْحَـدِيثِ الصّـحِيحِ لَا يَـزَالُ أَمْـرُ هَـذِهِ الْأُمّـةِ عَزِيـزًا ، يُنْصَرُونَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً كُلّهُمْ مِنْ قُرَيْـشٍ وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ إنّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْقُصُ حَتّـى يَمْضِـيَ فِيهِـمْ اثْنَـا عَشَرَ خَلِيفَةً وَعِنْدَ الْبَزّارِ لَا يَزَالُ أَمْرُ أُمّتِي قَائِمًا ، حَتّى يَمْضِيَ اثْنَا عَشْرَةَ خَلِيفَةً وَفِي لَفْظٍ لَا يَزَالُ الْإِسْـلَامُ عَزِيـزًا مَنِيعًـا إلَـى اثْنَـيْ عَشَرَ خَلِيفَةً وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ قَالُوا : ثُمّ يَكُونُ مَاذَا ؟ قَالَ ثُمّ يَكُـونُ الْهَرْجُ .

فَلَمّا مَاتَ يَزِيدُ طَلَبَ الْأَمْرَ أَخُـوهُ إبْرَاهِيـمُ . فَبَـايَعَهُ أَخُـوهُ . وَلَـمْ يَنْتَظِمْ لَهُ أَمْرٌ . فَطَلَبَ الْأَمْرَ مَرْوَانُ بْنُ مُحَمّدِ بْنِ مَـرْوَانَ - الّـذِي يُقَالُ لَهُ مَرْوَانُ الْحِمَارُ - فَبَايَعَهُ بَعْضُ النّاسِ فِي صَفَرٍ سَـنَةَ سَـبْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ . وَلَمْ يَـزَلْ فِـي حُـرُوبٍ وَتَخْبِيـطٍ إلَـى آخِـرِ سَـنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَـةٍ - يَـوْمَ الْأَحَـدِ لِثَلَاثٍ بَقِيـنَ مِـنْ ذِي الْحِجّـةِ - فَقُتِلَ فِي كَنِيسَةِ أَبِي صَيْرٍ . وَكَـانَتْ مُـدّةُ خِلَافَتِـهِ خَمْـسَ سِـنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيّامٍ . وَهُوَ آخِرُ مَنْ وَلِيَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَنِـي أُمَيّةَ .

دَوْلَةُ بَنِي الْعَبّاسِ

ثُمّ قَامَتْ دَوْلَةُ بَنِي الْعَبّـاسِ . وَفِـي هَـذِهِ السّـنِينَ وَقَعَـتْ الْفِتْنَـةُ الثّالِثَةُ الّتِي لَمْ يُرْقَعْ الْخَرْقُ بَعْدَهَا إلَى الْيَوْمِ . فَأَوّلُ مَنْ قَامَ مِـنْ

بَنِي الْعَبّاسِ السّفّاحُ وَاسْمُهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ مُحَمّدِ بْنِ عَلِيّ بْـنِ عَبْـدِ اللّهِ بْنِ عَبّاسٍ . فَبَقِيَ نَحْوَ سِتّ سِنِينَ ثُمّ مَاتَ .
وَعَهِدَ إلَى أَخِيهِ الْمَعْرُوفِ بِالْمَنْصُورِ. فَبَقِيَ فِيهَا اثْنَتَيْنِ وَعِشْـرِينَ سَنَةً ثُـمّ تُـوُفّيَ . وَعَهِـدَ إلَـى ابْنِـهِ الْمَعْـرُوفِ <224> بِالْمَهْـدِيّ فَبَقِـيَ نَحْـوَ عَشْـرِ سِـنِينَ ثُـمّ مَـاتَ . وَقَـامَ بَعْـدَهُ ابْنُـهُ مُوسَـى ، الْمُسَمّى بِالْهَادِي . فَبَقِيَ سَنَةً وَشَهْرًا ، ثُمّ تُوُفّيَ .
وَقَـامَ بَعْـدَهُ أَخُـوهُ هَـارُونُ الْمُسَـمّى بِالرّشِـيدِ فَبَقِـيَ أَكْثَـرَ مِـنْ عِشْرِينَ سَنَةً ثُمّ مَاتَ . وَقَامَ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمُسَمّى بِـالْأَمِينِ - وَأُمّـهُ زُبَيْدَةُ بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ الْمَنْصُورِ - وَبَقِيَ نَحْوَ ثَلَاثِ سِنِينَ . ثُـمّ قَتَلَـهُ عَسْكَرُ أَخِيهِ الْمَأْمُونِ .
وَقَامَ بَعْدَهُ الْمَأْمُونُ . وَهُوَ الّذِي جَـرّ عَلَـى الْمُسْـلِمِينَ كَثِيـرًا مِـنْ الْفِتَنِ فِي الْعَقَائِدِ . فَتَرْجَمَ كُتُبَ الْيُونَـانِ فِـي الْفَلْسَـفَةِ . وَأَظْهَـرَ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَأَلْزَمَ النّاسَ الْقَوْلَ بِهِ وَامْتَحَنَ الْإِمَامَ أَحْمَـدَ وَغَيْرَهُ مِنْ الْأَئِمّةِ رَحِمَهُمْ اللّهُ فِي ذَلِكَ .
بَدْءُ تَأْلِيفِ الْكُتُبِ
وَفِي أَيّامِ عُمَرَ بْـنِ عَبْـدِ الْعَزِيـزِ : كَتَـبَ إلَـى أَبِـي بَكْـرِ بْـنِ حَـزْمٍ بِالْمَدِينَةِ أُنْظُرْ مَا كَانَ مِـنْ حَـدِيثِ رَسُـولِ اللّـهِ صَـلّى اللّـهُ عَلَيْـهِ وَسَلّمَ فَاجْمَعْهُ فَإِنّي خِفْت دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ .
وَفِي أَيّـامِ الْمَنْصُـورِ شَـرَعَ الْعُلَمَـاءُ فِـي تَصْـنِيفِ كُتُـبِ التّفْسِـيرِ وَالْحَدِيثِ . فَصَـنّفَ ابْـنُ جُرَيْـجٍ بِمَكّـةَ وَمَالِـكُ بْـنُ أَنَـسٍ بِالْمَدِينَـةِ وَعُمَرُ الْأَوْزَاعِـيّ بِالشّـامِ وَحَمّـادُ بْـنُ سَـلَمَةَ بِالْبَصْـرَةِ ، وَسُـفْيَانُ الثّوْرِيّ بِالْكُوفَةِ . وَمَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنّى بِـالْيَمَنِ . وَصَـنّفَ مُحَمّـدُ بْـنُ إسْحَاقَ الْمَغَازِيَ . وَصَنّفَ أَبُو حَنِيفَـةَ النّعْمَـانُ بْـنُ ثَـابِتٍ الـرّأْيَ .
وَقَبْلَ هَذَا : كَانَ الْأَئِمّةُ يَتَكَلّمُونَ مِنْ حِفْظِهِمْ وَيَرَوْنَ الْعِلْمَ صُـحُفًا غَيْرَ مُرَتّبَةٍ . وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .
وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ . وَصَلّى اللّهُ وَسَلّمَ وَبَـارَكَ عَلَـى خَـاتَمِ النّبِيّينَ وَسَيّدِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ نَسْخِ هَذَا الْكِتَابِ الشّرِيفِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ لِإِحْدَى عَشْـرَةَ خَلَـتْ مِـنْ شَـهْرِ رَجَـبٍ سَـنَةَ 1309 عَلَـى يَـدِ الْفَقِيـرِ إلَـى رَبّـهِ سُـلَيْمَانَ بْـنِ سَـحْمَانَ . غَفَـرَ <225> اللّـهُ لَـهُ وَلِوَالِـدَيْهِ وَلِلْمُسْـلِمِينَ وَالْمُسْـلِمَاتِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ . اللّهُـمّ صَـلّ عَلَى مُحَمّـدٍ وَآلِـهِ وَصَـحْبِهِ وَسَـلّمْ . وَكَـانَ الْفَـرَاغُ مِـنْ تَصْـحِيحِهِ

وَمُرَاجَعَتِـهِ عَلَـى الْأُصُـولِ جَهْـدَ الطّاقَـةِ . وَتَمَـامُ طَبْعِـهِ بِمَطْبَعَـةِ السّنّةِ الْمُحَمّدِيّةِ فِي يَوْمِ السّبْتِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَوّالٍ سَنَةَ 1375 مِنْ هِجْرَةِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَـامِ الْمُهْتَـدِينَ مُحَمّـدٍ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَجْمَعِينَ . وَأَسْأَلُ اللّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْ آلِ هَذَا الرّسُولِ وَحِزْبِهِ الْمُفْلِحِينَ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَكَتَبَـهُ فَقِيـرُ عَفْـوِ اللّهِ وَرَحْمَتِهِ